

مصطفى لطفي المنفلوطي

مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة
(المجلد الأول)

مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة (المجلد الأول)

مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة (المجلد الأول)

تأليف
مصطفى لطفي المنفلوطي



مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة (المجلد الأول)

مصطفى لطفي المنفلوطي

رقم إيداع

تدمك:

كلمات عربية للترجمة والنشر

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١ + فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +

البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.kalimat.org>

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية
للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Kalimat Arabia.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

١١	القسم الأول
١٣	مقدمه
٣٧	١- الغد
٤١	٢- الكأس الأولى
٤٥	٣- الدفين الصغير
٤٩	٤- مناجاة القمر
٥١	٥- أين الفضيلة
٥٥	٦- الغني والفقير
٥٩	٧- مدينة السعادة
٦٥	٨- أيها المحزون
٦٧	٩- إلى الدير
٧١	١٠- الرحمة
٧٥	١١- رسالة الغفران
٨٥	١٢- عبرة الدهر
٩١	١٣- أفسدك قومك
٩٣	١٤- الصدق والكذب
١٠١	١٥- النظامون
١٠٣	١٦- الحرية
١٠٧	١٧- عبرة الهجرة
١١١	١٨- الإنصاف

١١٣	١٩- المدنية الغربية
١١٧	٢٠- يوم الحساب
١٢٣	٢١- الشعرة البيضاء
١٢٧	٢٢- الصيد
١٣١	٢٣- الانتحار
١٣٣	٢٤- الجمال
١٣٥	٢٥- الكذب
١٣٧	٢٦- غرفة الأحزان
١٤٣	٢٧- الشرف
١٤٧	٢٨- الحب والزواج
١٥١	٢٩- الإسلام والمسيحية
١٥٧	٣٠- أهناء أم عزاء
١٥٩	٣١- الزوجتان
١٦٥	٣٢- في سبيل الإحسان
١٧١	٣٣- أدب المناظرة
١٧٥	٣٤- الإحسان في الزواج
١٧٩	٣٥- لا همجية في الإسلام
١٨٣	٣٦- البخيل
١٨٧	٣٧- البعوض والإنسان
١٩١	٣٨- الجزع
١٩٥	٣٩- النبوغ
١٩٩	٤٠- البائسات
٢٠٣	القسم الثاني
٢٠٥	٤١- البيان
٢١١	٤٢- السريرة
٢١٣	٤٣- زيد وعمرو
٢١٧	٤٤- أبو الشمقمق
٢٢١	٤٥- دورة الفلك

المحتويات

٢٢٣	٤٦- تأبين فولتير
٢٣٣	٤٧- العلماء والجهلاء
٢٣٥	٤٨- الرجل والمرأة
٢٣٩	٤٩- الدعوة
٢٤٣	٥٠- الحياة الذاتية
٢٤٧	٥١- العبرات
٢٥١	٥٢- دمة على الإسلام
٢٥٥	٥٣- السياسة
٢٥٧	٥٤- خداع العناوين
٢٦١	٥٥- الإغراق
٢٦٣	٥٦- اللقيطة
٢٦٩	٥٧- الصندوق
٢٧٣	٥٨- الغناء العربي
٢٨١	٥٩- التوبة
٢٨٧	٦٠- الحسد
٢٨٩	٦١- الوفاء
٢٩٣	٦٢- خبايا الزوايا
٢٩٥	٦٣- القمار
٢٩٩	٦٤- الأوصياء
٣٠٥	٦٥- العام الجديد
٣٠٩	٦٦- سحر البيان
٣١٧	٦٧- الكبرياء
٣٢١	٦٨- الانتحار
٣٢٥	٦٩- الحياة الشعرية
٣٢٧	٧٠- رباعيات الخيام
٣٣١	٧١- إلى تولستوي
٣٣٥	٧٢- وارضمتاه
٣٣٩	٧٣- خطبة الحرب

٣٤٣	٧٤- الإنسانية العامة
٣٤٧	٧٥- أدوار الشعر العربي
٣٤٩	٧٦- حوانيت الأعراض
٣٥٣	٧٧- الرثاء
٣٥٩	٧٨- الشعر
٣٦٧	٧٩- الشهيدتان
٣٧١	٨٠- الدعاء
٣٧٥	٨١- الكوخ والقصر
٣٧٧	٨٢- على سرير الموت
٣٨٣	٨٣- غدر المرأة
٣٨٧	٨٤- الضاد
٣٨٩	٨٥- سياحة في كتاب
٣٩٥	٨٦- دمعة على الأدب
٣٩٩	القسم الثالث
٤٠١	٨٧- البيان
٤٠٧	٨٨- الناشئ الصغير
٤١٥	٨٩- قتيلة الجوع
٤١٧	٩٠- الأدب الكاذب
٤٢١	٩١- الملاعب الهزلية
٤٢٧	٩٢- الشيخ علي يوسف
٤٣١	٩٣- العظمة
٤٣٥	٩٤- الانتقاد
٤٣٩	٩٥- يوم العيد
٤٤٣	٩٦- من الشيوخ إلى الشبان
٤٤٧	٩٧- الزهرة الذابلة
٤٥١	٩٨- الوجهاء
٤٥٧	٩٩- جرجي زيدان
٤٦٣	١٠٠- احترام المرأة

المحتويات

٤٦٧	١٠١- الخطبة الصامتة
٤٦٩	١٠٢- اللفظ والمعنى
٤٧٣	١٠٣- الآداب العامة
٤٧٧	١٠٤- المؤتمر الإسلامي
٤٨٣	١٠٥- الضمير
٤٨٥	١٠٦- مدرسة الغرام
٤٨٩	١٠٧- أمس واليوم
٤٩٧	١٠٨- المرقص
٥٠١	١٠٩- الماضي والحاضر
٥٠٥	١١٠- الشيخوخة المتمردة
٥٠٩	١١١- عجائز بوشنج
٥١٣	١١٢- الأجواء
٥١٩	١١٣- الرسائل
٥٢٥	١١٤- الكلمات
٥٣٣	١١٥- الفتاة والبيت
٥٣٥	١١٦- البعث
٥٦١	١١٧- الأربعون
٥٦٥	القسم الرابع
٥٦٧	إهداء
٥٦٩	١١٨- اليتيم
٥٧٩	١١٩- الحجاب
٥٩١	١٢٠- الهاوية
٦٠١	١٢١- العقاب

القسم الأول

النظرات

مقدمه

بقلم مصطفى لطفي المنفلوطي

يسألني كثير من الناس كما يسألون غيري من الكتّاب: كيف أكتب رسائلتي، كأنما يريدون أن يعرفوا الطرق التي أسلكها إليها فيسلوكها معي، وخير لهم ألا يفعلوا، فإنني لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب أن يكونوا مقيدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكتّاب غيري، وليعلموا — إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر — أنني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيه، إلا لأنني استطعت أن أنلفت من قيود التمثل والاحتذاء، وما نفعتني في ذلك شيء ما نفعتني ضعف ذاكرتي والتواؤها عليّ وعجزها عن أن تمسك إلا قليلاً من المقروءات التي كانت تمر بي، فقد كنت أقرأ من منشور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ، ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورنه الطرب به، وما أذكر أنني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي، أو أستعين به على تهذيب بياني، أو تقويم لساني، أو تكثير مادة علمي باللغة والأدب، بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأة أحب الجمال وأفتتن به كلما رأيته في صورة الإنسان، أو مطلع البدر أو مغرب الشمس، أو هجعة الليل، أو يقظة الفجر، أو قمم الجبال، أو سفوح التلال، أو شواطئ الأنهار، أو أمواج البحار، أو نغمة الغناء، أو رنة الحداء، أو مجتمع الأطيّار، أو منتثر الأزهار، أو رقة الحس، أو عذوبة النفس، أو بيت الشعر، أو قطعة النثر، فكنت أمر بروض البيان مرّاً، فإذا لاحت لي زهرة جميلة بين أزهاره، تتألق في غصن زاهر بين

أغصانه، وقفت أمامها وقفة المعجب بها، الحاني عليها، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها، من حيث لا أريد اقتطافها أو إزعاجها من مكانها، ثم أتركها حيث هي، وقد علقت بنفسي صورتها إلى أخرى غيرها، وهكذا حتى أخرج من ذلك الروض بنفس تطير سرورًا به، وتسيل وجدًا عليه، وما هو إلا أن درت ببعض تلك الرياض بعض دورات، ووقفت ببعض أزهارها بضع وقفات، حتى شعرت أنني قد بدلت من نفسي نفسًا غيرها، وأن بين جنبي حالًا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل، فأصبحت أرى الأشياء بعين غير التي كنت أراها بها، وأرى فيها من المعاني الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسنا، والنفس بهجة، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم، وأرى الجمال فرأيت لبه وجوهه، وأرى الخير فرأيت حسنه، وأرى الشر فرأيت قبحه، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها، وأرى البأساء فرأيت مدامعها، وأرى العين فرأيت السحر الكامن في محاجرها، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترققة بين ثناياها، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الراقصة في جو السماء، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم أن يسيل عن جوانبه سيلاً، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد^١ الظلام ديبب المشيب في تجاليد الشباب، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية على الكون من فروج قميص الليل، وأرى الليل فرأيت أنه وهو يهوي بأجنحته السوداء إلى الأرض هوي الكرى إلى الأجفان، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها، وحفيف الأوراق ففهمت نغماتها، وتغريد الأطياف فعرفت لغاتها؛ فأحببت الأدب حباً جماً ما بين جانحتي؛ فلم تكن ساعة من الساعات أحب إليّ ولا أثر عندي من ساعة أخلو فيها بنفسي وأمسك علي بابي ثم أسلم نفسي إلى كتابي فيخيل إليّ أنني قد انتقلت من هذا العالم الذي أنا فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر، فأشهد بعيني تلك العصور الجميلة، عصور العربية الأولى، وأرى العرب في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها، وأطنايبها، وأعوادها، وإبلها وشائها، وشيخها وقيصومها، وأرى مساجلاتها ومنافراتها، وحبها وغرامها، وعفتها ووفاءها، وصبرها وبلاءها، وحذاءها وغناءها، وأسواق شعرائها، ومواقف خطبائها، وفقرها وإقلالها، وشحوب وجوهها، وسمرة ألوانها، وضوي أجسامها، وتردها في بيداها بين حمارة القيظ^٢ وصبارة البرد^٣، وتنقلها من صحراء إلى ريف، ومن

^١ التجاليد: الجسم.

^٢ شدة الحر.

^٣ شدة البرد.

مشتى إلى مصيف، ومن نجد إلى وهد، ومن شرف إلى غور، وانتجاعها مواقع الغيث، ومنابت العشب، وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وقعاب اللبن وأصواع الشعير، فإذا جد الجد أكلت القدء واشتوت الجلد، وتبلغت بالضرب واليربوع، وعراقيب الآبال، وأظلاف الأبقار، واكتفت من اللباس بأكسية الكرابيس وأردية الأشعار، وقمص الأوبار، فإذا أعوزها ذلك لبست الظل، وافترشت الرمل، غير ناقمة ولا ساخطة، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رغد عيشها، ولين طعامها واعشوشاب جانبها، وعذوبة مواردها ومصادرها، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأعلاق الروم، وامتلأ قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان، واللؤلؤ المنثور من الولدان، وأرى مجالس غنائها، ومجامع أنسها، ومسارح لهوها، ومجالات سبقها، وملاعب جيادها، ومذاهب طرائدها، ومواقف حجها، وازدحام شعرائها على أبواب أمرائها، وجوائز أمرائها في أيدي شعرائها، وانطلاق أسنتها بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والأقداح والدنان والموائد والصحف، وألوان الطعام حلوه وحامضه، وأصناف الشراب حلاله وحرامه، والطيور المحلقة في الأجواء، والسفن الزاهية في الدأماء،^٤ والرياض الخضراء والغابات الشجرية، والقصور وتمائيلها، والبحيرات وأسمائها، والأنهار وشواطئها، والأزهار ونفحاتها، والغيوث وقطراتها، ودبيب الحب في القلب، والغناء في السمع، والصهباء في الأعضاء، وخلجة الشك، ولمحة الفكر، وبارقة المنى.

ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقاً عذباً، أو أدباً غضاً، أو حباً وفيّاً، أو مجوناً مستظرفاً، أو حوراً مستملحاً، إلا وجدته؛ ولا أن أسمع ما تهتف به العاتق في خدرها، وما يحدو به الحادي في أعقاب إبله، وما يتغنى به العاشق، وما يهذي به الشارب، وما يترنم به الشادي، وما يساجل به الماتح^٥ إلا سمعته. ولا أن أعلم ما يهجس في نفس المحب إذا اشتعل عليه ليله، والحائر إذا ضل به سبيله، والثاكل إذا فجعت بواحدتها، والموتور إذا حيل بينه وبين واتره، والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء، والغريب في دار غربته، والسجين بين جدران سجنه، والخائف إذا وقف بين الرضا والغضب، والمقدم

^٤ السير يقدر من الجلد.

^٥ الدأماء: البحر.

^٦ الماتح: المستقي على البئر.

للقتل إذا وقف بين الرجاء واليأس، والبنائس إذا أعوزه القوت، واليائس إذا أعوزه الموت، والعزیز إذا ذل، والمشرف إذا هوى، والشريف إذا عبث بشرفه عابث؛ والغيور إذا لمس عرضه لامس، إلا علمته، ولا أن أعرف خلق الدهر في تنقله بالناس ما بين رفع وخفض، وجدة وفقر، ونعيم وبؤس، وإقبال وإدبار، ولا أثر يده السوداء في خراب القصور، وخلاء الدور، وإقفار المغاني، وتصويح الرياض، إلا عرفته؛ فكنت أجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندي كل ما ينعم به الناعمون من رغد في العيش ورخاء حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر، وأنه لما علم أنه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال أو جاه أعيش في ظله، وأنعم بثمرته زخرف لي هذا الجمال الخيالي البريء من الريبة والإثم، وزوره^٧ لي تزويرًا بديعًا ووضع لي فيه من الملاذ والمناعم ما لم يضع لغيري. رحمة بي وإرعاء عليَّ أن أهلك، أو يهلك لبي بين اليأس القاتل، والرجاء الكاذب، وهكذا لا أزال محلقة في هذا الجو البديع من الخيال أضحك مرة وأكتتب أخرى، وأتغنى حينًا وأبكي أحيانًا حتى يرميني الباب ببعض الطارقين أو يستعيد إليَّ نفسي مستعيد.

ولم يكن حولي لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلي على الأدب أحد؛ لأنني كنت أعيش في مفتتح عهدي به — ولم أكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة — بين أشياخ أزهريين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه، ولا يتعلقون منه بما أتعلق فكانوا يرون أن التوفر عليه أو الإلمام به عمل من أعمال البطالة والعبث، وفتنة من فتن الشيطان، فكان الذين يتولون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضنًا بي — يزعمون — أن أنفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها! فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابي إلا في الساعة التي آمن فيها على نفسي أن يلماوا بأمرى — وقليلًا ما كنت أجدها — وكثيرًا ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون، فإذا عثروا في خزانتي أو تحت وسادتي أو بين لفائف ثوبي على ديوان شعر أو كتاب أدب خيل إليهم أنهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق، أو الزجاجة في جيب الغلام، أو العشيق في خدر الفتاة، فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلي؛ وهم لا يعلمون — أحسن الله إليهم — أنهم وجميع من

^٧ زوره حسنه وقومه.

يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون، ويد من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري؛ فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دونوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته، ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين، ولولاه لما استطاع علماءهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً، كما يعلمون أن الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم، وأن الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها، والدليل الذي يتسمته وترسم مواقع أقدامه في فهم أصول الدين ليكون مجتهداً إن استطاع أو واقفاً على منازع المجتهدين، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً، ومعلماً نافعاً، ولو أن هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه — وهم اليوم والحمد لله قليل، بل هم في طريق الفناء والانقراض — قد تعلقوا منه بما كان يتعلق أسلافهم وأئمتهم من قبل لنالوا به في دينهم خيراً، ولاستدفعوا به عن أنفسهم في أمره شراً عظيماً، فما زال الدين واضح المنهج قائم الحجة، وما زالت آيات الكتاب ومتون الأحاديث سائغة هنيئة، لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك ولا تطير بجنباتها الأوهام والظنون، حتى جهل علماء الدين والأدب، ففسدت أدواقهم، وضلت أفهامهم، فكثرت بينهم التأويل والتخريج، ووهمت تلك العقدة الوثيقة بين الألفاظ والمعاني، واسترخت عراها من أيديهم، فأصبح كل لفظ في نظرهم محتتملاً لكل معنى، حتى ما يأبى أحدهم على الآخر شيئاً، وتهافت ذلك الحاجز الحصين الذي كان قائماً بين الحقيقة والمجاز، والحقيقة والخيال، فبغى بعض الكلم على بعض، وعاث كل منها في تربة صاحبه إقبالا وإدباراً، وجيئة وزهوياً وصعوداً ونزولاً، فاستطاع الواغلون في الدين والناصبون له أن يدخلوا عليه من الأحاديث المنحولة الغربية في أساليبها ومناهجها عن مناهج العرب وأساليبهم ما لا يضبطه الحساب كثرة، فهلكت الأمة بين هذا وذاك هلكت لا تزال تتجرع كأسه المريرة حتى اليوم.

فالحمد لله أولاً، وللأدب ثانياً، على نجاتي منهم فيما كانوا يرومون بي، ويحاولون مني، بل أحمد الله إليهم كذلك فقد كفيت بسوء رأيهم في الأدب ونقمتهم عليه شر من يدخل بيني وبين نفسي في المفاضلة بين شاعر وشاعر، وكاتب وكاتب، أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب، وديباجة وأخرى، فلم يكن لي عون على ذلك كله غير شعور نفسي وخفوق قلبي

خفقة السرور أو الألم إن مر بي ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته، من حيث لا أعرف سبيل ذلك ولا مآتاه، فكان شأني في ذلك شأن السامع الطروب الذي تطربه نغمة وتزعجه أخرى، فيطير بالأولى فرحاً وبالثانية جزعاً، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم، فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم، ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس، فإذا هو في كبد الرمية ولبها، فإن رأيت أن المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعازلة، والأساليب المتلوية، علمت أن القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضي به، وإما جاهل لم يستو له المعنى الذي يريده كل الاستواء ولم يدر في جوانب نفسه حتى يستقر في قراره منها، فهو يتوهمه توهمًا ويجمجه جمجمة ويهذي به هذيانًا فلا سبيل له إلى الإفصاح عنه، وإما داهية محتال قد علم أن المعنى الذي يجول في نفسه ويتردد في خاطره تافه مردول، وكان لا بد له أن ينفقه^٨ على الناس ويزخرفه لهم ويزوره^٩ في أعينهم، فهو يكسوه أسلوبًا غامضًا ليكدهم ويجهدهم في سبيله حتى إذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب، أو خاطر بديع، ووجدوا فيه عند الوصول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الضامئ في ضحضاح^{١٠} الماء الكدر إذا أبعد النجعة في طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الأفهام من الناس، وهم سواد الأمة ودهماؤها، لا يرضون عن معنى من المعاني ولا يستسنون^{١١} قيمته، ولا يقيمون له وزنًا إلا إذا جاءهم في جلدة من الألفاظ المتكرسة المتقبضة، وأنهم إذا ورد عليهم أثمن المعاني وأغلاها، وأكرمها جواهرًا وأطيبها عناصرًا في ثوب من الأساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم إلى أنه ما جاءهم على هذه الصورة إلا لأنه ساقط مبتذل، أو سوقي مطروق فاحتقروه وازدروه، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته أن لا بد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم، والنزول على حكمهم، فتجمل لهم باللكنة والعي! وتملقهم بالغموض والإبهام. وإما أعجمي يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها غيرهما فينطق بشيء هو أشبه الأشياء بما يترجمه بعض المترجمين من

^٨ ينفقه — بالتشديد — يجعله نافقًا: أي رائجًا.

^٩ زور الشيء: حسنه وزخرفه.

^{١٠} الضحضاح: الماء القليل في قعر البئر.

^{١١} استسنى قيمته: رآها سنية رفيعة.

اللغات الأعجمية ترجمة حرفية، فإن نعتت عليه غرابة أسلوبه واستعجابه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه أن المعاني العصرية والخيالات الحديثة لا يستطيع إلباسها الأكسية البدوية، والأردية العربية، كأنما هو يظن أن المعاني والخواطر خطط وأقسام، وأنصبه وسهام، هذا للشرق وهذا للغرب، وهذا للعرب وهذا للعجم! أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي أن الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله. وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الأعجمية التي يعرفها لاصقة بأثوابها الأصلية، فلما أراد أن يفضي بها إلى العرب، وكان غير مضطلع بلغاتهم، ولا متمكن من أساليبهم عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هي إلا ما كان من تبديل حرف بحرف أو لفظ بآخر من حيث يظن أنه يهتف بشيء قام في نفسه أو يفضي بخاطر من خواطر قلبه، وإما شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبت فطرته أن يمنح الناس منحة سائغة هنيئة دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويق والمدافعة والمحاولة. والشح خلق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعاً ولا يظفر منه متعصر بيلة. فيضن بعلمه، كما يضن بماله، ويقبض لسانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق، ويصرد^{١٢} عطاءه تصريحاً ليستديم حاجة الناس إليه كما يجيع كلبه ليتبعه، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على العجزة والجاهلين والمحتالين والكاذبين والأشحاء والباخلين.

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب — سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل — أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضاً، أو يضعه في أيديهم وضعاً، فإن ظننت أن القائل كاذب فيما يقول، أو أنه يرسم صورة غير الصورة التي تتجلج في نفسه، أو أنه لغوي يفر من ضعف أسلوبه وفساد نظمته إلى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها، أو ناقل يتخذ الكتابة حقيية يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشواً، أو مترجم ينقل عن اللغة الأعجمية التي يعرفها آراء علمائها وكأنما هو صاحبها، أو شعرت أنه قد قدر في نفسه، وهو يكتب كلمته أن يكون بليغاً فيها أو مبدعاً ليعجب الناس منها، وكان كل حظه عندي أن أعرف

^{١٢} صرد العطاء: أعطاه قليلاً قليلاً.

له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم إن أحسن فيما يقول، ولكنني لا أعدّه كاتبًا ولا شاعرًا، لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشقين، وأفضل الرثاء رثاء الثاكين، وأنبّل المدح مدح الشاكين، وأشرف العظات عظات المخلصين، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين، وأحسن الهجاء هجاء الصادقين، وأبرع الوصف وصف الرائيين المشاهدين.

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شعر الهموم والأحزان، ومواقف البؤس والشقاء، وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة، فقد كان يعجبني كثيرًا ويبيكني أحر بكاء وأشجاء شقاء المهلهل في الطلب بثأر أخيه، وشقاء أمرئ القيس في الطلب بثأر أبيه، وبكاء جليّة أخت جسّاس على زوجها وأخيها، وبكاء عدي بن زيد على نفسه في سجن النعمان، وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة، وبكاء أبي عبادة على الأكاسرة في خرائب المدائن، وبكاء الرضي على بني هاشم، وبكاء العبلي على بني أمية، وبكاء الرقاشي على بني برمك، وذو أبي فراس في أسره، والمعتمد بن عباد في سجنه، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة، وعلى ولادة أخرى، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد، والبحتري على المتوكل، وابن اللبانة على ابن عباد، والتميمي على يزيد بن مزيد، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة، وجنون الجنون بليلاه، وجلوسه في جنبات الحي منفردًا عاريًا مذهوب اللب مشترك العقل يهذي ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب، ثم هيامه بعد ذلك مع الوحش في البرية لا يأكل إلا ما ينبت فيها من بقل، ولا يشرب إلا مع الطباء إذا وردت مناهلها، وراحته إلى الطريق يصدع مع مصعديه، وينحدر مع منحدره، حتى هلك في أرض مقشعرة مغبرة بين الصخور والأحجار، وشقاء قيس بلبناه بعد أن طلقها برًا بوالده، ونزولًا على حكمه، وذهاب الحب به ذلك كل مذهب، حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب، وموقف جميل بن معمر بين يدي أبيه، وهو يعتب عليه أشد العتب وأمره في استهتاره بحب بثينة ومخاطرته بنفسه في الإلمام بحبها فيقول: يا أبت! هل رأيت قبلي أحدًا قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلي نفسه أو استطاع أن يتقي ما قُضي به عليه، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت، ولكن لا سبيل إلى ذلك، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي، وأنا أمتنع عن طروق هذا الحي والإلمام به ولو متُّ كمدًا، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه. وبكاء النبي ﷺ عندما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه أنه كان يئد بناته في الجاهلية، وأن

واحدة منهن ولدتها أمها وهو في سفر، فدفعتها إلى أحوالها ضناً بها على الموت وإشفافاً عليها، فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له إنها ولدت مولوداً ميتاً، ثم مضت على ذلك سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت أمها ذات يوم فرأها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه، ولم تكتمه شيئاً منه طمعاً في أن يضمها إليه ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها أياماً، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فأخذت تقول: يا أبت ما تريد أن تصنع بي، وما هذا الذي تفعل؟ وهو يهيل عليها التراب، ولا يلتفت إليها، وهي تنن وتقول: أتاركي أنت يا أبت وحدي في هذا المكان ومنصرف عني؟ حتى واراها وانقطع أنينها، وبكاء الأعرابية التي مات منها ولداها في دار غربة دفنفته، ثم وقفت على قبره تودعه. وتقول: والله يا بني لقد غذوتك رضيعاً؛ وفقدتك سريعاً، وكأن لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها، فأصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاتاً سحيقاً وصعيداً جرراً، اللهم إنك قد وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيراً بل سلبتني وشيكاً ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر، فصدقت وعدك، ورضيت قضاءك، فارحهم اللهم غربته، وأنس وحشته، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوءات؛ واثكل الوالدات! ما أمض حرارة قلوبهن، وأقلق مضاجعهن؛ وأطول ليلهن، وأقل أنسهن، وأشد وحشتهن، وأبعدهن من السرور، وأقربهن من الأحزان، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى أصبحت زوجاً لغيره وأصبح بعدها هائماً مختبلاً يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الأرض ومخارمها، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها، وهو يظن أن زوجها لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الأضياف الغرباء، فلما علم أنه يعرف حقيقته، وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها: يا عفراء، أنت حظي من الدنيا، وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك، وقد أجمل هذا الرجل عشتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحيت منه، وإني راحل من هذا المكان، وإني عالم أنني راحل إلى منيتي، وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشى وخفقان، فكان كلما أغمي عليه ألقي على وجهه خمراً لعفراء كانت زودته إياه فيفيق، حتى بلغ حيه وأمسك عاماً كاملاً لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنه حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً، فمر به بعض الناس فرآه مطرحاً بجانب خبائه، فسأله عما به، فوضع يده على صدره، وقال:

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

ثم شقق شهقة كانت نفسه فيها، فلما بلغ عفراء خبره قامت إلى زوجها وقالت: لقد كان من خبر ابن عمي ما كان، وقد مات فيَّ وبسببي، ولا بد أن أندبه وأقيم مأتمًا عليه، فقال: افعلي، فما زالت تندبه ثلاثًا حتى ماتت في اليوم الرابع. وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم أن أهله قد بنوا له ديرًا بنواحي الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله وإخوانه ولزم صحراء الدير عله يجد السبيل إلى الوصول إليه، فامتنع عليه ذلك بعدما ذل للرهبان وتخضع وتأتى لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئًا، فصار إلى الجنون وحرقت ثيابه وأصبح عريان هائمًا لا شأن له إلا أن يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلغ رسائله إلى عيسى، حتى رآه بعض الناس في بعض الأيام ميتًا إلى جانب الدير. وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء؛ كأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها؛ أو كأنما كنت أرى أن الحياة موطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والأحزان، وأن الباكين هم أصدق الناس حديثًا عنها، وتصورًا لها، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله أو كأنما كنت أرى أن بين حياتي وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبهًا قريبًا وسببًا متصلًا؛ فأنست بهم وطربت بنواحيهم طرب المحب بنوح الحمايم وبكاء الغمام، أو كأنما كنت في حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مدامعهم شفاء نفسي وسكون لوعتي؛ أو كأنما كنت أرى أن جمال العالم كله في الشعر، وأن الشعر هو تفجر من صدع الأفئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم، وصعد من صدورهم مع زفراتهم.

تلك أيامي التي سعدت بها برهة من الدهر ومررت لي فيها أحسن ما مررت لأحد والتي لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الأعوام الطوال فأكاد أشرق بدمعي لذكرها، ثم انثنت فوجدت يدي صفرًا منها وإذ أنا بين يدي هذا العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والألم، فنظرت إليه نظر الغريب الحائر إلى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيه وشروبه وظلمة أجوائه، واغبرار سمائه، وقتال الناس بعضهم بعضًا على الذرة والحبّة

والنسمة والهبوة،^{١٢} واتساع مسافة الخلف بين دوائر القلوب وملامح الوجوه، وسلطان القوة على الحق، وغلبة الجهل على العلم. وإفقار القلوب من الرحمة، وجمود العيون عن البكاء، وعجز الفقراء عن فتات موائد الأغنياء، وتمضغ الأغنياء بلحوم الفقراء، ورأيت الترائي بالرزيلة حتى ادعاها لنفسه ونحلها إياها من لا يتخلق بها طلباً لرضا الناس عنه برضاه عنها، ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرَّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العاري بسوأته والموسوم بخزيتته. ورأيت الرجل والمرأة وقد سراً^{١٤} كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه، ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتهما فأصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلاً له من الرجال التوقح والتشطر^{١٥} ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون^{١٦} من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال في أيدي الناس إلى سهام مسمومة يحاول كل منهم أن يصيب بها كبد أخيه فلا يخطئها، ورأيت ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها، واضطراب الحدود والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلًا، وخرج منها ما لم يكن خارجًا، فسمي الشح اقتصادًا، والكرم إسرافًا، والحلم جبناً، والسماجة جرأة، والسفاهة براعة، والفجور فتوة، والتبذل حرية، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكتها على من يريد ركوبها، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيمًا من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها إلى غيرها، وكنت أرى أن الأدب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به، أو يكون عوناً لفاعليه عليه، فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد في نفسه عند غشيانته ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه، ويقلق مضجعه، ويطيل سهره وألمه، فإذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له في جوهر النفس، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان، فأكثر الناس عند الناس أدبًا، وأقومهم خلقًا، وأظهرهم نفسًا: من لا يفي على شرط أن يعد، ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغًا مهذبًا، ومن يملأ صدره موجدة وحقدًا على أن يكون بسامًا ضحوك السن، ومن

^{١٢} الهبوة: الغبرة.

^{١٤} سرا الثوب عن جسمه: ألقاه عنه.

^{١٥} تشطر: صار شاطرًا؛ والشاطر هو من أعى أهله خبثًا.

^{١٦} الضاحي: المنكشف للشمس.

يسرق على أن يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية، التي تواضع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر النفس وإسفافها، أكثر مما يرجع إلى علوها وكمالها، فداخلني من ذلك خطر عظيم لم أستطع أن أملك نفسي معه، كأنما خيل إليّ — لقرب عهدي بما أرى — أنني أرى شيئاً عجباً، أو منظرًا غريباً، أو كأنما كنت أحسب أن عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت إليه، فأزعجني ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما، فأرسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس أو يئن الحزين، فقرأ ذلك بعض الناس، فسموا ما رأوه كلاماً، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله، وما زلت أطمع فيهم وأرجو أن أصيب ما في نفوسهم، حتى سمّوني كاتباً.

وكان لذلك الأدب الذي توليت به نفسي فيما مضى أثر باق عندي حتى اليوم فإنني لا أحسن أن أكتب كلمة يفضي بها غيري أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسي أو أبكي على من لا يحزنني فراقه. أو أندب من لا يفجعني موته أو أستنكر ما أستحسن. أو أستحسن ما أستنكر، كما لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزناً شديداً، أو طرباً كثيراً، فأملك نفسي عن محاولة الإفضاء بما تركه عندي من خير أو شر، وما أعلم أنني كتبت كلمة في شأن من الشئون إلا وكان بعض تلك المشاهد منشأها في قلبي، فقد كنت رجلاً لا أحب الكذب، ولا أخذ نفسي به ما وجدت منه بدءاً، فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم. فكان من همي أن أقاتلهم على الصدق قتالاً مستعراً، حتى أصل بهم إلى إحدى الحسينين: إما أن يكونوا صادقين وإما أن يعلم الناس أنهم كاذبون، وكنت إنساناً بائساً لم يترك الدهر سهماً من سهامه المريشة لم يرمني به، ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم يجرعني إياها، فقد ذقت الذل أحياناً، والجوع أياماً، والفقر أعواماً، ولقيت من بأساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين. ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين، فكان من همي أن أبكي كل بائس، وأندب كل منكوب، وأطلب رحمة القوي للضعيف، والغني للفقير، والعزيز للذليل.

وقد قدّر لي فيما مرّ بي من أيام حياتي أن رأيت بعيني من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع إليه أن يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف

ابنه من سوء ابنتها، فأبى ذلك عليها وقال لها — وهو يحسب أنه يعقل ما يقول —: أيتها المرأة لا حق لابنتك عندي ولا عند ولدي. فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما بأكبر من حظها منه، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقداً قديماً، فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخاً: أيها الناس إن الفتاة مريبة. وكان كاذباً فيما يقول، ولكن صدقه الناس، فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وأفضعه، ورأيت من دخلت إليه امرأة من أولئك النساء المربيات تسأله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذهاباً بنفسه أن تسوء سمعته بدخولها بيته، وكان هو الذي أفسدها على نفسها فنزل بها فسادها إلى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر، فلما جد الجد حاسبها على لقمة تتذوقها في بيته. ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله في بيته أكلًا. فكان بي منذ ذلك العهد أن أنظر إلى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس إليها، وأن ألتمس لها من العذر — وإن زلت بها قدم — ما لا يلتمسها لها أحد، وأن أنتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلاً إلى ذلك حتى يدل لها الله منه، وكنت من شئون عيشي في حالة لا أستطيع معها أن أعتزل الناس الاعتزال كله، ولا أن أختار لعشرتي من أشياء من خيارهم وذوي المروءة فيهم، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهداً ولا صان لي صاحب سرّاً، ولا استدنت مرة فنفس عني دائن، ولا دنت فوفى لي مدين، ولا رد لي مستعير عارية، ولا شكر لي شاكر صنيعه، ولا فرج لي كربتي مفرج إلا إذا استقطر ماء وجهي إلى القطرة الأخيرة منه، لياخذ أكثر مما أعطى، ويسلب فوق ما وهب، ووجدت في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر للمزور حتى أمكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرم بطعامي وشرابي. ومن كان يبسط إليّ يد الأمل الراجي فأكرهه أن أردّه خائباً، فلما عجزت عن ذلك مرة أضمر لي في قلبه من الشر ما لا يضمر لمثله الرجل إلا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه، أو يخضبّ لحيته من دم مفرقه، ومن نصب^{١٧} لي وغري بمحاداتي ومماظتي،^{١٨} لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي، ومن أخذ نفسه بالنيل مني والغض من شأني لأنه كان يشكو الخمول والضعفة وكان لا بد له أن يكون نابهاً مذكوراً، فاتفق له أن رأى عاتقي بين يديه فظن أنه أعلى العواتق وأبعدها مذهباً في جو السماء، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه، فوالله ما تحلحت

^{١٧} نصب فلان لفلان: عاداه.

^{١٨} الماظة: المخاصمة والمشارة.

ولا نبوت به بقيا عليه وضناً به أن يسقط سقطة لا يئل منها، ومن كان لا يكبر شأني إلا إذا اتقاني، فإذا أضاء ما بيني وبينه كنت في عينه أصغر منه في عين نفسه، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر عليّ وإدباره عني، لا يستحي أن يكرر ذلك حتى أستحي له منه. فعركت بجنبي^{١٩} كل ما كرهت من ذلك، ولكنني لم أرض لنفسي أن أنزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل إليها الغر الكريم، فلم أثار لنفسي ولكن أصبح رأيي في الناس غير رأيهم في أنفسهم، ورأي بعضهم في بعض، وخفت أن يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين^{٢٠} أمثالي مثل ما أصابني، فكان من همي أن أدل على شرور الأشرار الكامنة في نفوسهم وأن أكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا، فيتواقعوا ويتحاجزوا، فلا يهنأ خادع بخدعته، ولا يبكي مخدوع على نكبته، ولا يتخذ بعضهم بعضاً حمراً يركبونها إلى أغراضهم ومطامعهم، وكان منشئ في قوم بداءة سذج لا يبتغون بدينهم ديناً، ولا بوطنهم وطناً، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في الحياة شئون جمّة، فخضعت لكثير من أحكام الدهر وأقضيته، إلا أن أكون ملحداً في ديني أو زارياً على وطني، فاستطعت — وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية — أن أجلس ناحية منها. وأن أنظر إليها من مرقب عالٍ، وكنت أعلم أن من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائفة حمقاء، فإما أخذه كله أو تركه كله، فرأيت حسناتها وسيئاتها، وفضائلها ورذائلها، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك، فكان من همي أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسي، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها، واستهتارهم بها، وسقوطهم بين يدي رذائلها ومخازيها، وإلحادها وزندقتها، وشحها وقسوتها، وشرها وحرصها، وتبذلها وتهتكها، حتى أصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه إذا حزه الأمر^{٢١} في مناظرة بينه وبين من يأخذه برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضج به عن نفسه إلا أن يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل، أو ترك ما ترك، كأنما هي القانون الإلهي الذي تثوب إليه العقول عند اختلاف الأنظار واضطراب الأفهام، أو القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيتها وفاسدها؛ وحتى

^{١٩} عرك بجنبه ذنب صاحبه: احتمله.

^{٢٠} المحدود: المحروم: ويراد به سيئ الحظ.

^{٢١} حزه الأمر: اشتد عليه.

أصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادم غرفته الأوربية أن تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء أكثر مما يستحي من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل وأكبر الكبائر؛ وحتى أصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور وأسمجها في نظر كثير من الشرقيين: يفخرون بجهله إن جهلوه، ويرأون بعلمه إن علموه، وحتى قدر الغلام الرومي — خادم الحان — منفردًا على ما لا تقدر عليه الأمة جميعها مجتمعة، فحملها على النزول إليه لتحديثه بلغته، قبل أن تحمله على الصعود إليها ليحدثها بلغتها، وهو إلى أن يترضاها ويستدنيها أحوج منها إلى أن تترضاها وتزدلف إليه.

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتثرًا ههنا وههنا، وقد شعر به قلبي ففاض به قلبي من حيث لا أكذب الناس عن نفسي، ولا أكذب نفسي عنها.

وعندي أن الكاتب المسخر الذي لا شأن له إلا أن يكتب ما يفضي به الناس إليه صانع غير كاتب، ومترجم غير قائل، لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ: كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه، على أن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح أحلامه؛ فإن كان من شأنه في حياته أن يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور، أو وفيعة^{٢٢} تتمسح بها أعواد الأقلام كان خسارانه عظيمًا لا يقوم به كل ما يربح الراحون من مال أو يؤثلون من جاه، والتاريخ أضن من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدباء إلا مجد أولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم، وحياة الكاتب بحياة كتابته في نفوس قرائها، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه يكذبهم عن نفسه وعن نفوسهم وأنه رؤاغ متخلج^{٢٣} يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غداً، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى، وأنه يستبكي ولا يبكي، ويسترحم ولا يرحم، ويحزن النفوس وهو ساكن، ويثير الثائرة وهو سالم، فيستريبون به، ويحارون في مصادره وموارده، ثم يحملون أمره شر حاله ثم ينقطع ما بينهم وبينه، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق إلى سوق ومن حانوت إلى آخر، ولكنه حركة

^{٢٢} الوفيعة: خرقه يمسخ بها القلم.

^{٢٣} المتخلج: المضطرب في مشيته.

طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل، صدور النور عن الشمس، والصدى عن الصوت، والأريج عن الزهر، وشعاع لامع يشرق في نفس الأديب إشراق المصباح في زجاجته، وينبوع ثرار يتفجر في صدره ثم يفيض على أسلات قلمه، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود، ولو أن أمراً من ذلك كائن لكان أبرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة في العلم، أو أعلمهم بقواعد اللغة، أو أجمعهم لمتونها، أو أحفظهم لفصيح القول ورائعه؛ أما العلم فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الأسفار التي نقرأها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع في ذلك اثنان؛ وما قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا يكتبون؛ وأما المحفوظات فما نعلم أحداً أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء، ولا أقل منهم إلماماً بالأدب ولا أبعد عنه مكاناً؛ وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتأخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تحبير الرسائل أو قرض الشعر أو القوة القلمية في التصنيف في غير ما أخذوا أنفسهم به؛ وكان الخليل بن أحمد إذا سئل عن نظم الشعر قال: ياباني جيده وأبي رديئه؛ وكان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة، وأبو يزيد الأنصاري يحفظ نصفها وأبو مالك الأعرابي يحفظها كلها، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والأزهري والصاغانى وابن فارس وابن الأثير صاحب النهاية، والجوهري والفيروزا بادي وأمثالهم من علماء اللغة والنحو، وما سمعنا لواحد منهم في إحدى الصناعتين شيئاً مذكوراً، وقال أبو العباس المبرد في بعض أحاديثه: لا أحتاج إلى وصف نفسي: لعلم الناس بي أنه ليس أحد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة إلا لقيني بها وأعدني لها، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس، لا يخفى عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل، وربما احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نُصب عيني، ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولا لسان، ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها وأعرض بعض أموري فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما في نفسي فينصرف لساني إلى غيره اهـ. بل لو شئت لقلت إنه ما أفسد على المتنبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما، ولا المعري كثيراً من منظمه ومنثوره، ولا على الحريري مقاماته، ولا على ابن دريد مقصورته،

إلا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون فقد كانوا هم وأمثالهم من حباّس اللغة وأنصائها في كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون، من حيث يظنون أنهم ينظمون أو يكتبون، ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت أن الأدب العربي كان يستطيع أن يكون خيرًا مما كان لو أن الله تعالى كتب للزوميات المعري النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام، وإنك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه — الذين يأخذون بزمام المجتمع العربي وقيّمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شئونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة — من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها، أو من يسلم له مقال من مأخوذ نحوي أو مغمز لغوي، وهم على ذلك أدخل في باب البيان وألصق به وأمسرحًا من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذّها وغريبها ويحملون في صدورهم ما دق وما وجلّ من مسائل نحوها وتصريفها، فإذا عرض لهم غرض من الأغراض في أي شأن من شئون حياتهم وأرادوا أنفسهم على الإفضاء به — ارتج عليهم فأغلقوا أو تقعرّوا وتشدقوا فكأنهم لم ينطقوا، والفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون، والآخرين مصححون؛ فمثلهما كمثّل النساج وعامله: هذا ينسج الثوب، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره، أو كمثّل الشاعر والعروضي: هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه، وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى، ولا دخول حرف وخروج آخر، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والإطراد والرونق واستقامة الغرض وتطبيق المفصل، والأخذ بمجامع الألباب، امتلاك أزمة الهواء؛ فإذا صح ذلك لامرئ فهو الكاتب القدير أو الشاعر الجليل؛ فإن زلت به يده أصيل، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها، كان ذلك عيبًا لاحقًا بعلمه أو بحافظته، لا ببيانه وفصاحته، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع، أصبح شأنه شبيهًا بشأن العرب الأولين، وكان من شأنهم أن يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان، وكان السبب في ذلك كما يقول أبو علي الفارسي: إنهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به؛ فربما استهواهم الشيء، فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون، وكما أن الجسم لا يغير من صورته، ولا يبدل من سحنته، أن تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها، كذلك لا يغير من صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج أصيل، أو دخول دخيل، وقد قيل لأحد الكتاب الإنكليز: نراك كثير الإعجاب بالكاتب «كبلنغ» وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة، فأجاب: إن سطرًا واحدًا مما

يكتبه «كبلنغ» أثمن عندي من قوانين اللغة جميعها، وليس من الرأي أن أحرم نفسي التمتع بأدبه وإكراماً لسواد عيون الغراماطيق^{٢٤}، الإنكليزي، فضل الأدباء على اللغة في سيورتها وذبوعها وتداولها وخلودها أفضل من فضل اللغويين عليها في ذلك، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها، ويعبّدون^{٢٥} طرقها، ويستندون نافرهما، ويجمعون شاردها، وينظمون لألثها، نظم الثاقب لآلئه في السلك فيأخذها الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها، وأشهاها إلى النفس، وأعلقها بالقلب؛ وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة أو يكتسب ملكة الإعراب من كتب النحو والتصريف؛ وما كانت اللغة عدوة للأدب ولا كان عدواً لها، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها، والمنقطعين لاستظهارها، والنظر في دقائقها، والتعمق في أطوائها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها، حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد، لا وسيلة من الوسائل، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل إليه، والتربية العلمية كالتربية الجسمية؛ فكما أن الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط، ولا تتبسط أعضاؤه، ولا تنتشر القوة في أعصابه، إلا إذا نشأ في لهوه ولعبه وقذفه ووثبه؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه، ولا تأخذ مكانها من نفسه إلا إذا ملك الحرية في التصرف والافتتان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء، دون أن يسيطر عليه في ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته؛ واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف والوساوس والבלابل، فإن مشى خيل إليه أنه يمشي على رملة ميثاء، وإن تحرك خيل إليه أن تحت قدميه حفرة جوفاء، حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التي يريد الوصول إليها، على أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا نظر إلى الألفاظ بالعين التي يجب أن ينظر بها إليها، فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني، وهي أن تكون خدماً لها وخولاً، وأوعية وظروفاً، فإذا كتب تركها وشأنها وأغفل أمرها حتى تأتي بها المعاني وتقنادها طائعة مرغمة، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه، ومزاجه وقوامه، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده، فيفلت من يده كل شيء.

^{٢٤} الغراماطيق: النحو.

^{٢٥} يعبدون: يذللون ويمهدون.

وبعد؛ فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية، والقواعد النحوية إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله إليها؛ فالجهل لا يكتب شيئاً لأنه لا يعرف شيئاً؛ ومن لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة إلى لسانه، أو غلبته العامية على أمره، ومن قل محفوزه من المادة اللغوية قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعاني؛ ومن جهل قانون اللغة أغمض الأغراض وأبهمها، أو شوّه الألفاظ وهجّنها، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فأكثر القائمين عليها والمضطلعين بها، لا يكتبون ولا ينظمون، فإن فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالاً سوياً متناسب الأعضاء مستوي الخلق؛ إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة، وأنى لهم ذلك؛ وما دخلت الفلسفة أياً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته، وما خلط التكلف عملاً من أعمال الذوق إلا شوّه وجهه، وذهب بحسنه وروائه.

ولقد قرأت ما شئت من منشور العرب ومنظومها، في حاضرها وماضيها قراءة المثبت المستبصر، فرأيت أن الأحاديث ثلاثة: حديث اللسان، وحديث العقل، وحديث القلب.

فأما حديث اللسان فهو تلك العبارات المنمقة، والجميل المزخرفة، أو تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كان لغوياً تقعر وتشدق، وتكلف وأغرب، حتى يأتيك بشيء خير ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب، وإن كان بديعاً جنس ورصع وقابل ووسّع وزاوج وافتن في الإتيان بالكلمة مهملة كلها أو معجمة كلها أو راوح بين الإهمال والإعجام، فيخيل إليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنْعاً، أو يصفه تصفيفاً، ثم لا يبالي بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما له من الأثر في نفس السامع، وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها وأجدرها أن ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها، وأن ينظم صاحبها في سلك جماعة المحللين الذين لا شأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبها، وجمعها وتفريقها، والمزاوجة بين مقاديرها، والموازنة بين أثقالها، من حيث لا يكون لقوة التصور ولا لذكاء القلب دخل في هذا أو ذاك.

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتاً، ويقتطعونها منها اقتطاعاً، ويذهبون فيها مذهب المعاياة والتحدي والعمق والإغراب، ويسموننها تارة تخييلاً، وأخرى غلوّاً وأخرى حسن تعليل، إلى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق، ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والإحالة؛ وآية ما بينك وبينها: أنك إذا رأيته شعرت بأنك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك. وعن نفس صاحبه، وعن نفوس الناس جميعاً، وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن يطرفك أو يضحك أو يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصوير ما لا يتصور وإيجاد ما لا يكون، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر، ولا حقيقة الكتابة، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرك وأكدك، وملأ قلبك غيظاً وقبحاً كأن يقول:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فإن الجوزاء لا تنتطق، ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصل بها قبل أن يُخلق للمدوح ويخلق آباؤه الأولون إلى آدم وحواء، والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخولاً لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليها — وهي من سكان السماء — أن تهبط إلى الأرض لتخدم سكانها، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد، ثم عجز بعد هذا كله أن يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه، وعظم شأنه، فهو في الحقيقة إنما يريد ببيته هذا أن يمتدح نفسه بالإبداع وقوة التخيل، لا أن يمتدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام. أو يقول:

ما به قتل أعادييه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب

فإن الذي يحمل في صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع، مستعظماً أن يخلفها ما عودها إياه من طعام وشراب، لا يمكن أن يكون هو نفسه ذئباً ضارياً يريق دماء الناس ويمزق أحشاءهم، ويقطع أوصالهم؛ ليملاً بها بطون الوحش؛ ولا يوجد بين الأسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذي ذكره، على أن المحسن لا يكون محسناً إلا إذا وهب ما يهب من ماله، ومن خزائن بيته، فإما أن يقتل الناس تقتيلاً ويمثل بهم، ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الأرض وذئابها؛ فذلك شيء هو بالجنون أشبه منه بالإحسان.

أو يقول:

لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحا

فإن النوم قوام الإنسان وعماد حياته، ولازم من لوازمه اللاصقة به، أراد ذلك أم لم يرد، فإن كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فإن من أبعد الأشياء عن التصور والفهم أن يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه أن يرى فيه الأحلام والرؤى، فإن فعل فعلاً يدخل في باب أغراضه وأمانيه أن ينام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتأكلين، وهم ملء الأرض وهباء الجو، وأرصاء الأعتاب، وأعقاب الأبواب، لا تفتح الأعين إلا عليهم ولا تمتلئ الأنظار إلا بهم، فهم لم يبلغوا في الضن بأنفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به إلا إذا ألقى في طريقه حبال الأحلام ليصطاد بها.

أو يقول:

لم يتخذ ولدًا إلا مبالغة في صدق توحيد من لم يتخذ ولدًا

فإن الأولاد لا يتخذون اتخاذًا، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعامًا، وأكثر ما تقذف به الأرحام من النسومات إنما هي ثمرات الحب يأتي بها عفوًا، لا نبتة من نبات الأرض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها، والله تعالى غني بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام، فإن كان لا بد في إثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث في الصفات والأفعال؛ فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحسّاب كثرة. وربما كان أهونها وأضعفها أنه لا يتخذ ولدًا، وأنهم يتخذون. على أن المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الأرض وظهرها، فالمسألة مفروغ منها قبل أن يُخلق هذا الممدوح ويخلق ولده؛ فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد.

أو يقول:

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيبًا

فإن الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن أن تكون طيبة الريح، على أن الأزهار مريحة قبل أن يدفن هؤلاء الموتى في قبورهم، فلم يزد في

كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مبتذل هو أشبه الأشياء بخيال العامة الذين يرون
أن بعض الأزهار ما خلق إلا إكرامًا لبعض النبيين.
أو يقول:

تتلف في اليوم بالهبات وفي الـ ساعة ما تجتنيه في سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفًا فوق ما يصف الناس ويأتي في ذلك بما
لم يأت به غيره؛ فأنزله منزلة مجانين المرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين دخلهم
ونفقاتهم، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة إلى قاضٍ من قضاة المال لما كان له بد
من الحرج عليه، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها
في ساعة واحدة أو يوم واحد.
أو يقول:

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات

فإن شيئًا من ذلك لم يكن، فالقبر لا يضيق بأحد، والجو لا يكون قبرًا، والريح
ليست كفنًا، والرجل لا يزال مصلوبًا غير مقبور، ولا يزال عاريًا غير مدرج في كفن.
وأما حديث القلب فهو ذلك المنتور أو المنظوم الذي تسمعه فتشعر أن صاحبه
قد جلس إلى جانبك ليتحدث إليك كما يتحدث الجليس إلى جليسه، أو ليصور لك ما لا
تعرف من مشاهد الكون، أو سرائر القلوب، أو ليفضي إليك بغرض من أغراض نفسه،
أو لينفس عنك كربة من كرب نفسك، أو ليوافى رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني
الدقيقة التي تعتلج في صدرك، ثم يتكأ ذلك الإفصاح عنها من حيث لا يكون للصناعة
اللفظية، ولا للفلسفة الذهنية دخل في هذا أو ذاك، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين
يديك دون المعنى حتى يفنى كما تفنى الكأس الصافية دون ما تشمل عليه من الخمر،
فإذا الخمر قائمة بغير إناء، أو كما تفنى صفحة المرأة الصقيلة بين يدي الناظر فيها،
فلا يرى إلا صورته ماثلة بين يديه، ولا لوح هناك ولا زجاج، وهو أرقى الأحاديث الثلاثة
وأشرفها، وهو الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم، وتنوعت أساليبهم من كلمة
البيان.

ولقد كان من أكبر ما أعانني على أمري في كتابة تلك الكلمات أشياء أربعة أنا ذاكرها، لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في أدبه:

أولها: أنني ما كنت أحفل من بين تلك الأحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل؛ أي إنني ما كدت أتكلف لفظاً غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه، ولا أفتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي، بل كنت أحدث الناس بقلمى كما أحدثهم بلساني، فإذا جلست إلى منضدتي خيل إلي أن بين يدي رجلاً من عامة الناس مقبلاً عليّ بوجهه، وإن من ألد الأشياء وأشهاها إلى نفسي أن لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به إليه، فلا أزال أتمس الحيلة إلى ذلك ولا أزال أتأتى إليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحاح المشفق المجد، حتى أظن أنني قد بلغت من ذلك ما أريد، فلا أقيد نفسي بوضع مقدمة الموضوع في أوله ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزاماً مطرداً إبقاء على نشاطه وإجماعه، وإشفاقاً عليه أن يمل ويسأم، فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به.

وثانيها: أنني ما كنت أحمل نفسي على الكتابة حملاً، ولا أجلس إلى منضدتي مطرقاً مفكراً: ماذا أكتب اليوم، وأي الموضوعات أعجب وأغرب وألد وأشوق، وأيها أعلق بالنفوس، وألصق بالقلوب؟ بل كنت أرى فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضي الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا أتعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم.

وثالثها: أنني ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة، لأنني كنت أعلم أن الحقيقة المجردة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً، ولا تترك في قلبه أثراً؛ وأحسب أن السبب في ذلك أن أكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب والآراء والأخلاق، والخواطر والتصورات، إنما هو أثر من آثار الخيالات الذهبية التي تتراءى في سماء الفكر. ثم لا تزال بها الأيام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان، وكما أن الحديد لا يقل إلا الحديد، واللون لا يذهب به إلا لون غيره. كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعه من مكانه إلا الخيال، وللخيال الأثر الأعظم في تكوين هذا المجتمع الإنساني وتكييفه على الصورة التي يريدها، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي في ساحة الحرب، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات، ولا ابتدعت المبتدعات، ولولا خيال الرحمة ما عطف غني على فقير، ولا

حنا كبير على صغير، كما كنت أعلم أن الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائفة من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ولا تصعد إلى سماء.

ورابعها: أني كنت أكتب للناس لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم: أنت أحسنت، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت، وللناس كما قلت في بعض رسائلني؛ خاصة وعامة، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم، ولا علاقة لي بهم ولا دخل للكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم فلا أفرح برضاهم ولا أجزع لسخطهم، لأنني لم أكتب لهم، ولم أتحدث معهم، ولم أشهدهم أمري، ولم أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أستمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر؛ لأنني راضٍ عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي أكتب بها، فلا أحب أن يكدرها عليّ مكر، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلني فلا أحب أن يشككني فيها مشكك، ولم يهيني الله من قوة الفراسة ما أستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم. فأصغي إلى الأول لأستفيد علمه، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه، فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها في ساعة معينة. ثم علم أن على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق أغصانها، وتشتجر أفنانها، وأن على يساره غاباً تزار أسوده وتعوي ذئابه وتفتح أفاعيه وصلاله، فمضى قدماً لا يلتفت يميناً مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره، ولا يسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية، والصلال الناشرة، فتعترض طريقه. وأما عامتهم، فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة، وصفاء القلب، وسلاسة الوجدان، ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه؛ فأنا أحمد الله في أمره، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه، فهو لا يرضى إلا عما يعجبه، ولا يسمع إلا ما يطربه، فأكل أمره إلى الله تعالى، واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً.

الفصل الأول

الغد

عرفت أنني فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم، وعرفت أنني آخذ الساعة بقلممي بين أناملي، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها؛ ولكن لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكبو^١ دون غايته؟ وهل أستطيع أن أتمم رسالتي هذه، أو يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها؟ لأني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً؛ ولأن المستقبل بيد الله.

عرفت أنني لبست أثوابي في الصباح، وأني لا أزال ألبسها حتى الآن، ولكني لا أعلم هل أخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد، فربما كان ملكاً رحيماً، وربما كان شيطاناً رحيماً، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حلت أجزاءها، وبعثرت ذراتها، فأصبحت كأنما هي عدم من الأعدام التي لم يسبقها وجود.

الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه^٢ وتصطخب أمواجه، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجواهر، أو الموت الأحمر.

لقد غمض الغد عن العقول، ودق شخصه عن الأنظار، حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره؛ لا يدري أليضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر.

^١ كبا: سقط على وجهه.

^٢ يعب عبابه: يرتفع موجه.

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار، تحوم حوله البصائر، وتتسقطه^٣ العقول، وتستدرجه الأنظار، فلا يبوح بسر من أسرارهِ؛ إلا إذا جاءت الصخرة بالماء الزلال.

كأنى بالغد وهو كامن في مكمنه، رابض في مجثمهِ،^٤ متلعب بفضل إزارهِ، ينظر إلى آملنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء، يقول في نفسه: لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث، وهذا الباني أنه يبني للخراب، وهذا الوالد أنه يلد للموت: ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد.

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم، فاتخذ نفقاً في الأرض، وصعد في سلم إلى السماء، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب^٥ من حديد، وخيوط من نحاس، وانتقل بعقله إلى العالم العلوى، فعاش في كواكبه، وعرف أغوارها وأنجادهها، وسهولها وبطاحها، وعامرها وغامرها، ورطبها ويابسها. ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الأشعة. والموازين لوزن كرة الأرض إجمالاً وتفصيلاً. وغاص في البحار فعرف أعماقها، وفحص تربتها وأزعج سكانها، ونبش دفائنها وسلبها كنوزها، وغلبها على لآلئها وجواهرها، ونفذ من بين الأحجار والآكام إلى القرون الخالية فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون وأين يسكنون، وماذا يأكلون ويشربون، وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة، فعرف النفوس وطبائعها، والعقول ومذاهبها، والمدارك ومراكزها؛ حتى كاد يسمع حديث النفس وديب المنى، واخترق بذكائه كل حجاب، وفتح كل باب، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرؤ على فتحه، بل لا يجسر على قرعه، لأنه باب الله، والله لا يطلع على غيبه أحداً.

أيها الشبح المثلث بلثام الغيب، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة^٦ واحدة من صفحات وجهك المقنع، أو لا، فاقترب منا قليلاً علَّنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا، فقد طارت قلوبنا شوقاً إليك، وذابت أكبادنا وجداً عليك.

^٣ تسقط الخبر: أخذه شيئاً فشيئاً.

^٤ مجثم الطائر: موضع جثومهِ، أي تلبده بالأرض.

^٥ الأسباب: الحبال، وكل ما يوصل بين الشيئين

^٦ صفحة الشيء: جانبه

أيها الغد؛ إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً، وأماني حساناً وغير حسان، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها؛ أذللتها واحتقرتها، أم كنت لها من المكرمين؟

لا، لا صن شرك في صدرك، وابق لثامك على وجهك، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا، حتى لا تفجعنا في أرواحنا ونفوسنا فإنما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلة، وسعداء بالأمني وإن كانت كاذبة.

وليست حياة المرء إلا أمانيا إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر

الفصل الثاني

الكأس الأولى

كان لي صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه في حالي بُعْدِهِ وقُرْبِهِ، وغضبه وحلمه وسخطه ورضاه، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات، فأنا اليوم أبكيه حياً أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتاً، بل أنا لا أبكي إلا حياته، ولا أتمنى إلا مماته، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلعة الغريبة في طبائع النفوس!

علقت حبالي بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفني، ثم سلك سبيلاً غير سبيله فأنكرته وأنكرني، حتى ما أمر بباله، لأن الكأس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها، وربما كان يدفعني في مخيلته دفعاً إذا تراءيت فيها لأنه إذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت ألقاه بها في فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال.

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئاً؛ لأن حياة المدمنين حياة متشابهة متماثلة، لا فرق بين صباحها ومساءها وأمسها وغدها؛ ذهب إلى الحانات فشرب، فخمراً^١ فنوم فذهب، كالحلقة المفرغة، لا يدري أين طرفاها، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن، حتى إن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها، وكان أخرى أن يوقظه دورانها.

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلاً من قلبي إلا بعد أن سكنت دورته، وهدأت حركته، فلم أعد أراه معربداً في الحانات، ولا مطرحاً في مدراج الطرق، ولا معتقلاً في

^١ الخمار: صداع الشراب.

أيدي الشرط.^٢ هنالك سألت عنه فقيل لي: مريض، فلم أعجب لشيء كنت أعد له الأيام والأعوام، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب. دخلت عليه أعوده فلم أجد عنده طبيباً ولا عائداً، لأنه فقير؛ والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء؛ والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر، فلا يعودون المريض، ولا يزورون الفقير. دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه، لأنني لم أجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف بأجنحته في غرفه وقاعاته، ولم أر دخان المطبخ؛ ولم أسمع ضوضاء الخدم، ولا بكاء الأطفال؛ ولا رنين الأجراس؛ فكأنني دخلت القبر أزور الميت، لا المنزل أعود الحي.

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق منه إلا إهاب^٣ لاصق بعظم ناحل؛ فقلت: أيها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب فهل لك أن تدلني عليه؟ فبعد لأي ما حرك شفتيه وقال: هل أسمع صوت فلان؟ قلت: نعم، مم تشكو؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه وأجاب: أشكو الكأس الأولى، قلت: أي كأس تريد؟ قال: أريد الكأس التي أودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي، وها أنا ذا اليوم أودعها حياتي. قلت: قد كنت نصحتك ووعظتك، وأنذرتك بهذا المصير الذي صرت إليه فما أجديت عليك شيئاً، قال: ما كنت تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش النكد أكثر مما أعلم، ولكنني كنت شربت الكأس الأولى فخرج الأمر من يدي.

كل كأس شربتها جنتها عليّ الكأس الأولى، أما هي فلم يجنّها عليّ غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك الأصدقاء والخطاء.

لم تكن شهوة الشراب مركبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر في الانقياد إليها كما يعذر في الانقياد إلى غيرها من الشهوات الغريزية؛ فلا سلطان لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى. فلم يتناولها؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبين من خلانه وعشرائه خدعوه عن نفسه في أمرها ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتهم التي لا تتم إلا بقراع

^٢ الشرط: أعوان الأمير، ومفرده «شرطي» بضم الشين وسكون الراء.

^٣ الإهاب: الجلد.

^٤ يقال «فعله بعد لأي» أي إبطاء، و«ما» زائدة.

الكؤوس وضوضاء الاجتماع. ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألفه وأي ذريعة تذرعوها بها إلى ذلك؛ لتحققت أنه أبله إلى النهاية من البلاهة، وضعيف إلى الغاية التي ليس وراءها غاية. أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء، وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان.

قالوا: إن حياتك حياة هموم وأكدار، ولا دواء لهذا الأدواء إلا الشراب، وقالوا: إن الشراب يزيد في رونق الجسم، ويبعث نشاطه، وأنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان، وأنه يشجع الجبان، ويبعث في القلب الجرأة والإقدام. هذا ما سمعته فصدقته وخذعت به.

صَدَّقْتُ أن في الشراب أربع مزايا: السعادة، والصحة، والفصاحة، والإقدام؛ فوجدت فيه أربع رزايا: الفقر، والمرض، والسقوط، والجنون.

غرههم من الصحة ذلك اللون الأحمر، الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء. وهو يتغلغل في الأحشاء، ومن الفصاحة الهذر والهذيان، وهجر القول وبذاءة اللسان، ومن الإقدام العريضة التي لا تسكن إلا في غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هي، فتنعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة^٦ والصفع تحية، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين.^٧

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغراً من ثغور ساكنيه؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالחסرات، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات؟ أي سعادة لمن يمشي دائماً في طريقه متلوياً متخلجاً^٨ يتسرب في المنعطفات والأزقة، ويعود بالواذ^٩ الجدر والأسوار فراراً من نظرات الجزار، وتهكمات العطار، وصرخات الخمار. ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي من أنهم قتل الإدمان لا قتل الشراب، وكنت أقدر لنفسني القصد فيه

^٥ الهجر: الفحش.

^٦ الطرفة: الملحة المستحسنة.

^٧ الممرور: الذي هاجت مرته، ويطلق على المجنون.

^٨ متخلجاً: متثنيًا.

^٩ لوذ الجبل: جانبه، والجمع ألواذ.

إن لي قُدْر لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم، ولا أنزل منزلتهم، فلما شربت أخطأ
العد، وضاع الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغلبت على أمري كما يغلب على
أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به؛ ولولا الكأس الأولى ما هلكت، ولا شكوت الذي
شكوت، ولولاها ما عافني الأصدقاء، ولا زهد في الأقرباء، فكن أنت وحدك صديق السراء
والضراء.

فعاهدته على ذلك، ثم تركته في حالة:

تصم السميع وتعمي البصير ويُسأل من مثلها العافية

الفصل الثالث

الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني، وعدت إلى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب، لا أملك إلا دمعة لا أستطيع إرسالها، وزفرة لا أستطيع تصعيدها.

ذلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك فرزقني بك قبل أن أسأله إياك، ثم استلبنيك قبل أن أستعفيه منك، قد أراد أن يتمم قضاءه فيّ، وأن يجرعني الكأس حتى ثمالتها، فحرمني حتى دمعة أرسلها أو زفرة أصعدها، حتى لا أجد في هذه ولا تلك ما أتفرّج به مما أنا فيه؛ فله الحمد راضيًا وغاضبًا، وله الثناء منعماً وسالبًا، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

رأيتك يا بني في فراشك عليلاً فجزعت، ثم خفت عليك الموت ففزعت وكأنما كان يخيل إليّ أن الموت والحياة شأن من شئون الناس وعمل من الأعمال التي تملكها أيديهم، فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب لي الدواء، ووعدني بالشفاء، فجلست بجانبك أصبُّ في فمك ذلك السائل الأصفر قطرة قطرة، والقدر ينتزع من بين جنبيك الحياة قطعة قطعة، حتى نظرت فإذا أنت بين يديّ جثة باردة لا حراك بها وإذا قارورة الدواء لا تزال في يدي، فعلمت أنني قد ثكلتك! وأن الأمر أمر القضاء، لا أمر الدواء.

سأنام يا بنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك، وسيعالج مني المقدار ما عالج منك، وأحسب أن آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شئون الحياة وأطوارها؛ وخطوبها وأحداثها: هو الندم العظيم الذي لا أزال أكابد ألمه على تلك الجرع المريرة التي كنت أجرك إياها بيدي وأنت تجود بنفسك، فيربد وجهك، وتختلج أعضاؤك، وتدمع عينك، وما لك يد فتستطيع أن تمدها إليّ لتدفعني عنك، ولا لسان فتستطيع أن تشكو إليّ مرارة ما تذوق.

لقد كان خيرًا لي ولك يا بني أن أكلَ إلى الله أمرك في شفائك ومرضك، وحياتك وموتك، وألا يكون آخر عهدك بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي أجشمتك إياها، فلقد أصبحتُ أعتقد أنني كنت عونًا للقضاء عليك وأن كأس المنية التي كان يحملها لك القدر في يده لم تكن أَمَرٌ مذاقا في فمك من قارورة الدواء التي كنت أحملها لك في يدي. ما أسمح وجه الحياة من بعدك يا بني! وما أقبح صورة هذه الكائنات في نظري! وما أشد ظلمة البيت الذي أسكنه بعد فراقك إياه! فلقد كنت تطلع في أرجائه شمسًا مشرقة تضيء لي كل شيء فيه، أما اليوم فلا ترى عيني مما حولي أكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك.

بكى الباكون والباقيات عليك ما شاءوا، وتفجّعوا ما تفجّعوا، حتى إذا استنفدوا ماء شئونها، وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا، لجأوا إلى مضاجعهم فسكنوا إليها، ولم يبق ساهرًا في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عيينين قريحتين: عين أبيك الثاكل المسكين، وعين أخرى أنت تعلمها.

لقد طال عليّ الليل حتى مللته، ولكنني لا أسأل الله أن ينفرج لي سواده عن بياض النهار؛ لأن الفجیعة التي فُجِعْتُهَا بفقدك لم تبق بين جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك، فليت الليل باقٍ حتى أرى وجه النهار، بل ليت النهار يأتي، فقد مللت هذا الظلام.

دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك، ودفنت من قبلكما أخويكما فأنا في كل يوم أستقبل زائرًا جديدًا، وأودع ضيفًا راحلاً. فيا لله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقي القلوب، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادم الخطوب.

لقد افتلذ كل منكم يا بنيّ من كبدي فلذة، فأصبحت هذه الكبد الخرفاء مزقًا مبعثرة في زوايا القبور، ولم يبق لي منها إلا دماء قليل لا أحسبه باقيًا على الدهر، ولا أحسب الدهر تاركه دون أن يذهب به كما ذهب بأخواته من قبل.

لماذا ذهبتم يا بني بعدما جئتم؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون؟ لولا مجيئكم ما أسفت خلو يدي منكم، لأنني ما تعودت أن تمتد عيني إلى ما ليس في يدي، ولو أنكم بقيتم بعدما جئتم ما تجرعت هذه الكأس المريرة في سبيلكم.

لقد كنت أَرْضَى من الدهر في أمركم أن يتزحزح لي عن طريقي التي أسير فيها، وأن يزوي وجهه عني فلا أراه ولا يراني، ولا يحسن إليّ ولا يسيء ولا يتقدم إليّ بخير ولا شر، ولا يتراءى لي مبتسمًا، ولا مقطّبًا، ولا ضاحكًا، ولا باكياً، لو أنه رضي مني بذلك؛

ولكنه كان أذكى قلبًا، وأنفذ بصرًا، من أن يفوته العلم بأنني ما كنت أبكي على النعمة لو لم تكن في يدي، وما كنت أجد مرارة فقدانها لو لم أذق حلاوة وجدانها، وكان لا بد له أن يجري في سنة الشقاء الذي أخذ على نفسه أن يجريها في الناس جميعًا، فلما عجز عن أن يدخل إليَّ من باب الطمع، دخل إليَّ من باب الأمل، فهو يمنحني المنحة فأغتنب بها حقبة من الدهر، حتى إذا علم أن بذرة الأمل التي غرسها قد نمت وازدهرت وأنني قد استعذبت طعمها واستطبت مذاقها، كرَّ عليَّ فانتزعها من يدي أنعمَ ما أكون بها، كما تُنتزع الكأس الباردة من يد الظامئ الهميان، ليعظم وقع السهم في كبدي، ويفدح سلب النعمة من يدي، ولولا ذلك ما نال مني منالًا، ولا وجد إليَّ سبيلًا.

يا بني، إن قدر الله لكم أن تتلاقوا في روضة من رياض الجنة، أو على شاطئ غدير من غدرانها، أو تحت ظلال قصر من قصورها فاذكروني مثل ما أذكركم، وقفوا بين يدي ربكم صفاً واحداً كما يقف بين يديه المصلون، ومدوا إليه أكفكم الصغيرة كما يمدوها السائلون، وقولوا له: اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه، وقد فرقت الأيام بيننا وبينه، فهو لا يزال يلاقي من بعدنا شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به، والحنين إليه، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي ننعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك، وأنت أرحم بنا وبه من أن تعذبنا عذاباً كثيراً، فإما أن تأخذنا إليه أو تأتي به إلينا. لا، بل لا تطلبوا منه إلا أن يأتي بي إليكم. فإن الحياة التي كرهتها لنفسني لا أرضاها لكم، فعسى أن يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائي فيرفع هذا الستار بيني وبينكم فلتلقي كما كنا.

الفصل الرابع

مناجاة القمر

أيها الكوكب المثل من علياء سمائه، أأنت عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها، وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلاند من جمان؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشه، وهذه النيرات حور وولدان؟ أم فص من ماس ما يتلأأ، وهذا الأفق المحيط بك خاتم من الأنوار؟ أم مرآة صافية، وهذه الهالة الدائرة بك إطار؛ أم عين ثرة ثجاجة؟ وهذه الأشعة جداول تتدفق؟ أو تنور مسجور؛ وهذه الكواكب شرر يتألق؟!

أيها القمر المنير:

إنك أنرت الأرض: وهادها ونجادها، وسهلها ووعرها، وعامرها وغامرها؛ فهل لك أن تشرق في نفسي فتنير ظلمتها، وتبدد ما أظلمها من سحب الهموم والأحزان؟

أيها القمر المنير:

إن بيني وبينك شبهًا واتصالًا؛ أنت وحيد في سمائك، وأنا وحيد في أرضي، كلانا يقطع شوطه صامتًا هادئًا منكسرًا حزينًا، لا يلوي على أحد ولا يلوى أحد عليه، وكلانا يبرز للآخر في ظلمة الليل فيسايره ويناجيه، يراني الرائي فيحسبني سعيدًا؛ لأنه يغتر بابتسامة في ثغري، وطلاقة في وجهي، ولو كُشف له عن نفسي، ورأى ما تنطوي عليه من الهموم والأحزان لبكى لي بكاء الحزين إثر الحزين، ويراك الرائي فيحسبك مغتبطًا مسرورًا؛ لأنه يغتر بجمال وجهك ولمعان جبينك، وصفاء أديمك، ولو كشف له عن عالمك لرآه عالمًا خرابًا، وكونا يبابًا، لا تهب فيه ريح ولا يتحرك شجر، ولا ينطق إنسان، ولا يبغم حيوان.

أيها القمر المنير:

كان لي حبيب يملأ نفسي نورًا، وقلبي لذة وسرورًا، وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك، وقد فرق الدهر بيني وبينه، فهل لك أن تحدثني عنه، وتكشف لي عن مكان وجوده؟ فربما كان ينظر إليك نظري، ويناجيك مناجاتي، ويرجوك رجائي. وهأنذا يخيل إليّ أنني أرى صورته في مرآتك، وكأنني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من أجله، فأزداد شوقًا إليه، وحننًا عليه. فابق في مكانك طويلًا تطل وقفتنا، ويدوم اجتماعنا.

أيها القمر المنير:

مالي أراك تنحدر قليلًا قليلًا إلى مغربك كأنك تريد أن تفارقني، ومالي أرى نورك الساطع قد أخذ في الانقباض شيئًا فشيئًا، وما هذا السيف المسلول الذي يلمع من جانب الأفق على رأسك؟

قف قليلًا، لا تغب عني، لا تفارقني، لا تتركني وحيدًا، فإنني لا أعرف غيرك، ولا أنس بمخلوق سواك.

آه، لقد طلع الفجر، ففارقني مؤنسي، وارتحل عني صديقي، فمتى تنقضي وحشة النهار، ويقبل إليّ أنس الظلام!!

الفصل الخامس

أين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته، وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صورة البشر، فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرأها فأحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب: فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعواماً طوَّالاً حتى وجدها.

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأنني أنا ذلك الفتى بعينه، لا فرق بيني وبينه إلا أنه يسمي ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة، وأنه فتش عنها فوجدها، وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت إليها سبيلاً.

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً في أثواب بائع وجدته يبيعي بدينارين ما ثمنه دينار واحد، فعلمت أنه سارق للدينار الثاني، ولو وكل إليّ أمر القضاء ما هان عليّ أن أعاقب لصوص الدراهم، وأغفل لصوص الدنانير، ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنه.

أنا لا أنكر على التاجر ربحه، ولكن أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزء الذي يستحقه على ما بذل من جهد في جلب السلعة وما أنفق من راحته في سبيل صونها وإحرازها، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه: أن الأول بدل الجِد والعمل والثاني بدل الغش والكذب.

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه، أما إنصاف المظلوم والضرب

على يد الظالم وإراحة^١ الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب: فهي عنده ذبول وأذئاب لا يأبه^٢ لها، ولا يحتفل بشأنها إلا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده، فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقاً، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم، ودان البريء وبراً المجرم، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرتة إليه حكم القانون عليه. كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون، وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه.

فتشت عن الفضيلة في قصور الأغنياء فرأيت الغني إما شحيحاً أو متلاًفاً؛ أما الأول فلو كان جاراً لبيت فاطمة رضي الله عنها وسمع في جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مدَّ إصبعيه إلى أذنيه ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه أشعة الرحمة، ولا تمر بين طياته نسيمات الإحسان، وأما الثاني: فماله بين الثغرين: ثغر الحسنة، وثغر الصهباء. فعلى يد أي رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء؟

فتشت عنها في مجالس السياسة، فرأيت أن المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط: ألفاظ مترادفة معناها الكذب، فرأيت أن الملك في كرسي مملكته كالحوذي في كرسي عربته، لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض (تعريفته)، وذلك ينقض معاهدته، ورأيت أن أعدى عدو للإنسان الإنسان، وأن كل أمة قد أعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله أن تعده لأختها من الموت وأفانين العذاب حتى إذا وقع الحثف بينهما على حد من الحدود أو جدار من الجدران، لبس الإنسان فروة السبع واتخذ له من تلك العدد الوحشية أظفاراً كأظفاره وأنياباً كأنياجه، فشحذ الأولى وكشر عن الأخرى ثم هجم على ولد أبيه وأمه هجمة لا يعود منها إلا بنفسه التي بين جنبيه، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما وعلام تقتتلان؟ وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما؟ ومتى ابتدأت الخصومة بينكما، وعهدي بكما ما أنكما ما تعارفتما إلا في الساعة التي اقتتلتما فيها؟ لعرفت أنهما مخدوعان عن تقسيهما، وأنهما ما خرجا من ديارهما ليضعا درّة في تاج الملك، أو نيشاناً على صدر القائد.

^١ أراح الحق على أهله: أعاده إليهم.

^٢ أبه للشيء: تفتن له واحتفل.

فتشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم — إلا من رحم الله — يتجرون بالعقول في أسواق الجهل، ورأيت كلاً منهم قد ثغر له في كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها إلى الأخلاق فيفسدها، والمشاعر فيقتلها، ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها، والخزائن فيسلبها.

فتشت عنها في كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثر بها، فليت شعري هل أجدها في الحانات والمواخير، أو في مغارات اللصوص، أو بين جدران السجون. سيقول كثير من الناس: قد غلا الكاتب في حكمه وجاوز الحد في تقديره، فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الكثير من الناس صدراً رحباً، ومورداً عذباً؛ وإني قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم: إني لا أنكر وجود الفضيلة، ولكني أجهل مكانها، فقد عقد رياء الناس أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري، حتى ما أجد في صفحة السماء نجماً لامعاً، ولا كوكباً طالعاً.

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الأذكى والأغنياء، ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظناً، فمن لي بالوصول إليها في هذا الظلام الحالك، والليل الأليل؟ إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها، فسعادتي فيها أن أعثر في طريقي في يوم من أيام حياتي بصديق يصدقني الود وأصدقته، فيقنعه مني ودي وإخلاصي دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه من مآرب وأغراض، وأن يكون شريف النفس فلا يطمع في غير مطعم، شريف القلب، فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً. ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناس في محضره؛ شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم، ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر^٢. شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة، ولا يبغيض غير الرذيلة.

هذه هي السعادة التي أتمناها ولكني لا أراها.

إني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها، وترن أطيافها، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها، انسياب الأفاعي الرقطاء، في الرمال البيضاء، وأرى أنامل النسائم تعبت بمنثورها الأوراق، عبث الهوى بالباب العشاق، وأسمع ما بين صفيير البلابل،

^٢ الهجر: الفحش.

وخرير الجداول نغمات شجية تبلغ من نفس الإنسان، ما لا تبلغ أوتار العידان، فلا يسرني منها منظر، ولا يطربني مسمع؛ لأنني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي أنشدتها.

لقد سمح وجه الرذيلة في عيني، وثقل حديثها في مسمعي، حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخير الحياة وشرها وسرورها وحزنها.

ولولا بنيات صغار يفقدون بفقد طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت، فأجد من الأنس به والسكون إليه ما وجده الذي يقول:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر

الفصل السادس

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيتَه واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت لحاله وسألته: ما باله؟ فشكا إليَّ الجوع، ففتأته^١ عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة، فأدهشني أنني رأيتَه واضعاً يده على بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به فشكا إليَّ البطنة، فقلت: يا للعجب! لو أعطى الغنيُّ ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكاً واحد منهما سقماً ولا ألماً.

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته، ويطفئ غلته؛ ولكنه كان محباً لنفسه، مغالياً بها، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة، حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه. وهكذا يصدق المثل القائل: بطنة الغني انتقام لجوع الفقير.

ما ضنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القويُّ الضعيف عليهما فزواهما^٢ واحتجتهما^٣ دونه، فأصبح فقيراً معدماً، شاكياً متظلماً، غرماؤه المياسير الأغنياء، لا الأرض والسماء.

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس. فأستطيع أن أتصور كما يتصورون، حجة الأقوياء في أنهم أحق بإحراز المال، وأولى بامتلاكه من الضعفاء؛ إن

^١ يقال: فتأت فلاناً عن فلان، إذا سكنت غيظه عليه.

^٢ زوى عنه حقه: منعه إياه.

^٣ احتجن الشيء: إذا جذبه بالمحجن إلى نفسه؛ والمحجن الصولجان، والمراد أنه استأثر به.

كانت القوة حجتهم عليه، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم؟ وما الحياة في نظر الحي بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع. وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم: إن كانت الأبوة غلة الميراث فلم ورثتم آباءكم في أموالهم ولم ترثوهم مظالمهم؟ فلقد كان آباؤكم أقوىاء فاعتصبوا ذلك المال من الضعفاء، وكان حقاً عليهم أن يردوا إليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال إلى أربابه، لا في الاستمرار على اغتصابه.

ما أظلم الأقوياء من بني الإنسان، وما أقسى قلوبهم، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد برداً وقرراً، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه، ولا ينغص عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تتوالب أحشاؤه شوقاً إلى فتاة تلك المائدة ويسيل لعابه تلفها على فضلاتها. بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجواهر، وغرفة من الأثاث والريش، ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويبغض إليه حياته، وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: أنا سعيد لأنني غني، وأنت شقي لأنك فقير.

أحسب لولا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم، لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها.

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً؛ لأنني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان، وإنني أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان؛ ورجل يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره وهو الشره المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً؛ ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره وهو البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه؛ وأما الرابع: وهو الذي يحسن إلى غيره، ويحسن إلى نفسه، فلا أعلم له مكاناً ولا أجد إليه سبيلاً، وأحسب أنه هو ذلك الذي كان يفتش عنه الفيلسوف

الغني والفقير

اليوناني «ديوجين الكلبى» حينما سئل: ما يصنع بمصباحه؟ وكان يدور به فى بياض النهار، فقال: «افتش عن إنسان».

الفصل السابع

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنني أمشي في قفرة جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعد الأمواج المتكسرة على سطح القاموس^١ المحيط، وكانت الشمس قد طفلت^٢ للإياب فلم أرَ في بطحائها ظلاً غير ظلي المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطأت في تصويره كأنما حسبتني آدم أبا البشر^٣ فأوسعتني طولاً ورسمتني ميلاً. أنشأت أمشي لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً، وأنّى يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكها. وتشاكلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها حتى انحدرت الشمس إلى مستقرها، وطار طائر الليل من مكمنه، ونشر الظلام أجنته السوداء في الأفق حتى وجدتني أحير من دمة وجد في مقلة عاشق؛ يدفعها الحب ويمنعها الحياء، ولا أعلم هل أنا سر كامن في باطن الظلماء، أو حوت مضطرب في أعماق الماء. وأحياناً كان يخيّل إليّ أنني في منجم من مناجم الفحم فأمد يدي أتمس جدران مخافة أن أصطدم بواحد منها؛ ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام قد بدا ينفذ صبغته. وأن ذراته تتطاير ههنا وههنا؛ فإذا أنا بين يدي جبل عال كأنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الأرض، أو ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الأحمر، ومن شعاعها الرداء الأصفر.

^١ القاموس: وسط البحر ومعظمه.

^٢ طفلت الشمس: احمرت للغروب.

^٣ ربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة، ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهني على حد قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

ولا تسل هنالك عما أَلَمَّ بقلبي من الهم وعقلي من الخبال، حينما رأيت أن صعود السماء أقرب إلى الأمل، من صعود هذا الجبل، وحرّت بين الإقدام والإحجام، فلم أر بُد من الاستسلام لمقدور الحمام، ثم رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة الملمس، فاضطجعت عليها وأنا أتمثل بقول أبي العلاء:

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد

وما هي إلا غمضة الطرف أن أشعرت بأنها تتحرك قليلاً قليلاً، ثم استقلت ثم طارت، فكدت أحسب أنه الموت قد نزل، وأنها الروح تصعد إلى الملاء الأعلى. لولا أن فتحت عيني فرأيت ما كنت أحسبه صخرة طائرًا أشبه شيء بالنسر في خلقه والقبة في ضخامتها واستدارتها، واستمر زاهبًا بي في أفق السماء، ثم رنق لحظة في الهواء ثم هبط إلى قمة الجبل فأسرعت بالانحدار عنه وهناك أحسست بسلسبيل بارد من الأمل يتسرب إلى قلبي فينقع غلته، ويطفئ لوعته، لأنني رأيت السفح الثاني ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران.

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ورأيت الأكواخ الصغيرة والقصور العظيمة كأنها العصافير السوداء، والحمام البيضاء، وكأن ما أَلَمَّ بنفسي من السرور أنساني ما أَلَمَّ بجسمي من النصب فاندردت إليها فما بلغت حتى رأيتني في مزرعة في وسطها بنية قد وقف على بابها شيخ هو أشبه الأشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة في صور سكان المريخ، فذعر مني كما يذعر الإنسان لرؤية الجان، وما كان الذي قام في نفسه مني بأكثر مما قام في نفسي منه، لولا أنني ألفت الغرائب، وعجمت عود العجائب فتقدمت نحوه وكأنما ألهمت لغته، فحييته بها فحياني وهو يقول: ما كنت أحسب أن الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة، أو أن في العالم إنساناً غير هذا الإنسان؛ فما زلت أحدثه وأستدنيه حتى أنس بي ودعاني إلى منزله وخلطني بنفسه وأمله وقدم لي طعاماً شهياً ومهد لي مرقداً وثيراً^٤. وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه، فنمت نوماً هادئاً مطمئناً لا تروعي فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك.

^٤ الوثير: الواطئ.

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلي إلى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهي مصطفة صفًا واحدًا أن ييسر لها الله عسرها، ويسهل أمرها، ويصلح شأنها، ويمنحها معونته ونصره، فأخذ منظرها هذا من نفسي مأخذًا عظيمًا فلم أر بُدًا من الانتظام في صفها، والدعاء بدعائها والبكاء لبكائها؛ وعجبت أن يكون مثل هذا الإيمان الخالص راسخًا في نفوس أهل هذه المدينة، ولم يرسل إليها رسول، ولم ينزل عليها كتاب؛ فلما فرغنا من الصلاة التفتُّ إلى صاحب البيت وقلت له: أراكم تتعبدون، فمن تعبدون؟ وتصلون، فمن الذي تدعون؟ قال: نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها؛ قلت: هل رأيتموه حتى عرفتموه؟ قال: نعم رأيناه في آثاره ومصنوعاته؛ رأيناه في السماء والماء، والفلك الدائم والنجم السائر، وفي أجنحة الحيوان وبذور النبات، ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك. قلت: ولم تعبدونه؟ قال: شكرًا له على نعمة الخلق والرزق، وإن أحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن إليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة؛ فأحرى به أن يشكر مانح المانحين، والمحسن إلى المحسنين، فقلت في نفسي: لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين، لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، ثم سألته: أين تذهبون بعد الموت؟ قال: إلى النعيم المقيم أو العذاب الأليم. قلت: لعلك تريد الجنة والنار؟ قال: لا أفهم ما تقول، وإنما أعلم أن الإله الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيرًا على إحسانه، كما يأبى عدله أن يسوي بين المحسن والمسيء. قلت: متى يكون المحسن محسنًا والمسيء مسيئًا؟ قال: الإحسان عمل الخير، والإساءة عمل الشر؛ لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالإضرار بأخيه، أو من يقصر في دفع الأذى عنه، فقلت في نفسي ليت الفقهاء الذين ينفقون أعمارهم في الحيض والاستحاضة والمذي والودي^٥ والحدث الأكبر والحدث الأصغر، وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالي ويقرحون المآقي في عينية الصفات وغيرها والجواهر والعرض والحدوث والقدم، والدور والتسلسل، وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله مشيئته ويجاذبوه قدرته، ويغالبيه على أمره ونهيه ويزاحموه في لوحه وقلمه — يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء البله الأغرار، الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار، ولا يميزون بين الدين والتين.

^٥ المذي والودي: نوعان من الماء الذي يخرج من القضيب.

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يزيّرني في المدينة. فأنحدر بي إليها، فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة، وقد أحاط بكل منزل منها حديقة زاهرة، ورأيت سكانها مكبين على أعمالهم، مجدين في شئونهم. صغاراً وكباراً. رجالاً ونساءً. ما فيهم فقير يتسوّل. ولا متبطّل يتتأبب ويتململ؛ وأغرب ما استهوى نظري أنني لم أر في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي أعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم. ومطاعمهم ومشاربهم، وهياتهم وأزيائهم، كأن جميع سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجة الثروة، فسألت الشيخ: ألا يوجد فيكم غني وفقير، وسيد ومسود؟ قال: لا يا سيدي، حسب الرجل منّا بيت يؤويه ومزرعة تقيته ودابة تحمل أثقاله، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لأنه لا يوجد فينا غني وفقير. قلت: لا بد أن يوجد بينكم العاجز عن العمل والمتعطل الكسلان! قال: أما الكسلان فلا وجود له بيننا؛ لأنه يعلم أنا لا نرحمه ولا نغفر له ذلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل، وأما العاجز فنحذب عليه ونحسن إليه، ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلاً لأننا إنما نمنحه جزءاً من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين، ورحمة البائسين. وإنه ليحدثني بهذا الحديث إذ لاحت لنا بنية فخمة فخمة تمتاز عن غيرها من البنى بحسن نظامها، وجمال هندامها، فقلت للشيخ: هل أرى قصر الملك؟ قال: لا، ولكنه قصر رجل شريّر طماع قد خالف إرادة الله وحكمه فاحتجّن^٦ دون عباده أرضهم ومالهم ليعلو عليهم، ويستأثر بالنعمة من دونهم، فغضب الله عليه، وقلب نعمته نقمة، ورخاءه شدة، فإنه ما أراح^٧ رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه إلى شهواتها، وحملها فوق ما تحمل طبيعتها، فما هو ذا اليوم يقاسي من آلام الأمراض وأنواع الأسقام ما بغض إليه العيش، وحبب إليه الموت، لم يحمه قصره، ولم يغني عنه ماله، فهو عبرة المعتبرين، وموعظة السابلة؛^٨ فكبر الرجل في ذرعي^٩ وعظم في عيني، وأكبرت فيه وفي أمته هذه الخلال الشريفة، والأخلاق العالية، وقلت في نفسي إن مدارسنا على ما

^٦ احتجّن المال: ضمه واحتواه.

^٧ أراح فلان الشيء: وجد ريعه.

^٨ السابلة: المختلفون على الطرقات في حوائجهم.

^٩ كبر في ذرعي: عظم وقعه عندي.

تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة وأصول التربية وفنون الآداب، لتعجز عن أن تخرج للناس رجالاً يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم وفضائلهم؛ وأردت — على ذكر المدارس — أن أعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ: هل لك أن تُزيرني مدرسة من مدارسكم؟ فعجب لسؤالي وقال: ما المدرسة؟ فكان عجبي لجوابه أكثر من عجبه لسؤالي وقلت: المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون وكبار يعلمون؛ قال: ما الذي يتعلمه الصغار من الكبار؟ قلت: ما يصلح شأنهم وينفعهم في معاشهم وميعادهم؛ قال: وأي حاجة بنا إلى مثل هذا المجتمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود؟ إننا يا سيدي أرحم بأبنائنا من أن نكل أمرهم إلى غيرنا، فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم. فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع، نعلمهم فيها كيف يرمون البذور. وكيف يستنبثونها. وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها. وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعُدُّون عددهم. وإننا لا نعرف علمًا غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا. ونستعين به على عبادة ربنا. قلت: ألكم حاكم يتولى أموركم؟ قال: لنا حكم لا حاكم وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته. فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض لنا من ذلك عارض. قلت: أليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ أحكامه؟ قال: كلنا جنده وكلنا وأعوانه على كل من يختلف عليه أو يتمرد على حكمه فقد وثقنا به وبعدلته وحسبنا ذلك وكفى.

قلت: أليس له سجنًا يسجن فيه المجرمين؟

قال: لا. حسب المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزراية به. وإن أحدنا لا يؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كسف^{١٠} من السماء على أن يرى نفسه بغيضًا إلى قومه صغيرًا في نفوسهم ذليلاً في أعينهم. لا يرفعون إليه طرفًا، ولا يقيمون له وزنًا.

وما وصلنا من حديثنا إلى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة، ووصلنا إلى المنزل الذي خرجنا منه. فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق. فلم أر فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتًا أسعد حظًا ولا أنعم عيشًا ولا أروح بالًا من هذا البيت.

^{١٠} الكسف: القطعة.

تلك هي «مدينة السعادة» التي يعيش أهلها سعداء، لا يشكون همًّا. لأنهم قانعون. ولا يمسون في أنفسهم حقًا. لأنهم متساوون، ولا يستشعرون خوفًا لأنهم آمنون. تلك «مدينة السعادة» التي رأيتها فأحببتها وأحببت العيش فيها. لولا أن الله في خلقه سنة لا تتبدل. وشأنًا لا يتحول. فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقي في منزل الشيخ فلم أستيقظ حتى رأيتني في فراشي في منزلي؛ فلا السهل ولا الجبل. ولا الشيخ ولا المزرعة. ولا المدينة ولا السعادة:

ولما نزلنا منزلا طله الندى^{١١} أنيقًا وبستانًا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانيا

^{١١} طل أمطره الطل، وهو المطر القليل

الفصل الثامن

أيها المحزون

إن كنت تعلم أنك أخذت على الدهر عهدًا أن يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك. وألّا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي؛ فجدير بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب أو استعصى عليك مطلب. وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في أخذها وردّها، وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها، حتى تكرر عليها راجعة فتستردّها. وأن هذه سنتها وتلك خلتها في جميع أبناء آدم. سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ. ومن يظاً بنعله هام الجوزاء. ومن ينام على بساط الغبراء؛ فحَفْض من حزنك وكفكف من دمك. فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان. وما مصابك بأول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان.

أنت حزين لأنّ نجمًا زاهرًا من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملاً عينيك نورًا. وقلبك سرورًا، وما هي إلا كَرَّة الطرف أن افتقدته. فما وجدته. ولو أنك أجملت في أملك لما غلوت في حزنك. ولو أنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقًا خاطفًا. ما تظنه نجمًا زاهرًا. وهنالك لا يبهرك طلوعه، فلا يفجعك أقوله.

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها. ونظر إليها نظرة المستريب بها. وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها. فإن بقيت في يده فذاك؛ وإلا فقد أعدّ لفراقها عُدتّه من قبل.

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت، ولولا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر. ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة الفراق.

الفصل التاسع

إلى الدير

مسكين ذلك الفتى الذي رأيته صباح أمس منزويًا في ركن من الأركان في أحد الأندية وقد ظلمت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن، وانحنى على نفسه كأنما هو يشعر أن قلبه يتنزى في صدره وأنه يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه، ولو أنه أراد بنفسه خيرًا لتركه وشأنه يمضي في سبيله حيث شاء، فبعدًا لقلب لا يسكن عن الخفقان، ولا يفيق من الهموم والأحزان.

سألته: ما بالك أيها الصديق؟ قال: لا شيء. قلت: أنت تكتمني ما في نفسك، ولو عرفتني ما كتمتني، قال: ما جهلتك مذ عرفتك، ولكنني أعطيت الله تعالى عهدًا مذ خلقت ألا أشكو إلا إلى من أرجو عنده البرء، وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس براءً من دائي، قلت: هبني طبيبًا، والطبيب وإن كان لا يشفي إلا نادرًا فإنه يسكن غالبًا ويعزي دائمًا. فإن أنا عجزت عن معالجتك فلن أعجز عن تعزيتك، على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفيس عنه، وإلا طار بالقدر، طيران الهم بالصدر.

فأصغى إلى كلماتي واستخذى لها وأنشأ يحدثني حديثًا تمازجه العبارات وتقطعه الزفرات، ويقول: زوجني أبي منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج إلا فيه قضاء لبانتها وترفيه عيشها وإرضاء نفسها، وهو يحسب أنه قد أحسن إليّ بسليلة المجد، وربيبه النعمة، ومالكة الدور، وساكنة القصور؛ أجل إنها ذات مال وفير، وخير كثير، ولكن ذهب عنه — غفر الله له! — أنني ما كنت أريد أن أكون تاجرًا أكسب مالا، بل زوجًا، وأن أجد بجانبني نفسًا يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبها، ومراة صافية نقية أترأى فيها فتريني نفسي كما هي، لا تكذبنني في خير ولا شر وإني أريد أن أجد في الزوجة التي أتزوجها صديقًا في المرتبة العليا من مراتب الصداقة، ومن لي به في امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها ولبس ثوبها! على

أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها، فقد كانت لها خادم للابسها، وأخرى لشعرها، وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة، ومرضع وقهرمان^١ وخياطة خاصة بها، وطبيب لا يغيب^٢ عن زيارتها، ومؤنسات لا يفارقن مجلسها. ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال. فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلها في الحسن المجلوب والجمال المكذوب. وليتها كانت تغفل أمري وتتركني وشأني فأستطيع أن أتناساها وأعد نفسي من العذاب تخيلاً وتقديراً، بل كانت تقيم عليّ من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب^٣ المحيط بها حراساً كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الإنكليز، يراقبن مواقع نظري ومواطئ قدمي، لتعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسي فتغار عليّ من الكواكب إذا رأنتني أنظر إليها. وتكاد تمزق الثوب الذي تعلم أنني أحبه وأؤثره. وتحسبها آهة الوجد أو دمة إذا رأنتني أتأوه من آلام عشرتها أو أبكي لعظم مصيبتني فيها. وما هي بغيرة الحب، ولكنها الأثرة^٤ قبحها الله وقبح كل من تأتي به، وأكثر ما كان يغيظني منها: أنها ما كانت تفتح عليّ باب الحساب على اللفات والخطوات إلا في الساعة التي أريد أن أخلو فيها بنفسي أو بكتابي، فما أكاد أنتفع بواحد منهما، فإن سكّ أغضبها سكوتي، وإن نطقت أغضبها حديثي، وإن قرأت في كتابي ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكاية بها لأستطيع أن أتخذها معتصماً أعتمد به من محادثتها ومسامرتها. فكان الكتاب في نظرها أعدى أعدائها وأبغض الأشياء إليها، وجملة القول أنها ما كانت تستطيع أن تتصور إلا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع أطوار حياتها، وأنه ما خلقني إلا لأكون زينة مجلسها ودمية^٥ قصرها، وأداة لهوها ولعبها، فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطي نفسي حقاً من حقوقها، ولا أبكر لمزاولة أعمالي ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة التي لا تشتمل إلا على نقد الأزياء واغتياب النساء. فإن وافيت فذاك وإلا استحالت في لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى وحش مفترس، فلا تعرف كلمة مؤلة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها عليّ. فكانت — بين ألم رضاها وعذاب

^١ القهرمان: الوكيل، أو أمين الدخل والخرج، جمعها: قهارة.

^٢ أغب فلان القوم: إذا جاءهم حيناً بعد حين.

^٣ الجحفل: الجيش. واللجب: ذو الجلبة والصياح.

^٤ الأثرة: اختيار الشيء والاستئثار به.

^٥ الدمية: الصورة المنحوتة من المرمَر.

غضبها — في شقاء حبيبٍ إلى الموت وبغضٍ إلى وجه الحياة. وبعد: فقد رأيت أن العيش معها مستحيل. فلم أرَ بُدًّا من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض شيء أبغض إليَّ من المجد. ولا أسمح في نظري من المال. قلت: ولكني لا أزال أراك حزيناً حتى الساعة. قال: نعم لأنني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة. ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت: ليكون لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول. بعدما صار إليَّ الخيار. وبعد تلك التجربة وذاك الاختيار. فهياً لي الحظ جازاً ملاصقاً ما زلت أسمع مذ حل في جوارِي أن في بيته فتاة جميلة ما زال يعنى بأمرها حتى خرَّجها^٦ وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها. وسيدة أترابها علماً وفضلاً وتهذيباً وأدباً. فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباهما ثم خالطتها. فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها. فوقعت في نفسي أحسن موقع.

وحلت مكاناً لم يكن حلّ من قبل.

خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث أن أخطبني^٧ فامتلاً قلبي فرحاً وسروراً. وخيل إليَّ أنني أرى في سماء الآمال نجماً لامعاً ينير ظلمة حياتي، وسجلت أن الدهر أنشأ يكفر بحسناته ما أسلف من سيئاته، فأني لذلك وقد أعددت للبناء بها عدته، ولم يبق بيني وبينه إلا يوم واحد، إذا بالبريد قد هجم عليّ بهذا الكتاب، فهاككه فاقراءه؛ فإن فيه بقية قصتي، وسر نكبتني. ثم ألقى إليّ بكتاب معنون بإسمه، ففضضته فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة، وقد ألفت برأسها على كتفه، ووجدت مع البطاقة كتاباً، فقرأت فيه ما يأتي:

علمت أنك خطبت فلانة إلى أبيها وأنت عما قليل ستكون زوجها، ولعمري لقد كذبك نظرك، وخدعك من قال لك إنك ستكون سعيداً بها، فإنها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك، ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلاً بحب عاشقها، فاعدل عن رأيك فيها، وانفض يدك منها، وإن أردت أن تعرف من هو ذلك

^٦ خرج الأستاذ تلميذه: هذبه وعلمه.

^٧ يقال خطب فلان إلى فلان فأخطبه: أي أجابه.

العاشق وتتحقق صدق خبري وإخلاصي إليك في نصيحتي فانظر إلى الصور
المرسلة مع هذا الكتاب.

التوقيع

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء، فأحسست برعشة تتمشى
في أعضائي، وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري لهول ما سمعت، وسوء ما
رأيت، إلا أنني تماسكت قليلاً فأعدت إليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت أن
أقول: ماذا يعنك من أمر فتاة عاهر بعدما انكشف لك سرها، وظهرت لك حقيقتها،
ولو كنت في مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها، إلى الاستغفار من حبها، وحمدًا لله
على ما ألهم من صواب الرأي فيها؛ أما إن سألتني عن رأيي في زواجك بعد الآن، فأني
لا أرى لك إلا أن تترهب وتعرَّب^٨ وأن تقول ما قاله «هملت» وقد زهد في الزواج بعدما
عرف حقيقة المرأة، وأدرك خبيثة نفسها: «إلى الدير. إلى الدير».

^٨ تعرَّب: أي عاش عَزَبًا لا يتزوج.

الفصل العاشر

الرحمة

سأكون في هذه المرة شاعرًا بلا قافية ولا بحر؛ لأنني أريد أن أخاطب القلب وجهاً لوجه، ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر.

إن البذور تلقى في الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها، وجعل عاليها سافلها، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته، وتخللت أجزأه، وبلغت سويداءه، ولا محراث للقلب غير الشعر.

أيها الرجل السعيد: كن رحيماً، أشعر قلبك الرحمة، ليكون قلبك الرحمة بعينها. ستقول: إني غير سعيد؛ لأن بين جنبي قلباً يلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب، أجل. فليكن ذلك كذلك، ولكن أطعم الجائع، واكس العاري وعز المحزون، وفرّج كربة المكروب، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك، فالبدر لا يطلع إلا إذا شق رداء الليل، والفجر لا يدرج إلا من مهد الظلام.

لقد بليت اللذات كلها. ورثت حبالها. وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد. ولم يبق ما يعزي الإنسان عنها إلا لذة واحدة: هي لذة الإحسان.

إن منظر الشاكر منظر جميل جذاب. ونعمة ثنائيه وحمده أوقع في السمع من العود في هزجه ورملة^١ وأعذب من نغمات معبد في الثقليل الأول.^٢

أحسن إلى الفقراء والبائسين، وأعدك وعداً صادقاً أنك ستمت في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك، أنك

^١ الهزج والرملة: نوعان من الموسيقى.

^٢ معبد: أحد كبار المغنين في العصر الأموي، والثقليل الأول: ضرب من ضروب الغناء.

أكرم مخلوق، وأشرف إنسان، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيرًا بما فعلت. فيدعو صاحبه بدعائه، ويرجو برجائه. وهناك تجد من سرور النفس وجورها بها الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة: ما يجده الصالحون إذا ذُكِرُوا في الملأ الأعلى. ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود^٣ فتبتسم سرورًا ببكائك. واغترباطًا بدموعك، لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور. تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان.

إن السماء تبكي بدموع الغمام. ويفتح قلبها بلمعان البرق. وتصرخ بهدير الرعد، وإن الأرض تتن بحفيف الريح. وتضج بأموج البحر، وما بكاء السماء وأنين الأرض إلا رحمة بالإنسان. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وأنينها.

إن اليد التي تصون الدموع، أفضل من اليد التي تريق الدماء، والتي تشرح الصدور. أشرف من التي تبقر البطون، فالمحسن أفضل من القائد وأشرف من المجاهد، وكم بين من يحيي الميت، ومن يميت الحي.

إن الرحمة كلمة صغيرة. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها. والشمس في حقيقتها.

وإذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم. وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء.

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم. ولأقفرت الجفون من المدامع. ولاطمأنت الجنوب في المضاجع. ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام.

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه، ولم يقذف به في هذا المجتمع ليموت فيه جوعًا. بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤنثته. ويسد حاجته. ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوي بالضعيف واحتجج دونه رزقه. فتغير نظام القسمة العادلة. وتشوه وجهها الجميل. ولو كان للرحمة سبيل إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل.

الفرد هو المجتمع. وإنما يتعدد بتعدد الصور. أتدري متى يكون الإنسان إنسانًا؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه. فحقق قلبه لخفقان القلوب

^٣ المفؤود: المصاب في فؤاده بألم أو غيره.

وسكن لسكونها. فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها، انفرد عنها واستوحش من نفسه، وإذا كان الأنس مأخذ^٤ الإنسان المجتمع. فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع. وجماع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأشقياء في مكان واحد؛ إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشیطان الرجيم. إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل. فإذا مشى مشى مندفعاً مندلاً^٥ يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا وقع نظره على بئس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراق في الضحك سخريه به وببذاءة ثوبه ودمامة خلقه، وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم^٦ ويمتص دماءهم، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويهاته وبقراته. لا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يترقب من الربح في الاتجار بالبانها وأصوافها. ولو استطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل. وإن من الناس لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره. يبيت ليله حزيناً كثيباً لأن خزائنه ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يحلم في منامه أنه سيأتيه فلم يقبض له، وإن من الناس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة أو يدفع عنها مضرة، بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه أو ليضر^٧ نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه. حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدبّ عقاربها وغرض سهامه. وإن من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقق فيها، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلا الصورة البشرية، أو عن قلبه رأيت حجراً صلداً من أحجار الغرانيت لا يبض^٨ بقطرة من الرحمة. ولا تخلص إليه نسمة من العظة.

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله من أن تكون واحداً من هؤلاء فإنهم سباع مفترسة وذئاب ضارية. بل أعظك ألا تدنو من واحد منهم أو تعترض طريقه. فربما بدا له أن يأكلك غير حافل بك. ولا آسف عليك.

^٤ مأخذ الكلمة: أصل اشتقاقها.

^٥ اندلث: كاندفع.

^٦ الدرة: اللبن إذا كثر وسال.

^٧ يقال: أضرى فلان كلبه بالصيد، وضراه: إذا أغراه به وعوّده متابعته.

^٨ بض الدم: سال.

أيها الإنسان. ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، إرحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة.

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتت منها عرضها عَلَّها تعجز عن أن تجد مساوياً يساومها فيه فتعود به سالماً إلى كسر بيتها.

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة، ولأن الله قد وكل أمرها إليك، وما كان لك أن تكذب ثقته بك.

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتلتَه أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين.

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه ليكون من الخاسرين.

ارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكي بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين. ارحمه وكذب من يقول إن الإنسان طبع على ضرائب لؤم، أقلها أنه يُقْبَلُ يد ضاربه ويضرب من لا يمد إليه يداً.

ارحم الطير لا تحبسها في أقفاصها ودعها تهيم في فضاءها حيث تشاء، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقيز، إن الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها في محبس لا يسع مد جناحها؛ أطلق سبيلها، وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الأشجار، وفي الغابات، وعلى شواطئ الأنهار، وترى منظرها وهي طائفة في جو السماء، فيخيل إليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيَّار.

أيها السعداء. أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأتقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

الفصل الحادي عشر

رسالة الغفران^١

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداهما ولا بما وقع لي فيها، ثم صحت فرأيت نفسي في صحراء مدَّ البصر مكتظة^٢ بأنواع من الخلق لا أحصيهم عدداً، فعلمت أنني بعثت، وأنه يوم القيامة، فساورني^٣ من الهم ما ساورني حيث ذكرت أن مقداره ألف سنة من سني القيامة، وقلت: من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأً وجوعاً، ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلا قيد ظفر، فتماسكت بضعة أشهر، ثم لم أجد بعد ذلك إلى الصبر سبيلاً، فزينت لي نفسي الكاذبة أن أذهب إلى رضوان خازن الجنان، وكنت أحمل شهادة التوبة في يدي لأسترحمه، وألتمس منه الإذن بالدخول قبل انفضاض المحشر، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسوَّمة^٤ باسمه كما كنت أرقّي بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها، فما أبه^٥ لي ولا فهم كلمة مما أقول؛ فانصرفت عنه إلى خازن آخر اسمه زفر فكان شأني معه شأني مع صاحبه، إلا أنه كان أرق منه وألين جانباً، فأشار عليّ بالذهاب إلى النبي الذي أتبعه، وأفهمني أن الأمر موكل إليه، فعدت وبين جنبي من الحسرة والألم ما الله عالم به، فبينما أنا أتخلل الصفوف، وأزاحم الوقوف، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم، وأنعمت النظر فيه،

^١ للمعري رسالة طويلة بهذا العنوان هذه خلاصتها.

^٢ مكتظة: مملوءة.

^٣ ساورته الهموم: واثبته وملكت ناصيته.

^٤ المسوَّمة: المعلمة.

^٥ أبه: احتفل.

فإذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي، وإذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه، هذا يقول له: رويت بيتي على غير وجهه؛ وذلك يقول: أعربته على غير ما أردت وذهبت، فدفعني الفضول كما دفعهم إلى النزول في ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت، وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك، فقلت: قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب، إنها شؤم الآخرة والأولى.

وقفت أحياناً من ضب في حمارة^٦ قيظ لا أدري ما آخذ، وما أدع، حتى رميت بطرفي فإذا بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب في ليف من العترة^٧ الطاهرة النبوية فدلقت^٨ إليه وأبثثته^٩ أمري وأمر الشهادة المفقودة فقال: لا عليك، ألك شاهد بالتوبة؟ فقلت: نعم، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي، فقال: تريث^{١٠} قليلاً حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسألها في أمرك، فهي تمت إلى أبيها بما لا نمث^{١١} به^{١١} وكانت ممن قسم لهم دخول الجنة قبل فصل القضاء إلا إنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها، ثم تعود إلى مستقرها، فإننا لذلك، وإذا بمنادٍ ينادي أن غصوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد ﷺ، فهرعت إليها، فرأيتها راكبة مع إختوها وجواريتها على أفراس من نور، وتقدم من وعدني بسؤالها في أمري، فأنجز وعده، فقالت لأخيها إبراهيم: دونك الرجل، فقال: تعلق بركابي، فتعلقت، فطارت الأفراس في الهواء تقطع الأجيال وتتخطى رؤوس القرون، حتى وافينا محمداً ﷺ، واقفاً لشهادة القضاء، فقصت عليه فاطمة ما علمت من أمري، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفع لي فعدت في ركب فاطمة فرحاً مستبشراً، وما كنت أقدر أن بين يدي عقبة الصراط، فلما وافيته وجدته لا أستمسك عليه لرقته، فأمرت فاطمة جارية من جواريتها أن تعبر معي فأمسكت بيدي، فمشيت أترنح ذات اليمين وذات الشمال، وخفت السقوط فقلت

^٦ الحمارة — بالتشديد — شدة الحر.

^٧ عترة الشخص: عشيرته وأهله.

^٨ دلف: مشى مشياً متثاقلاً.

^٩ أبثته السر: كاشفه.

^{١٠} تريث: أبطأ.

^{١١} تمت بالشيء: توصل به.

لها: احمليني زقفونة، فقالت: وما زقفونة؟ فقلت: أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب:

صَلَّتْ حَالْتِي إِلَى الْخَلْفِ حَتَّى صَرْتُ أَمْشِي إِلَى الْوَرَا زَقْفُونَةَ

فقالت ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب، فقلت: أَلْقِي يَدِي فَوْق كَتِفِكَ، وَأَجْعَلْ بَطْنِي إِلَى ظَهْرِكَ، فَحَمَلْتَنِي، وَجَازَتْ بِي الصَّرَاطُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، حَتَّى صَرْتُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَرَمْتُ الدُّخُولَ فَوْقَ رِضْوَانٍ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ: أَيْنَ جَوَازُكَ^{١٢} فَبَعِثْتُ^{١٣} بِالْأَمْرِ؛ ثُمَّ رَأَيْتُ فِي دَهْلِيزِ الْجَنَّةِ شَجَرَةً صَفْصَافَ فَعَالَجْتَهُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَنِي مِنْهَا وَرَقَةً أَعُودَ بِهَا إِلَى الْمَوْقِفِ لِأَسْتَكْتَبَ عَلَيْهَا الْجَوَازَ فَأَبَى؛ فَقُلْتُ، وَقَدْ مَلَكَ الْهَمُّ عَلَى رَشْدِي وَصَوَابِي: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّكَ حَارَسَ عَلَى أَبْوَابِ الْكِرْمَاءِ، أَوْ خَازِنَ لَخَزَائِنِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ لَمَا وَصَلَ شَاعِرٌ إِلَى دَرْهِمٍ، وَلَا سَائِلٌ إِلَى سَحْتَوْتِ^{١٤}، وَلَهْلَكَ الْفُقَرَاءُ بؤْسًا وَجُوعًا، فَسَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَارِي^{١٥} فَجَذَبَنِي جَذْبَةً حَصَلَنِي بِهَا فِي الْجَنَّةِ وَصَاحِبِي يَنْظُرُ إِلَيَّ شَرْزًا فَدَخَلْتُ، فَرَأَيْتُ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. رَأَيْتُ أَنْهَارًا مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ أَصْفَى مِنْ أَدِيمِ السَّمَاءِ، وَأَصْقَلَ مِنْ مَرَاةِ الْحَسَنَاءِ، تَنْصَبُ فِيهَا جَدَاوِلُ مِنَ الْكُوْثَرِ، إِذَا جَرَعَ الشَّارِبُ مِنْهَا جُرْعَةً جَرَعَ مَاءَ الْحَيَاةِ وَأَمِنَ أَنْ يَذُوقَ كَأْسَ الْمَنُونِ مَرَّةً أُخْرَى، وَرَأَيْتُ جَدَاوِلَ تَفِيضُ بِالرَّاحِ فَيَضًا قَدْ زُيِّنَتْ حَوَافِيهَا بِأَبَارِيقٍ مِنَ الْعَسْجَدِ، وَكُتُوسٍ مِنَ الزَّبْرِجْدِ، فَمَا نَهَلْتُ مِنْهَا نَهْلَةً حَتَّى قَلْتُ لَوْ كُشِفَ لِأَهْلِ الْعَاجِلَةِ عَمَّا فِي هَذِهِ الْخَمْرَةِ مِنَ اللَّذَّةِ لَا يَشُوبُهَا كَدَرٌ، وَالنَّشْوَةُ الَّتِي لَا يَعْقِبُهَا خَمَارُ^{١٦} مَا بَاعُوا قَطْرَةً مِنْهَا بِكُلِّ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ بَابِلُ وَقَطْرِبِلُ^{١٧} مِنَ الْبَوَاطِي^{١٨}

^{١٢} الجواز صك المسافر.

^{١٣} بعل بأمره: برم به فلم يدر ما يصنع فيه.

^{١٤} السحتوت في الأصل: السويق القليل الدسم، ثم أطلق على كل شيء قليل.

^{١٥} الحوار: مراجعة الكلام.

^{١٦} الخمار: صداع الخمر.

^{١٧} بلدان معروفان بجودة خمرهما.

^{١٨} جمع باطية، وهي إناء الشرب يوضع بين الشرب للاغتراف منه.

والدنان، ولو نظر الأقيشر الأسدي بعين الغيب إلى عسجد هذه الأباريق وزبرجد تلك الكئوس لخل من نفسه أن يقول:

أفنى تِلادي وما جمعت من نشب قرعُ القوايز^{١٩} أفواه الأباريق

وفي تلك الأنهار آنية ترفرف فوق سطحها على صورة الطيور كالكراكي والطوايس والبط والعنديل ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب وتسبح فيها أسماك من الذهب والياقوت:

يُعمن فيها بأوساط مجنحة^{٢٠} كالطير تنشر في جوّ خوافيها

ورأيت أنهاراً من لبن، وأنهاراً من عسل لا يدرك الوهم كنهه إلا إذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من أزهارها وأنوارها.

رأيت جميع تلك الأنهار مكبرة، ثم تمثلت في نظري مصغرة، فإذا هي سطور من النور، وأحرف بيضاء في صحيفة خضراء، قرأتها فرأيتها ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿٢١﴾

ظلت أمشي فما أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظرًا عجبًا ينسي السابق، ويشوق إلى اللاحق، فوددت لو طويت لي الأرض طيًّا فأتعجل النظر إلى ما غاب عني من الجنة وبدائعها. فما أخذ هذا خاطر مكانه من نفسي حتى رأيت بين يدي فرسًا من الجواهر المتخير مسرجًا ملجمًا فعلمت أنني قد سعدت وأنها الأمنية التي كنت أتمناها، فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق^{٢١} من السحاب، والسيف من القراب،^{٢٢} وعلى ما جهدته لم يشك إليّ ما شكاه جواد عنتره العبسي إليه في قوله:

^{١٩} القوايز: جمع قازوزة وهي قدح الشراب.

^{٢٠} مجنحة: ذات أجنحة.

^{٢١} الودق: المطر.

^{٢٢} قراب السيف: غمده.

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة إليه في قوله:

تشكي الكميت الجري لما جهدت هـ وبين لو يستطيع أن يتكلما

ذكرت أني، وأنا في الدار الفانية كنت أسمع بذكر الزاهبين الأولين من الأدباء والشعراء والرواة، فأسف على أن لم أكن في زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم، فقلت: ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار، وهل سعدوا أو شقوا، وهل يقيض لي من رؤيتهم في دار البقاء، ما لم يقيض في دار الفناء؟

ثم رميت بطرفي فإذا فارس يحضر فرسه^{٢٣} في الهواء إحضاراً حتى تقاربنا فتماسمت الركب واختلفت الأعناق، فقال: انتسب، فقلت: فلان، ومن أنت يرحمك الله، وقد فعل؟ فقال: عدي بن زيد العبادي، فدهشت وقلت: عدي بن زيد في الجنة بعد الزيف والضلال؟ فقال: أنا عيسوي، وأنت محمدي، وليس لصاحبك على أحد حجة إلا بعد ظهوره، وبلوغ دعوته، فقلت: لا نكران؛ ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك، وأين استهتارك في قولك:

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي أما تستفيق
ودعوا بالصبوح فجراً فجاءت قينة في يمينها إبريق

قال: غفر الله لنا ما غفر لكم، قلت: هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله أن أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة! فقال: اصحبني، فطارت بنا الخيل، فقلت له: هل آمن ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد أو هضبة من الياقوت، فيكسر لي عضداً أو ساقاً؟ فتبسم وقال: أين يذهب بك؟ نحن في دار الخلود والبقاء.

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمري على شاطئه جمع كثير على سرر متقابلين، أو على الأرائك متكئين، فهو صاهبي بفرسه فهويت هوياً، وقلنا سلام

^{٢٣} أحضر الفرس: ارتفع في عدوه.

عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا، ثم أخذوا فيما كانوا فيه، فإذا الأصمعي ينشد مروياته، وأبو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان، وإذا سيبويه والكسائي متصافيان بعد أن وقع بينهما في مجلس البرامكة ما وقع، وأحمد بن يحيى لا يضمّر لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضمّر، وأخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول أعشى ميمون:

«مثل ريح المسك ذاك ريحها».

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاءه، وقلت في نفسي: لولا أن قريشاً صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا، فسمعت هاتفاً من ورائي يقول: أنا بينكم، وفي مجلسكم، فالتفتُ فإذا الأعشى ميمون، فلم أدر من أي مدخله^{٢٤} أعجب، أمن مدخله إلى الجنة؟ أم من مدخله إلى نفسي، وعلمه بما هجس في صدري؟ فعلمت أن أهل الجنة ملهون، ثم سألته: كيف غفر لك؟ فقال: سحبتني الزبانية إلى سقر فرأيت في عرصات القيامة رجلاً يتلأأ وجهه تلالؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب: الشفاعة يا محمد، فأخذت أخذهم، وهتفت هتافهم فأمر أن أدنو منه، فدنوت فسألني: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

فإن لها في أهل يثرب موعداً	ألا أيهذا السائل إن يممت
ولا من وجى حتى تلاقي محمداً	فأليت لا أرثي لها من كلاله
تراحي وتلقى من فواضله ندأ	متى ما تناخي عند باب ابن هاشم
أغار لعمري في البلاد وأنجدا	نبي يرى ما لا ترون وذكره

فقال: ما سمعتها منك قبل اليوم، فقلت: خدعتني عنك الناس بعدما شددت راحلتي إليك، وكنتُ رجلاً أحب الشراب وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه، فشفع لي، فدخلت الجنة على ألا أذوق فيها الخمر، فقنعت بالرضاب عن الشراب، وبماء الثغر المنضود عن ماء العنقود، ورأيت بجانبه شاباً ريق الشباب، فسألت عنه، فقبل لي: زهير بن أبي سلمى، فما كدت أصدق أنه القائل:

^{٢٤} المدخل: مصدر دخل، كالدخول.

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

فقلت: له بم غفر الله لك؟ فقال: كنت في جاهليتي أترقب مبعث محمد، وأتمنى البقاء حتى أراه، فحال بيني وبينه الموت؛ فأوصيت به ابني كعباً وبحيراً وكنت أوّمن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب أو يقدم فينقم

وإلى جانب زهير، عبيد بن الأبرص، فسألته عن مصير أمره؟ فقال: كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي:

من يسأل الناس يحرمه وسائل الله لا يخيب

والعذاب يخفف عني شيئاً فشيئاً حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم إلى النعيم.

ذهبنا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنا إلى ارتشاف الخمر من النهر، في آنية الدر، فانتشينا جميعاً فما أفقنا إلا على حفيف رف^{٢٥} من إوز الجنة نزل بنا، ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج، فما أتين على الألحان الثمانية حتى دارت بنا الأرض الفضاء، وحتى ملكنا من الطرب ما يستخف العلوم ويطيّر بالهموم، وقلنا: لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه، لقرع السن على أن باع دينه بسرور محدود وأنس معدود، ودف وعود.

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ فتمنيت أن أطلع فأرى المعذبين كما رأيت المنعمين؛ فألهمت الإذن؛ فأشرت لصاحبي فقام وقمت، وركبنا فرسينا فطارتا بنا حتى انتهينا إلى سور الجنة فرأينا عنده من

^{٢٥} الرف: الطيع من الطير.

الداخل كوخاً يسكنه شيخ زري الهيئة، فأشرفنا عليه فقال: لا تعجبوا لشأني، أنا الخطيئة. فوالله لولا أنني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي:

أرى وجهها شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

لما دخلت الجنة. ولما أدركت كوخاً ولا حجرًا. فتركناه. وطلعنا، فما رأنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فرأينا ملوكاً وأكاسرة يتضاغون^{٢٦} في السلاسل والأغلال، ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيهتف بهم هاتف: ﴿أَوَلَمْ نُنَعِّمْكُمْ مَا يَنْذَكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

ورأيت بجانب امرأة تبينتها فإذا هي الخنساء، تطلع مثلنا فترى رجل كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار، فتمتعض وتقول: يا صخرة. هذا تأويل قولي فيك من قبل:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه النار

ورأيت هناك كثيرًا من أمثال امرئ القيس وعنزة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد، ورأيت بشارا بن برد تفتح عيناه بكلايب من نار، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله، وقال له: ما كنت لأدخل النار لولا قولي فيك:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وأدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع. وإذا إبليس يهتف بنا: يا أهل الجنة! بلغوا عني أباكم آدم أنني لم أدخل النار بسببه حتى أخذت معي أكثر ولده وأفلان كبده، فلا يهناً كثيراً بمصري، فقلنا: قبحه الله، ما يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم، فما كان لنا همٌ بعد رجوعنا إلا لقاء أبينا آدم عليه السلام. فلقيناه. فبلغناه الرسالة، فقال:

^{٢٦} يقال: بات الصبيان يتضاغون من الجوع، أي: يتضورون منه.

وارحمته له، ما كان بينه وبين الإيمان إلا القليل. فأرداه الحسد فكان من المهلكين. فقبلنا يده وانصرفنا إلى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحريير. وهور وولدان، كأنهم الياقوت والمرجان، فحمدنا الله الذي هداانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هداانا الله.

الفصل الثاني عشر

عبرة الدهر

بنى فلان في روضة من بساتينه الزاهرة قصرًا فخماً يتلألاً في تلك البقعة الخضراء
تلؤلؤ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء. ويطاول بشرفاته السماء أفلاك السماء، كأنه
نسر مطلق في الفضاء، أو قرط معلق في أذن الجوزاء، وكأن شرفاته آذان تفضي إليها
النجوم بالأسرار، وطاقاته أبراج تنتقل فيها الشمس والأقمار.

شاده مرمراً وجلله كلساً فللطير في ذراه وكور^١

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقعة^٢ لرسام إلا أجراها في سقوفه وجدرانه وطاقاته
وأركانها حتى ليخيل إلى السالك بين أبهائه^٣ وحجراته، ومحاريبه وعرصاته؛ أنه يتنقل
من روضة تزهو بالورود الحمراء، والأنوار البيضاء، إلى بادية تسنح فيها الذئاب الغبراء؛
والنمور الرقطاء، ومن ملعب تصيد فيه الظباء الأسود، إلى غاب تصيد فيه الأسود
الظباء، وأنشأ في كبرى ساحاته، وأوسع باحاته: صهريجاً من المرمر مستديراً يضم
بين حاشيته فؤارة ينفر الماء منها صعداً كأنه سيف مجرّد، أو سهم مسدد، فيخيل
إلى الرائي أن الأرض تتأثر لنفسها من السماء وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء،
تلك تقاتلها بالرجوم والشهب، وهذه تحاربها بالسهام والقضب، وغرس حول دائرة

^١ الكلس: الصاروج يبني به.

^٢ ليقة الدواة: صوفتها، ويتخذها الرسام أيضاً لجمع أخلاطه فيها.

^٣ الأبهاء، جمع بهو، وهو البيت المقدم أمام البيوت.

^٤ المحراب هنا: صدر البيت، والعرضات: جمع عرصة وهي ساحة الدار.

الصهريج دوائر من شجرات مؤلفات ومختلفات، وأغصان، صنوان وغير صنوان، إذا رنحتها نسائم الأسحار. رقصت فوق بساط الأزهار، وتحت ظلال الأثمار، فغنت على رقصها الأطيار، غناء الأغاريد لا غناء الأوتار، وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته^٥ ما شاء الله أن يدخر من نضائد^٦ ومقاعد، ووسائد ومساند، وفرش، وعرش، وكلل^٧ وحجل^٨، وتمائيل وتهاويل^٩، وصحاف من ذهب، كاللهب، وأكواب من بلور، كالنور، وأقفاص للحمام والنسور، ومقاصير للسباع والنامور، وعربات وسيارات، وجياد صافنات، ووصائف وولائد، تحيط بالمجالس والموائد. إحاطة القلائد. بأعناق الخرائد. وخدم حسان. تنتقل في الغرف والقيعان. تنقل الولدان في غرف الجنان.

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غدافية^{١٠} الإهاب، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم ير أمامه غير خادمه «بلال»، وهو خصي أسود من ذوي الأسنان، رباه صغيراً وكفله كبيراً، وكان يجمع بين فضيلتي الذكاء والوفاء، فأشار إليه إشارة الواله المتلف أن يأتيه بجرعة ماء، فجاء بها، فتساند على نفسه حتى شرب، وكأن الماء قد حل عقدة لسانه، فسأله: في أي ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال؟ فأجابه: نحن في الهزيع الأخير يا سيدي، فقال: ألم تعد سيدتك إلى الآن؟ قال: لا؛ فامتعض امتعاضاً شديداً وزفر زفرة كادت تخترق حجاب قلبه، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول: إنها تعلم أنني مريض، وأني في حاجة إلى من يسهر بجانبني ويتعهد أمري ويرفه^{١١} عني بعض ما أعالجه، وليس بين سكان القصر من هو أولى بي وأقوم عليّ منها، وأين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقسم لي بكل محرجة من الأيمان عليه؟ أين حبها الذي كانت تهتف به في صباحها ومسائها وبكورها وأصائلها؟ أين النعيم الذي كنت أقلبها في أعطافه والعيش الذي كنت أرشفها كؤوسه؟ أين علمت

^٥ بلهنية العيش: رخاؤه.

^٦ النضائد: جمع نضيدة وهي الوسادة.

^٧ جمع (كلة) بالكسر: وهي الستر الرقيق.

^٨ جمع (حجلة) بفتحات: وهي ستر العروش في جوف البيت.

^٩ التهاويل: النقوش والصور؛ لأنها تهول من ينظر إليها.

^{١٠} الغداف: الغراب الأسود؛ وليلة غدافية شبيهة به.

^{١١} رفه عنه: نفس عنه وخفف.

أنني أصبحت بين حياة لا أرجوها، وموت لا أجد السبيل إليه برمت^{١٢} بي واستنقلت ظلي واستبطأت أجلي واستطالت ضجعتي، فهي تفر من وجهي كل ليلة إلى حيث تجد لذات العيش ومواطن السرور، آه من العيش ما أطوله، وآه من الموت ما أبعداه! ما زال يحدث نفسه بمثل هذه الأحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت أعصابه. فعادته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كأس الموت جرعاً مريرة، بيد أنه لشقائه لم يأت على الجرعة الأخيرة منها.

أفاق من غشيته مرة ثانية، فلم ير بجانبه تلك التي تسيل نفسه حشرات عليها، فسأل الخادم: ألا تعلم أين ذهب سيدتك يا بلال؟ قال: خير لك ألا تنتظرها يا مولاي، وألا تلومها في بعدها عنك؛ فإن لها عند بعض الناس دُيْنًا فهي تخرج كل ليلة لتتقاضاه؛ قال: ما عرفت قبل اليوم أن بينها وبين أحد من الناس شيئاً من ذلك، ومتى كان الدائن يتقاضى دينه في مثل هذه الساعة من الليل؟ وهل أعيها أن تجد من يقوم لها بذلك، فهي تتولاه بنفسها؟ وهل فرغت من أمر دينها بعد اختلافها إليه سنة كاملة! قال: إن بينها وبين غريمها صكاً مكتوباً أن يؤدي ما عليه من الدين أقساطاً في كل ليلة قسط، على أن تتناوله بيدها وأن تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي، قال: ما سمعت في حياتي بأغرب من هذا الدين ولا بأعجب من هذا الصك، ومن هو غريمها؟ قال: أنت سيدي. فنظر إليه نظرة الحائر المشدوه^{١٣} وقال: إني أكاد أجن لغرابة ما أسمع، وأحسب أنك هازٍ فيما تقول أو هازئ، فدنا منه الخادم وقال: والله يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت، ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها، وكأس تشربها، وملاعب تجرر فيها أذيالك، ومراقص تهتك فيها أموالك، تاركاً زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة وتبكي الوحدة، تتقلب على أحرّ من الجمر شوقاً إليك ووجدًا عليك، فلا تعود إليها إلا إذا شاب غراب الليل وطار نسر الصباح؛ إنك سلبتها تلك الليالي السابقة فأصبحت غريمها فيها، فهي تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتي عليها، ذلك هو دينها وهذا هو غريمها، ألا تذكر أنك كنت في ليالك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفك هذا في حسرتك هذه، يبكي ما تبكي ويندب ما تندب؟ ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك

^{١٢} برم به: سئمه وضجر منه.

^{١٣} المشدوه: المدهوش.

اليوم حقه، ويأبى إلا أن يأخذ عيناً بعين ونقداً بنقد، فهو يفجعك في زوجتك كما كنت تفجعه في زوجته، ويقض^{١٤} مضجعك كما تقض مضجعه، وأنا أعيدك بعدك وإنصافك أن تكون من لواة الدين، أو تكون من الظالمين.

قال: حسبك يا بلال؛ فقد بلغت مني، وإن لي في حاضري ما يشغلني عن ماضي، فادع لي ولدي، قال: لم يعد يا سيدي من الوجه التي بعثته فيه حتى الآن، قال: لا أذكر أنني بعثته في وجهه ما، وأين ذهب؟ قال: ذهب إلى الحانة التي يختلف إليها، ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع، إنني طالما وقفت بين يديك يا مولاي ضارماً إليك أن تحول بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك، فكنت تعرض عني إعراض من يرى أن تدليل الولد وترفيهه^{١٥} وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال؛ كنت أسألك أن تعلمه العلم وأن تهديه إلى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة، فكنت ترى أن الذي يحتاج إلى العلم إنما هو الذي يرتزق منه. وأن ولدك عن ذلك من الأغنياء، فلا تشك من عمل يديك، ولا تبك من جناية نفسك عليك، فأنت الذي أرسلته إلى الحانة، وأنت الذي أبقيته فيها إلى مثل هذه الساعة من الليل، وأنت الذي أبعدته عن فراشك أحوج ما كنت إليه. وما وصل الخادم من حديثه إلى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبيض في مسوده، وإذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين الثكلى فقدت واحدها، فقال السيد: هات يدك يا بلال واحملني إلى جوار النافذة لأروح عن نفسي بعض ما أَلَمَّ بها، أو أودع إلى جانبها نسيمات الحياة، ثم اعتمد على يده حتى وصل إلى النافذة: فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجه جالسين إلى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة. رأهما متحابين متعاطفين؛ لا يتعاتبان ولا يتشاحان^{١٦} ولا يشكوان همًّا ولا يندبان حظًّا؛ رأهما قويين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافياً متسلسلاً وكأنهما يحاولان أن يخرجاً من إهابهما^{١٧} مرحًا ونشاطًا؛

^{١٤} أقض مضجعه: جعله خشناً.

^{١٥} رفهه: جعله مرفهًا، أي لين العيش.

^{١٦} من المشاحة وهي المخاصمة والمجادلة.

^{١٧} الإهاب: الجلد.

رأهما راضيين بما قسم الله لهما من خشونة اللبس وجشونة^{١٨} المطعم فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران إلى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة؛ سمعهما يتحدثان فأصغى إليهما فإذا البستاني يقول لزوجه: والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه، وآنيته وخرثيه^{١٩} على أن تكون لي تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران، على البقاء في مثل هذا المكان أقاسي تلك الهموم والأحزان. فقالت: لا أحسب أن سيدنا ينجو من خطر هذا المرض، فقد مر به على حاله تلك عام كامل، وهو يزداد كل يوم ضعفاً ونحولاً، قال: قد علمت أن الطبيب قد نفذ يده من الرجاء فيه وأضرم اليأس منه. ولا عجب في ذلك، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها، قالت: ما أشقاه، أكانت نفسه عدوة إليه فجنى عليها هذا الشقاء، وذلك البلاء، قال: ما كان عدواً لنفسه، ولا كانت نفسه عدوة إليه، ولكنه كان رجلاً جاهلاً مغروراً، غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد أخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه؛ قالت: أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده؟ قال: أعلم أنه سيكون لولده؛ قالت: ولكنني أعلم أنه سيكون لفلان، قال: إن فلاناً ليس وريث السيد بل صديقه، قالت: إنه ليس بصديق السيد، بل صديق السيدة، فهو خاطب زوجته قبل وفاته، وزوجها بعد مماته.

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً، وسقط عن كرسيه وهو يقول: أشهد أنني من الأشقياء. وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحو الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم.

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر، ورأى زوجته تضاحك ترباً من أترابها وتغمزها بطرفها أن قد حان حينه ودنا أجله، ورأى صديقه أو ولي عهده يأمر في القصر وينهي، ويتصرف تصرف السيد المطاع، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت، ويعد عدته للانتقال من القصر إلى القبر، وهنا سمع كأن هاتفاً يهتف به من السماء ويقول: أيها الرجل، لو وفيت لزوجك لوفت لك، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك، ولو أحسنت اختيار صديقك ما خانك، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك. فأغمض عينيه وهو يقول: «فلتكن مشيئة الله».

^{١٨} جشونة المطعم: خشونته.

^{١٩} الخرثي: أثاث البيت.

مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة (المجلد الأول)

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجته وولده وصديقه ونفسه وبستانه

وقصره:

يُشربون الخمر بالماء الزلال	رُبَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا
وكذاك الدهر حالاً بعد حال	عصف الدهر بهم فانقرضوا

الفصل الثالث عشر

أفسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذي يسلب الخزائن نفائسها، والأجسام أرواحها، لست أحمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك، ولا أنظر إليك بالعين التي نظر بها إليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك، لأنني أعتقد أن لك شركاء في جريمتك. فلا بد لي من أن أنصفك، وإن كنت لا أستطيع أن أنفك.

شريكك في الجريمة أبوك، لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين، بل كثيرًا ما كان يخبخ^١ لك إذا رآك هجمت على تترك وضربته، ويصفق لك إذا رأى أنك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك، أو اختطاف لقمة من يده، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي أنت معلق به اليوم، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات، ويصعد الزفرات، ولو عرف أنها جريمته، وأنها غرس يمينه لضحك مسرورًا بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكرًا على أن لم يكن حبلك في عنقه وجامعتك^٢ في يده.

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الفاسد الذي أغراك بها، مهد لك السبيل إليها، فقد كان يسميك شجاعًا إذا قتلت، وذكيًا فطنًا إذا سرقت، وعالمًا إذا احتلت، وعاقلاً إذا خدعت، وكان يهابك هيئته للقاتحين، ويجلك إجلاله للفاضلين، وكثيرًا ما كنت تحب أن ترى وجهك في مرآته وجهًا أبيض ناصعًا، فتتمنى أن لو دام لك هذا الجمال؛ ولو أنه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثل لك جريمتك بصورتها الشوهاء، وهنالك ربما وددت بجذع الأنف لو طواك بطن الأرض عنها وحالت المنية بينك وبينها.

^١ بخبخ: قال له: «بَخِ بَخِ».

^٢ الجامعة: الغل.

شريك في الجريمة حكومتك؛ لأنها كانت تعلم أن الجريمة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات، وكانت تراك تمسك بها حلقة وتعلم ما سينتهي إليه أمرك فلا تضرب على يدك، ولا تعترض سبيلك؛ ولو أنها فعلت لما اجترمت، ولا وصلت إلى ما إليه وصلت.

كانت حكومتك تستطيع أن تعلمك وتهذب نفسك، وأن تغلق بين يدك أبواب الحانات والمواخير، وأن تحول بينك وبين مخالطة الأشرار بإبعادهم عنك وتشريدكم في مجاهل الأرض ومخارمها. وأن تعديك^٢ على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك. وأن تحسن تأديبك في الصغيرة قبل أن تصل إلى الكبيرة. ولكنها أغفلت أمرك فنامت عنك نومًا طويلًا. حتى إذا فعلت فعلتك استيقظت على صوت صراخ المقتول. وشممت عن ساعدها لتمثل منظرًا من مناظر الشجاعة الكاذبة. فاستصرخت جندها؛ واستنصرت قوتها وأعدت جذعها وجلادها؛ وكان ما فعلت أنها أعدمته حياتك.

هؤلاء شركاؤك في الجريمة. وأقسم لو كنت قاضيًا لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين شركائك ولكني لا أستطيع أن أنفك.

فيا أيها القاتل المظلوم: رحمة الله عليك.

^٢ أعدى الأمير فلانًا على فلان، إذا نصره وأعانه عليه.

الفصل الرابع عشر

الصدق والكذب

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء.

يا صاحب النظرات

سمعت بالصدق، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر. وسمعت بالكذب. وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب. وقرأت ما كتبه حكماء الأمم من عهد آدم إلى اليوم. وإجماعهم أن الصدق فضيلة الفضائل والأصل الذي تتفرع عنه جميع الأخلاق الشريفة. والصفات الكريمة. وأنه ما تمسك به متمسك إلا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله. وأعلق به من نفسه. سمعت هذا وقرأت ذاك فلم يبق في نفسي ريب في أن ما أنا مرزوء به في حظي من الشقاء، وعيشي من الضنك، وحياتي من الهموم والأكدار، إنما جرّه عليّ شؤم الكذب، وأن ما كنت أتخيله قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة، إنما هو ضرب من ضروب الوهم الباطل. ونزعة من نزعات الشيطان، فعاهدت الله ونفسي ألا أكذب ما حييت، وأعددت لذلك القسم العظيم عدته من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعدما وجهت وجهي إلى الله تعالى وسألته أن يمدني بمعونته ونصره. ها أنا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهد، وما رأيته من آثارها ونتائجها.

الموقف الأول: جلست في حانوتي فما وقف بي مساوم إلا صدقته القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا

أستطيع أن أعد نفسي رابعًا إذا تجاوزت عن بعضه. فيأبى إلا الحطيطة^١ فأبأها عليه، فينصرف عني استئثارًا للثمن واستعظامًا لقدره، وما هو إلا الريح الذي اعتدت أن أخذه منه في مثل تلك الصفقة، إلا أنني كنت أكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الريح، فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني إلى سواي، ولم أزل على هذه الحال حتى أظلني الليل، ولم يفتح الله عليَّ بقوت يومي، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق.

الموقف الثاني: جلست في مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضيقة المعروفين بمشايع الطرق. وقد حف به جماعة من عبده وسدنة^٢ هيكله فسمعتة يشرح لهم معنى التوكل شرحًا غريبًا يذهب فيه إلى أنه القعود عن العمل، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه، وإعراض عن كل سعي يؤدي إلى أية غاية، ويعتمد في هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء، وأحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى أنه سمعها من شيخه، أو قرأها في كتابه، وأكثر ما كان يدور على لسانه حديث: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما تُرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»^٣. فقلت له، وقد أخذ الغيظ من نفسي مأخذه: يا شيخ، أردت أن تحتج لنفسك فاحتجبت عليها، أتعمد إلى حديث يستدل به رواته على وجوب السعي والعمل فتستدل به على البطالة والكسل، ألم ترَ أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطانًا إلا بعد أن أمرها بالغدو، وهي التي ترويهما القطرة، وتشبعها الحبة، فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي، وهو من لا تفنى مطالبه، ولا تنتهي رغباته؟

أيها القوم، إنكم تقولون بالسنتكم ما ليس في قلوبكم، إنكم عجزتم عن العمل، وأخذتم إلى الكسل، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذرًا يدفع

^١ الحطيطة: ما يحط من الثمن.

^٢ السادن: خادم الهيكل أو خادم الكعبة والمراد به الحاجب، والجمع: سدنة.

^٣ الخماص: جمع خميص، وهو ضامر البطن، والبطان: جمع بطين، وهو ممتلئ البطن.

عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلاً، وما هو إلا العجز الفاضح، والإسفاف الدنيء.

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ، ونادى في قومه: أن أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسي، فتألبوا عليّ تألبهم على قصاع الثريد، وأوسعوني لطمًا وصفعًا، ثم رمَوْا بي خارج الباب، فما بلغت منزلي حتى هلكت أو كدت، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة إلا رموني بالنظر الشرر، وعاذوا بالله من رؤيتي كما يعوذون به من الشيطان الرجيم.

الموقف الثالث: لا أكتمك يا سيدي، أني كنت أبغض زوجتي بغضًا يتصعد له القلب، غير أني كنت أصانعها وأتودد إليها وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي، مداورة لها وإبقاء على ما تحتويه يدي من صباة مال كانت لها، فرأيت أن ذلك أكذب الكذب وأقبحه، فأليت على نفسي ألا أسدل بعد اليوم من دونها حجابًا يحول بينها وبين سريرتي، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسيل العذب من كلمات الحب، فاستوحشت مني وأظلم ما بيني وبينها، فما هي إلا عشية أو ضحاها، حتى وهنت تلك العقدة، وانحل ذلك الوثاق، وختمت سورة الفراق، بأية الطلاق.

الموقف الرابع: حضرت مجتمعًا يضم بين حاشيته جماعة من الفضولين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون إلى الحديث عن الناس وتتبع عثراتهم، ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم ويتغلغلوا في أطواء سرائرهم؛ ويغالون في ذلك مغلاة الكيمائي في تحليله وتركيبه، فرأيتهم يتناولون بالسنتهم رجلاً عظيماً من أصحاب الآراء السياسية لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه والآخذين أخذه من أخلص لأمتة إخلاصه، أو وقف المواقف المشهورة وقوفه؛ أو لاقى في ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الأيام ما لاقاه، سمعتهم يسمونه خائناً، فوالله لأن تقع السماء على الأرض أحب إليّ من أن يتهم البريء أو يجازى المحسن سوءاً على إحسانه؛ سمعت ما لم أملك نفسي معه؛ فقلت: يا قوم، أظالمون من كتاب

٤ أطواء الثوب: طرائفه ومكاسر طيه.

الحرية مائة صفحة ونيفاً^٥ ثم لا تزالون عبيد الأوهام، أسرى الخيالات، سراعاً إلى كل داعٍ، سعاة مع كل ساع، تنظرون بغير روية، وتحكمون بغير علم، إنكم بعملكم هذا تزهدون المحسن في إحسانه؛ وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لأجلكم؛ وتثبطون همه كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم؛ أليس مما يلقي في النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم، أن نراكم طعمة كل آكل؛ ولعبة كل لاعب، ويستهوكم الكاذب بالكلمات التي تستهوي بها المرضعات أطفالهن ثم يدعوكم إلى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودكم وإخلاصكم، والثاني بغضكم وموجدتكم. خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم، فأرادوا شرّاً بي! فما خلصت من بينهم إلا وأنا ألس رأسي بيدي لأعلم أين مكانها من عنقي!

الموقف الخامس: قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً^٦ كبيراً كنت ذاهباً إلى موعد لا بد لي من الوفاء به، فرض عليّ أن اسمعني قصيدة من طريف شعره، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده، فاستعفيت به بعد أن كاشفته بعذري فأبى، فانتحيت به ناحية من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً، وأنا أشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة، حتى تمنيت أن لو ضربني بها جملة واحدة يكون فيها انقضاء أجلي ليرحني من هذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع، وكلما أتى على بيت منها أقبل عليّ بوجهه، وأطال النظر في وجهي وحدّق في عيني، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي، فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكأس فيستمر في شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيتاً، ثم وقف وقال: هذا هو القسم الأول من أقسام القصيدة، فقلت: وكم عدد أقسامها يرحمك الله؟ قال: عشرة ليس فيها أصغر من أولها، قلت: أتأذن لي أن أقول لك يا سيدي إن شعرك قبيح، وأقبح منه طوله، وأقبح من هذا وذاك صوتك الخشن الأجش، وأقبح الثلاثة اعتقادك أنني من سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل

^٥ يريد أن تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف.

^٦ الطومار: الصحيفة.

هذا الشعر البارد عجبًا يسهل عليَّ فوات الغرض الذي ما خرجت من منزلي إلا لأجله. فتلقاني بضربة بجمع يده^٧ في صدري، فرفعت عصاي وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها — يعلم الله — إلا أن أصيب مركز الشَّعر من مخه فأفسده عليه فسقط مغشيًّا عليه. وسقطت القصيدة من يده فأسرعت إليها ومزقتها، وأرحت نفسي منها، وأرحت الناس من مثل مصيبتني فيها، وكان الشرطي قد وصل إلينا فاحتملنا جميعًا إلى المخفر ثم إلى السجن حيث أكتب إليك كتابي هذا.

فيا صاحب النظرات أفتنتي في أمري، وأنر ظلمة نفسي، فقد أشكل عليَّ الأمر، وأصبحت أسوأ الناس بالصدق ظنًّا بعدما رأيت أنني ما وقفت موقفه في حياتي إلا خمس مرات، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي، واتهامي بالخيانة مرة والزندقة أخرى؛ ذلك إلى ما أقاسيه اليوم في هذا السجن من أنواع الآلام، وصنوف الأقسام.

أيها السجين:

كتبت إليَّ — مسح الله ما بك، وألهمت صواب الرأي في حالك — تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره، وكاد يزلق بك إلى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لا فضيلة الفضائل، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل إلى نفسك، وأن يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الأيام مبلغًا يذهب برشدك، ويطيّر بلبك؛ فما أنت بأول صادق في الأرض ولا بأول من لقي في سبيل الصدق شرًّا؛ وكابد ضرًّا. إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مراراتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال.

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال، وإنما هي حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال. إن الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله، أو يرفه بها عيشه، يحتقرها ويزدريها؛ لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع.

^٧ جمع اليد: هيئتها حين تقبضها.

ليس من صواب الرأي أن يجعل الإنسان حالة عيشه ميزاناً يزن به أخلاقه فإن اتسع عيشه اطمأن إليها، وإن ضاق أساء الظن بها، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء، وبين الأرذلين كثيراً من ذوي النعمة والثراء!

لا يستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه إلا إذا استطاع أن ينزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام، ولن يستطيع ذلك إلا إذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها، ولن يكونوا كذلك إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء، والسواد الأعظم الذي يمسك بيده أسباب العيش ويملك يناييعه: سواد أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره في ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يحبب إليه نفسه، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش، وقلب يحمل بغض القلوب ليلبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليلبلغ غايته من الفوز والانتصار.

الصدق جنة حفت بالمكاره، فإن كان للصادق في جنة الصدق أرب فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية.

كما أن الجود يفقر والإقدام قتال، وكما أن لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات توغر طريقها وتبعد منالها إلا على أيدي الصابرين المخلصين، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون، للصادقين وهم الأقلون.

أتريد أيها الرجل أن تسمى صادقاً وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر، وأن يوافيك المجد طائعاً مذعناً دون أن تبذل في سبيله شيئاً من مالك أو راحتك؟ إنك إن أردت ذلك أو قدرته في نفسك؛ تظلم الفضيلة ظلماً بيئاً وترخص قيمتها وتلق بها في مدارج الطرق وتحت مواطئ النعال.

أحزنك انصراف الأغنياء عن حانوتك أو اتهامك بالزندقة والإلحاد أو المروق والخيانة، وترى أن ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت، في سبيل إحراز ما أحرزت، فما دنموا ولا حزنوا؟

أيها السجين الشريف:

هنيئاً لك السجن الذي تكابده، وهنيئاً لك البغض الذي تحتمله، وهنيئاً العيش الذي تعالج همومه، فوالله لأنت أرفع في نظري من كثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء، ويسمونهم عظماء.

الصدق والكذب

لا تظلم الصدق ولا تكن سيئ الظن به، وكن أحرص الناس على ولاءه ومودته، وإياك أن يخدعك عنه خادع، واصبر قليلا يثمر لك غرسه ويمتد عليك ظله، وهناك تجد في نفسك من اللذة والغبطة ما لو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم، وأرباب الكنوز كنوزهم، لما استطاعوا إليه سبيلاً.

الفصل الخامس عشر

النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدؤون ساعة واحدة عن تصديع رؤوسنا وتمزيق أفئدتنا بهذه الصواعق التي يمتطرونها علينا كل يوم من سماء الصحف، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جدولاً أبيض مستطيلاً تخيلناه حية رقطاء، ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته.

من لي بذلك القلم العريض الذي يكتب به كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم في معرض التهويل والتفخيم، فأكتب به إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية: أيها القوم: إن علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه، وإنما جروا في ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا في تعريف الشعر عند هذا القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه وعلله وزحافات.

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون، وإلا لاستطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون شاعرًا؛ لأنه لا يوجد في الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقع عليها من أخصر طريق.

أيها القوم: ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبدأ نشأته ولا تزال كامنة فيه كمون النار في الزند حتى إذا شدا^١ فاضت على أسلات أقلامه^٢ كما تفيض

^١ شدا: أخذ طريقًا من الأدب والعلم.

^٢ الأسلات جمع أسلة: وهي نبات رقيق الغصن.

الكهرباء على أسلاكها، فمن أحس منكم بهذه الروح في نفسه فليعلم أنه شاعر، أو لا فليكيف نفسه مؤنة التخطيط والتسطير، وليصرفها إلى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة، فوالله للمحراث في يد الفلاح، والقدوم في يد النجار، والمسبر في يد الحداد: أشرف وأنفع من القلم في يد النظام.

فإن غمَّ عليكم الأمر، وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم، فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم، ويدلكم عليكم، حتى تكونوا على بينة من أمركم.

الحرية

استيقظت فجر يوم من الأيام على صوت هرة تموء^١ بجانب فراشي وتتمسح بي، وتلح في ذلك إلحاحًا غريبًا، فرابني أمرها، وأهمني همها، وقلت: لعلها جائعة، فنهضت، وأحضرت لها طعامًا فعافته، وانصرفت عنه. فقلت: لعلها ظمآنة، فأرشدتها إلى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر إليَّ نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسي من الآلام والأحزان، فأثر في نفسي منظرها تأثيرًا شديدًا، حتى تمنيت أن لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان، لأعرف حاجتها، وأفرج كربتها، وكان باب الغرفة مرتجًا، فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتتعلق بي كلما رأته أتجه نحوه، فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء، ورأت وجه السماء، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور، وانطلقت تعدو في سبيلها، فعدت إلى فراشي وأسلمت رأسي إلى يدي، وأنشأت أفكر في أمر هذه الهرة، وأعجب لشأنها وأقول: ليت شعري هل تفهم الهرة معنى الحرية فهي تحزن لفقدانها وتفرح بلقيها؟ أجل. إنها تفهم معنى الحرية حق الفهم، وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها، وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسُّحها وإلحاحها إلا سعيًا وراء بلوغها.

وهنا ذكرت أن كثيرًا من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة، والوحش المعتقل في القفص، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه، بل ربما كان بينهم من يفكر في وجهه الخلاص أو يتلمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه.

^١ المواء: صوت الهرة.

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها: أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته؟ وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ناطقاً مدرّكاً؟

يخلق الطير في الجو، ويسبح السمك في البحر، ويهيم الوحش في الأودية والجبال، ويعيش الإنسان رهين المحبسين: محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد. صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالاً، وسماها تارة ناموساً وأخرى قانوناً، ليظلمه باسم العدل، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام. صنع له هذه الآلة المخيفة، وتركه قلقاً حذراً، مروع القلب، مرتعد الفرائص، يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات رجله وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله، لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه، فويل له ما أكثر جهله! وويح له ما أشد حمقه! وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه؟ أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه؟

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية، ولا يذرف دمعة واحدة عليها. لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود، لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية، ولا تخلص إليه نسمة من نسوماتها. كان في مبدأ خلقه يمشي عرياناً، أو يلبس لباساً واسعاً يشبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء، أو هبة النكباء، فوضعه في القمط كما يضعون الطفل، وكفونوه كما يكفنون الموتى، وقالوا له: هكذا نظام الأزياء.

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا بينه وبين ذلك، وملأوا قلبه خوفاً من المرض أو الموت، وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب، وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي، وأن يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن، إلا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات.

لا سبيل إلى السعادة في الحياة، إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس.

الحرية

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر.

الحرية هي الحياة، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية.

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً، أو طارئاً غريباً؛ وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور، ويتعلق بأغصان الأشجار.

إن الإنسان الذي يمدّ يديه لطلب الحرية ليس بمتسوّل ولا مستجِد، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه، ولا يد لأحد عنده.

الفصل السابع عشر

عبرة الهجرة

إن في أخلاق النبي ﷺ، وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إن ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه، أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر، ومشي الشجر، ولين الحجر؛ وذلك لأنه ما كان يريهم في الأولى ما كان يريهم في الأخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة، وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الأثر الذي تركته، ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

كان ﷺ شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قومًا مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاف شرسون متمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم؛ ويحبون آلهتهم حبهم لأبنائهم.

كان على ثقة من نجاح دعوته، فكان يقول لقريش — أشد ما كانوا هزءًا به وسخرية —: «يا معشر قريش، والله لا يأتي عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون، وتحبوا ما أنتم له كارهون».

كان حليماً سمح الأخلاق فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون^١ منه ويضعون التراب على رأسه، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى^٢ الجزور، وهو في صلاته، بل كان يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجل بعد الرجل، فلم يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلص اليأس إلى قلبه، فكان يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة، فهاجر إلى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة، ومن طور الخفاء إلى طور الظهور.

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره، وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد في سبيل الله.

لقد لقي ﷺ في هجرته عناء كبيراً ومشقة عظيمة، فإن قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضناً به، بل مخافة أن يجد في دار هجرته من الأعوان والأنصار ما لم يجد بينهم، كأنما يشعرون بأنه طالب حق، وأن طالب الحق لا بد أن يجد بين المحقين أعواناً وأنصاراً، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعدما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عبثاً بهم وتضليلاً لهم عن اللحاق به، ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه يتسلقان الصخور، ويتسربان في الأغوار والكهوف، ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب، حتى انقطع عنهما الطلب وتم لهما، ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق.

إن حياة النبي ﷺ أعظم مثال يجب أن يحتديه المسلمون للوصول إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتحلي بأكرم الخصال، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والإخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة إلى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل.

^١ يقال شعث فلان من فلان: تنقصه.

^٢ السلى للدواب بمنزلة المشيمة للإنسان.

عبرة الهجرة

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الإفرنج، فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجدّ والعمل، والبر والثبات والحب والرحمة، والحكمة والسياسة، والشرف الحقيقي، والإنسانية الكاملة، وهي حياة نبينا ﷺ، وحسبنا بها وكفى.

الفصل الثامن عشر

الإنصاف

إذا كان لك صديق تحبه وتواليه، ثم هجمت منه على ما لم يحل في نظرك، ولم يتفق مع ما علمت من حاله، وما اطّرد عندك من أعماله، أو كان لك عدو تدم طباعه، وتنقم منه شئونه، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك على الخصلة التي ذممتها، وحمد عدوك على الخلّة التي حمدتها، عدّك الناس متلوناً أو مخادعاً أو ذا وجهين تمدح اليوم من تدم بالأمس، وتذم في ساعة من تمدح في أخرى، وقالوا: إنك تظهر ما لا تضر، وتخفي غير الذي تبدي، ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها، ولسمّوا ما بدا لهم منك اعتدالاً لا نفاقاً، وإنصافاً لا خداعاً؛ لأنك لم تغلّ في حب صديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف، فعنيت بتعهد أخلاقه، وتفقد خلاله، لإصلاح ما فسد من الأولى، واعوج من الأخرى.

إن صديقك الذي يبسم لك في حالي رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك، وصوابك وسقطك، ليس ممن يُغتبط بمودته، أو يوثق بصداقته، لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك، وتصدقك عن زينك وشينك وحلوك ومرك، وهو إما جاهل متهور في ميوله وأهوائه، فلا يرى غير ما تريد أن ترى نفسه، لا ما يجب أن تراه، وإما منافق مخادع قد علم أن هواك في الصمت عن عيوبك وتجريير الذبول، فجارك فيما تريد، ليبلغ منك ما يريد.

فها أنت ذا ترى أن الناس يعكسون القضايا، ويقبلون الحقائق، فيسمون الصادق كاذباً، والكاذب صادقاً؛ ولكن الناس لا يعلمون.

الفصل التاسع عشر

المدنية الغربية

سأودّع في هذه النظرة الخيال والشعر، وداع من يعلم أن الأمر أعظم شأنًا وأجل خطرًا من أن يعبث فيه العايب بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجد، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جدّه وعمله.

إن في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا، كما أداها إلينا أسلافنا سالمة غير مأروضة^١ ولا متأكلة، فإن فعلنا فذاك، أو لا فرحمة الله على الصدق والوفاء، وسلام على الكتاب الأمناء.

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها، وذهبت أهرامها في سمائها، حتى تبدل الأرض غير الأرض والسماوات. إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تدني إليه أجله، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبرًا لا حياة له من بعده إلى يوم يبعثون.

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن دانها إلا كالغربال من دقيق الخبز، يمسك خشاره ويفلت لبابه، أو الراووق^٢ من الخمر، يحتفظ بعقاره، ويستهن برحيقه؛ فخير له أن يتجنبها جهده، وأن يفر منها فرار السليم من الأجر.

يريد المصري أن يقلد الغربي في نشاطه وخفته، فلا ينشط إلا في غدواته وروحاته، وقعدته وقومته، فإذا جد الجد وأراد نفسه على أن يعمل عملًا من الأعمال المحتاجة

^١ الخشب المأروضة: الذي أكلته الأرضة.

^٢ الراووق: المصفاة.

إلى قليل من الصبر والجلد، دب الملل إلى نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء والكرى بين أهذاب الجفون.

يريد أن يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما إلا أن الأولى التأثت في الحركات، الثانية الاختلاف إلى مواطن الفسق ومخابئ الفجور.

يريد أن يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها ونعيبها، وضجيجها وصفيرها، فإذا قيل له: هذه المقدمات، فأين النتائج؟ أسلم رجليه إلى الرياح الأربع واستن في فراره استنان المهر الأرن،^٢ فإذا سمع صفير الصافر مات وجلاً، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً.

يريد أن يقلده في السياحة، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب الأرض الميتة فصل الربيع، حتى إذا حان حينه طار إلى مدن أوروبا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله، ولا يلوي على شيء مما وراءه، حتى يقع على مجامع اللهو ومكان الفجور، وملعب القمار، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب، لا يملك من الأول ما يقوده إلى طريق السفينة التي تحمله في أوبته، ولا من الثاني أكثر من الجعالة التي يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته، حادثة عودته موشاة بجمل الإجلال والاحترام مطرزة بوشائع الإكرام والإعظام.

يريد أن يقلده في العلم، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شذقيه ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق، ولا يعتصم به من جهل شائن.

يريد أن يقلده في الإحسان والبر، فيترك جيرانه وجارته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة أملت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه في فاتحة الاكتتاب، ورصد هيبته في مستهل جريدة الحساب.

يريد أن يقلده في تعليم المرأة وتربيتها، فيقنعه من عملها مقال تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل؛ ومن تربيتها التفنن في الأزياء، والمقدرة على استهواء النفوس، واستلاب الألباب.

هذا شأنه في الفضائل الغربية، يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى، ولا ينتحي بها مقصداً، ولا يذهب فيها إلى مذهب، فيكون مثله كمثل

^٢ الأرن: النشيط.

جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار، ويجارونهم في أداء صور العبادات، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر، أو كمثل الذي يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب، وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود.

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي، فينتحر كما ينتحر الغربي، ويلحد كما يلحد، ويستهتر في الفسوق استهتاره، ويترسم في الفجور آثاره. إن في المصريين عيوباً جمّة في أخلاقهم وطباعهم، ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلى إصلاحها، فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية.

إن دعوانهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا، لا بباريس ورومة وسويسرا ونيويورك، وإن دعوانهم إلى مكرمة، فلننقل عليهم آيات الكتب المنزلة؛ وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر، وإن دعوانهم إلى حرب، ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير، وصلاح الدين؛ ما يغنيا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطن ونلسن وبلوخر؛ وفي وقائع القادسية وعمورية وأفريقية والحروب الصليبية، ما يغنيا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين.

إن عاراً على التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادئ ديكرت وأبحاث دارون ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروى للمتنبى والمعري.

لا مانع من أن يعرب لنا العربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم، على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم، فلا نأخذ كل قضية مسلمة، ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متهوراً، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيّتهم، على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار، لا على أن نقلدها ونتقلدها ونتقلدها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شئوننا، واستهجان ما نستهج من عاداتنا.

وبعد. فليعلم كتاب هذه الأمة وقادتها: أنه ليس من عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً، فلا يخدعون أمتهم عن نفسها، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزييناً يرزوها في استقلالها النفسي، بعدما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي.

الفصل العشرون

يوم الحساب

ساهرت الكوكب ليلة أمس حتى ملني وملته وضاق كل منا بصاحبه ذرعًا، وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه، وأدنيه فيبعده، حتى أسلس قياده، وسكن جماحه.

لم تخالط جفني سنة الكرى حتى خيل إليّ أنني قد انتقلت من العالم الأول إلى العالم الثاني، ورأيت كأني بعثت بعد الموت وكأن أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم، فألهمت أنه موقف الحشر؛ وأنه يوم الحساب. وأنشأت أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطربًا، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي في هذا الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه، فلا يجد إليها سبيلًا، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين، وأقلب النظر في الغادين والرائحين؛ علّني أجد صديقًا أستاذس به في وحدتي، وأستعين بمرافقته على وحشتي، فلا أرى إلا خلقًا غريبًا، ومنظرًا عجيبيًا، ووجوهًا ما رأيت لها في حياتي شبيهاً ولا ضريبًا، ولولا أنني أعلم أن الحساب خاص بالإنسان، لظننت أن الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع الحيوان.

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسي رأيت على البعد وجهًا يبتسم لي ويدنو مني رويدًا رويدًا؛ فأرقلت نحوه حتى بلغته فإذا صديقي «فلان» وإذا وجهه يتلألأ لتلألؤ الكوكب في علياء السماء؛ فسألته: ما فعل الله به؟ فقال: حاسبني حسابًا يسيرًا ثم غفر لي، وها أنذا ذاهب إلى ما أعدَّ الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم، فعجبت لشأنه وقلت في نفسي: لقد هان أمر الحساب على كل عاصٍ بعد ما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه: لا يتقي مأثمًا، ولا يهاب منكرًا؛ ولا يخرج من حان إلا إلى حان، ولا يودع مجمعًا من مجامع الفسق إلا على موعد من اللقاء، فنظر

إليَّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها أن الرجل قد أَلَمَّ بما ضمّرتَه في نفسي، فذكرت أن قد كشف الغطاء في هذه الدار؛ وأن قد رفع الحجاب بين الناس؛ فلا سر ولا جهر، ولا بطن ولا ظهر، ولا فرق بين حركات اللسان وخطرات الجنان، نظر إليَّ تلك النظرة وقال: لا تعجب لأمر في هذه الدار فكل ما فيها عجب، واعلم أن الله حاسبني على كل ما كنت أُجترح من الآثام في الدار الأولى، إلا أنه وجد لي في جريدة حسناتي حسنة ذهبت بجميع السيئات؛ ذلك أنه كان لي جار من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر، نكبه دهره نكبة ذهبت بماله، فأهمني أمره وأزعجني أن أراه في مستقبل أيامه بائسًا معدمًا، يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يسدي إليهم نعمته، فاحتلت على أن أدخل في بيته خادمًا كانت في بيتي وجعلت لها جعلاً على أن تدس في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأثاتها، ولا يقف على سرّها، وما زال هذا شأني وشأنه، لا يعلم من أين يأتيه رزقه، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله، وذهاب ماله، حتى فرّق الموت بيني وبينه، فما نفعتني عمل من أعمالي ما نفعتني هذا العمل، وما كان الإحسان وحده سبب سعادتي؛ بل كان سببها أنه أصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت إليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة. فقال: أما الوحشة فلن أفارقك حتى يأتي دورك، أما الخوف فلا حيلة لي ولا لأحد من الناس في نقض ما أبرم الله في شأنك، فقلت: أنت من السعداء؛ فهل تستطيع أن تشفع لي أو تطلب لي شفاعاً من ولي من الأولياء، أو نبي من الأنبياء؟ قال: لا تطلب المحال، ولا تصدق كل ما يقال، فقد كنا مخدوعين في الدار الأولى بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله في غشنا وخداعنا؛ وما الشفاعة إلا مظهر من مظاهر الإكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقرّبين، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن بالشفاعة لأحد إلا إذا كان بين أعمال المشفوع له أو في أعمال سريرته ما يقتضي إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين، والله سبحانه وتعالى أجل من العبث وأرفع من المحاباة.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برجل يساق إلى النار، ورأينا في يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه، وهو يصرخ ويقول: «أهلكني يا أبا حنيفة» فسألت صاحبي: ما ذنب الرجل؟ فقال: إنه كان في حياته يتخذ في أعماله ما يسمونه «الحيل الشرعية» فكان يهب ما لأحد أولاده على نية استرداده قبل أن يحول عليه الحول، ليتخلص من فريضة الزكاة، ويطلق

زوجته ثلاثاً، ثم يأتي بمحلل يحللها له فيعود إلى معاشرتها، وكان يراي باسم الرهن، فإذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالا أبى أن يقرضه إلا إذا وضع في يده رهناً فإذا وضع يده على ضيعته ألزمه أن يستأجرها منه بمال كثير يراعي فيه النسبة التي يراعيها المرابون بين الربح وأصل المال؛ وكان إذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته، أو لا يأكل رغيفاً أكله إلا لقمة منه، فذنبه أنه كان يعمد إلى الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها، ثم يرفعها إلى الله قشوراً جوفاء ليخدع بها ويغشها فيها كما يفعل مع الأطفال والبله، مستنداً على تقليد أبي حنيفة أو غيره من كبار الأئمة، وأبو حنيفة أرفع قدراً وأهدى بصيرة، من أن يتخذ هزواً وسخرية، وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين.

وما انقطع عنا صوت هذا الشقي، حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثة، قد أحاط به ملكان وشداً عنقه بسبحة طويلة ذات حبات كبيرة، وقد أخذ كل منهما بطرف منها، وهو يهمهم بكلمات مبهمة، فيقرعه أحدهما على رأسه ويقول له: «أمكر وأنت في الحديد؟» فدنوت منه وأنعمت النظر في وجهه فعرفته، فتراجعت ذعراً وخوفاً وصحت: أياكون هذا من أشقياء الآخرة، وقد كان بالأمس من أقطاب الأولى! فقال لي صاحبي: إن هذا الذي كنت تحسبه في أولاه من الأقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين، وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة إلا حبال كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم، ولكن الناس لا يعلمون.

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يملكون بنا: هذا إلى جنته، وذاك إلى ناره، وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحداً فواحداً فأرى سعيداً من كنت أحسبه شقياً، وشقياً من كنت أحسبه سعيداً، فسجلت أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم، لا على جوارحهم، ويسألهم عن نياتهم، لا عن أفعالهم، وأن لا سعادة إلا بالصدق، ولا شقاء إلا بالكذب، وعلمت أن الله لا يغفر من السيئات إلا ما كان هفوة من الهفوات، يلم بها صاحبها إماماً، ثم يندم عليها، ورأيت أن أكبر ما يعاقب عليه جنابة المرء على أخيه بسفك دمه أو هتك عرضه أو سلب ماله، وأن أضعف الوسائل إلى الله ذلك الركوع والسجود، والقيام والقعود، فلو أن امرأ قضى حياته بين ليل قائم، ونهار صائم، ظلم طفلاً صغيراً في لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته إلى سيئات، وما أغني عنه نسكه من الله شيئاً.

وبينا أنا أحدث نفسي بهذا الحديث، وأقلب النظر في وجوه تلك المواعظ والعبر، إذ قال لي صاحبي: أتعرف هذين؟ وأشار إلى رجلين واقفين ناحية يتناجيان: أحدهما

شيخ جليل أبيض اللحية، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده؛ فما هي إلا النظرة الأولى حتى عرفت الرجلين العظيمين رجل الإسلام «محمد عبده» ورجل المرأة «قاسم أمين» فقلت لصاحبي: هل لك في أن ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعران؟ ففعلنا؛ فسمعنا الأول يقول للثاني: ليتك يا قاسم أخذت برأيي وأحللت نصحي لك محلاً من نفسك فقد كنت أنهاك أن تفاجئ المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل أن تأخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها وإراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء؛ فقال له صاحبه: إني أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تسفر، وأن لا ترفع برقعها قبل أن تنسج لها برقعاً من الأدب والحياء؛ قال له: ولكن فاتك ما كنت تنبأت به من أنها جاهلة لا تفهم هذه التفاصيل، وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء، فكنت كمن أعطى الجاهل سيقاً ليقتل به غيره فقتل نفسه، فقال: أتأذن لي يا مولاي أن أقول لك: إنك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ، وإنك نصحتني بما لم تنتصح به، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول، وأنت أردت أن تحيي الإسلام فقتلته؛ إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت؛ وفهموا غير ما فهمت. فأصبحوا ملحدين، بعد أن كانوا مخرفين، وأنت تعلم أن ديناً خرافياً خير من لا دين. أولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشیطان والجنة والنار! وبيَّنتَ لهم حكم العبادات وأسرارها وسفهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبابها، فتركوها جملة واحدة، وقلت لهم: إن الولي إله باطل، والله إله حق؛ فأنكروا الألوهية حقها وباطلها؛ فتهلل وجه الشيخ وقال له: ما زلت يا قاسم في أخراك، مثلك في دنياك، لا تضطرب في حجة، ولا تنام عن ثأر، لا تحمل همّاً، ولا تخشَ شراً، وثق أن الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا، إنا ما أردنا إلا الخير لأمتنا، وما أردنا لها إلا ما تحتمله عقولها، فإن كذبت فراستنا أو أخطأ تقديرنا فذلك لأن المستقبل بيد الله.

وما وصلا من حديثهما إلى هذا الحد حتى تركا مكانهما، وذهبا لشأنهما؛ فقلت لصاحبي: هل لك أن تريني الميزان والصراف والجنة والنار، فإنني ما زلت في شوق إلى رؤية تلك الأشياء ورؤية مواقعها منذ رأيته في «خريطة الآخرة» التي رسمها الشعراني في بعض كتبه، قال: أما الميزان فتقدير الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات، وأما الصراف فهو سبيل الإنسان إلى سعادته أو شقائه، وأما الجنة والنار فلا علم لي حتى الساعة بهما.

وبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتاً صارخاً ما قرع سمعي في حياتي مثله يناديني
باسمي، فعلمت أن قد جاء دوري، فأدركني من الهول والرعب ما أيقظني من نومي،
فاستيقظت فلم أرَ حساباً ولا عقاباً ولا موقفاً ولا محشراً، فعلمت أنها خيالات وأوهام،
أو أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

الفصل الحادي والعشرون

الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم أمام المرأة، فلمحت في رأسي شعرة بيضاء، تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء.

رأيت الشعرة البيضاء في مفريقي^١ فارتعت لمراها كأنما خيل إلي أنها سيف جرده القضاء على رأسي، أو علم أبيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب يذرني باقتراب الأجل، أو يأس قاتل عرض دون الأمل، أو جذوة نار علقت بأهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل، ولا بد لها مهما ترفقت في مشيتها واثأدت في مسيرها من أن تبلغ مداها، أو من خيط خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر وتعهده لباساً لجثتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل.

أيتها الشعرة البيضاء! ما رأيت بياضاً أشبه بالسواد من بياضك، ولا نوراً أقرب إلى الظلمة من نورك، لقد أبغضت من أجلك كل بياض حتى بياض القمر، وكل نور حتى نور البصر، وأحببت فيك كل سواد حتى سواد الغربان، وكل ظلام حتى ظلام الوجدان.

أيتها الشعرة البيضاء! ليت شعري! من أي نافذة خلصت إلى رأسي؟ وفي أي مسلك من مسالك الدهر مشيت إلى فودي؟

كيف طاب لك المقام في هذه الأرض الموحشة التي لا تجددين فيها أنيساً يسامرك، ولا جليساً يساهرك، وكيف لم يرع قلبك لمنظر هذا الليل الفاحم ولم يعيش بصرك في هذا الظلام القاتم.

^١ المفروق: موضع افتراق الشعر.

أيتها الشعرة البيضاء! لقد عييت بأمرك، وبعلت^٢ بحملك، وأصبحت لا أعرف وجه الحيلة في البعد عنك، والفرار من وجهك، لا ينفعني معك أن أنزعك من مكانك، لأنك لا تلبثين أن تعودتي إليه، ولا ينقذني منك أن أخضبك بالسواد، لأنك لا تلبثين أن تنصلي^٣ ولأني لا أحب أن أجمع على نفسي بين مصيبتين: مصيبة الشيب ومصيبة الكذب.

أيتها الشعرة البيضاء! يخيّل إليّ وأنا أنظر إليك أنك من ذات الحيلة والدهاء والكيد والخبث، وأنت تهمسين في آذان أخواتك السود اللواتي بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك، والتردي بردائك، وكأنني بك. وقد أشعلت في هذه البيئة الهادئة المطمئنة حرباً شعواء، وفتنة عمياء، يختلط فيها الرامح بالنابل^٤ والدارع بالحاسر^٥ ويهلك فيها القاعد والقائم والمظلوم والظالم.

إن كان هذا مصيرك فسيكون شأنك شأن ذلك السائح الأبيض، الذي ينزل بأمة الزنج مستكشفاً، فيصبح مستعمراً، ويدخل أرضها سلماً ويفارقها حرباً، فأسأل الله لرأسي العافية منك، ولأمة الزنج السلامة من صاحبك، فكلكما مشؤوم الطلعة في مقامه وارتحاله، وكوكب النحاس في وقوفه وتسياره.

أيتها الشعرة البيضاء! ما أنت وما شأنك؟ وما وفودك إليّ؟ وما مكانك مني؟ وما مقامك عندي؟ إن كنت ضيفاً فأين استئذان الضيف وتلففه، وتجمله وتودده، وإن كنت نذيراً، فأنا أعلم من الموت وشأنه ما لا أحتاج معه إلى نذير، فلم يبق إلا أن تكوني أوقح الخلائق وجهاً، وأصلبها خدّاً، وأنت قد نزلت من السماجة والفضول منزلة لا أرى لك فيها شبيهاً إلا تلك الحية التي تلج كل جحر من أجحار الهوام والحشرات تعدّه جحرها، وتحسبه بيتها.

أبلغ بك الشأن وأنت التي يضربون الأمثال بدقتها وخفائها، ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها، فلا يكادون يعرفون السبيل إلى مدارجها ومكانها أن تملئي من الرعب قلباً لا يروعه السيف المجرد، ولا السهم المسدد؟

^٢ بعل الشيء: برم به واستثقله.

^٣ نصل الشعر: خرج من الخضاب.

^٤ الرامح: حامل الرمح. والنابل: ذو النبل.

^٥ الدارع: لابس الدرع. والحاسر: خلافة.

أيتها الشعرة البيضاء! هل لك أن تتجاوزي عما أسأت به إليك في إطالة عتبك، واستثقال ذلك؟ فلقد رجعت إلى نفسي فعلمت أنك أكرم الخلائق عندي، وأعظمها شأنًا في عيني.

هنيئًا لك رأسي مصيفًا ومرتعًا، وهنيئًا لك فودي مرادًا ومسرحًا، فأنت رسول الموت الذي ما زلت أطلبه منذ عرفته فلا أجد له سبيلًا، ولا أعرف له رسولًا. ما الذي يحمله لك في صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه، فيحزن على ذهابه، ولم يذق حلاوة الحياة، فيجزع لمرارة الممات، ولم يستنشق نسمات السعادة غصنًا رطبًا، فيأسى عليها عودًا يابسًا.

ما الذي ينقمه منك من شؤونك رجل يعلم أنك وحي الآمل الذي يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناء. إلا لحظات قليلة يكرها ما يحيط بها من الهموم والأحزان. كما تكدر أنفاس الحزن الحارة صفحة المرأة.

أليس كل ما أعدّه عليك من الذنوب أنك طليعة الموت، والموت هو الذي يخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالشور والاثام، الحافل بالآلام والأسقام الذي لا أغمض عيني فيه إلا لأفتحها على صديق يغدر بصديقه، وأخ يخون أخاه، وعشير يحدد أنيابه ليمضغ عشيره، وغني يرضن على الفقير بفتات مائدته، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة الموت فلا يظفر بأمنيته، وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته، ومملوك لا يميز بين ملك الملك وربوبيته، وقلوب تضطرم حقدًا على غير طائل، ونفوس تتفاني قتلًا على لون حائل، وظل زائل، وغرض باطل، وعقول تنتهالك وجداً على نار تحرقها، وأنياب تمزقها، وعيون حائرة في رؤوس طائرة، تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها، وتلمع ولا تكاد تبصر ما أمامها؛ إن كان هذا هو ظاهر ذنبك عندي فاستكثري من ذنوبك، فإني لك من الغافرين.

أيتها الشعرة البيضاء! مرحبًا بك اليوم، ومرحبًا بأخواتك غداً. ومرحبًا بهذا القضاء المختبئ وراءك أو الكامن في أطوائك، ومرحبًا بتلك الغرفة التي أخلو فيها بربي، وأنس بنفسي، من حيث لا أسمع حتى دوي المدافع، ولا أرى حتى غبار الوقائع.

أهلا بوافدة للشيب واحدة وإن تراءت بشكل غير مودود

الفصل الثاني والعشرون

الصيد

حدّث أحد الأصدقاء قال: بينا أنا في منزلي صبيحة يوم إذ دخل عليّ رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها عليّ فلم أساومه فيها بل نقدته الثمن الذي أراده، فأخذه شاكرًا متهللاً وقال: هذه هي المرة الأولى التي أخذت فيها الثمن الذي اقترحتّه، أحسن الله إليك كما أحسنت إليّ وجعلك سعيدًا في نفسك كما جعلك سعيدًا في مالك؛ فسررت بهذه الدعوة كثيرًا وطمعت في أن تتفتح لها أبواب السماء المغلقة دوني، وعجبت أن يهتدي شيخ عامي إلى معرفة حقيقة لا يعرفها إلا القليل من الخاصة، وهي أن للسعادة النفسية شأنًا غير شأن السعادة المالية، فقلت له: يا شيخ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال؟ فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال: لو كانت السعادة سعادة المال لكنت أنا أشقى الناس، لأنني أفقر الناس، قلت: هل تعد نفسك سعيدًا؟ قال: نعم، لأنني قانع برزقي مغتبط بعيشي، لا أحزن على فائت من العيش، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع، فمن أي باب يخلص الشقاء إلى قلبي؟ قلت: أيها الرجل، أين يذهب بك؟ ما أرى إلا أنك شيخ قد اختلس عقله، كيف تعد نفسك سعيدًا وأنت حافٍ غير منتعل، وعارٍ إلا قليلًا من الأسمال البالية، والأطمار السحيقة؟ قال: إن كانت السعادة لذة النفس وراحتها، وكان الشقاء ألمها وعناها، فأنا سعيد؛ لأنني لا أجد في رثاءة ملبسي، ولا في خشونة عيشي، ما يولد لي ألمًا، أو يسبب لي همًا، وإن كانت السعادة عندكم أمرًا وراء ذلك، فأنا لا أفهمها إلا كذلك؛ قلت: ألا يحزنك النظر إلى الأغنياء في أناثهم ورياشهم، وقصورهم ومراكبهم، وخدمهم وخيولهم، ومطعمهم ومشربهم؟ ألا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم؟ قال: إنما يصغر جميع هذه المناظر في عيني ويهونها عندي أنني لا أجد أصحابها قد نالوا من السعادة بوجودها أكثر مما نلتها بفقدانها.

هذه المطاعم التي تذكرها إن كان الغرض منها الامتلاء فأنا لا أذكر أنني بت ليلة في حياتي جائعاً، وإن كان الغرض منها قضاء شهوة النفس فأنا لا أكل إلا إذا جعت، فأجد لكل ما يدخل جوفي لذة لا أحسب أن في شهوات الطعام ما يفضلها؛ أما القصور فإن لديّ كوخاً صغيراً لا أشعر أنه يضيق بي وبزوجتي وولدي فأقرع السن على أن لم يكن قصرًا كبيراً؛ وإن كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبي أن أحمل شبكتي على عاتقي كل مطلع فجر وأذهب بها إلى شاطئ النهر فأرى منظر السماء والماء، والأشعة البيضاء، والمروج الخضراء، فما هي إلا لفظة الجيد أن يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه مجن من ذهب أو قطعة من لهب، فلا يبعد عن خط الأفق ميلاً أو ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر، أو درّه المتحدر، فإذا تجلى هذا المنظر أمام عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها، ملك عليّ شعوري ووجداني، فاستغرقت فيه استغراق النائم في الأحلام اللذيذة، حتى أحب أن أعود إلى نفسي إلى يوم النشور، ولا أزال هكذا هائماً في أحلامي حتى أشعر بجذبة قوية في يدي، فأنتبه فإذا السمك في الشبكة يضطرب، وما اضطرابه إلا أنه فارق الفضاء الذي يهيم فيه مطلق السراح، وبات في المحبس الذي لا يجد فيه مراحاً ولا مضطرباً، فلا أجد له شبيهاً في حالته إلا الفقراء والأغنياء. يمشي الفقير كما يشتهي ويتنقل حيث يريد كأنما هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقيز، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء؛ ولا تنقل حيث يشاء، أما الغني فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من الأحداق نطاق، ومن الأرصاد أغلال وأطواق، ولا يخرج من منزله إلا إذا وقف أمام المراة ساعة يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظرًا ومنظورًا، ثم يطيل التفكير: هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً؟ حتى إذا استوثق لنفسه بذلك خرج إلى الناس يمشي بينهم مشية يحرص فيها على الصورة التي استقر رأيه عليها، فلا يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات، حتى لا يخرج بذلك عن حكمها؛ ولا لفكره الحرية في النظر والاعتبار بمشاهدة الكون وآياته، مخافة أن يغفل عن إشارات السلام، ومظاهر الإكرام.

فإذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت به وبعته في الأسواق أو على أبواب المنازل، فإذا أدبر النهار عدت إلى منزلي، فيعتقني ولدي وتبش في وجهي زوجتي، فإذا قضيت بالسعي حق عيالي بالصلاة حق ربي نمت في فراشي نومة هادئة مطمئنة، لا أحتاج معها إلى ديباج وحرير أو مهد وثير، فهل أستطيع أن أعد نفسي شقياً وأنا أروح الناس بالاً، وإن كنت أقلهم مالاً؟

لا فرق بيني وبين الغني، إلا أن الناس لا ينهضون إجلالاً لي إذا رأوني ولا يمدّون أعناقهم نحوي إذا مررت بهم، وأهون به من فرق لا قيمة له عندي، ولا أثر له في نفسي، وما يعنيني من أمرهم إن قاموا أو قعدوا، أو طاروا في الهواء، أو غاصوا في أعماق الماء، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم، وما دمت لا أنظر إليهم إلا بالعين التي ينظر بها الإنسان إلى الصور المتحركة.

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم إلا تلك العلاقة بيني وبين ربي فأنا أعبدته حق عبادته وأخلص في توحيده، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه، ولا أكتمك يا سيدي أنني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس، ولقد أخذ هذا اليقين مكانه من قلبي، حتى لو طلع عليّ الملك المتوج في مواكبه وكواكبه، وراياته وأعلامه، لما خفق له قلبي خفقة الرهبة والخشية، ولا شغل من نفسي مكاناً أكثر مما يشغله ملك التمثيل.

ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب في عزائي، وراحة نفسي من الهموم والأحزان؛ فما نزلت بي ضائقة ولا هبت عليّ عاصفة من عواصف هذا الكون إلا انتزعني من بين مخالبيها وهونها عليّ؛ حتى لا أكاد أشعر بوقعها؛ وكيف أتألم لمصاب أنا أعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه، وأنني مأجور عليه على قدر احتمالي إياه، وسكوني إليه؟

أمنت بالقضاء والقدر خيره وشره؛ وبالיום الآخر ثوابه وعقابه؛ فصغرت الدنيا في عيني، وصغر شأنها عندي حتى ما أفرح بخيرها، ولا أحزن لشرها، ولا أعول على شأن من شئونها حتى شأن الحياة فيها؛ وأقسم ما خرجت مرة إلى ضفة النهر حاملاً شبكتي فوق عاتقي إلا وقع الشك في نفسي: هل أعود إلى منزلي حاملاً أو محمولاً؟

ما العالم إلا بحر زاهر، وما الناس إلا أسماك المائجة فيه. وما ريب المنون إلا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غداً، فكيف أغتبط بما لا أملك، أو أعتد علي غير معتمد، إذن أنا أضل الناس عقلاً وأضعفهم إيماناً!

قال المحدث: فأكبرت الرجل في نفسي كل الإكبار، وأعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه. وقلت له: يا شيخ إن الناس جميعاً سيكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها. فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها، فكيف تعد العالم سعيداً وما هو إلا شقاء؟ قال: لا يا سيدي، إن الإنسان سعيد بفطرته، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء إلى نفسه، يشتد

طمعه في المال فيتعذر عليه مطعمه، فيطول بكأؤه وعناؤه، ويعتقد أن بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه، فإذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه، أنَّ وشكا شكاة المظلوم من الظالم، ويبالغ في حسن ظنه بالأيام، فإذا غدرت به في محبوب لديه من مال أو ولد، فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر، وقتل الأيام علماً وتجربةً وعرف أن جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة، ووديعة موقوتة، وأن هذا الإحراز الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها. إن أكثر ما يصيب الناس من شقوة إنما يأتي من طريق الأخلاق الباطنة، لا من طريق الوقائع الظاهرة، فالحاسد يتألم كلما وقع نظره على محسود؛ والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه، والطماع يتألم كلما ناجته بالإثم سريرته؛ والظالم يتألم كلما سمع ابتهاال المظلوم بالدعاء عليه، أو حاقت به عاقبة ظلمه؛ وكذلك شأن الكاذب والنمام والمغتتاب، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل.

ومن أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة، وإلا فهو أشقى العالمين؛ وإن أحرز ذخائر الأرض وخزائن السماء.

قال الصديق: فما وصل الصياد من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال: أستودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتُها لنفسك وأحببتُها لك، وهي: أن يجعلك الله سعيداً في نفسك، كما جعلك سعيداً في مالك. والسلام عليك ورحمة الله.

الفصل الثالث والعشرون

الانتحار

في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين، ولو رُبِّي التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الأخروية خسراناً مبيئاً أسفاً على أن لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية، ولو ربي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لأنها لم تقدم إليه في لفافة الشهادة المدرسية، ولو أن أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه: أن جناية المرء على نفسه أكبر إثماً عند الله وأعظم جرماً من جانيته على غيره، لما خاطر بدينه في آخر ساعة من ساعات حياته، وهي الساعة التي ينيب فيها العاصي إلى ربه، ويستغفر فيها المذنب من ذنبه. ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الأخلاق والآداب أن العلم صفة من صفات الكمال لا سلعة من سلع التجارة يجب أن ينظر إليه طالبه من حيث ذاته؛ لا من حيث كونه وسيلة من وسائل العيش، لما جرى على تلك القاعدة الفاسدة «والشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة»، ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتي وعلمه أن الشرف في هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنسان من الجهد في خدمة الأمة أو المجتمع سواء أكان في قصر الملك أم في دار الوزارة، وفي حانوت التجارة، أم في معمل الصناعة، لما أكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار، ولا احتفل بها احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها، ولو أنه نفث في روعه روح الشجاعة النفسية وعوّده الصبر والجلد في مواقف الشدة والبلاء، لما جزع هذا الجزع الفاضح، ولا جن هذا الجنون الذي خيل إليه أن عذاب النزاع أهون من عذاب الهم.

لا يجني الطالب على نفسه؛ وإنما يجني عليه والده وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه.

أما الوالد فإنه يقول له وهو ذاهب به إلى المدرسة: ستكون غداً يا بني مديراً كهذا المدير، ووزيراً كهذا الوزير؛ وكلما أراد أن يحضه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة فشله في الامتحان صوّر له المستقبل المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه؛ وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي فيقول له: إذا لم تنجح في الامتحان فموتك أفضل من حياتك، أما الأستاذ فإنه يضرب له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنساني، إذ يراه بعينه يتجرع مرارة الذل، ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديداً؛ ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف، حرصاً على منصبه وإرعاءً عليه. فكأنما يلقي عليه درساً عملياً موضوعه «إن من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته، لأن المنصب كل شيء في هذه الحياة»؛ أما المجتمع فإنه يحترم الموظف الصغير، أكثر مما يحترم العالم الكبير، ويطير إلى تهنئته بإقبال المنصب عليه وتعزيته يوم إداره عنه؛ كأن الكوكب لا يدور إلا في دائرة المناصب نحوساً وسعوداً؛ فإذا رأى الناشئ ذلك أكبر الوظيفة أيما إكبار، ولج به الحرص عليها والتصق بها وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه، أو بعدها عنه؛ فإذا وفق إليها لطم بأنفه قبة السماء. وداس بنعله هام الجوزاء، وإن يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول الشاعر الأحمق:

فإما الثريا وإما الثرى.

أيها الناشئ: لقد جهل أبوك، وغشك أستاذك، وخدعك هذا المجتمع الفاسد، فكن أحسن حالاً منهم، واعلم أن شرف العلم أكبر من شرف المنصب. وأن المنصب ما كان شريفاً إلا لأنه حسنة من حسنات العلم، وأثر من آثاره، فإن فاتك حظك منه فلا تحفل به، فهو أحقر من أن تشتد في أثره، أو تبذل حياتك وجداً عليه، ولا تحسد أرباب المناصب على مناصبهم؛ فإنما هم يخدعونك بزخرف من القول، وظاهر من النعمة، وبهرج من الابتسام، ووراء ذلك لو علمت قلب يقطر دماً، وفؤاد يضطرم لوعة وأسى. خذ لنفسك حظها من العلم والأدب، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد ربحت كل شيء.

الفصل الرابع والعشرون

الجمال

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة، سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات، وفي الحقائق أم في الخيالات.

ما كان الوجه الجميل جميلاً إلا للتناسب بين أجزائه، وما كان الصوت الجميل جميلاً إلا للتناسب بين نغماته، ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسناء، ولولا التناسق في أزهار الروض ما هام به الشعراء.

ليس للتناسب قاعدة مضطربة يستطيع الكاتب أن يبينها، فالتناسب في المرئيات غيره في المسموعات، وفي الرسوم غيره في الخطوط، وفي الشئون العلمية غيره في القصائد الشعرية، على أنه لا حاجة إلى بيانه ما دامت الأذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح إليه، وما لا يلائمها فتتفر منه.

إن كثيراً من الناس يستحسنون الأنف الصغير في الوجه الكبير، والرأس الكبير في الجسم الصغير، ولا يفرقون بين البرص في الجسم الأسود، والخال في الخد الأبيض، ويطربون لنقيق الضفادع كما يطربون لخير المياه، ويفضلون أصوات النواير على أنغام العيذان، ويعجبون بشعر ابن الفارض وابن معنوق والبرعي أكثر مما يعجبون بشعر أبي الطيب وأبي تمام والبحري، ويضحكون لما يبكي ويبكون مما يضحك، ويرضون بما يغضب، ويغضبون مما يرضي!

أولئك هم أصحاب الأذواق المريضة، وأولئك هم الذين تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوهة غير متناسبة ولا متلائمة، لأنهم لم يدركوا سر الجمال فيصدر عنهم ولم تألفه نفوسهم، فيصبح غريزة من غرائزهم.

إن رأيت شاعراً يبتدئ قصائد التهنة بالبكاء على الأطلال، ويودع القصائد الرثائية بالنكات الهزلية، ويتغزل بممدوحه كما يتغزل بمعشوقه؛ أو متكلماً يقتضب الأحاديث

اقتضاباً، ويهزل في موضع الجد، ويجدّ في موضع الهزل؛ أو صحفياً يضع العنوان الضخم للخبر التافه، ويكتب مقدمة في السماء لموضوع في الأرض، أو حاكماً يضع الندى في موضع السيف، والسيف في موضع الندى، أو ماشياً يتلوى في طريقه من رصيف إلى رصيف، كأنما يرسم خطأ متعرجاً، أو لابساً في الشتاء غلالة الصيف وفي الصيف فروة الشتاء، فاعلم أن ذوقه مريض، وأنه في حاجة إلى معالجة ذوقه، كحاجة المجنون إلى علاج عقله، والمريض إلى علاجه جسمه.

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه، ولا كل مريض يرجى إبلاله، كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه، فإن رأيت من تؤمل في إصلاحه خيراً، وتجد في نفسه استعداداً لتقويم ذوقه، فعلاجه أن تحفه بأنواع الجمال، وتدأب على تنبيهه إلى متناسباته ومؤلفاته، وإن استطعت أن تعلمه فناً من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل، فإنها المقومات للأذواق، والغارسات في النفوس ملكات الجمال.

الفصل الخامس والعشرون

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب، فلا تأمن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد، واهرب من وجهه الهرب كله، وأخوف ما أخاف عليك من خطائك وسجرائك: الرجل الكاذب.

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع، ولعلمهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية، ولو شاءوا لأضافوا إلى كذب الأقوال كذب الأفعال.

لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال في تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه، ولا فرق بين أن يكذب الرجل فيقول: إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فأقرضني مالاً أرده إليك، ثم لا يؤديه بعد ذلك، وبين أن يأتيك بسبحة يههمم بها فتنطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء، فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى، لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بيئة كاذبة من جميع حركاته وسكناته.

ليس الكذب شيئاً يستهان به، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل والرذائل فروع له، بل هو الرذائل نفسها. وإنما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صور متنوعة.

المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما في قلبه، والمتكبر كاذب لأنه يدعي لنفسه منزلة غير منزلته. والفاسق كاذب لأنه كذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه، والنام كاذب لأنه لم يتق الله في فتنته، فيتحرى الصدق في نيمته، والمتملق كاذب لأن ظاهره ينفك؛ وباطنه يلذعك.

لقد هان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات وتتحدث بخوارق العادات. فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة، وويل له من صديق يخون العهد، ورفيق يكذب الود، ومستشار غير أمين، وجاهل يفشي السر، وعالم يحرف الكلم عن مواضعه، وشيخ يدعي الولاية كذباً، وتاجر يغشُّ في سلعته، ويحنث في أيمانه، وصحفي يتجر بعقول الأحرار، كما يتجر النخاس بالعبيد والإماء، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء.

غرفة الأحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه، فكان يروقني منظره ويؤنسني محضره، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته، أو فسقه واستهتاره، لأنني ما فكرت قط أن ألتقى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق.

قضيت في صحبته عهدًا طويلًا ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئًا حتى سافرت من القاهرة سفرًا طويلًا فتراسلنا حينًا، ثم انقطعت عني كتبه فرابني من أمره ما رابني، ثم رجعت فجعلت أكبر همي أن أراه فطلبت في جميع المواطن التي ألقاه فيها فلم أجده، فذهبت إلى منزله، فحدثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد، وأنهم لا يعرفون أين مصيره، فوقففت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه، فأيقنت أنني قد فقدت الرجل، وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلًا.

هنالك ذرفت من الوجد دموعًا لا يذرفها إلا من قلَّ نصيبه من الأصدقاء، وأقفر ربه من الأوفياء، وأصبح غرضًا من أغراض الأيام، لا تخطئه سهامها ولا تغبه آلامها.^١ بينا أنا عائد إلى منزلي في ليلة من ليالي السرا^٢ إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدهم إلى زقاق موحش مهجور يخيل للنائر إليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان، أو مأوى الغيلان، فشعرت كأني أخوض بحرًا أسود، يزخر بين جبلين شامخين، وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر، وترتفع وتنخفض، فما توسطت لجته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنَّهُ تتردد في جوف

^١ أغبه الألم: جاءه حينًا بعد حين.

^٢ ليالي السرا: الليالي الأخيرة من الشهر.

الليل، ثم تلتها أختها ثم أخواتها، فأثر في نفسي مسمعها تأثيراً شديداً وقلت: يا للعجب! كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين. وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت، أو الباكي إذا عجزت، فتلمست الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغته، فطرقت الباب طرقة خفيفة فلم يفتح، فطرقت أخرى طرقة شديدة ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلك العاشرة من عمرها، فتأملت على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها فإذا هي في ثيابها الممزقة، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة، وقلت لها: هل عندكم مريض؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها، وقالت: أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت؛ ثم مشت أمامي فتبعتها حتى وصلت إلى غرفة ذات باب قصير مسنم، فدخلتها، فخيل إليّ أنني قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وأن الغرفة قبر، والمريض ميت، فدنوت منه حتى صرت بجانبه، فإذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي، فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر في وجهي، ثم فتح شفثيه قليلاً قليلاً؛ وقال بصوت خافت: «أحمد الله فقد وجدت صديقي» فشعرت كأن قلبي يتمشى في صدري جزعاً وهلعاً، وعلمت أنني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها، وكنت أتمنى ألا أعثر بها، وهي في طريق الفناء، وعلى باب القضاء، وألاً يجدد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً، وبين أضالعي دفيناً، فسألته ما باله؟ وما هذه الحال التي صار إليها؟ وكأن أنسه بي أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور، فأشار إليّ أنه يحب النهوض، فمددت يدي إليه، فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص عليّ القصة الآتية:

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنتها على مثلها حسناً وبهاءً، ورونقاً وجمالاً، فألّم بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً، فما زلت بها أعالجها فتمتنع. وأستنزلها فتعتذر، وتأتى إلى قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه. حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه إليها، فسكن جماعها، وأسلمس قيادها، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنيناً يضطرب في أحشائها، فأسقط في يدي، وطفقت أرثني بين أن أفي لها بوعدها أو أقطع حبل ودّها، فأثرت أخراهما على أولاهما، وهجرت ذلك المنزل إلى المنزل الذي كنت تزورني فيه، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً.

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب، ومد يده تحت وسادته وأخرج كتابًا باليًا مصفرًا، فقرأت فيه ما يأتي:

«لو كان بي أن أكتب إليك لأجدد عهدًا دارسًا، أو ودًا قديمًا، ما كتبت سطرًا، ولا خططت حرفًا، لأنني أعتقد أن عهدًا مثل عهدك الغادر، وودًا مثل ودك الكاذب، يستحق أن أحفل به فأذكره، أو آسف عليه فأطلب تجديده.

إنك عرفت حين تركتني أن بين جنبي نارًا تضطرم، وجنينا يضطرب، تلك للأسف على الماضي، وذاك للخوف من المستقبل، فلم تبال بذلك وقررت مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر إلى شقاء أنت صاحبه، ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف؟ لا ... بل لا أستطيع أن أتصور أنك إنسان؛ لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في نفوس العجماوات وأوابد الوحش إلا جمعتها في نفسك، وكل ما في الأمر أنك رأيتني السبيل إلى إرضائها فمررت بي في طريقك إليها، ولولا ذلك ما طرقت لي بابًا، ولا رأيت لي وجهًا.

خنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعذك ذهابًا بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة إلا صنعة يدك وجريرة نفسك، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة، فقد دافعتك جهدي حتى عييت بأمرك، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير، بين يدي الجبار الكبير.

سرت عفتي، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب، أستثقل الحياة وأستبطئ الأجل، وأي لذة في العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجة لرجل ولا أمًا لولد، بل لا تستطيع أن تعيش في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهي خافضة رأسها، مسبلة جفنها، واضعة خدها على كفها، ترتعد أوصالها وتذوب أحشاؤها، خوفًا من عبث العابثين، وتهكم المتهمكين.

سلبتني راحتي لأنني أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر الذي كنت ممتعة فيه بعشرة أبي وأمي، تاركة ورثتي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد إلى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه أحد، ولا يطرق بابه، لأقضي فيه الصبابة الباقية من أيام حياتي.

قتلت أُمِّي وأبِي، فقد علمت أنهما ماتا، وما أحسب موتهما إلا حزنًا لفقدي، ويأسًا من لقائي.

قتلتني لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كأسك، والهم الطويل الذي عالجته بسببك. قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي، فأصبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفسًا في نفس، وأحسب أن الله قد صنع لي، واستجاب دعائي، وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء، إلى دار الحياة والهناء.

فأنت كاذب خادع، ولص قاتل، ولا أحسب أن الله تاركك دون أن يأخذ لي بحقي منك.

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهدًا، أو أخطب إليك ودًا، فأنت أهون عليّ من ذلك، إنني قد أصبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها، سعادتها وشقائها، فلا أمل لي في ود، ولا متسع لعهد، وإنما كتبت إليك لأن لك عندي وديعة وهي فتاتك، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة، فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها.

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تتحدّر على خديّ فسألته: وماذا تم بعد ذلك؟ قال: إنني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى في جميع أعضائي، وخيّل إليّ أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزنًا وجزعًا، فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكي بكاءً مرًا، فصعقت لهول ما رأيت، وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية، وأسود ملتفة، هذا ينشب أظافره، وذاك يحدّد أنيابه، فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التي سميتها «غرفة الأحزان» حتى أعيش فيها عيشها، وأموت موتها.

وها أنذا أموت اليوم راضيًا مسرورًا، فقد حدثني قلبي أن الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء، وكابدت من الشقاء.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهرَّ وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول: ابنتي يا صديقي؛ فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه، ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه فحضرُوا تشييع جنازته؛ ومارئي مثل يومه يوم كان أكثر باكية وباكياً.

ولما حثونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

يعلم الله أنني أكتب قصته، ولا أملك نفسي من البكاء والنشيج؛ ولا أنسى ما حييت نداءه لي وهو يودع نسَمات الحياة، وقوله: «ابنتي يا صديقي».

فيا أقوياء القلوب من الرجال، رفقاً بضعفاء النفوس من النساء. إنكم لا تعلمون حين تخذعونهن عن شرفهن، وعفتهن. أي قلب تفجعون، وأي دم تسفكون!!

الفصل السابع والعشرون

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء.

ما من عامل يعمل في هذه الحياة إلا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوّره، يقتل القاتل وفي اعتقاده أن الشرف في أن ينتقم لنفسه أو عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم، ولا يبالي أن يسميه القانون بعد ذلك مجرمًا؛ لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية، وهي في نظره أعدل من القانون حكمًا، وأصدق قولًا. يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول البله الذي يظل الأعفَاء والمستقيمين، وأنه استطاع أن يعمل عملاً لا يقدم عليه إلا كل ذي حذق وبراعة، وشجاعة وإقدام.

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن، وفي اعتقاد كل منهم أن الشرف كل الشرف في إحراز المال وإن كان السبيل إليه دنيئًا وسافلاً، وإن للذهب رنينًا تخفت بجانب صوته أصوات المعارضين والناقدين شيئًا فشيئًا ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه.

هكذا يتصوّر الأدنياء أنهم شرفاء، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه، وما أفسد عليهم تصورهم إلا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخطائهم وذوي جامعتهم؛ أولئك الذين يحتقرون المؤثّر حتى يغسل الدم بالدم فيعظمونه، وينعون على الرجل العف المستقيم بلاهته وخموله حتى يفجر ويستتهر فيطرونه ويجلونه، ويكرمون صاحب الذهب، ولو أن كل دينار من دنائره محجم من الدم، وأولئك الذين يسمون الفقير سافلاً، وطيب القلب مغفلاً، وظاهر السريرة بليدًا، والحليم عاجزًا.

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس في أدمغتهم صور الحقائق حتى تلبس في نظره ثوبًا غير ثوبها، وتترأى في لون غير لونها، فإن بين الخاصة

الذين نعتد بعقولهم ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة، حتى ليكاد يفخر بالأولى ويستحي من الأخرى.

لولا فساد التصور ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة، ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية أو الاجتماعية، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والأطباء خَدَمَ الإنسانية وَحَمَلَةَ عرشها وأصحاب الأيادي البيضاء عليها في سطر واحد من صحيفة واحدة، ولولا فساد التصور ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسي القضاء يفتل شاربه ويصعر خديه، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل، ولا ذنب له عنده إلا أنه جاع وضاق به مذاهب العيش فسرق درهماً، وهو يسرق الدنانير في جميع آنائه وأوقاته. ولولاه لما توهم اللص الكبير أنه أشرف من هذا اللص الصغير، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معاً في موقف واحد أمام قاضٍ عادل يحكم بإدانة الأول لأنه سرق مختاراً ليرفه عيشه، وبراءة الثاني، لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت.

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس، ويقوم معوجها، فليذهب تصوراتهم وليقوم أفهامهم، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم.

ليس الرأي من أن يشير المعلم على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزاناً يزن به أعماله أو مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه والاضطراب في تصويره، فلا عبرة بحكمه، ولا ثقة بوزنه وتقديره.

ليس من الرأي أن يرشد المعلم المتعلم إلى أن يطلب في حياته الشرف الاعتباري فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك.

ألا تراهم يعدون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب أو يحلي بها صدره، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله، كما تبتاع المرأة من الجوهري حليتها؟

لا شرف إلا الشرف الحقيقي، وهو الذي يناله الانسان ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه أو خدمة نوع من أنواعه.

فالعالم شريف، لأنه يجلو صدأ العقل الإنساني ويصقل مرآته؛ والمجاهد في سبيل الذود عن وطنه شريف، لأنه يحمي مواطنيه غائلة الأعداء ويقيهم عادية الفناء؛ والمحسن الذي يضع الإحسان في موضعه شريف لأنه يأخذ بأيدي الضعفاء ويحيي أنفس

البائسين؛ والحاكم العادل شريف، لأنه رسول العناية الإلهية إلى المظلومين يمنعهم أن يبغي عليهم الظالمون؛ وصاحب الأخلاق الكريمة شريف؛ لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته في عشرائه وخلطائه، ويلقي عليهم بالقدوة الصالحة أفضل درس في الأخلاق والآداب؛ والصانع والزارع والتاجر أشرف متى كانوا أمناء مستقيمين، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشري ويحتملون في سبيل ذلك ما يحتملون من المؤنة والمشقة حذرًا عليه من التهافت والسقوط.

فإن رأيت في نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء، فاعلم أنك شريف وإلا فاسلك طريقهم جهدك، فإن لم تبلغ غايته فأخذ القليل خير من ترك الكثير، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتنبك على عقلك البواكي.

الفصل الثامن والعشرون

الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصصها أحد الكتاب موضوعها أن كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام، ثم عاد إليها بعد ذلك فزار صديقاً له من أسرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الأخلاق الكريمة والأنفس العالية، فوجده حزيناً كئيماً على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم فاستفهم منه عن دخيلة أمره، فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده، وأنها فرت منه إلى عشيق لها رقيق الحال وضع النسب، فاجتهد الكاتب أن يلقي تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها، فلقبها في منزل عشيقها فاعتذرت إليه عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه في الأربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين، وقالت: إنها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وإن خالفت الشرائع الدينية؛ لأن الأولى عادلة، والثانية ظالمة، وقالت: إن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع إلا أن تأذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلمام بها إلمام الأزواج بنسائهم ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته، وقالت: لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية، وأنها ربما تعدّ المرأة في بيت زوجها زانية، وفي بيت عشيقها طاهرة، إذا كانت تكره الأول.

هذا ملخص القصة على طولها وأحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب، لأن الكاتب قد أعذر^١

^١ أعذرهما: قبل عذرهما.

تلك الفتاة فيما فعلت، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها^٢ وقضى لها فيما كان بينهما.

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية، فالحق أقول: إن الكاتب أخطأ في وضعها وما كنت أحسب إلا أن مذهب الإباحية^٣ قد قضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الأمة العربية، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به.

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها إليها دافع خداع أو سائق حاجة ثم ثاب إليها رشدها وهداها، فقلنا: لا بأس بتهوينهم ذنباً جسمته العادة، وألبسته ثوباً أوسع من ثوبه، ولا بأس برحمتهم فتاة مذنبه تحاول الرجوع إلى ربها، والتوبة من ذنبها، ويأبى المجتمع البشري إلا أن يسد عليها أبواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين.

أما وقد وصل الحد إلى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمها عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته كلما دعاها إلى ذلك داعٍ من الهوى، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يستطاع قبوله؛ إن فتاة الرواية لم تهفُ في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها، ولم يسقها إلى ذلك سائق شهوة بشرية إن صح أن تكون الشهوة البشرية عذراً يدفع مثلها إلى مثل ما صنعت؛ لأنها فرّت من فراش زوجها، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع؛ لأنها كانت أهنأ النساء عيشاً، وأروحهن بالاً، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في أعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة.

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً في وضع كلمة الفساد في معاجمهم؛ لأنها لا مسمى لها في هذا العالم، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاة المواخر لأنها لم تترك

^٢ أعداها عليه: أنصف لها منه.

^٣ مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأياً واعتقاداً.

وراءها زوجًا معذبًا منكوبًا، ولم ترضَ عن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة.

كل الأزواج ذلك الزوج إلا قليلاً، فإذا جاز لكل زوجة أن تفر من زوجها إلى عشيقها كلما وقع في نفسها الضجر من معاشرة الأول وبرقت لها بارقة الأُنس من بين ثنايا الثاني، فويل لجميع الرجال من جميع النساء، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام.

أيها الكاتب! ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك ولا في استطاعة أحد من الناس أن يقف دورة الفلك ويصد كَرَّ الغداة ومَرَّ العشي حتى لا يبلغ الأربعين من عمره مخافة أن تراه زوجته غير أهل لعشرتها إذا علمت أن في الناس من هو أصغر منه سنًا وأكثر منه رونقًا وأنضر شبابًا.

إن الضجر والسَّامة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عَشر واحد، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه، وعلم أن نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بني على رجل وامرأة تدوم عشرتهما، ويطول ائتلافهما، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب، وأمر الزوجين أن يعتبروا هذا الرباط رباطًا مقدسًا حتى يحول بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتهما، وذهابهما في أمر الزوجية مذهبهما في المطاعم والمشارب، من حيث الميل لكل جديد، والشغف بكل غريب.

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلًا من الزواج، فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيئية. أي امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها في استبداله بأجمل منه؟ وأي رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى أن يكون في منزله أجمل منها، لولا هذا الرباط المقدس: رباط الزوجية، فهو الذي يعالج أمثال هذه الأمانى وتلك الهواجس وهو الذي يعيد إلى النفوس الثائرة سكونها وقرارها.

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه، ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج، يحيا بحياته ويموت بموته. فالقلوب متقلبة، والأهواء نزاعة، بل بمعنى أن يكون كل منهما لصاحبه صديقًا أكثر منه عشيقًا، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها، ويمتد ظلها، أما الحب فظل ينتقل؛ وحال تتحول.

الفصل التاسع والعشرون

الإسلام والمسيحية

ما عجت لشيء في حياتي عجبى لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الإسلام يضمن به ضنه بنفسه وماله أن يؤمن بالوحدانية، ويصدق الرسالة المحمدية، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع إليه سبيلاً!

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك ببسوعيته أن الإسلام دين موضوع ابتدعه عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة، ولا سمع حكمة اليونان، ولا رأى مدنية الرومان، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران.

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه وينظره ويخاطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام؟ وكيف يسمح لنفسه أن ينظر إليه بالعين التي ينظر بها المسلم إليه من حيث كونه نبياً مرسلًا موحى إليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ أما ما نقرؤه أحياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته، فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق، فلم يعبث التعصب الديني بكتاباتهم، ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم، ولا ريب في أن اللورد كرومر ليس واحداً منهم، فإن من قرأ كتابه «مصر الحديثة» خيل إليه أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره.

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يدهش أو يذهب به العجب كل مذهب إذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الإنجيليين، وجرائدهم ومجلاتهم، من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربي نظم على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب، وليست مسألة الإعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال، وإنما الإعراب ما نطق به العرب، واللحن ما لم ينطقوا به، فلو أنهم اصطاحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً لكان رفع الأول ونصب الثاني لحنًا، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن لقواعد النحو التي ما دونها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب وتتبعوا تراكيبه وأساليبه، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد، فالقرآن حجة على النحاة، وليست النحاة حجة على القرآن، فإذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون في التتبع والاستقراء، على أنهم قصرُوا في شيء من ذلك، وما تركوا كثيرًا ولا قليلًا ولا نادرًا ولا شاذًّا إلا دونوه في كتبهم، فلا القرآن بملحون، ولا النحاة مقصرون، ولكن المبشرين جاهلون، فإذا كان التعصب الديني أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه.

إننا لا ننزع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام في معتقدهم ولكننا نحب منهم ألا ينازعونا في معتقدنا، وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم. يقول اللورد كرومر: إن الدين الإسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدينة الإسلامية، ولا يصلح للنظام الاجتماعي. ويقول: إن ما لا يصلح له الدين الإسلامي يصلح له الدين المسيحي، ويستدل على الإسلام بالمسلمين، وعلى المسيحية بالمسيحيين.

في أي عصر من عصور التاريخ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدينة وال عمران؟ أي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحرب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليكية تارة، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة أسودَّ لها لباس الإنسانية، وبكت الأرض منها والسماء؟ أم في العصر الذي كانت إرادة المسيحي فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل؛ فلا يعلم إلا ما يعلمه إياه، ولا يفهم إلا ما يلقيه إليه، فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه بكفر أو إيمان، وبهيمية أو إنسانية، فيكاد يتخيل أن له ذنبًا متحركًا وخيشومًا طويلًا، وأنه يمشي على أربع إذا قال له الكاهن: أنت كلب، أو قال له: إنك لست بإنسان؟ أم في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي أن دخول الجمل في سم الخياط أقرب من دخول الغني في ملكوت

السموات؟ أم في العصر الذي كان يحرم فيه الكاهن الأعظم على المسيحي أن ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس. وأن يتلقى علمًا في مدرسة غير مدرسة الكنيسة؟ أم في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا إلى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجو فولّت الأدبار؟! أما في العصر الذي أهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة إلى الملك شارلمان، فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها فرّ من وجهها ظنًا منه أنها تشتمل على الجن والشياطين؟! أم في العصر الذي ألقت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفًا بالقتل حرقًا أو صلبًا؟ أم في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرّق عظمها لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة؟ هذا الذي نعرفه أيها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك أم باطلة، وإنما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية، وإن لم نقف على حقيقتها كما فعلت أنت في استدلالك بالمسلمين على الإسلام وإن لم تعرف حقيقته وجوهره، على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل، فإن المدنية الحديثة ما دخلت أوروبا إلا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحل محلها كالماء الذي لا يدخل الكأس إلا بعد أن يطرد منه الهواء لأنه لا يتسع لهما، فإن كان قد بقي أثر من آثار المسيحية اليوم في أكواخ بعض العامة في أوروبا فما بقي إلا بعد أن عفت عنه المدنية ورضيت بالإبقاء عليه، لا باعتبار أنه دين يجب إجلاله وإعظامه، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شرّة النفوس الجاهلة، فلا علاقة بين المسيحية والتمددين الغربي من حيث يستدل به عليها، أو باعتبار أنه أثر من آثارها، ونتيجة من نتائجها، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرنًا كانت فيها أوروبا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل، فما نفعتها مسيحيتها، ولا أغنى عنها كهنوتها.

أما المدنية الإسلامية فإنها طلعت مع الإسلام في سماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد، ثم سارت إلى جانبه كتفًا لكتف ما ينكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئًا، فالمتعبد في مسجده، والفقير في درسه، والمغرب في خزانة كتبه، والرياضي في مدرسته، والكيميائي في معمله، والقاضي في محكمته، والخطيب في محفله، والفلكي أمام أسطرلابه، والكاتب بين محابره وأوراقه، إخوة متصافون وأصدقاء متحابون لا يختصمون ولا يقتتلون، ولا يكفر بعضهم بعضًا، ولا يبغى أحد منهم على أحد.

أيها الفيلسوف التاريخي: إن كان لا بد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدينة الغربية اليوم أثر من آثار الإسلام بالأمس، والانحطاط الإسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى، وإليك البيان:

جاء الإسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج إليه في معاده ومعاشه ودينه وآخرته، وما يفيد منفردًا وما ينفعه مجتمعًا.

هذب عقيدته بعدما أفسدها الشرك بالله والإسفاف إلى عبادة التماثيل والأوثان، وإحناء الرؤوس بين أيدي رؤساء الأديان، وأرشده إلى الإيمان بألوهية إله واحد لا يشرك به شيئًا، ثم أرشده إلى تسريح عقله ونظره في ملكوت السموات والأرض ليقف على حقائق الكون وطبائعه، وليزداد إيمانًا بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره، ليكون اقتناعه بذلك اقتناعًا نفسيًا قلبيًا، فلا يكون آلة صماء، في يد الأهواء تفعل به ما تشاء، ثم أرشده إلى مواقف تذكره بربه وتنبيهه من غفلته وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت إليها سبيلًا، وهي مواقف العبادات، ثم أطلق له الحرية في القول والعمل، ولم يمنعه إلا من الشرك بالله والإضرار بالناس، وعرفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها، وعلمه أن الإنسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ووضعها ورفيعها وضعيفها وقويها، وأن الملك والسوقة، والشريف الهاشمي، والعبد الزنجي: أمام الله والحق سواء، وأن الأمر والنهي، والتحليل والتحريم، والنفع والضرر، والثواب والعقاب، والرحمة والغفران: بيد الله وحده لا ينازعه منازع، ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ثم نظر في أخلاقه فأرشده إلى محاسنها، ونفّر من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب، والنوم والمشي، والجلوس والكلام، والتحية والسلام ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه ويرحم الوالد ولده، ويعطف الأخ على أخيه، ويكرم الزوج زوجته، وتطيع الزوجة زوجها، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الأقرباء وذوي الرحم، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير، وندبه إلى الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء، وعطف الأغنياء على الفقراء. ثم شرع له الشرائع للمعاملة الدنيوية، ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والإجازة والمزارعة والوقف والوصية والميراث، ليعرف كل إنسان فلا يغبن أحد أحدًا، ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغي بعضه على بعض بشتى أو سب أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع في فتنة أو خروج على أمير

أو سلطان، ثم نظر في شؤونه السياسة فقرر الخلافات وشروطها، والقضاء وصفاته، والإمارة وحدودها، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفينهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين إليهم، وذكر مواطن القتال معهم، ومواضع المسألة لهم.

وجملة القول: إن الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ترك الإنسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهدد إلى لحد، إلا مدَّ يده إليه وأنار له مواقع أقدامه، وأرشده إلى سواء السبيل.

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء العرب فملأت الكون نورًا وإشراقًا، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ومنكر لوجودها، ولكنهم كانوا جميعًا سواء في الانتفاع بنورها، والاستنارة بضياؤها على تفاوت في تلك الاستنارة وتنوع في ذلك الانتفاع. طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء إلى أوروبا من طريق أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا، فأبصرها عدد قليل من أذكى الغربيين، فانتبهوا من رقدتهم واستيقظوا من سباتهم، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ، فقالوا: أيمن أن يعيش الإنسان حرًا على ظهر المسكونة لا يستعبده ملك ولا يسرقه كاهن؟ أيمن أن يبيت المرء ليلة واحدة في حياته هادئًا في مضجعه مطمئنًا في مرقد، لا يروعه دولاب العذاب، ولا سيف الجلاذ؟ أيمن أن تملك النفس حريتها في النظر إلى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها؟ أيمن أن يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضًا؟

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول أولئك الأذكى هي الخطوة الأولى التي مشتها أوروبا في طريق المدنية والعمران بفضل الإسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الأفراد من مخالطة المسلمين في أوروبا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنياتهم، ثم أخذوا يعلمونها للناس سرًا ويبثونها في نفوس تلاميذهم شيئًا فشيئًا، ويلقون في سبيل نشرها عناءً شديدًا، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قرونًا عدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية، فكانت هي القضاء الأخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة.

أيها الفيلسوف التاريخي: إنك لا بد تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه، كما تعلم أن المدنية الإسلامية إذا وسعت غيرها فأحر بها أن تسع نفسها، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك، حتى أنكرت عليه فضله في نفسه!

لا حاجة بي أن أشرح لك المدنية الإسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران، أو أعدد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب، أو أصف لك مدنها الزاهرة، وأمصارها الزاخرة، وسعادتها وهناءتها، وعزتها وسطوتها، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول.

غير أنني لا أنكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور، وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال، ولكن ليس السبب ذلك الإسلام كما نتوهم، بل المسيحية التي سرت عدواها إليهم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الإسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء، وأمرائه الجهلاء، فأمدهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين، حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم، وأوقعوا الفتنة فيهم، وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان.

كل ما نراه اليوم بين المسلمين: من الخلط في عقيدة القضاء والقدر، وعقيدة التوكل، وتشديد الأضرحة وتخصيخ القبور وتزيينها والترامي على أعتابها، والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها، وإسناد النفع والضرر إلى رؤساء الدين، وأمثال ذلك أثر من آثار المسيحية الأولى، وليس من الإسلام في شيء.

أيها الفيلسوف التاريخي: لا تقل إننا متعصبون تعصباً دينياً فإنك قد أسأت إلينا وإلى ديننا، فلم نر بُدّاً من الذَّبِّ عنّا وعنه بما تعلم أنه حق وصواب، على أنه لا عار علينا فيما تقول، وهل التعصب الديني إلا اتحاد المسلمين يداً واحدةً على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله.

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أنني رافض

الفصل الثلاثون

أهناء أم عزاء

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعدما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة، وبعدها ما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية. يأخذون من كمال الأولى ليتممو ما نقص من الأخرى، وبعدها علّموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة.

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون إلينا فنسيء إليهم، ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء، وأخرى ثقلاء، كأنما كنا نحسب أنهم قوم من شذاذ الآفاق أو نفايات الأمم جاءوا إلينا يصادروننا في أرزاقنا، ويتطفلون على موائدنا، ولو أنصفناهم لعرفناهم وعرفنا أن أكثرهم من بيوتات المجد والشرف، وإنما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً، وكذلك شأن كل حكومة مستبدّة مع أحرار النفوس وأباة الضيم، فأخرجت صدورهم، وضيق عليهم مذاهبهم ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفاً ينعمهم، ومجداً يبكي عليهم، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً، وأساتذة كباراً، فما أحسنًا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم.

وبعد: فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره، وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت أفئدتنا مخافة أن يلحق باقيهم بماضيهم، فلا نعلم أنشكر للدستور أن فرج عنهم كربتهم، وأمنهم على أنفسهم، وردهم إلى أوطانهم أم ننقم منه أنه كان سبباً في حرماننا منهم، بعد أنسنا بهم، واغترباطنا بحسن عشرتهم وجميل مودتهم، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم في عزاء؟.

مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة (المجلد الأول)

فيا أيها القوم المودعون، والكرام الكاتبون:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رَبِّ ذِكْرِي قَرَّبَتْ مِنْ نَزْحَا
واذكروا صَبًّا إِذَا غَنَّى بِكُمْ شَرِبَ الدَّمْعَ وَعَافَ الْقَدْحَا

الفصل الحادي والثلاثون

الزوجتان

حدّثني أحد الأصدقاء قال: سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين.

أويت إلى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غدافية الإهاب، فما استقبلت أول طلّية من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتي فتسمعت فإذا الخادم تقول: إن امرأة سيئة الحال رثة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلتك وتقول: إن لها عندك شأنًا، فقلت في نفسي: لا شأن لي مع امرأة ربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها إليّ أكثر من حاجتي إلى النوم، على أن النوم لا يفوتني، فليل الشتاء أطول من يوم القضاء، فارتديت ردائي ونزلت، فإذا فتاة في ملاءة بالية وخمار خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس، وإذا هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي: أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفئ هذه الجذوة التي تتأجج بين أضالعي بقطرة واحدة من الرحمة؟ فقلت: من أنت يرحمك الله؟ قالت: أنا فلانة زوج فلان، فدهشت وغصصت بريقي حتى ما أجد بلة أحرك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت، وقلت: يا للعجب! زوج فلان على عظمه وعظمتها، وجلاله وجلالها، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البزة! وسألتها: ما شأنك يا سيدتي وممّ تبكين؟ قالت: لا تحدث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذهبها، فوالله ما جئت إليك تحت ستر الليل إلا وأنت أوثق الناس عندي، وأرفعهم في عيني، ولولا شدة أقلت مضجعي وفترت ما بين جفني والكرى ما خضت إليك سواد الليل في مثل هذه الساعة ولا احتملت في سبيل ذلك ما احتملت، قلت: عهدي بسيدتي رحية البال ناعمة

العيش سعيدة الحظ بزواج عذب الأخلاق كريم السجايا يؤثر هوى نفسه على هواك، ولا يعدل بك أحداً، قالت: إنك تقص عليّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر، والكوكب السيار، فاستمع مني حديث اليوم:

أظنك تذكر تاريخ زواجي منه وأنه كان منذ ثلاثة أعوام، وأن أبي قد آثره وفضله على جميع الخاطبين إليه من عليّة القوم وجلتهم، وأنا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بي شراً ولا اعتمد أن يسيء الاختيار لي، ولكنه كان رجلاً طيب السريرة طاهر القلب، فخدعه الخادعون عني، ومن ذا الذي لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب العالية، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتبطت به واغتبط بي برهة من الزمان حسبته دائماً لا انقطاع لها حتى يفرق بيننا الموت، وكنت امرأة أجمع في نفسي جميع ما يمت به النساء إلى الرجال، فما خنته ولا ضقت ذرعاً به، ولا قطبت في وجهه مرة ولا أتلّفت له مالاً، ولا نقضت له عهداً، فجازاني بالإحسان سوءاً، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان، وخان ودي، ونقض عهدي، لا لذنب جنيته، أو وصمة يصمني بها، ولكنه رجل ملول متبرم، ولا تغضب يا سيدي إن قلت لك: إن قلب الرجل متقلب متلون يسرع إلى البغض كما يسرع إلى الحب، وإن هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها أوثق منه عقدًا، وأمتن ودًا، وأوفى عهدًا، ولو وقي الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرق بين قلبيهما إلا ريب المنون. قلت: أنا لا أغضب لشيء إلا للإنسانية أن يخفر ذمامها، وينقض عهدها، ثم ماذا تم بعد ذلك؟ قالت: مات أبي كما تعلم وخلف لي مالاً أمكنت منه زوجي فأتلّفه بين الخمر والقمر، فكنت أغضي على ذلك رحمة به وشفقة عليه استبقاء لوده، حتى إذا صفرت يدي وأقفر ريعي أحسست منه مللاً كان يدعوه إلى سوء عشري وتعذيب جسمي ونفسي، وكان كثيراً ما يتهمك بي ويقول: إنني لا أحب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا أفهمها، وآونة كان يعرض بي قائلاً: إن الرجل السعيد هو الذي يرزق زوجة متعلمة، تقرأ له الجرائد والمجلات وتتيسط معه في الشؤون الاجتماعية والسياسية، بل يتجاوز التعريض إلى التصريح، فيقول كلما دخل عليّ متأففاً متذمراً: ليت لي زوجة كفلانة فإنها تحسن الرقص والغناء والتوقع على الآلات الموسيقية،

فكنت أشك في سلامة عقله، وأقول في نفسي: كيف يفضل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحية المحتشمة، ووالله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنت أبذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس. وبعد؛ فما زال الملل يدب في نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء حتى تحوّل إلى بغضاء شديدة، فما كان يلحظني إلا شزراً ولا يدخل المنزل إلا لتناول غرض أو قضاء حاجة، ثم يخرج لشأنه فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور، وجنان وقور، حتى عرض له بعد ذلك أن نقل إلى منصب أرقى من منصبه في بعض بلاد الأقاليم، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلي، فلبثت أترقب كتاباً منه يدعوني فيه إلى اللحاق به، فما أرسل كتاباً ولا رسولاً ولا نفقةً، فاستكتبت إليه الكتاب فما أسلس قياده، ولا طاورع عناده، فسافرت إليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه معي، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لي من وقفني على حقيقة أمره، وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية، فداخلني من الهم ما الله به عليم، وجزعت ولكن أي ساعة مجزع، ولا أظن إلا أن العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتها في هذا السبيل حساباً غير يسير.

وكأنه شعر بمكاني، فجاء إليّ يتهددني ويتوعدني فتوسّلت إليه ببكاء طفله التي كنت أحملها على يدي، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها، وذهبت في استعطافه واستدناؤه كل مذهب، فكنت كأني أخاطب ركوداً صمّاء^١، أو أستنزل أبوداً عصماء^٢ ثم طردني وأمر من حملني إلى المحطة، فعدت من حيث أتيت.

فما وصلت إلى المنزل حتى خلعت ملابسي ولبست هذه الثياب وجئتكم متنكرة في ذمام الليل، لأنني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم، ولأنني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى أن

^١ الركود — من الركود — وهو الثبات والسكون. والصخرة الصماء: الصلبة المصمتة.

^٢ أبدت البهيمية: توحشت. والعصماء من الظباء: التي في ذراعيها بياض وساثرها أسود.

ترى لي رأيًا في التفريق بيني وبينه، علني أجد في فضاء الحرية منفذًا كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلغ به وأنا وطفلي حتى يبلغ الكتاب أجله. فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنني، ووعدتها بالنظر في أمرها بعد أن هونت عليها بعض أحزانها ولواعجها، فعادت إلى منزلها وعدت إلى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة، وقد اكتنفتني هَمَّان: هم تلك البائسة التي لم أرَ في تاريخ شقاء النساء قلبًا أشقى من قلبها ولا نجمًا أنحس من نجمها، وهم ذلك الصديق الذي ربحته سنين عدة وخسرته في ساعة واحدة، فقد كنت أغبط نفسي عليها فأصبحت أعزيها عنه، وكنت أحسبه إنسانًا فإذا هو ذئب عملس^٣ تستره الصورة البشرية وتواريه البشاشة والابتسامة.

هذا ما قصه عليّ ذلك الصديق الكريم، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة، ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءني منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة، وهذا نصه:

سيدي:

يهمني كثيرًا أن أرى بين كتب التهنئة التي ترد إليّ كتابًا منك لأسر بمشاركتك إياي في سروري وهنائي. إنك لا بد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها «فلان» وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرها بعدما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها إليّ، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فاعلم أنها دفعت زوجها إلى موقف القضاء فضاق بأمرها ذرعًا فطلقها، وكنت أفكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوج صالحة أجد السعادة في العيش بجانبها، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفسًا ولا أكرم عنصرًا ولا أذكي قلبًا منها، فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانية المعذبة

^٣ العملس: السريع.

من شقوتها وبلائها، وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقامًا شديدًا، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر، والشقاء الأكبر، وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذًا عظيمًا فحولتها إلى فتاة غربية في جميع شؤونها وأطوارها، والرجل المصري شرقي بفطرته كائنًا من كان، أما غربيته فهي متكلفة معتملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء، أضعاف ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء، والسلام.

الفصل الثاني والثلاثون

في سبيل الإحسان

الإحسان شيء جميل، وأجمل منه أن يحل محله، ويصيب موضعه. الإحسان في مصر كثير، ووصله إلى مستحقه وصاحب الحاجة إليه قليل؛ فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بائس، وأنة محزون.

ليس الإحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس؛ فالعطاء قد يكون نفاقاً ورياءً، وقد يكون أجبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس الأعناق، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليذل قليلاً ويربح كثيراً.

إنما الإحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء، فلو أن جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحساناً — صادر عن تلك العاطفة الشريفة — لما تجاوز محله، ولا فارق موضعه.

فوضى الإحسان: الإحسان في مصر فوضى لا نظام له، يناله من لا يستحقه، ويحرم منه مستحقه، فلا بؤساً يرفع، ولا فقراً يدفع، فمثله كمثّل السحاب الذي يقول فيه أبو العلاء:

ولو أن السحاب همي بعقل لما أروي مع النخل القتادا^١

الإحسان في مصر أن يدخل صاحب المال ضريحاً من أضرحة المقبورين فيضع في صندوق النذور قبضة من الفضة أو الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً

^١ القتاد: شجر صلب له شوك لا فائدة منه.

وأنعم بالآ، أو يهدي ما يسميه نذرًا من نَعَم وشاء إلى دفين في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذي يأكل لحمه والسوس الذي ينخر عظمه، وما أهدى شاته ولا بقرته — لو يعلم — إلا إلى «وزارة الأوقاف» وكان خيرًا له أن يهديها إلى جاره الفقير الذي يبيت ليله طاويًا يتشهى ظلًّا^٢ يمسك رmqه، أو عرقوبًا يطفئ لوعته.

وأعظم ما يتقرب به محسن إلى الله، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتيهما: أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد، حافل بالمعابد، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات، ينشدون مواطن الصلات، لا أماكن الصلوات، أو يبني بنية ضخمة مرفوعة القباب، فسيحة الرحاب، مموهة الجوانب والأركان، مذهبة السقوف والجدران، يسميها «سبيلًا» ولا يهولنك هذا الاسم الضخم، فكل ما في الأمر أن السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر إلا بضع خطوات، على أن الماء كالهواء ملء الأرض والسماء، ويقف الضياع الواسعة من الأرض لتتنفغ غلتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات، وترديد الصلوات، وقراءة الأحزاب والأوراد، وهو يحسب أنه أحسن إليهم، ولو عرف موضع الإحسان لأحسن إليهم بقطع ذلك الإحسان عنهم علهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقًا شريفًا، فإن كان يظن أنه يعمل في ذلك عملًا يقربه إلى الله تعالى أجل من أن يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلمًا إلى طعام يطعمونه، أو درهم يتناولونه، أو يفتح أبواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق، ولو أنصفوهم لسموهم قطاع الطرق، ولا فرق بين الفريقين: إلا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصي، وأولئك يتسلحون بالسبح والمساويك، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع، فلا يتركون صادقًا ولا باغمًا ولا خفًا ولا حافرًا، ولا شيئًا مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها. إلا أتوا عليه.

أسوأ الإحسان: لم أر مألًا أضيع ولا عملًا أخيب ولا إحسانًا أسوأ من الإحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرض ويقلبونها ظهرًا لبطن، ويجتمعون في

^٢ ظلف البقرة: ظفرها.

مفارق الطرق، وزوايا الدروب، وعلى أبواب الأضرحة والمزارات يصمون الأسماع بأصواتهم المزعجة، ويقذون النواظر بمنظرهم المستبشعة، ويزاحمون بمنابكهم الفارس والراجل، والجالس والقائم، فلو أن نجمًا هوى إلى الأرض لهُووا على أثره، أو طائرًا طار إلى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه.^٣

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك، وهل ما تسديه إليه من المعروف تسديه إلى صاحب حاجة، فأعلم أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما، ولا مسكن له يحتاج إلى مؤن ومرافق، ولا شهوة له في مطعم أو مشرب أو ملبس. حتى لو علم أن الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقدر من الشراب، لا يقعه عن السعي في سبيله لانقطع عنه، وهو لو شاء أن يتزوج أو يتخذ له مأوى يأوي إليه لفعل، ولوجد في حرفته متسعًا لذلك؛ ولكنه الحرص قد أفسد قلبه وأمات نفسه، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد، ليجمع مالا لا فائدة من جمعه، ولا نية له في إصلاح شأنه به إذا اجتمع عنده ما يقوم له بذلك، بل ليدفنه في باطن الأرض حتى يدفن معه، أو لينظمه في سلك مرقعته حتى يرثه الغاسل من بعده، ولقد يبلغ به الحرص الدنيء والشره السافل، أن يحمل في المال ما لا يستطيع مجاهد أن يحمل في سبيل الله، فيتعمد قطع يده أو ساقه أو إتلاف عينيه أو إحداهما، ليستعطف القلوب عليه، وكثيرًا ما يحسد صاحبه إذا رآه أكثر منه دمامةً وأعظم تشويهاً.

كما يحكى أن شحاذًا مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر، فتنافسا في مصيبتيهما أيتهما أقذى للأعين، وأقتل للنفوس، وأجلب للرحمة والشفقة، فقال الأول للثاني: لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك أفضل حباله لاصطياد القلوب واستفراغ الجيوب. فقال له صاحبه: وأين يبلغ العمى من هذه القدم الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهبًا؟ إن أكبر جريمة يجرمها الإنسان إلى الإنسانية أن يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغيري كل من شعر في نفسه بالميل إلى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على آثارهم، والاحتراف بحرفتهم؛ فكأنه قطع من جسم

^٣ القوادم: الريشات التي في مقدم الجناح، والخوافي: التي إذا ضم الطائر جناحيه خفيت.

الإنسانية عضواً كاملاً، لو لم يقطعه لكان عضواً عاملاً، فكأنه هدم بعمله هذا جميع المساعي الشريفة التي بذلها الأنبياء والحكماء قروناً عديدة لإصلاح المجتمع الإنساني، وتهذيب أخلاقه، وتخليصه من آفات الجمود والخمول؛ فهل رأيت معروفاً أقبح من هذا وإحساناً أسوأ من هذا الإحسان؟!

تنظيم الإحسان: ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الإحسان مما يستهان به، فلو قال قائل: إنها تبلغ في مصر وحدها كل عام مليوناً من الذهب لما أخطأ التقدير.

سألت رجلاً من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والإحسان عن كمية ما ينفقه كل عام في هذا السبيل، فأطلعني على جريدة حسابه فرأيتها هكذا:

جنيه	
١٠	ولائم لمشايخ الطرق.
٦٠	ليالي في موالد البيومي والعفيفي والدشطوطي.
٧٢	مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله.
٣٠	هبات لجماعة الطوافين في البلاد الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الدائر.
١٨	صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً.
١٠	توضع في صناديق الأضرحة.
٤٠	ثمن خبز ولحم وملابس توزع في المواسم الدينية.
٢٤٠	المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الإحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد، وفي مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه، فلا غرابة في أن يقدر هذا النوع من الإحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلان بكسله وحمل العامل على ترك عمله، وفي اعتقادي لو أن هذا المقدار حل من الإحسان محله، وأصاب منه موضعه، وأنفق في سبيل الخير النافعة، ووجوه البر الحقيقية، لارتقى بالأمة المصرية إلى ذروة الكمال، ولكان له الأثر الجليل في وصولها إلى ما تتطلع إليه من هناء العيش وسعادة الحياة.

لذلك أقترح في تنظيم الإحسان اقتراحًا نافعًا وأدعو الكاتبين الذين لا مصلحة لهم في إثارة الخواطر وتهيج النفوس، وضرب الناس بعضهم ببعض، أن يساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد.

أقترح أن يقوم جماعة من سراة الأمة ووجوهها وأصحاب الرأي فيها بتأليف مجتمع في القاهرة يسمى «مجتمع الإحسان» ويكون له في كل مدينة من مدائن الأقاليم فرع تابع له.

أما أعماله التي أحب أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهي ثلاثة:

- (أ) استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائل النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الإحسان، وما هو الغرض منه، وما هي أفضل وجوهه، وأي أنواعه أجمع لخيري الدنيا والآخرة.
- (ب) بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الإحسان هذا بيت مال لهم أو وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها وحسبها أن تأخذ من كل فرد في عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام، فلا يكون بعد ذلك مأخوذًا بشيء من الإحسان أمام ربه، وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع.
- (ج) إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكسب وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر وتنكر لهم بعد العزة والنعمة، وصيانة ماء وجوههم أن تُراقَ على تراب الأعتاب، والإنفاق على تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفتنة ويرجى أن تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء، إلى أمثال هذه الأعمال الخيرية الشريفة التي لا يتحقق الإحسان بدونها، ولا ينصرف معناه إلا إليها.

أنا أعتقد اعتقادًا لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الأولى في سبيل هذا العمل الجليل، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الإنسان، هو أفضل عامل في الوجود وأشرف إنسان.

الفصل الثالث والثلاثون

أدب المناظرة

أنا لا أقول إلا ما أعتقد، ولا أعتقد إلا ما أسمع صداه من جوانب نفسي، فربما خالفت الناس في أشياء يعلمون منها غير ما أعلم، ومعدرتي إليهم في ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم، وأن في رأسي عقلاً أجله عن أن أنزل به إلى أن يكون سيقّة^١ للعقول، وريشة في مهابّ الأغراض والأهواء.

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرميني بجارحة من القول أو صاعقة من الغضب لأنني خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه، أو أن يرى أن له من الحق في حملي على مذهبه، أكثر مما يكون لي من الحق في حملة على مذهبي.

لا بأس أن يؤيد الإنسان مذهبه بالحجة والبرهان، ولا بأس أن ينقض أدلة خصمه ويزيفها مما يعتقد أنه مبطل لها، ولا ملامة عليه في أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل إلى نشر الحقيقة التي يعتقدها إلا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا أعتقد أنها تنفعه أو تغني عنه شيئاً، وهي وسيلة الشتم والسباب.

إن لإخلاص المتكلم تأثيراً عظيماً في قوة حجته وحلول كلامه المحل الأعظم في القلوب والأفهام، والشاتم يعلم عنه الناس جميعاً أنه غير مختص فيما يقول، فعبثاً يحاول أن يحمل الناس على رأيه، أو يقنعهم بصدقه، وإن كان أصدق الصادقين.

أندري لِمَ يسبب الإنسان مناظره؟ لأنه جاهل وعاجز معاً، أما جهله فلأنه يذهب في وادٍ غير وادي مناظره وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة إلى البحث في شؤون المناظر وأطواره وصفاته وطبائعه، كأن كل مبحث عنده مبحث

^١ السيقّة: ما يُساق سوقاً؛ ومنه: «إنما ابن آدم سيقّة يسوقه الله».

«فسيولوجي»؛ وما أعجزه فلأنه لو عرف إلى مناظره سبيلاً غير هذا السبيل لسلكه، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين، محققاً كان أم مبطلاً.

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خدمة الحقيقة وتأييدها، وأحسب أن لو سلك الكتّاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون، يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من أجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وإن كان هو قوياً في ذاته؛ لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمدَّ قوته من القلب، فإذا جيء بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والمهاترة، فيقول لمناظره مثلاً: إنك جاهل لا يعتد برأيك أو إنك مضطرب الرأي لا ثبات لك، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس؛ وهناك يقول له الناس: رويداً، لا تخط في كلامك، ولا تراوغ في مناظرتك، ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله، فإنه يقول شيئاً فإن كان صحيحاً فسَلِّمْ به، أو باطلاً فبيِّن لنا وجه بطلانه، وهَبْه قولاً لا تعلم قائله، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته، فربما كان بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم، والمرء يخطئ مرة ويصيب، فإذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فرَّ إلى أضعف الوسائل وأوهنها، فسب مناظره وشتمه وذهب في التمثيل به كل مذهب، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة والخذلان في ذلك الميدان.

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه، فإن لكل شيء جهتين: جهة مدح، وجهة ذم، فإذا أن تتساويا، أو تكبر إحدهما الأخرى، فإن كان الأول فلا معنى للاختلاف، وإن كان الثاني وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الآخر.

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع بينهما وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه، فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحدى الليالي وهما يتناظران في المرأة، يعلو بها الملك إلى مصاف الملائكة، ويهبط بها الوزير إلى منزلة الشياطين، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته، فلما علا صوتهما واشتد لجأجهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة، ثم عاد وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما: أحب أن أعرض عليكم هذه الصورة ليعطيني كل

منكما رأيته فيها، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع إلى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلصة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذمًا قبيحًا، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورة التي رآها هو. فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا ضحكًا كثيرًا، ثم قال لهما: هذا ما أنتما فيه منذ الليلة، وما أحضرت إليكما هذا اللوح إلا لأضربه لكما مثلًا لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه لو أنكما تنظران إلى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيهما، فشكرا له همته، وأثنيا على فضله وحكمته، وانتفعا بحيلته انتفاعًا بحيلته انتفاعًا كثيرًا، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلًا.

الفصل الرابع والثلاثون

الإحسان في الزواج

ورد إليّ في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع:

حضرة السيد الفاضل

ضممني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فأخذته الرأفة بها فتزوجها، وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات، ولم يستطع أحد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه، فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب إليك بذلك علّك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة، والسلام.

ف.س

أيها السائل الكريم:

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى سبيلاً إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها إلا هذا السبيل، كما هو شأن الذين يتزوجون من البغايا، فقد أخطأ خطأ جماً؛ لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه إلا أمر نفسه، ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته، ويتعلق بلذته، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاحها، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبها ملكة الفساد الراسخة في نفسها، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المذهب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها، بل لا يكفيها مؤونة العيش، ولا يرفهها ولا يقلبها في الرغد والنعمة إلا إذا شعر بأن في قلبه بقية من الشغف بها، فإذا أقفر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يهيج له وجداً، ورجوعها إلى عيشها السالف

لا يثير منه غيرة، فارقها فراقاً هادئاً مطمئناً لا يمازجه حزن على فسادها، ولا يخالطه أسف على سقوطها، وهناك تعود تلك المسكينة إلى عشها الذي طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به.

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاءً لشهوته وإثارةً للذته، لا ينفعها ولا يحسن إليها؛ لأنه لا يهذب نفسها، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها، والاستمرار على عسرتها، بل يسيء إليها بسوء تصرفه معها فيبغض إليها الصلاح ويحبب إليها الفساد، وعندي أنه في عمله هذا فاسق لا متزوج، لأنه لو لم ير أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سمي مهرًا ولا عقد عقدًا.

فإن كان حقًا ما تقول من أن باعته إلى ذلك الرحمة والرأفة والحنان والشفقة فقد أحسن كل الإحسان، ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملاً هو أفضل عند الله خيراً وأعظم أجراً، من هذا العمل الصالح.

العرض أثنى من الحياة، فإن كان من يمنح الحياة فاقدها شريعاً، فأشرف منه من يرد العرض الضال إلى صاحبه المفجوع فيه.

ليت الرجال يتفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها إلى البغاء، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن.

لِمَ لا يكون باباً من أبواب الإحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجهن من أولادهم وأقربائهم، وإن لم يكن من ذوات الجمال أو ذوات النسب؛ لأنه إحسان، والإحسان لا يجمل إلا إذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء.

لو عرف المحسنون معنى الإحسان لعرفوا أن إنفاق الأموال على بناء التكايا والزوايا، وتوزيعه على المتسولين والمتكفين، ووقفه على القارئین والذاكرين، لا يدخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الإحسان إلى النساء بالعصمة من البغاء. البغاء للبغي شقاء ما جناه عليها إلا رجل، فجدير به أن يغرم ما أتلف، ويصلح ما أفسد.

يهاجم الرجل المرأة ويعد لمهاجمتها ما شاء الله أن يعده من وعد كاذب، وقول خالب، وسحر جاذب، حتى إذا خدعها عن نفسها، وغلبها على أمرها وسلبها أثمن ما تملك يدها، نفّض يده منها وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما من بعده.

هنالك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين، مسبلة دمعها على خدها ملقية رأسها على كفها، تقلي أناملها التراب، لا تدري أين تذهب، ولا ماذا تصنع، ولا كيف تعيش!

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها؛ لأن الرجل يسميها ساقطة؛ وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه؛ لأن الرجل أهمل شأنها، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش؛ وتطلبه من طريق التسول فلا تجده؛ لأن الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حراماً، على أن يمنحها الدرهم حلالاً، فلا تجد لها بدءاً من أن تطلبه من طريق البغاء.

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة، وأن الرجل هو الذي يمثل جميع أدوارها، ويظهر في كل فصل من فصولها، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل، فإننا لا نزال نعتقد أن الرجل غريم المرأة، وأن حقاً عليه أن يؤدي دَيْنَهُ، ويغرم أرش^١ جنائته.

إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغياً فليحل بينها وبين البغاء، ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج باباً من أبواب الإحسان، أي أنه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه، وأحق النساء بالإحسان أولئك اللواتي سلبهن الله نعمة الجمال والمال، وحرية الحسب والنسب، فإن أبى إلا أن يتزوج من المرأة السعيدة، فليذكر أنه هو الذي أخذ الشقية من يدها، وساقها بنفسه إلى مواطن الشقاء، ورماها بيده في هوة الفسق والبغاء.

^١ الأرش: دية الجراحات.

الفصل الخامس والثلاثون

لا همجية في الإسلام^١

أيها المسلمون: إن كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبًا بالسيوف وقطعًا بالرماح، وحرقًا بالنيران، فقد أسأتم بربكم ظنًا، وأنكرتم عليه حكمته في أفعاله، وتديره في شؤونه وأعماله، وأنزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يبني البناء ليهدمه ويزرع الزرع ليحرقه، ويخيط الثوب ليمزقه، وينظم العقد ليبدده. لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه. ويمده برحمته وإحسانه، ويرسل إليه في ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه، والغذاء من مجاريه، ويدود عنه آفات الحياة وغوائلها: نطفة، فعلقة، فمضغة، فجنينًا، فبشرًا سويًا.

إن إلها هذا شأنه مع عبده، وهذه رحمته به وإحسانه إليه محال عليه أن يأمر بسلبه الروح التي وهبه إياها، أو يرضى بسفك دمه الذي أمدّه به ليجري في شرايينه وعروقه لا ليسيل بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال. في أي كتاب من كتب الله، وفي أي سنة من سنن أنبيائه ورسله، قرأتم جواز أن يعمد الرجل إلى الرجل الآمن في سربه، والقابع في كسر بيته، فينزعه نفسه من بين جنبه، ويفجع فيه أهله وقومه، لأنه لا يدين بدينه، ولا يذهب مذهبه في عقائده. لو جاز لكل إنسان أن يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه، لأقفرت البلاد من ساكنيها وأصبح ظهر الأرض أعرى من سرة أديم.

^١ كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية أطنة من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم إياهم وتمثيلهم بهم في عام ١٩٠٩.

إن وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والأديان والطبائع والغرائز سُنَّة من سنن الكون، لا يمكن تحويلها وتبديلها؛ حتى لو لم يبق على ظهر الأرض إلا رجل واحد، لجرد من نفسه رجلاً آخر يخاصمه وينازعه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

إن الحياة في هذا العالم كالحرارة لا تنتج إلا من التحاك بين جسمين مختلفين، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه. أيها المسلمون: ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشفي والانتقام منهم، أو القضاء عليهم، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية أن يعترضها في طريقها معترض أو يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الأرض ومغاربها حائل، أي إن القتال كان ذوداً ودفاعاً، لا تشفياً وانتقاماً.

وآية ذلك أن السرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة في سبيلها الذي تذهب فيه حتى يصل إليها أمر الخليفة القائم أن لا تزجج الرهبان في أديرتهم، والقساوسة في صوامعهم، وأن لا تحارب إلا من يقاومها ولا تقاتل إلا من يقف في سبيلها، ولقد كان أخرى أن تسفك دماء رؤساء الدين المسيحي وتسلب أرواحهم لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم، والقضاء عليهم.

لو أنكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم، لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعة، ولتقاتلتم على مذهبكم تقاتل أرباب الأديان على أديانهم، حتى لا يبقى على وجه الأرض مذهب ولا متمذهب.

أيها المسلمون: ما جاء الإسلام إلا ليقضي على مثل هذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام.

ما جاء الإسلام إلا ليستل من القلوب أضغانها وأحقادها، ثم يملأها بعد ذلك حكمة ورحمة، فيعيش الناس في سعادة وهناء، وما هذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل إلا بمثابة العمل الجراحي الذي يتذرع به الطبيب إلى شفاء المريض.

عذرتكم لو أن هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتكم، أو ذاهبين في معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون مغبتها، وتخشون عاقبتها، أما والقوم في ظلالكم والكون تحت أجنتكم أضعف من أن يمدوا إليكم يد سوء، أو يبتدروكم ببادرة شر، فلا عذر لكم.

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الأطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم، والنساء الضعيفات اللواتي لا يُحَسِّنُ في هذه الحياة أخذاً ولا

ردًا، والشيوخ الهالكين الزاحفين وحدهم إلى القبور قبل أن تزحفوا إليهم، وتتعجلوا قضاء الله فيهم.

أما وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون، وسفاكون لا محاربون.

من أي صخرة من الصخور، أو هضبة من الهضبات، نحتم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحك، والتي لا تروعها أنات الثكالي، ولا تحركها رنات الأيامي؟ من أي نوع من أنواع الأحجار صيغت هذه العيون التي تستطيعون أن تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تاكل أطرافه وتتمشى في أحشائه على مرأى ومسمع من أمه، وأمه عاجزة عن معونته؛ لأن النار لم تترك لها يدًا تحركها، ولا قدمًا تمشي عليها؟ لا أستطيع أن أهنتكم بهذا الظفر والانتصار؛ لأنني أعتقد أن قتل الضعفاء جبن ومعجزة، وأن سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية أخرى أن يُعزَى فيها صاحبها، لا أن يهنأ بها.

أيها المسلمون: أقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم، ولكن حذارٍ أن تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية فإله سبحانه وتعالى أَجَلٌ من أن يأمر بقتل الأبرياء، أو يرضى باستعطاف الضعفاء، فهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

الفصل السادس والثلاثون

البخل

سألني سائل: ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه؟ وأي غرض يرمي إليه من ذلك؟ فأجبت به هذا الجواب:

البخل إحدى الملكات النفسية، والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفوًا بدون روية ولا اختيار، فكما لا يُسأل المسرف عن سبب إسرافه، والغاضب عن غايته من غضبه، والحاسد عن غرضه من حسده، كذلك لا يُسأل البخل عما يستفيده من بخله وحرصه، فكثيرًا ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم إلى الرغبة عن التخلي عنها حينًا، فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا، لكان تلك الملكات من نفوسهم، ونزلوها منها منزلة لا تزعجها الرغبات، ولا تززعها الإرادات، وربما عرض للبخل ما يدفعه إلى بذل شيء من ماله، فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه، أحس كأن تيارًا كهربائيًا قد سرى من نفسه إلى يده فتشنجت أعصابها وتصلبت أناملها وأعيت على الالتواء والانثناء، فأخرجها صفرًا كما أدخلها، وبودّه أن لا يفعل لولا أن للغريزة قوة فوق قوة الإرادة، وسلطانًا تخضع له الرغبات وتنقاد إليه العقول، إلا إذا كان وراءها وازع من القانون يزعها، فإنه يكسر شررتها أحيانًا، وإن لم ينتزعها انتزاعًا.

ويحكى أن شحيحًا تحركت في قلبه يومًا الشفقة على ابنته الجائعة العارية، فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئًا من ماله فتأبّت عليه، فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسد خلتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه، علمًا بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد.

فالوجه في السؤال أن يقال: ما هي الأسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخل؟ فيكون الجواب عن ذلك: أن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص وأطوارهم

وأخلاقهم وتربيتهم، ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع.

الأول، الوراثة: وهي وإن كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة أحياناً من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين بأضدادها والتأثر بمخالطتهم، إلا أنها كثيراً ما تنمو وتتجسم إذا أغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق نمائها.

الثاني، التربية: إذا نشأ الطفل بين أهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه، أخذ أخذهم في الحرص، وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسان أو استهجان، كأنما هي عدوى الأمراض التي تسري إلى الإنسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بسريانها. ويحكي أن رجلاً دخل منزلاً يعرف أهله بالشح والحرص، فرأى طفلاً صغيراً في يده ليمونة، فطلب إليه أن يعطيه إياها، فأجابه الطفل: «إن يدك لا تسعها»!

الثالث، سوء الظن بالله: ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء، فهو أرحم من أن يغفل شأنهم ويكلهم إلى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام، فلا يلج به الحرص على الجمع، ولا يزعجه الخوف من البذل، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق ومقسم الحظوظ والحدود، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه.

الرابع، النكبات: كثيراً ما تحل بالإنسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها، ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال، كأن يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع في مثلها، فكلما تمثلت له نكبة لج به الحرص وأغرق في المنع، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً ثابتاً له؛ ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منها ما كابد من الآلام والأوجاع، فإنه مهما حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة والذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة، ولا تضيع من ذاكرته آلامها. فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل إليه ما لا يتخيل، ويريه ما لا يرى، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع صورة وأفظع شكل فهاله منظره، وذهب الخوف منه برشده، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان، وفي حالتي الأمن والخوف، والوحشة والأنس.

الخامس، اللؤم: فإن النفس إذا خبثت طينتها ولؤم طبعها، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه، وبغض الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألباً على ألم، وحسرة فوق حسرة، وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء، ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل.

السادس، سقوط الهمة: إذا نشأ الإنسان عالي الهمة طموحاً إلى المعالي محباً للذكر الحسن والثناء الجميل، سهل عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه، وحبُّ المجد، اسال الذهب من خزائن الأغنياء، وصير نفوس الشجعان نهباً مقسمًا بين شفرات السيوف، وأسننة الرماح، طلباً لسعادة الحياة بالذكر، وسعادة الممات بالخلود. فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكانته الراسخة في قلبه، وامتزاج حبه بلحمه ودمه، أيدفعه حب الثناء وهو لا يشعر بلذته؟ أو خوف المذمة وهو لا يتألم منها، ولا يحس بمرارتها؟ أم سعادة الحياة وسعادة الممات؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يعضغها، وحلة يلبسها.

السابع، فساد المجتمع الإنساني: ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها، ولا لخير يطمعون فيه، بل لأنه ذو مال وذو المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإكرام والإجلال والإعظام، وإن لم يحصلوا منه على طائل، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباد المقربين، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها إلا الحرص على ما في يده، وهو عمل يتكلفه ولا يتعمل له، بل هو أشهى الأشياء إليه، وأكثرها ملاءمة لفطرته؛ ليزداد شرفاً وعزاً، كلما ازداد ثراءً ووفراً، ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده: يا بني لأن يعلم الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له في أعينهما من أن يقسمها فيهم، وقال رجل لآخر: يا بخيل؛ فقال له: لا أحرمني الله بركة هذا الاسم؛ فإنني لا أكون بخيلاً إلا إذا كنت غنياً فسم لي المال ولقبني بما تشاء.

هذه هي أهم الأسباب التي تألفت منها رذيلة البخل، فإن أغفلنا النظر إليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيد به البخل من بخله، حتى على نفسه وفرضنا البخل مختاراً فيما يفعل غير مساق إلى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة، كان منال النجم أقرب من تطبيق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل؛ لأن الله تعالى خلق

الإنسان وركب فيه رغبات الشهوات مختلفة، بعضها نفسي، والآخر جسدي، فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة والمضغة، والجرعة والظلة، ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه ونزعاتها إلى ميولها ورغباتها، لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز؛ لأنه قادر، ولا على الزهد؛ لأنه ما زهد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع، ولا على الخوف من الفقر؛ لأن عنده من المال ما يفني الأعمار، فبهيات أن يفنيه عمر واحد، ولا على رغبة في سعادة الذرية؛ لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته، فأما أن يشقى في حياته، ليسعد ولده بعد مماته، فما لا يقبله العقل، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم، فلم يبق لنا إلا أن نتوسل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون، حتى لا يكون مقصوراً على المعربين والهاذين، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون، والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم وباختيارهم آلاماً نفسية هي أشد مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان، كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقتربين كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبذرين، فإن تبذير المال يضر قومًا وينفع أقوامًا، أما حبسه فيضر صاحبه، ويضر معه الناس أجمعين.

الفصل السابع والثلاثون

البعوض والإنسان

جلست ليلة أمس إلى منضدتي وعلقت قلمي بين أصابعي، وأنشأت أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن أكتب فيه. وتلك عادتي التي يعرفها عني كثير من خلطائي وعشرائي: أنني لا أميل إلى الكتابة في بياض النهار، ولا أحب أن أخط حرفاً على ما أحب وأرتضي إلا في ظلام الليل وهدوئه.

ولا يظن المولعون باكتناه الحقائق واستشفاف الضمائر من إخواننا الفضوليين أنني أريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام، أو أنني أترقب طلوع النجم لأتسلق أشعته إلى سماء الخيال، فكل ذلك لم يكن، وليس في الناس من هو أدرى بدخيلة أمري مني، وكل ما في المسألة أن هذه عادتي، وتلك طريقتي، وكفى. لم أكد أفرغ من التفكير في الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض في أذني، ثم أحسست بلذعاته في يدي، فتفرق من ذهني ما كان مجتمعاً وتجمع من همي ما كان مفترقاً، ولم أرد بُدّاً من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل.

طاردته بالمذبة فما أجدى ذلك نفعا؛ لأنه على الطيران أقوى مني على المطاردة، وفتحت النوافذ لأخرج ما كان داخلاً، فدخل ما كان خارجاً، وحاولت قتله فوجده مبعثراً، ولو كان مجتمعاً في دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة، ولم أرَ في حياتي أمة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير أمة البعوض، فما أضعف هذا الإنسان، وما أضل عقله في اغتراره بقوته واعتداده بنفسه، واعتقاده أن في يده زمام الكائنات يصرفها كيف يشاء ويسيرها كما يريد! وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود، ويأتي له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا أن يرسل أشعة عقله دفعة واحدة، ويشحذ سيف ذكائه، ويبتعث عزمته ويقترح فكرته.

يزعم ذلك، وهو يعلم أنه أضعف من أن يحتال لنفسه في مدافعة أصغر الحيوان جسماً وعقلاً، وأدناها قيمة وشأنًا، بيد أنه يعلم ذلك بلسانه، وفي فلتات وهمه. ولو علمه علمًا يتغلغل في نفسه، ويتمثل في سويداء قلبه لكفكف من غلوائه، وخفض من كبريائه، وعلم علم اليقين أن الإنسان العاقل، والحيوان الملهم، والنبات النامي، والجماد الجامد، سواء بين يدي القوة الإلهية الكبرى، التي لا ينفع نفعها حول ولا قوة.

علمت أنني عييت بأمر هذا الحيوان، فلذت بجانب الصبر، والصبر — كما يعلم معشر الصابرين — حجة العاجز، وحيلة الضعيف، وأيسر ما يستطيع أن يدفع به دافع عن نفسه ملامة اللائمين، وفضول المتطفلين، وقلت في نفسي: لو كان البعوض يفهم ما أقول لقصصت عليه قصتي، وشرحت له عذري، وسألته أن يمنحني ساعة واحدة أقوم فيها بكتابة رسالتي هذه، ثم هو بعد ذلك في حل من جسمي ودمي، ينزل منهما حيث يشاء، ويمتص منهما ما يشاء، ولكنه — ويا للأسف — لا يسمع شكاتي، ولا يرحم ضراعتي ولا يفهم قيمة المروءة؛ لأنه ليس بإنسان.

أحسب أن لذعات البعوض قد أخذت مأخذها من عقلي وفهمي، وأني قد بدأت أهذي هذيان المحموم؛ فمن أين لي أن لو كان البعوض إنسانًا كان يسمع شكاتي، ويكشف ظلامتي، أو أنه يفهم معنى الرحمة ويعرف قيمة المروءة، ومتى كان الإنسان أحسن حالًا من البعوض وأرحم منه قلبًا وأشرف غاية، فأتمنى لو كان مكانه؟ بل ومن أين لي أن هذا الذي أحسبه بعوضًا ليس بإنسان قد تقمص جسم البعوض وتمثل لي في صورته الضئيلة وجناحه الرقيق؟ وأي غرابة في أن أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوض سواءً في حب الشر والميل إلى الأذى، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب لها في جانب الجواهر الذاتية، والأجزاء المقومة للماهية؟

أي قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الإنسان مجتمعًا في جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفردًا؟

إن البعوض في امتصاصه الدم من الجسم أقل من القاتل ضررًا وأشرف غاية، وأجمل مقصدًا؛ لأنه إن أذى الجسم فقد أبقي على الحياة؛ ولأنه يطلب عيشه الذي يحيا به، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف له طريقًا سواه ولا يستطيع أن يرى لنفسه غيره ولو استطاع لعافت نفسه أن يكون كالإنسان يتطوع للشر ويتعبد بالضرر.

إني وجدت بين الإنسان والبعوض شبهًا قريبًا في صفات كثيرة أنا ذاكر لك طرفًا منها وتارك لفطنتك الباقي.

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله، فلا يزال يشرب حتى يمتلئ فينفجر، فهو يطلب الحياة من طريق الموت، ويفتش عن النجاة في مكان من الهلاك، وهو أشبه شيء بشارب الخمر، يتناول الكأس الأولى منها، لأنه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته، فتطمعه الأولى في الثانية، والثانية من الثالثة، ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويودي بها، من حيث يظن أنه ينعشها، ويجلب إليها سرورها وهنأتها.

البعوض سيئ التصرف في شؤون حياته؛ لأنه لا يسقط على الجسم إلا بعد أن يدل على نفسه بطنينه وضوضائه، فيأخذ الجالس منه حذره ويدفعه عن مطلبه، أو يفتك به قبل بلوغه إليه، فمثله في ذلك كمثل بعض الجهلة من أصحاب المطالب السياسية: يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير أنهم لا يكتُمونها، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم، ولا يبتغون الوسيلة إليها إلا بين الصراخ والضجيج، ولا يمسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها، ويشهدوا الملأ الأعلى والأدنى عليها، وهناك يدرك عدوهم مقصدهم، فيعد له عدته ويتلمس وجه الحيلة في إفساده عليهم هادئاً ساكناً من حيث لا يشعرون.

البعوض خفيف في وطأته، ثقيل في لدعته، فهو كذلك صاحب الذي يسرك منظره، ويسوءك مخبره! يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال رقة وصفاء، والسحر الحلال جمالاً وبهاء، وبين جنبيه في مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب، ولا يتسرب إليها سلسبيل الوفاء، يقول لك: إني أحبك؛ ليغلبك على قلبك، ويملك عليك نفسك، فإن تم له ما أراد سلبك مالك إن كنت من ذوي المال، وجاهك إن كنت من ذوي الجاه، فإن لم تكن هذا أو ذاك أغراك بالسير في طريق يسقط مروءتك، ويثلم شرفك، فإن فاته ما يشفي به داء بطنته، لا يفوته ما يطفئ به نار حقه وموجدته.

لا يزال البعوض ملحاً في مهاجمتي، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد مما كتبت، والسلام.

الفصل الثامن والثلاثون

الجزع

يا صاحب النظرات

لي صديق سقط في امتحان «البكالوريا» هذه السنة فأثر فيه ذلك السقوط تأثيراً كبيراً، فهو لا ينفك باكياً متألماً حتى أصبحنا نخاف عليه الجنون، وكلما عزيناه عن مصابه يقول: كيف أستطيع معايشة إخواني ومعارفي؟ وكيف أستطيع مقابلة والدي وأهلي؟ فهل لك أيها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك، التي طالما عالجت بها قلوب المحزونين؟؟

حقوقي

ليست المسألة مسألة صديقك وحده، بل مسألة الساقطين أجمعين، فإن المرء لا يكاد يتناول نظره منهم في هذه الأيام إلا وجوهاً قد نسج الحزن عليها غبرة سوداء، وجفوناً تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرجراج، حتى ليخيل إليك أن نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم فزلزلت أقدامهم، أو فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها فأثكلتهم ذخائر نفوسهم، وجواهر عقولهم، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهنائه سداً لا تنفذه المعاول، ولا تنال من أيده الزلازل.

خفض عليك قليلاً أيها الطالب، فالأمر أهون مما تظن، وأصغر مما تقدر، وأعلم وما أحسبك إلا عالماً أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ إلى سفح متحجر فتبكي على شظية طارت من شظايا رأسك، ولم يهوَ بك القضاء إلى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبداً الدهر.

إنك قد سعت إلى غرض فإن كنت هيات له أسبابه، وأعددت له عدته، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون في مثله، فقد أعذرت إلى الله وإلى الناس وإلى

نفسك، فحري بك أن لا تحزن على مصاب لم يكن عملاً من أعمال يديك، ولا جناية من جنيات نفسك عليك، وإن كنت قصرت في تلمس أسبابه، ومشيت في سبيله مشية الظالع المتقاعس، فما حزنك على فوات غرض كان جديراً بك أن تترقب فواته قبل وقت فواته؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه؟

ما لك تبكي بكاء الواثق بمواتة الأيام، ومطوعة الأقدار؟ وهل تستطيع أن تبرز لنا صورة العهد الذي أخذته على الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهي؟ وعلى الفلك أن لا يدور إلا بسعدك، ولا يجري إلا بجذك؟ وعلى القلم أن لا يكتب في لوحة إلا ما دللته عليه، وأوحيت به إليه؟

لا تجعل لليأس سبيلاً إلى نفسك، فلعل الأمر يعوض عليك في غدك ما خسرت في أمسك، وامض لشأنك ولا تلتفت إلى ما وراءك، فإن تم لك في عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك، أو لا، فما فقدت إذ فقدت إلا ورقة كان كل ما تستفيده منها أن تشتري بها قيئاً لرجلك، وغلاً لعنقك، ثم ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلين بأنفسهم، يسومك من الذل والخسف ما لا يحتمله الأسراء في سجون الأسرى.

إن اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك إياها هذا الإكبار العظيم دليل على أنك كنت تريد أن تجعلها منتهى أملك، وغاية همتك، وأنت لا ترى بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد، فإن صدقت فراستي فيك، فاعلم أن الله قد خار لك في هذا المصير، وساق إليك من الخير ما لا تعرف السبيل إليه، وأنه ما خيب رجاءك في هذا الكمال الموهوم إلا لتطلب لنفسك كمالاً معلوماً، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الأوراق، إلا لتسعى وراء السعادة المكتوبة في صفحات القلوب.

إن كنت تبكي على الشرف فباب الشرف مفتوح بين يديك، لا شأن للحكومة فيه، ولا حاجب لها عليه، وما هو إلا أن تجد في التزيد من العلم والمعرفة، واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية، فإذا أنت شريف في نفسك، وفي نفوس الخاصة من الناس، وإذا أنت في منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب، ولا حي الله شرفاً يحيا بورقة ويموت بأخرى، ولا مجداً يأتي به سطر ويذهب به سطر، وإن كنت تبكي على العيش، ففي أي كتاب من كتب الله المنزلة قرأت أن أرزاقه وقف على الموظفين، وحباث على المستخدمين؟ وأنه لا يأمر بصرف درهم واحد من خزانته إلا إذا جاءته سفتجة بتوقيع أمير، أو إشارة وزير؟

أيها الطالب:

قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء: إن الذي وهبني عقلي لم يسلبني، وإن الذي صوّر لي أعضائي لم يحل بيني وبين الذهاب بها فيما خُلِقْتُ له، وإن الذي خلّقني سوف يهدين، إنه الرزاق ذو القوة المتين.

الفصل التاسع والثلاثون

النبوغ

من العجز أن يزدري المرء نفسه فلا يقيم لها وزناً، وأن ينظر إلى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق، وعندي أن من يخطئ في تقدير قيمته مستعليًا، خير ممن يخطئ في تقديرها متدليًا، فإن الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبى لها من أعماله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده، فتراه صغيرًا في علمه، صغيرًا في أدبه، صغيرًا في مروءته وهمته، صغيرًا في ميوله وأهوائه، صغيرًا في جميع شؤونه وأعماله، فإن عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيرًا في جانب النفس الصغيرة.

ولقد سأل أحد الأئمة العظماء ولده، وكان نجيبًا: أي غاية تطلب في حياتك يا بني وأي رجل من عظماء الرجال تحب أن تكون؟ فأجابته: أحب أن أكون مثلك، فقال: ويحك يا بني! لقد صغرت نفسك، وسقطت همتك، فلتبك على عقلك البواكي، لقد قدرت لنفسك يا بني في مبدئ نشأتي أن أكون كعلي بن أبي طالب، فما زلت أجد وأكدح حتى بلغت المنزل التي تراها، وبينني وبين عليٍّ ما تعلم، من الشأو البعيد والمدى الشاسع، فهل يسرك، وقد طلبت منزلتي أن يكون ما بينك وبينني من المدى مثل ما بيني وبين عليٍّ؟

كثيرًا ما يخطئ الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس، وبين الكبر وعلو الهمة، فيحسبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعًا، ويسمون الرجل إذا ترفع بنفسه عن الدنيا، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبرًا، وما التواضع إلا الأدب، ولا الكبر إلا سوء الأدب، فالرجل الذي يلقاك متبسمًا متهللاً، ويقبل عليك بوجهه، ويصغي إليك إذا حدثته ويزورك مهنيًا ومعزيًا، ليس صغير النفس كما يظنون، بل هو عظيمها؛ لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه فتواضع، والأدب أرفع لشأنه فتأدب.

فتى كان عذب الروح لا من غضب — ساضة ولكن كبيرا أن يقال به كبر

فإذا بلغ الذل بالرجل ذو الفضل أن ينكس رأسه للكبراء، ويتهافت على أيديهم وأقدامهم لثما وتقبيلاً، ويتبدل بمخالطة السوق والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة، ويصبص برأسه، وهو سائر في طريقه بصبصة الكلب بذنبه، ويجلس في مدارج الطرق، وعلى أفواه الدروب جلسة البائس المسكين، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة لا متواضع ولا متأدب.

إن علو الهمة إذا لم يخالطه كبر يزرى به ويدعو صاحبه إلى التنطع وسوء العشرة — كان أحسن ذريعة يتذرع بها الإنسان إلى النبوغ في هذه الحياة، وليس في الناس من هو أحوج إلى علو الهمة من طالب العلم؛ لأن حاجة الأمة إلى نبوغه أكثر من حاجتها إلى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين، وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنة من حسناته، وأثر من آثاره؟ بل هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغدران.

فيا طالب العلم كن عالي الهمة، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث في قلبك الرهبة والهيبه فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب، أو خرافة من خرافات الجان؛ وحذار أن يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول: من لي بسلم أصعد فيها إلى السماء حتى أصل إلى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال؟

يا طالب العلم، أنت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك إلى خلق غير خلقك، وجو غير جوك، وسماء وأرض غير سماءك وأرضك، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك، ولكنك في حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم، وهمة عالية كهممهم، وأمل أوسع من رقعة الأرض، وأرحب من صدر الحليم، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة، فنعم الخلق هي إن كانت السبيل إلى بلوغ الغاية، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون.

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم إلى سماء المجد والشرف: علو الهمة والفهم في العلم، أما علو الهمة فقد عرفته، وأما الفهم في العلم فأليك الكلمة الآتية:

العلم علمان: علم محفوظ وعلم مفهوم، أما العلم **المحفوظ** فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ كلمة، أو تقرأ في الكتاب صفحة،

فإن أشكل عليك شيء مما تسمع، فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته، نطق الحافظ بتفسير كلماته.

الحافظ يحفظ ما يسمع لأنه قوي الذاكرة، وقوة الذاكرة قدر مشترك بين الذكي والغبي والنابه والخامل؛ لأن الحافظ ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات، وإنك لترى الشيخ الفاني الذي لا يميز بين الطفولة والهرم، والذي يبكي على الحلو بكاء الطفل عليها، ويرتعد فرقا حينما يسمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الجن والشياطين، ويسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دونته لكان تاريخا صحيحا ضخما مملوءا بالغرائب والنوادر، وقيل لأحد العلماء: إن فلانا حفظ متن البخاري، فقال: لقد زادت نسخة في البلد!

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين؛ لأن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أشربته روحه، وخالط لحمه ودمه ووصل من قلبه إلى سويدائه، وكان إحدى غرائزه، فلا يرى له بداً من العمل به رضي أم أبى.

لولا أن العلم الديني قد أصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحداية وبين التردد على أبواب الأحياء والأموات في مزاراتهم وفي مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ من يسند النفع والضّر إلى كل من سال لعبابه وتمزق إهابه، ولا وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الأنبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل، ثم لا تجد فرقا بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات.

لو كان العلم المحفوظ علماً — وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى — ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة، ولا قدّسه كاتب، أو ترنم بمدحه شاعر، فإذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ، وآية فهم المعلوم تأثر العالم به، وظهوره في حركاته وسكناته، وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل إليك. فربما مرّ بالمعلوم محرقاً فأخذه على علته، وأقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه، والغث والسمين، والجيد والزائف، فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الأدوية الشافية، بالعقاقير السامة.

وجملة الأمر أن الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسأل عن مذهب، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدى به، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله.

أما العلم المفهوم فهو الوساطة التي إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار إلى المجد بجناحين، وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين، والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور^١ ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابع في كل عصر من العصور واحدة منها، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة، أو كشف حقيقة، أو أصلح هفوة، أو اخترع طريقة، ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً، ولا يكون مفهوماً إلا إذا أخلص المتعلم إليه، وتعبد له وأنس به أنس العاشق بمعشوقه، ولم ينظر إليه نظر التاجر لسلعته، والمحترف لحرفته؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق سوقه، لا ما يغلو جوهره، والمحترف لا يهتم من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء، أحسن أم أساء.

لا يزور العلم قلباً مشغولاً بترقب المناصب، وحساب الرواتب، وسوق الآمال وراء الأموال، كما لا يزور قلباً مقسماً بين تصفيف الطرة، وصقل الغرة، وحسن القوام، وجمال الهندام، وطول الهيام بالكأسين: كأس المدام، وكأس الغرام.

^١ المراد أن العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر، فالعمل دائم فيها من ابتداء الدنيا إلى انتهائها.

الفصل الأربعون

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة، تشكو ألماً في عنقها، وجرحاً في ذراعها، وهماً في نفسها، وتدير في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنما هي مركبة على زئبق رجراج؛ فسألت: ما شأنها؟ فعلمت أن أهلها زوجوها وهي في هذه السن وعلى هذه السذاجة من رجل وحشي الخلق والخلق، ثم زفوها إليه فحاول أن يفتريها، وهي على حالة لا تستطيع معها أن تلم بفراش فامتنعت عليه، فأراد اغتصابها فعجز، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها، ففرت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه ببلادة وغفلة، وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من السجن إليه مرة أخرى، وهناك عاد زوجها إلى عادته معها، فعادت هي إلى فرارها، فعاد أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم. فلما أعيأها الأمر خرجت إلى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا مستقراً، حتى رفع أمرها إلى ذلك الحاكم، فأمر باستدعائها وآواها إلى منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعَي وجبهة الأسد. وما فرغ من هذه القصة حتى رفعت إليه حادثة أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع وجوها، إلا أن الزوج في هذه المرة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقر شقي ثمود الناقة من قبل.

إن المرأة المصرية شقية بائسة، ولا سبب لشقاؤها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها.

إنها لا تحسن عملاً، ولا تعرف باب مرتزق، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها إلا قلب الرجل، فإن استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشاً رغداً، أو لا، فلا مفر لها من الشقاء، من المهد إلى اللحد.

ودون امتلاكها هذا القلب القاسي المتحجر أهوال عظام، وعقبات جسام، لو كلف الرجل نفسه على ما به من قوة وأيد وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام.

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمر تينك الفتاتين: استثقل أهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة، والقومة والقعدة، ورأوا أنها عالة عليهم، وأن لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً، وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب، أي خاطب كان، يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها.

وإن قومًا هذا مبلغ عقولهم من الفهم، وقلوبهم من القسوة، وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج، أو يحسنوا الاختيار لها حين يختارون فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شأنًا من شئون أهله، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل.

فإن كانت ذات جمال أو مال، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق، وإلا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب، والجمال المصنوع، ألماً جثمانية تطفئ نور شببيتها وتذبل زهرة حياتها، وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم، والابتسام في موضع البكاء إن بكى ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءًا بالكذب والكيد، والخبث والرياء، وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام.

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازي، فما أنس لا أنس ليلة زرت فيها صديقًا لي، فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية وكأنما هي الخلال رقة وذبولًا، ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف رداءها، فتسبل فضل مئزرها على مآقيها المقرحة رافة بهم أن يلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها، فسألته عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكمًا من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و«الإرادة» تماطل في إنقاذه، فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدة ومعالجة القوت ما أسال شئوننا، وصعد زفراتنا وأمسكنا له أكبادنا خشية أن تصدعًا.

فخففت أنا وصديقي شيئاً من آلامها فانصرفت، وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية فساءلنا عنها فعلمنا أنها صاحبتنا بالأمس، وأنها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة.

أيها الرجل:

إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مداركً مثل مداركك، واستعداداً مثل استعدادك، فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة، وإلا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك.

إن كنت زوجاً فلا تطردها من منزلك بعد أن تقضي مأربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها، وإن كنت أباً فهذه فلذة كبك فلا تضق بها ذرعاً، ولا تُلقِ بها في حجر وحش ضارٍ يأكل لحمها ويمتص دمه، ثم يلقي إليك بعظامها.

ويا أيها المحسنون: والله لا أعرف لكم باباً في الإحسان تنفذون منه إلى عفو الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة.

علّموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة، وأدّبوها لينشأ في حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم.

القسم الثاني

الفصل الحادي والأربعون

البيان

قال لي أحد الوزراء ذات يوم:

«إنني لتأتيني أحياناً رقاغ الشكوى فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة، والكلمات الجارحة، لولا أن الله تعالى يلهمني نيات كاتبها وأين يذهبون، ولولا ذلك لكنت من الظالمين».

ذلك ما يراه القارئ في كثير من المخطوطات التي يخطها اليوم كاتبوها في الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة.

هزل في موضع الجد، وجد في موضع الهزل، وإسهاب في مكان الإيجاز، وإيجاز في مكان الإسهاب، وجهل لا يفرق ما بين العتاب والتأنيب، والانتقام والتأديب، والاستعطف والاستخفاف، وقصور عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والأمراء، والعلماء والجهلاء، حتى إن الكاتب ليقيم في الشوكة يشاكها مناحة لا يقيمها في الفاجعة يفجع بها، ويكتب في الحوادث الصغار ما يعجز عن كتابة مثله في الحوادث الكبار، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه، ويناجي أجيره بمثل ما يناجي به أميره.

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متشعبة، واختلفوا في شأنه اختلافاً كثيراً، ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون؟ وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشبه وجوها ولا تتشعب مسالكها؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس، وتصويره في نظر القارئ أو مسمع السامع تصويرًا صحيحًا لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه، فإن علقته به آفة تترك الآفتين فهي العي والحصر.

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب فأغصوا بها صدور كتابتهم، وحشوها في حلوقها حشواً يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها، فإذا قدر لك أن تقرأها، وكنت ممن وهبهم الله صدرًا رحبًا، وفؤادًا جلدًا، وجنانًا يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر وأرزائه، قرأت متناً مشوشاً من متون اللغة، أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات.

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول، والتبسط في الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقّة بجرتها، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقها، حتى تسف وتبذل، وحتى ما تكاد تسيغها الحلق ولا تطرف عليها العيون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

يخيل إليّ أن الكُتّاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في صدر الإنسان حينما يخلو بنفسه، ويأنس بوحده، فإني لا أكاد أرى بينهم من يحكم وضع فمه على أذن السامع، وينفث في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه، وخوالج نفسه.

الكلام صلة بين متكلم يفهم، وسامع يفهم، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من العلو والإسفاف، فإن أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك، واحرص الحرص كله على ألا يخدعك منها خادع فتسقط مع الساقطين.

ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة، ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم، وتصوراتهم وخيالاتهم، ومحاوراتهم ومساجلاتهم، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاقبون ويؤنبون، ويعظون وينصحون، ويتغزلون وينسبون، ويستعطفون ويسترحمون، وبأية لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جانحيه حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعيه على صفحات قرطاسه.

إنّي لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابئ والهمذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسفار فأشعر بما يشعر به المتنقل دفعة واحدة من غرفة محكمة النوافذ، مُسبلة الستور، إلى جو يسيل قرّاً وضراً، ويتفرق ثلجاً وبرداً.

ذلك لأنني أقرأ لغة لا هي بالعربية فأغتبط بها، ولا هي بالعامية فألهو بأحماضها ومجونها.

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين رجلين: رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة، فإذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقى بها في روع قارئ كتابته أدون مما أخذها، فيدلي أخذها كذلك إلى غيره أسمع صورة وأكثر تشويهاً، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كُرَّ الغداة ومَرَّ العشي، وطالب قصارى ما يأخذ من أستاذه: نحو اللغة وصرفها، وبديعها وبيانها، ورسمها وإملاؤها، ومتاردها، ومتواردها، وغير ذلك من آلاتها وأدواتها، أما روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان عنده علماء غير أدباء، وحاجة طالب اللغة إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة، ويوحي إليه بسرّها، ويفضي إليه بلبّها وجوهرها أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها، وعندي أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان، فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيد منها إلا من أستاذ كملت أخلاقه وسمت آدابه. كذلك طالب البيان لا يستفيدة إلا من أستاذ ميبين.

ولا يقذفن في روع القارئ أنني أحاول استلاب فضل الفاضلين أو أنني أريد أن أنكر على شعراء الأمة وكُتّابها ما وهبهم الله من نعمة البيان، فما هذا أردت ولا إليه ذهبت، وإنما أقول إن عشرة من الكُتّاب المَجِيدِينَ، وخمسة من الشعراء البارعين، قليل في بلد يقولون إنه مهد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصب.

وبعد: فإنني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلاً إليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج. فإن رأيت أنك قد شغفت بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف إليها، وأن قد لَدَّ لك منها ما يلذ للعاشق من زورة الطيف في غرة الظلام، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب، فامض لشأنك، ولا تَلَوْ على شيء مما وراءك، تبلغ من طلبتك ما تريد.

ولا تحدثك نفسك أنني أحملك على مطالعة المنشآت العربية لأسلوب تسترقه أو تركيب تختلسه، فإنني لا أحب أن تكون سارقاً أو مختلساً، فإن فعلت لم يكن درك دركاً، ولا بيانك بياناً، وكان كل ما أفدته^١ أن تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا

^١ بمعنى: أفاد واستفاد.

تناسب بين أجزائها، وبردة مرقعة لا تلاؤم بين ألوانها، وإنما أريد أن تحصل لنفسك ملكة في البيان راسخة تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل، وإلا كان شأنك شأن أولئك القوم الذين علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها ففنعوا بها، وظنوا أنهم قد وصلوا من البيان إلى صميمه. فإذا جد الجد وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شيء مما تختلج به نفوسهم، رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنهم، فإن وجدوا بينها قالباً لذلك المعنى الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً وحشروه في كتابتهم حشراً. وإلا تبدلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة أو هجروا تلك المعاني إلى معانٍ أخرى غيرها، لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها، فلا بد لهم من إحدى السوأتين: إما فساد المعاني واضطرابها، أو هجنة التراكيب وبشاعتها.

فاحذر أن تكون واحداً منهم، أو أن تصدق ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة، وأنهم ما لجأوا إلى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها. فاللغة العربية أرحب صدراً من أن تضيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعدما احتملت من دقائق العلوم والمعارف ما لا قبل لغيرها باحتماله، وقدرت من هواجس الصدور وخوالج النفوس على ما عيّت به اللغات القادرات.

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها، وإنما الشأن في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في أرجائها، والتغلغل في أعماقها، واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التي لا تتلج صدراً، ولا تشفي أواماً.

وكل ما يعد عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة، وهو في مذهبي أهون الذنوب وأضعفها شأنًا، ما دمننا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه، أو التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق، فالأمر أهون من أن نحار فيه، وأحق من أن نقضي أعمارنا في العراك ببابه، والمناظرة في اختيار أقرب الطرق إليه، وأجداها عليه.

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية، فليس كل متقدم ينفك، ولا كل متأخر يضرك، ولا أحسبك إلا واقفاً بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب؛ لأن حسن الاختيار طلبه تتعثر بين يديها الآمال، وتتقطع دونها أعناق الرجال، فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقاً سليماً، وقريحة صافية، وملكة في الأدب كمصفاة الذهب، فإن فعلت وكنت ممن

البيان

وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقي إليها من البذور الطيبة، عدت وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة، يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه، تناسر الورود والأنوار من حديقة الأزهار.

الفصل الثاني والأربعون

السريرة

لو كشف للإنسان عن سريرة الإنسان لرأى منها ما يرى الأعمى من غرائب هذا الكون وعجائبه حين تدركه رحمة الله بعد طول محنته فيرتد بصيرًا.

تترأى لك السريرة في ظاهرها كأنها أديم السماء أو صفحة الماء، فإن بدا لك أن تكتنه باطنها فإنك غير بالغ من ذلك مأربك إلا إذا استطعت أن تخترق جلدة السماء، فترى ما وراءها من بدائع الكائنات، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات.

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيترث ريثما تمج الشمس لعبها من نافذة غرفته فإذا هو مائج وضاء يروح ويغدو رواح السانحات وغدو البارحات، ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يجسمها له ويدنيها منه حتى ليكاد يلمسها بيمينه، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد إلى الوصول إليها سبيلًا.

وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه فاستعصى عليه، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فعجزوا عجزه، فلجَّ بهم الشوق إليها لاجًا طار بعقولهم وذهب بالبابهم، فتراموا على أقدام المنجمين والعرفانين لثما وتقبيلا، وابتدروا النصب والتماثيل ركوعًا وسجودًا، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيام الإبل العطاش بمنازل الماء، يطلبون ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجع فيه النفثات، ولا تجدي معه العزائم والرقى.

إنك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلالؤ الكواكب في جنح ليل مبرد، ويفتر ثغره عن الأنوار افترار الأكمام عن الأزهار، فتحسده على نعمته وسعادته، وتتمنى أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد، وأن بين جنبيه — لو علمت — همًا يعتلج، وقلبًا يدب فيه

اليأس دبيب الآجال في الأعمار، وكبدًا مقروحة لو عرضها في سوق الهموم والأحزان ما وجد من يبتاعها منه بأبخس الأثمان.

وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه الطلو، وثغره المبتسم، ويروقك منه كلفه بك وإعظامه لك وإعجابه بشمائلك ومحاسنك، وتشيعه لآرائك، ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو تيسر لك أن تبتاع أقدام السليك^١ بجميع ما تملك يدك ففررت من وجهه فرارك من وجه الأسود السالخ^٢ ووددت بجذع الأنف أن لا يضافح وجهه وجهك من بعدها حتى في جنات النعيم.

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبدلت الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات، وكان للكون نظام غير هذا النظام، وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات. لو علم الجند أنهم لا يحاربون إلا ليضعوا «نيشانًا» في صدر القائد، أو جوهرة في تاج الملك، وأنهم كثيرًا ما يكونون مخدوعين في مواقفهم بأشراك الوطنية وحبائل الدين، لما دالت الدول، ولا انتقلت التيجان، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان. ولو علم جهلة المتدينين أن أكثر زعماء الأديان إنما يشترتون منهم عقولهم وأموالهم بالقليل التافه من المدهشات الدينية والأحلام النفسية، ويملاؤون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلامة بثمن غالٍ، لضعفت أصوات النواقيس، وقصرت قامات المنائر، ولهلك أرباب الطياليس والقلانس جوًا وسغبًا، ولأصبحت حبات السبح أكسد في سوق الأديان من بعد الآرام في سوق الأنعام، ولو علم الابن أن أباه يحبه لما يرجوه من منفعة في شيخوخته، وأنه إنما يعجب بنفسه في إعجابه به وثنائه عليه، ويفخر بقوة عقله وحسن تدبيره في فخره بذكائه ونبوغه، لضعفت صلة الود بينه وبينه، ولما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر. ولو علمت الزوجة أن زوجها يحب منها جسمها أكثر مما يحب نفسها، وأنه يتربص بها الدوائر ويعد ليومها الساعات والأيام ليستبدل بها خيرًا منها، لما وثقت بودّه ولا اطمأنت لعهدّه ولما كان للمنازل سقوف تظل الأسرة والمهاد.

^١ السليك: رجل معروف بسرعة عدوه في العرب.

^٢ ذكر الحيات.

الفصل الثالث والأربعون

زيد وعمرو

أراد داود باشا — أحد وزراء تركيا في العهد القديم — أن يتعلم اللغة العربية، فأحضر أحد علمائه، وأخذ يتلقى عنه علومه عهدًا طويلًا، فكانت نتيجة عمله ما ستراه.

سأل شيخه يومًا: ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيد كل يوم ويبرّح به هذا التبريح المؤلم؟ وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير؟

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظًا وحنقًا، ويضرب الأرض بقدميه، فأجابه الشيخ: ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين. فلم يعجبه هذا الجواب، وأكبر أن يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية. فغضب عليه وأمر بسجنه، ثم أرسل إلى نحوي آخر فسأله كما سأل الأول، فأجابه بمثل جوابه، فسجنه كذلك، ثم ما زال يأتي بهم واحدًا بعد واحد. حتى امتلأت السجون وأقفرت المدارس، وأصبحت هذه القضية المشؤومة الشغل الشاغل عن جميع قضايا الدولة ومصالحها، ثم بدا له أن يستوفد علماء بغداد، فأمر بإحضارهم، فحضرُوا وقد علموا قبل الوصول إليه ماذا يراد بهم، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحنق والبصر بموارد الأمور ومصادرها، فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه، فأجابه رئيس العلماء: إن الجناية التي جناها عمرو يا مولاي يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر مما نال، فانبسطت نفسه قليلًا وبرقت أسارير وجهه، وأقبل على محدّثه يسأله: ما هي جنايته؟ فقال له: إنه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو، فسلط النحويون عليه زيدًا يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله — يشير إلى زيادة واو عمرو وإسقاط الواو الثانية من داود — فأعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب، وقال لرئيس العلماء:

أنت أعلم من أفلته الغبراء، وأظلمته الخضراء، فاقترح عليّ ما تشاء، فلم يقترح عليه سوى إطلاق سبيل العلماء المسجونين، فأمر بإطلاقهم، وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلوات.

أحسن داود باشا في الأولى وأساء في الأخرى، ولو كنت مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى أخذ عليهم عهدًا وثيقًا أن يتركوا هذه الأمثلة البالية إلى أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه الحوادث الدموية بين زيد وعمرو، وخالد وبكر.

لا ينال المتعلم حظه من العلم إلا إذا استطاع تطبيقه على العمل والانتفاع به في مواضعه ومواطنه التي وضع لأجلها، ولن يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلمه من الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم، وافتن له في إيرادها افتنانًا يقرب إلى ذهنه تلك الصلة من العلم والعمل، ويسهل له الوصول إلى القدرة على تلك المطابقة، وإن أكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة؛ لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم! فلو أنك أردت أحدهم على أن يخرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية، وفي النحو عن ضرب زيد عمرًا، وقتل خالد بكرًا، وفي البيان عن تشبيه زيد بالبدن، واستعارة الأطافر للمنية، وفي الصرف عن فعل وافعول، لوجدت في نفسه من الجهد والمشقة، وفي لسانه من العي والحصر ما يحزنك على أعوام طُوال قضائها بين المحابر والدفاتر، ثم لم يحصل من بعدها على طائل.

علام يتعلم الطالب النحو والصرف إن عجز عن أن يقرأ صحيحًا كل كتاب وكل صحيفة؟ وعلام يتعلم علوم البلاغة إن عجز عن معرفة أسرار الكلام، وأوجه بلاغته وفهم المراد من مختلفات أساليبه، وعن الإبانة عما يدور في نفسه إبانة واضحة لا يشوبها قلق ولا اضطراب؟ وعلام يتعلم المنطق إن عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها في كل ما يعرض عليه منها، وإن لم يكن الموضوع الإنسان، والمحمول الحيوان الناطق؟!!

عجيب جدًا أن يفهم الصانع الأمي أن العلم للعمل، فلا يتعلم النجارة إلا ليصنع الأبواب والصناديق، ولا الحدادة إلا ليصنع الأقفال والمفاتيح، وأن يجهل المتعلم هذه القضية الضرورية، فلا يهتم من العلم إلا الاستكثار من المعلومات والقواعد، وإن عجز بعد ذلك عن التصرف فيها، والانتفاع بها في مواطنها.

ما دامت مدرسة الأزهر على هذه الحال من أسلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها في مستقبل الأيام أن ينبغ منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الأمة انتفاع أمثالها بأمثالهم في مشارق الأرض ومغاربها، فويل للعلم من العلماء.

الفصل الرابع والأربعون

أبو الشمقمق^١

إن كثيرًا من الفقراء لم تمتد يد الفقر إلى رؤوسهم، كما امتدت إلى جيوبهم، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء، ويفهمون كما يفهمون وكما أن في أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرؤوس.

ولقد جلست في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين الزاهبين الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك، فأخذوا يتجاذبون أسلاك الأحاديث الذهبية: ما بين تاجر يعجب بصفقته الرابعة، وزارع يفخر بقلّة ما أعطى وكثرة ما أخذ، وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار، والكل متفقون على أن السعادة التي أظلتهم أجنتها في هذا العهد الأخير: عهد العدل والإنصاف، عهد الحرية والمساواة، عهد الرقي والعمران: هي أشبه شيء بسعادة المتقين في جنات النعيم. كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزر طرفه، ويهز رأسه، ويصعد أنفاسه، ويمضغ أضراسه، ويئن من أعماق قلبه أنينًا يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر:

فيا لك بحرًا لم أجد فيه مشربًا على أن غيري واحد فيه مسبحًا

^١ هو في الأصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر.

فما هو إلا أن قضوا لبانتهم من الكلام المملول، والحديث المعاد حتى قاموا يطيطرون الآمال وراء الأموال. فأشرت إلى أبي الشمقمق أن يختلف ففعل. فسألت: ما لك لم تشترك معنا فيما كنا فيه؟ فأجاب: إني أكره الفضول في الحديث وقد فرق المقدار ببني وبينكم في المال، فلا أشارك في المقال. فقلت: ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التي نهضتها الأمة المصرية في عهدها الأخير وأنت فرد من أفرادها، وجزء من أجزاء جسمها، فنهوضها نهوضك، وسقوطها سقوطك، والأمة — كما تعلم — هي الفرد المتكرر والواحد الدائر، فأنت الأمة والأمة أنت. فقال: والله لا أدري أتكلمني بلسان الصوفية؟ ولست بصوفي، أم بلغة الفلاسفة؟ ولا أفهم للفلسفة معنى، وكأنك تقصدني بالفرد المتكرر، فإن كنت تريد أنني فرد متكرر كثير الأشباه والأمثال في العوز والفاقة، وواحد لا سند لي ولا عضد؛ ودائر في مدارج الطرق ومعايير السبل، فقد أصبت وأحسن، وإن كنت تريد معنى غير ذلك، فأنا لا أفهم إلا كذلك، فهل لك أن تعطيني من الجواب على هذه المعميات، وتزن كلامك على مقدار عقلي وتحديثي فيما يتناوله سمعي وبصري؟ فقلت: أنا لم أخرج بك عن المألوف المعروف، ولا أريد إلا أن الأمة ليست في الخارج شيئاً غير أفرادها، فإذا سعدت أو شقيت فالسعداء والأشقياء أبناءؤها، وحسبك أن ترى تقدم الأمة المصرية في ثروتها وعمرانها، وبذخها وترفها، وكثرة ناطقها وصامتها، فتسعد بسعادتها وتهنأ بهنائها، فقال: إن لم تبين لي سهمي من هذه السعادة، ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء، وما دمت أرى أن لي هوية مستقلة من هوية سواي من السعداء، ويداً تقصر عما تتناوله أيديهم، وبطناً لا يمتلئ بما تمتلئ به بطونهم، وما دمت لا أرى واحداً بينهم يلبس معي ردائي الممزق. وقميصي المخرق. ويقاسمني همي. ويشاطرني فقري. فهيهات أن أسعد بسعادتهم، وأسر بسرورهم. وهيهات أن أفهم معنى قولك: أنت الأمة والأمة أنت. فقلت: إن الغيث إذا نزل يسقي الخصب والجديب. والنجد والوهد؛ وينتظم من الأرض الميت والحي. فقال: كل سماء فيها هذا الغيث إلا سماء مصر، فإني أراه:

كبدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلم

ما لي وللروض الذي لا أستنشق رَوْحه وريحانه. والقصر الذي لا أدخله مالگًا ولا زائرًا. وهب أن الطرق مفروشة بالحرير والدباج. لا بالحصي والمدر. فهل أبقى لي الدهر من حاسة للمس شيئاً فأستطيع أن أميز بين خشن اللمس وناعمه، ومعوج

الأرض ومستقيميها؟ وهبني إذا مشيت خضت في بحر مائج بأنوار الكهرياء. فهل يغني ذلك عني شيئاً؟ وهل يكون نصيبي منه إلا انكشاف سوأتي وورثاة حالتي لأعين الناظرين؟ ولقد حُبَّ إليَّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤنة الرق والفتق. والتمزيق والترقيع. وبعد: فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه يعنيني ويشملني؟ هل ترقى غرائر الإحسان في نفوس المحسنين؟ وهل خفقت قلوب الأغنياء رحمة بالفقراء؟ فقلت: نعم. أما ترى الأموال التي يتبرع بها الأغنياء للجمعيات الخيرية، والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات؟ فقال: إن هذه التي تسميها مكارم، لا يسميها أصحابها إلا مغارم، ألجأهم إليها التملق للكبراء، وحب التقرب من الرؤساء، والطمع في الزخرف الباطل والجاه الكاذب.

ما لي وللمدارس والمستشفيات، وأنا جوعان خبز لا جوعان علم. ولا مرض عندي إلا مرض الفاقة، فهل أجد في المدارس خبراً أو في المستشفيات دواءً كذلك الدواء الذي وصفه أحد الأطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا إليه مرضاً فعرف سِرَّ مرضه فأعطاه علبة وكتب على غطاؤها «يؤخذ منه عند اللزوم» فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنائير.

أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى. فلا قدرة لي على العمل وعندي صبية صغار ليس بينهم من يستطيع عملاً أو يحسن صنْعاً، ولقد كان لي في الزمن الذي تدمونه، والعهد الذي تنقمون عليه، منفسح عظيم في منازل المحسنين ومورد نمير من صدقاتهم وهباتهم، وظل ظليل من تحنن الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين، أما اليوم فإني أبیت طاوياً، وأصبح شاكياً، وأغدو راجياً، وأروح يائساً.

وهنا أرسل من جفنيه دمعة ليست بأول دمعة أرسلها على ردائه، ولكنها أحرُّ من سابقتها؛ لأنه لم يبك في غير خلوته غير هذه المرة.

ثم نهض ومد يده إليَّ مودعاً، فمسحت بيمينني دمعة واحدة من دموعه الكثيرات.

الفصل الخامس والأربعون

دورة الفلك^١

أيها القصر:

أين الكوكب الزاهر الذي كان يتنقل في أبراجك؟ أين النسر الطائر الذي كان يحلق في أجوائك؟ أين الملك القادر الذي كان يطلع شمسًا في صباحك، وبدرًا في مساءك؟ أين الأعلام والبنود تخفق في شرفاتك؟ والقوَّاد والجنود تخطر في عرصاتك؟ أين الشفاه التي كانت تلثم ترابك؟ والأفواه التي كانت تقبل أعتابك؟ والرؤوس التي كانت تطرق لهيبتك؟ والقلوب التي كانت تخفق لروعتك؟ أين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء؟ أين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس، والنعيم والبؤس، والرفع والخفض، والإبرام والنقض؟

كيف استطاع الدهر أن يمد يده إلى شملك فيبيده؟ وجمعك فيفرقه؟ وسمائك فيكور شמושها؟ وأرضك فيزعج أنيسها؟ أين كانت أسوارك وأبوابك، وحراسك وحجابك؟ وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء؟ وتصد عن نفسك عادية البلاء؟

ولم أرَ مثل القصر إذ ريع سربه وإذ زعرت أطلاؤه وجآذره

^١ كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد ملك تركيا.

تحمل عنه ساكنوه وهُتَّكَتْ على عجل أستاره وستائره

أيها السجن:

حلّ بأرجائك اليوم ملك تضيق به الدنيا، فكيف وسعته؟ وتعجز عن احتماله قلل
الجال الرواسي فكيف احتملته؟ رفقا به لا تزعجه، ولا تحرج صدره، وضم جانحتك
عليه كما تُضم على القلب حنايا الضلوع، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع،
وارحم هذا الجلال الذاهب، والعز الزائل، والرأس الذي بيضته حوادث الدهور، والظهر
الذي قوَّسته أيدي المقدور.

أيها الدهر:

ألا تستطيع أن تنام عن الإنسان لحظة واحدة؟ ألا تستطيع أن تسقيه كأس
السرور خالصة، لا يمازجها كدر، ولا يشوبها عناء؟
إن كنت تريد أن تسلبه فلم أعطيته؟ وإن كنت تريد أن تعطيه فلم سلبته؟ كان
خيراً له أن لا تعطيه حتى لا تفجعه في تلك العطية، وأن لا تسقيه كأس السرور حتى
لا يتجرّع ذلك السم الذي أودعته تلك الكأس.

أيها الرجل المودع:

كان ارتفاعك عظيماً، فوجب أن يكون سقوطك عظيماً.
إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة، فلما ذقت مرارتها جزعت وقطبت كما يجزع
ويقطب كل من ذاق من الشراب ما لا عهد له به ولا قبل له باحتماله.
لا تأس على ما فاتك، فإنما كان وديعة من ودائع الدهر، أعاركها برهة من الزمان،
ثم استردها.

إنك لا تدري، لعل الله أراد بك خيراً فمنحك قبل حلول أجلك فرصة من الزمان
تخلو فيها بنفسك، وتراجع فيها فهرس أعمالك، فإن رأيت خيراً اغتبطت أو شراً
استغفرت.

قضى الله أن يقيم في كل حين لهذا العالم الغافل عبرة من العبر تزعجه من رقدته،
وتوقظه من غفلته، فكنت أنت عبرة هذا الدهر وموعظته.

من بات بعدك في ملك يُسرَّ به فإنما بات بالأحلام مغرور

تأبين فولتير^١

في مثل هذا اليوم، منذ مائة عام، مات الرجل العظيم، مات الرجل الخالد، مات فولتير. ما مات «فولتير» حتى احدوب ظهره تحت أثقال السنين الطوال، وأثقال جلائل الأعمال، وأثقال الأمانة العظمى التي عرضت على السموات والأرض، فأبَيَّن أن يحملنها، فحملها وحده وهي تهذيب السريرة الإنسانية فهذبها، فاستنارت، فاستقام أمرها. مات فولتير مردولاً محبوباً في آنٍ واحدٍ يبغضه الحاضر لأنه يجهله، ويحبه المستقبل لأنه عرفه.

إن في هاتين العاطفتين — البغض والحب — سرّاً عظيماً من أسرار المجد العظيم، لذلك الرجل العظيم.

كان وهو على سرير الموت محفوفاً بعاطفتين مختلفتين شكلاً، متفقتين معنًى؛ لأنهما جميعاً في سبيل مجده وفخاره، كان ينظر أمامه، فيسرُّه منظر التبجيل والتعظيم من مستقبله، ويلتفت وراءه فيطربه مشهد البغض والازدراء والحق الذي يضمّره الماضي في صدره لأولئك الرجال البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه.

كان «فولتير» رجلاً وأكبر من رجل، كان وحده أمة كاملة، إنه عاهد نفسه على إنجاز عمل عظيم فأنجزه ولم يخلف وعده، وكأن الإرادة الإلهية المتجلية في الشرائع تجليها في الطبائع، نثرت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه؛ فوجدت فولتير أصلبها عوداً، فاخترته للقيام بالعمل الذي قام به فآتمه.

^١ وهي ترجمة خطبة خطبها «فكتور هيجو» في باريس في حفلة تأبين فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨م بعد مرور قرن على وفاته، مع بعض تصرف.

إننا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسألة الاجتماعية الكبرى، جئنا لنرفع شأن المدنية ونكرم الفلسفة إكرامًا ينفعها ويفيدها، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأي القرن التاسع عشر فيه، جئنا لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصين، اجتمعنا لنمجد الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعى إليها العلماء والعاملون، والكتّاب المجذّون، وجملة القول أننا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجد العاطفة الشريفة السامية، عاطفة السلام العام. إننا نمجد السلام حبًّا في المدنية، وحرصًا على جمالها ورونقها، فالسلام فضيلة المدنية، والحرب رذيلتها.

نحن في هذه الساعة العظيمة، في هذا الموقف الرهيب، نجثو على الركب، ونعفر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية، ونقول للعالم الذي ينصت لسماع صوت فرنسا «لا قوة إلا قوة الضمير، ولا مجد إلا مجد الذكاء» هذا في سبيل العدل، وهذا في سبيل الحق. لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنسية على هذا المنال: الشعب في المنزلة الدنيا، وفوق الشعب الدين والقضاء، وهذا يمثل «القضاة» وذاك يمثل «الإكليروس».

أندرون كيف كان الشعب؟ وكيف كان الدين؟ وكيف كان القضاء في ذلك العهد؟ كان الشعب جهلاً! والدين رياءً! والقضاء ظلمًا! إن كنت في شك مما أقول فأني أقصُّ عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناءً ومقتنعًا:

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وُجِدَ شابٌ مصلوبًا في الطبقة الأرضية من بيت في مدينة «تولوز» فهاج الشعب ولغط «الإكليروس» وبحث القضاة، فكانت النتيجة أن كان الشاب منتحرًا، فسمي قتيلاً، وكان والده بريئًا، فسمي قاتلاً.

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته أن يهلك والد الفتى لأنه كان بروتستانتيًا؛ ولأنه كان يمنع فتاه أن يتدين بالكتلكة، إنها لجنائية عظيمة جدًّا ينكرها الدين، ويحيلها العقل، ولكن هان أمرها، ولم يحفلوا بالشريعتين: شريعة القلب، وشريعة العقل، فحكموا أن الشيخ الكبير قتل ولده الصغير.

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها.

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق إلى الميدان العام شيخ أبيض الشعر هو «جان كالاس» ثم جُرِدَ من ثيابه وطُرحَ على دولاب العذاب وشُدَّتْ إليه أطرافه وترك رأسه متدليًا.

ثلاثة رجال تلوثت أيديهم بدم القتل: كاهن يحمل الصليب، وجلاد يحمل القضيب، وقاضٍ يحمل في صدره عهد القوم إليه بالتنكيل والتعذيب.

لم يكن الشيخ المسكين وقد شق الخوف مرارته، وتمشى قلبه في صدره، لينظر إلى الصليب في يد الكاهن، بل إلى القضيب في يد الجلاد.

ورفع الجلاد القضيب، وضرب ذراع الشيخ ضربة قاسية صاح على أثرها صيحة مؤلة ثم أغمي عليه، فتقدم القاضي الرحيم وأمر له بالمنبهات فانتعش، فضربه الجلاد الضربة الأخرى فوق الذراع الأخرى فعاد إلى صرخته وإغمائه فعادوا إلى تنبيهه وإنعاشه، وهكذا حتى تمَّ لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان، فكأنما قتلوه قبل موته ثماني مرات.

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهن ومدَّ إليه الصليب ليقبَّله فحوَّل وجهه عنه، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينين، فأقبل الجلاد وسدد إلى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية.

على هذه الصورة مات «جان كالاس».

وما هي إلا أيام قلائل حتى عرف الناس أن الفتى مات منتحرًا، لا مقتولًا فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفذ فيه سهم القضاء، وماذا يعنيه بعد الموت، أمات ظالمًا أم مظلومًا!

أما الحادثة الأخرى فهي عبرة الشباب كما كانت الأولى موعظة الشيخوخة. بعد مضي ثلاث سنوات من تاريخ الحادثة الأولى وجدوا في «إيفل» في ليلة عاصفة صليبًا أكل السوس أحشائه حتى عاف البقاء فيه، مطرًا فوق الجسر بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون.

من ألقى به من أعلى السور؟ من أهانه؟ من ذا الذي دنس هذا الأثر المقدس؟ من ذا الذي أجرم هذا الجرم العظيم؟

ربما عصفت به ريح، أو عبث به عابر طريق، أو هوى به ضعف الشيخوخة وإعياء الهرم، لا. لا. كل ذلك لم يكن، لأن الدين أبى إلا أن يوجد مجرمًا. هنالك أعلن مطران «اميان» براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم أو ظن أنه علم شيئًا عن هذه الحادثة فكتمه.

إن الحرمان في الكتلكة جريمة هائلة فظيعة قاتلة متى أوحى به التعصب الذميم، إلى الجهل العظيم، كان هذا الحرمان سببًا في أن القضاء عرف أو ظن أنه عرف أن

ضابطين اسم أحدهما «لابار» والآخر «ديتالون» مرًا على جسر «إيفل» في تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكرًا، وينشدان نشيدًا عسكريًا، مرًا بالجسر وأنشدًا النشيد، فهما المجرمان، وكانت المحكمة تقدس «إيفل» ولم تكن بأقل عدلاً وإنصافاً من «مجلس الكابيتول» في «تولوز» فأمرت بالقبض على الرجلين، فاختفى «ديتالون» وقبض على «لابار».

وأسلم إلى القضاء، فاعترف بالنشيد وأنكر المرور على الجسر، فحكمت محكمة إيفل بالإعدام، وأيد حكمها برلمان باريس، فدنت الساعة المخيفة الهائلة. لقد تفننوا في تعذيب «لابار» وإرهاقه ليكشفوا عن سر فعلته، وعن شركائه في جريمته، أي جريمة المرور على الجسر، وإنشاد النشيد. لقد عذبه عذاباً أليماً، حتى إن الكاهن الذي جيء به ليسمع اعترافه أغمي عليه حينما سمع قرعة عظام ركبته.

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثاني، وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦ وحيء بالشاب المظلوم إلى ساحة «إيفل» الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضطراماً، فأسمعوه نص الحكم، ثم بتروا يده، ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها في النار.

على هذه الصورة مات «الشيغاليه دي لبار» كما مات من قبله «جان كالاس». أحزنك هذا المنظر يا فولتير، وألم نفسك، وملك عليك عواطفك وشعورك، فصحت صيحة الرعب والفرع، فكانت تلك الصيحة الحجر الأول في بناء مجدك الخالد العظيم. هنالك انبعثت نفسك إلى النزول في ميدان المجتمع الإنساني لتكف عادية الظالمين، وتقلّم أظفار الوحوش الضارية، وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه، وتنتصف منه للمستقبل، فانتصفت وانتصرت، وكنت من المحسنين.

فيا أيها الرجل العظيم! طببت حياً وميتاً.

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهد من المجتمع المذهب الراقى، وفي حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء، يغدو إليها الإنسان لاهياً، ويروح ساهياً، لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه، ولا يخفضها فيرى ما تحته.

حدث ذلك وأيام البلاط أعياد، و«فرسائل» تتلأأ حسناً وبهاءً ورونقاً وماءً، وظرفاء الشعراء أمثال «سان أولايير» و«بوفليير» و«جنتيل برنار» لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل.

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية أن يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع بذلك القضيب الحديد، وأن يستل لسان الفتى لأنه أنشد الأناشيد.

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفاً من قوى عظيمة هائلة، قوة البلاد وقوة الأشراف، وقوة المال، وقوة الشعب المائج المتدفع، وقوة الحكومة التي كانت أسداً على الرعية، ونعامة بين يدي الملك، تجثو أمامه خاضعة صاغرة، إلا أن جثيها كان على جثة الشعب. وقوة «الإكليروس» المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى.

تقدم فولتير وحده وأثار حرباً عواناً على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة. ولم يره أكبر من أن ينخذل. ولم ير نفسه أصغر من أن ينتصر.

أندرون ما كان سلاحه؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها. وتسبق الصاعقة في انقضاضها. ما كان له سلاح غير القلم، فبالقلم حارب، وبالقلم انتصر.

انتصر فولتير، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة، فولتير أدار وحده رحى تلك الحرب الهائلة، حرب العلم والجهل، والعدل والظلم، والعقل والهوى، والصالح والفساد، فتم على يديه الغلب للخير على الشر، وفاز فوزاً مبيناً.

وكان «فولتير» قلباً وعقلاً. كان له رقة الفتاة في غلالتها^٢ وشدة الأسد في لبدته. «فولتير» محا الخرافات الدينية والعادات الفاسدة، وأرغم أنف الكبرياء وأذل عز الرؤساء، ورفع السوقى إلى حيث لا يصل ظلم القاضي ولا تنطع الكاهن.

عَلَّمَ وَمَدَّنَ وَهَدَّبَ، ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس، فلم تنكسر سورته، ولم تفتقر عزمته. بل كان يلقي الاستبداد بالسخرية، والغضب بالاستخفاف، والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة.

أقف هنا قليلاً إجلالاً لابتسامة «فولتير».

«فولتير» هو الابتسامة، والابتسامة هي فولتير.

أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب، وكذلك كان فولتير. كان عقله ميزان أعماله، فما غلبه حتى الغضب للحق.

^٢ الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب.

كنت تراه عابساً مقطباً، فما هي إلا كرة الطرف أن ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب.

تكاد تكون ابتسامته ضحكاً، لولا حزن الحكيم، وهم العاقل.

كانت ابتسامته كبارقة السيف يرتاع لها الأعداء، ويرتاح لها الأولياء.

كان يبتسم للقوي فيخجله بتهكمه واستخفافه، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه.

فلنمجد تلك الابتسامة التي كانت أشعتها كأشعة الفجر، تمحو الظلام وتبعث الأنوار.

نعم الابتسام، ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح، وبدد ظلمات التقليد. إن ابتسامة فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية وزينتها بالإخاء والمودة والحرية والمساواة، فنال العقل منزلته من الإجلال والإعظام، سواء أسكن القصر الكبير، أم الكوخ الصغير، ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة، والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير، ونشر السلام أجنحته البيضاء على المجتمع الإنساني فقررت السيوف في الأعماد، وهذأت الدماء في العروق، والأرواح في الأجسام، كل ذلك بفضل ابتسامة فولتير، ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء، والعفو عن الخاطئين، فيبتسم فولتير في السماء ابتسامة تتلألأ بين ألأء النجوم.

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد، ولنكبرها كل الإكبار.

هل كان «فولتير» يحلم دائماً فلا يستخف حلمه الغضب؟ كلا، بل كان يغضب أحياناً في سبيل الحق.

إن التوسط وحفظ الموازنة بين الأخلاق هو القانون العقلي للإنسان، حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى، وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض، وإن الفلسفة هي الاعتدال وامتلاك أزمّة النفس في جميع مواقفها ومذاهبها، إلا أن حب الحق يجب أن يكون دائماً في مرتبة الغلو حتى تهب عاصفته قوية هائلة على الشرور والآثام فتذهب بها.

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله، أما الأولى فيكفلها العدل وأما الثانية فيحرسها الأمل، لذلك يحب الناس القاضي العادل، والكاهن الصالح؛ لأن الأول صورة العدل، والثاني مثال الرجاء، فإذا انقلب العدل ظلماً، والأمل يأساً، عافهما الإنسان ولوى وجهه عنهما، وقال للقاضي: «لا أحب قانونك» وللكاهن: «لا أؤمن بك»

وهنا يهب الفيلسوف الغيور غاضباً، فيحاكم القضاء أمام العدل والكهنوت أمام الله، وكذلك فعل فولتير، فكان من المحسنين.

إن الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيداً إلا قليلاً، وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره، فهو كالشجرة تكون في الغابة الشجرا أطول منها في التربة الجرداء؛ لأنها تكون في لداتها وأترابها، وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة: روسو وديدور وبوفون وبورماشي ومونتسكيو، أولئك القوم المفكرون المخلصون هم الذين علموا الناس النظر في حقائق الأشياء، والتفكر الصحيح الموصل إلى إتقان الأعمال، وعلموهم أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل، فأجادوا وأفادوا.

مات أولئك القوم العظماء، وهوت من أفقها كواكبهم، ولقد كانوا في حياتهم جسداً وروحاً، أما الجسد فقد طواه القبر، وأما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم. أجل، إن الثورة روحهم، والمظهر الساطع المتلألئ بحكمتهم ومبادئهم.

هم في الحقيقة أبطال الثورة المقدسة، التي هي خاتمة الماضي، وفاتحة المستقبل. إنك تراهم بعين بصيرتك، في كل مواقفها ومواقعها، وإذا استطعت أن تنفذ بعين بصيرتك في مواطن الأشياء، رأيت على نور الثورة الساطع أن ديدور كان واقفاً وراء دانتون، وروسو وراء روبسبير، وفولتير وراء ميرابو، ووجدت أبطال الثورة صنعة أبطال الفلسفة.^٣

إن الكلمة الأخيرة التي أنطق بها في هذا الموقف العظيم، هي دعاء المجتمع البشري إلى التقدم بهدوء وسكون، وثبات ووقار.

ولقد وجد الحق ضالته التي كان ينشدها، وهي الإخاء الإنساني والتعارف النفسي، فمن العبث أن تشغل القوة بعد ذلك مكاناً في هذا المجتمع، فإن فعلت كان أليق الأسماء بها اسم الاستبداد.

إن المجتمع الإنساني أنكر على القوة حقها المزعوم، وضاق صدره بجرائئها وآثامها، فقاضاها بين يدي الحق، وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه، ف قضى عليها ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

شف ثوب الرياء عما تحته، وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فأصبح الأبطال والمجرمون في نظر الإنسانية سواء؛ لأنهم جميعاً يسفكون الدماء.

^٣ دانتون، وروبسبير، وميرابو: أبطال الثورة الفرنسية.

هدم التمدين تلك القاعدة الفاسدة: وهي أن الجرم العظيم أصغر من الجرم الصغير، فأدرك الإنسان أن قتل الشعوب أكبر إثماً، وأعظم جريمة من قتل الأفراد، واستكبر أن يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقة عاراً، وبالجمله: عرف أن الجريمة جريمة، حيثما حلت، وفي أي مظهر ظهرت، وأن القاتل لا يغني عنه من الله شيئاً أن يسمى القيصر أو يدعى الإمبراطور. ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء ألبس تاج الملك، أو قلنسوة الإعدام!.

فلنصرح بالحقيقة المقررة الثابتة، ولنحتقر الحرب أشد الاحتقار، إن الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود.

إن منظر الدماء والأشلاء أفزع منظر.

لا يعقل أن يكون الشر طريق الخير، وأن يكون الموت وظيفة الحياة. أيتها الأمهات الجالسات حولي: خففن من أحزانكن فقد أوشكت يد الحرب أن تكف عن اختلاس أفلاذ أكبادكن.

أتشقى المرأة فتلد، ويغرس الزارع فيكسو الأرض بساطها الأخضر، ويجد العامل فيملاً الخزائن فضة وزهبا، ويأتي الصانع بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها، وزهبت لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال؟!.

آه ... إننا لا نستطيع مع الأسف أن نخدع أنفسنا، وننكر أن الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكرر صفوها، وتنقص من سرورها. لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء.

إن الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب لم تزال باقية.

فلنذكر عند ملوك الحرب: فولتير وجان جاك وديدور ومونتسكيو ملوك السلام، ولنوجه وجوهنا إلى تلك الروح العالية، إلى تلك الحياة العظيمة، إلى ذلك الدفين المقدس، إلى فولتير، ولنجنث أمام قبره ضارعين متوسلين، عسى أن يمدنا بروح من عنده، ويهدينا إلى حظيرة السلام المقدسة، فإنه وإن مر قرن على موته لم يزل في الأحياء الخالدين.

لنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عالٍ: كفى كفى إنها همجية، إنها وحشية، إنها تشوه وجه المدنية الجميل. إن أسلافنا من الفلاسفة رسل الحق إلى البشر.

فلنضرع إليهم في تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل وقوعها، وينادوا: إن الحياة ملك الإنسان، وعزيز عليه أن تسلب منه، وإن التمتع بالحرية حق من حقوق العقول والأفكار، فلا يعترض سبيلها معترض.
إن النور لا أثر له بين أضواء القصور، فلنطلبه بين ظلمات القبور.

الفصل السابع والأربعون

العلماء والجهلاء

لا تحسبن أن الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا ترام، أو أن بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم الذي يتصوره الناس عندما يرون التفريق بينهما، وإنزالهما منازلهما، فالعلماء والجهلاء — إن دقت النظر — سواء لا فرق بينهما إلا أن هؤلاء يعلمون المعلومات منظمة، وأولئك يعلمونها مبعثرة، وأن هؤلاء يحسنون البيان عنها وأولئك لا يبينون.

ومن نظر إلى الأشياء نظرًا نافذًا وجد أن المعاني الصحيحة، والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر والنفع والضرر، والمسائل المنوطة بالإنسان في حياته المادية والمعنوية، يشترك في العلم بها الناس جميعًا عامتهم وخاصتهم، كبارهم وصغارهم، من نشأ تحت سقوف الجامعات ومن عاش تحت سقوف السموات؛ لأن العلم ينبوع يفور من الداخل، لا سيل يتدفق من الخارج؛ ولأن المعلومات كامنة في النفوس كمون النار في الزند، والقوة في المادة، وما وظيفة العلم إلا استثارتها من مكانها، وبعثها من مراقدها. وآية ذلك أنك لا تجد حكمة من الحكم التي يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر علمهم وآية فضلهم، إلا وترى في ألسنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها، كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الأدب، ولا قضية من قضايا الأخلاق التي تعدها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلام، إلا وهي ملقاة تحت أقدام العامة، ومذلة بين أيدي الغوغاء والأमीين.

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول في خواطرهم ويهيجس في ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبة منظمة لما خيل إليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاً ما عجيباً، أو معنى غريباً.

ليس هذه الغبطة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون أحاديث الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون، أو أدركوا ما لا عهد لهم به من قبل؛ بل لأنهم ظفروا بمن يترجم عن أفكارهم، ويجمع لهم شتات المعاني المبعثرة في أنحاء أدمغتهم؛ ولأنهم وجدوا في أنفسهم لذة الأئس بأفكار تشابه أفكارهم، وآراءهم.

ولا أخشى بأساً إن قلت: إن علم العامة أفضل من علم الخاصة؛ لأنه أولاً علم خالص من شائبة التكلف والتعمل، حتى إنك لتجد في بعض الأحياء بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك التكلّي لغرابته وشذوذه، وما يترفع أضيق العامة ذهنًا وأضعفهم فهمًا أن يجعل له شأنًا، أو يقيم له وزنًا؛ وثانيًا: لأنه يعلق بالذات ويتغلغل بين أطوائها تغلغلًا تظهر آثاره على الجوارح، وكثيرًا ما تجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه، وإن كان صحيحًا ما يقولون من أن العلم ما ينتفع به صاحبه فكثير من الجهلاء أعلم من كثير من العلماء.

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء، ولا تنظر إليهم نظرًا يملأ قلبك رهبة ولا تغلّ في احتقار الجهلاء وازدراء العامة والدهماء ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الألقاب.

إن في اختفاء الحقائق الكونية وتنكرها، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه، وتفرقه مذاهب وشيعة، وركوب كل فريق رأسه، وهيامه على وجهه، ووقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق ورؤوس المسالك حيارى — ينشدون فلا يجدون، ويجدّون فلا يصلّون — لدليلًا على أن الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأسماء بلا مسميات، وأن حقائق الأشياء وأسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها واحتجنها من دون عباده، ولم يمنحهم إلا بلة تزيدهم وجدًا كلما وجدوا بردها وتملأ قلوبهم شوقًا كلما تذوقوا طعمها.

ضربك في بني الدنيا كثير وعز الله ربك من ضريب
وما العلماء والجهلاء إلا قريب حين تنظر من قريب

الفصل الثامن والأربعون

الرجل والمرأة

سيدي المحترم

لا تعجب إن رأيت إعجابي بك ظاهرًا في كل سطر من سطور كتابي هذا،
فإنما أنطق بلسان كثير من العقلاء، الذين يحبونك حبًّا جمًّا، ويعتقدون أنك
فريد في أدبك، فريد في قلمك، فريد في تسامحك وتساهلك؛ لذلك أردنا أن
نوجه إليك السؤال الآتي راجين منك الإجابة عليه:
لماذا نرى الهيئة الاجتماعية تحكم على المرأة الفاسقة حكمًا صارمًا
فتنبذها وتحتقرها، ولا تحكم على الرجل الفاسق مع أن جريمتها واحدة؟
هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه، والسلام.

«سائل»

يعتقد كثير من الناس أن الرجل والمرأة سواء في الذكاء والعقل، وعندي أنهم أصابوا في
الأولى وأخطأوا في الأخرى.

تستطيع المرأة أن تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة، ولا تستطيع أن
تجاريه في الأناة والرفق وامتلاك هوى النفس، والأخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعمًا
تحب.

تستطيع المرأة أن تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والأطوار، وأن تستخرج كما
يستخرج المجهولات من المعلومات، ولكنها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع؛
لأن بين جنببيها نفسًا غير نفسه، وهوى غير هواه؛ ولأن لها قلبًا صغيرًا لا يقوى على
احتمال ما يحتمله عقله الكبير.

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه. وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلها، فما وقفت معه في موقف إلا سقطت بين يديه عجزاً وضعفاً. لأنه يعرف السبيل إلى قلبها. ولا تعرف السبيل إلى عقله.

لا تعجب إن قلت لك إن الذكاء غير العقل، فاللصوص والمحتالون والمزورون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكىء. وليس بينهم عاقل واحد. لأنهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك، من حيث لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئاً. وكثيراً ما يكون الذكاء السديد داعية الجنون، حتى إنك لا تكاد ترى ذكياً من الأذكىء، إلا وترى له في شؤون وأطواره أحوالاً شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل. ولا قاعدة من قواعد الطبيعة. وعندي أن أكثر ما يصيب النواصب والأذكىء من بؤس العيش وسوء الحال عائد إلى ضعف في عقولهم. ونقص في تصوراتهم، وبعد. فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد الشجاع. وكثيراً ما يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه إذا كان طائشاً أهوج لا يملك نفسه في مواقف الحزن أو الغضب.

فما يغني المرأة ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرفها ويمسك بيدها أن تعثر في عدوها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة.

سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن. ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهان قاطع ليس في استطاعتهم أن ينازعني فيه مع شدة ذكائهم. ولا في استطاعة أنصارهم من الرجال أن ينقضوه. ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

لولا أن الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان. وذلك الغلب. ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقاد الجنيب^١ ولا أن يملك عليها أمر فقرها وغناها وحبسها وإطلاقها وحجابها وسفورها ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى في نفسها قوة لدفعها، والخروج عليها.

القوي يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شيء حتى نفسه وهواه، وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان، وشأن الرجل مع المرأة.

الإنسان نوع من أنواع الحيوان، لم يكن في مبدأ خليقته خيراً منها في شأن من شؤون الحياة، ولكنه كان أوفر منها عقلاً وأوسع حيلةً، فما زال يطلب لنفسه الغاية التي تناسب استعداده وفطرته، حتى أصبح سيد الحيوان فمدن المدن ومصر الأمصار،

^١ الجنيب: المهر الذي يقاد إلى مهر آخر.

وشاد وبني، وتأنق وترّفه، ثم طرد صاحبه إلى الصحاري والرمال، ورؤوس الجبال، يأكل بعضه بعضاً، ويتفانى شقاء وجهلاً، والرجل أخو المرأة وقسيمها في الرحم والمهد، والأبوة والأمومة، والقومة والقعدة، والنومة واليقظة، ولكنه وجد في نفسه فضلاً عليها في قوة العقل والتدبير. وكان ظالماً خشن النفس قاسي القلب فأبى إلا أن يأسرها ويغلبها على أمرها، ويملك عليها جسمها ونفسها، فتم له ما أراد.

ملك عليها جسمها لأنه حجبها عن النور والهواء فأذعنت. وملك عليها نفسها لأنه ألقى في روعها أن ذنبها في جريمة الفسق المشتركة بينه وبينها أكبر من ذنبه، وأن جنايتها ضعف جنايته فصدقت، وطلب منها أن تسلم إليه الأمر في تدبير شؤونها والتصرف بأموالها فسلمت. وأصبحت تنتظر إلى هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها، والاعتبارات الفاسدة التي اعتبرها معها، كما ينظر إليها هو بعين الإجلال والإعظام.

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه، فإذا سقطت هاج المجتمع الإنساني عليها رجاله ونسأؤه. وملاً قلبها هولاً ورعباً وأوسع نفسها تقريراً وتأنيباً من حيث لا تصبر على شرارة واحدة من هذه النار المتأججة. لأنه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة. وما كان له أن يقصر في ممالأة نفسه ومحاباتها؛ لأنه شره طماع محب لذاته، ولا أن يعدل في القضاء في قضية هو الخصم فيها والحكم؛ لأنه ظالم جبار.

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل، لاستطاعت هي أن تحجبه في المنزل، وأن تتولى التصرف في شأنه، وأن تعبت بعقله ما شاءت، فتعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه، وأن تنفذ إلى قلبه فتلعب به لعب الصبي بالكرة، وأن تحدّثه فيصدق، وتأمّره فيأتمر. وأن تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد.

لا أريد أن أقول: إن هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبتها على حقها، بل أريد أن أقول: إن هذا الفرق بينهما هو سبب ذلك السلطان القاهر. والحكم الجائر.

وجملة القول: أن حكم المجتمع الإنساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكم ظالم، ولو أنه أنصفها لعرف فرق ما بينهما في القوة العقلية، فجعل عقاب الرجل القوي المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة. ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون؛ ولأن نساءه ساذجات بسيطات، يصدقن الرجال في أقوالهم، وينظرون إلى المستحسنات والمستهجنات بأنظارهم، فإن أردنا أن نتال المرأة حقها من الرجل،

وأن تنتصف منه. فليس سبيلها إلى ذلك المغالبة والمصارعة، فإنها أضعف منه جسمًا وعقلًا، بل السبيل إليه أن نعلمها لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه، وكيف تحمله على إجلالها وإعظامها، وأن تعلمه ليستطيع أن يكون شخصًا كريمًا، وإنسانًا رحيماً.

الفصل التاسع والأربعون

الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعيًا إلى ترك ضلالة من الضلالات أو بدعة من البدع، إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها، ولا يخبو أوارها حتى تهلك، أو يهلك دونها.

ليس موقف الجندي في معترك الحرب بأخرج من موقف المرشد في معترك الدعوة، وليس سلب الأجسام أرواحها، بأقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها. ولا يضمن الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات، وإنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم إلى اليوم إلا حماية للمذاهب وذوداً عن العقائد.

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها؛ لأنهم يحاولون أن يرزءوها في ذخائر نفوسها، ويفجعونها في أعلاق قلوبها.

الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة، حتى يبلغوا الغاية التي يريدونها أو يموتوا في طريقها. الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة أو جهلة، أو زنادقة أو ملحدين، أو ضالين، أو كافرين؛ لأن ذلك ما لا بد أن يكون.

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمداً ﷺ عاش بين أعدائه ساحراً كذاباً، ومات سيد المرسلين، وأن الإمام الغزالي عاش بالكفر والإلحاد ومات حجة الإسلام، وأن ابن رشد عاش ذليلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه، ومات فيلسوف الشرق، فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياء وأمواتاً.

سيقول كثير من الناس: وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظناً، ولا تسمع له قولاً، إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس.

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين، وهذا هو الداء الذي أَلَمَّ بنفوس كثير من العلماء فأمسك ألسنتهم عن قول الحق، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والإرشاد، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون، فجمدت الأذهان، وتبدلت المدارك، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس، ولا ينفذ إليه الهواء.

الجهل غشاء سميك يغشى العقل، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً. فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها، حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نوراً، والألم لذة وسروراً.

لا يستطيع الباطل أن يصصر الحق في ميدان؛ لأن الحق وجود، والباطل عدم، إنما يصصره جهل العلماء بقوته، ويأسهم من غلبته، وإغفالهم النداء به والدعاء إليه. محال أن يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد، وإنما يهدمه أفراد متعددون، في عصور متعددة، فيهزه الأول هزة تباعد ما بين أحجاره، ثم ينقض الثاني منه حجراً، والثالث آخر، وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر.

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء، ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحي فراراً من إزعاج المريض، أو خوفاً من صياحه وعويله، أو اتقاء لسبه وشتمه، فإنه سيكون غداً أصدق أصدقائه وأحب الناس إليه.

وبعد: فقليل أن يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيباً إليها إلا إذا كان خائناً في دعوته، سالماً سبيل الرياء والمداهنة في دعوته، وقليل أن ينال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة الدواء ثم تشعر بجلوة الشفاء.

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء، وكظة^١ الأرض والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داعٍ واحد؛ لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد.

أصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء الجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق، وكلهم يعظون وينصحون، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر،

^١ الكظة: البطنة.

ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل في سبيل الدعوة ضرًا، أو يلاقي في طريقها شرًا.

رأيت الدعاة في هذه الأمة أربعة: رجلًا يعرف الحق ويكتمه عجزًا وجبنًا، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر، ورجلًا يعرف الحق وينطق به ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته، فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها، وكان خيرًا له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المر في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراجه، ورجلًا لا يعرف حقًا ولا باطلًا، فهو يخطب في دعوته خبط الناقة العشواء في بيدائها، فيدعو إلى الخير والشر والحق والباطل والضرار والنافع في موقف واحد، فكأنه جواد امرئ القيس الذي يقول فيه:

مَكْرٌ مَقْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا

ورجلًا يعرف الحق ويدعو الأمة إلى الباطل دعوة المجد المجتهد، وهو أخبث الأربعة وأكثرهم غائلة؛ لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الأمة في سبيله، فهو عدوُّها في ثياب صديقها؛ لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد. فليت شعري من أي واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدًا وهداها؟! ما أعظم شقاء هذه الأمة وأشدّ بلاءها، فقد أصبح دعائها في حاجة إلى دعاة، ينبرون لهم طريق الدعوة، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها. فليت شعري متى يتعلمون، ثم يرشدون؟

الفصل الخمسون

الحياة الذاتية

أكثر الناس يعيشون في نفوس الناس أكثر مما يعيشون في نفوس أنفسهم أي إنهم لا يتحركون ولا يسكنون، ولا يأخذون ولا يدعون إلا لأن الناس هكذا يريدون. حياة الإنسان في هذا العالم حياة ضمنية مدخلة في حياة الآخرين، فلو فتش عنها لا يجد لها أثرًا إلا في عيون الناظرين، وأذان السامعين، وأفواه المتكلمين.

يخيل إلي أن الإنسان لو علم أن سيصبح في يوم من أيام حياته وحيدًا في هذا العالم لا يجد بجانبه أذنًا تسمع صوته، ولا عينًا تنظر شكله، ولا لسانًا يردّد ذكره، لآثر الموت على الحياة علّه يجد في عالم غير هذا العالم — من أذان الملائكة أو عيون الجنة — مقاعد يقتعدها فيطيب له العيش فيها.

إذا كانت حياة كل إنسان متلاشية في حياة الآخرين، فأني مانع يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكررة متعددة، إنما هي حياة واحدة يتفق جوهرها، وتتعدد صورها، كالبحر المائج نراه على البعد فنحسبه طرائق قَدَدًا، ونحسب كل موجة من أمواجه قسمًا من أقسامه، فإذا دنونا منه لا نرى غيره، ولا نجد لجزء من أجزائه حيزًا مستقلًا، ولا وصفًا ثابتًا.

لا يحيا في هذا العالم حياة حقيقية، إلا ذلك الشاذّ الغريب في شؤونه وأطواره وآرائه وأعماله، الذي كثيرًا ما نسفيه مجنونًا، فإن رضينا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفًا، ونريد بذلك أنه نصف مجنون، فهو الذي يتولى شأن الإنسان، وتغيير نظاماته وقوانينه، وينتقل به من حال إلى حال بما يغير من عاداته ويحوّل من أفكاره.

أية قيمة لحياة امرئ، لا عمل له فيها إلا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناس، فيأكل ما لا يشتهي، ويصدف نفسه عما تشتهي، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر، وينام حيث لا يطيب له المنام، ويلبس من اللباس ما يحرج صدره، ويقصم

ظهره، ويشرب من الشراب ما يحرق أمعائه، ويأكل أحشاءه، ويضحك لما يُبكي ويبكي لما يُضحك، وبيتسم لعدوه، ويقطب في وجه صديقه، وينفق في دراسة ما يسمونه علم السلوك — أي علم المداينة والملق — زمنًا لو أنفق عشر معشاره في دراسة علم من العلوم النابغة لكان نابغته المبرز فيه حرصًا على رضا الناس، وازدلافًا إلى قلوبهم.

ليست شهوة الخمر من الشهوات الطبيعية المركبة في غرائز الناس فلو لم يذوقوها لما طلبوها ولا كلفوا بها، وما جناها عليهم إلا كلف تاركها برضاء شاربها، وما كان الترف خلقًا من الأخلاق الفطرية في الإنسان ولكن كلف المتكشفون برضاء المترفين فترفوا، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه وأثقال الحياة وأعبائها، ما نغص عليهم عيشهم وأفسد عليهم حياتهم، وإنك لترى الرجل العاقل الذي يعرف ما يجب ويعلم ما يأخذ وما يدع، يبيع منزله في نفقة عرس ولده أو ابنته، فلا تجد لفعله تأويلًا إلا خوفه من سخط الناس واتقاه مذمتهم، وكثيرًا ما قتل الخوف من سخط الناس والكلف برضاهم ذكاء الأذكاء، وأطفأ عقول العقلاء، وكم رأينا من ذكي يظل طول حياته خاملاً متلففًا لا يجرؤ على إظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافة هزاء الناس وسخريتهم، وعقل لا يمنعه من الإقدام على إصلاح شأن أمته وتقويمها إلا سخط الساخطين ونقمة الناقمين.

وما أعجبت برجل في حياتي إعجابي بأديب من أدباء هذه الأمة يكتب الرسالة التي يريد كتابتها بينه وبين نفسه ثم يدي بها إلى صحيفة من الصحف أية كانت ثم يمضي لسبيله كأنه ما صنع شيئًا، فلا يسير وراءها سير المتسمع المتجسس ليعلم ما رأي الناس فيها، وما حديثهم عنها، وهل سخطوا عليها، أو رضوا بها؟ ولا يسمي متنقلًا في الجامع والأندية، مسائلًا عنها كل غادٍ ورائح، ليجد خيرًا فيضحك ويستبشر، أو شرًا فيبكي وبيتس، بل كثيرًا ما رأيته يسمع حديث الناس عنه في حالي رضاهم وسخطهم ساكنًا هادئًا، كأنما يتحدثون عن غيره، ويعنون شخصًا سواه، حتى كدت أتخيل ألا فرق عنده بين: أحسنت وأجدت، وأسأت وأخطأت، بل قلما رأيته على كثرة لصوقي به، وتفقدي مواقع سمعه وبصره يقرأ ما تكتبه الصحف عنه، وما تعلقه غلو آرائه وأفكاره، من مدح أو ذم، حتى كدت أحمل تلك الحال الغريبة من أمره على البله والغفلة، أو العظمة والكبرياء، لولا أنني فاتحته مرة في ذلك وسألته: لم لا تحفل برأي الكتّاب فيك، ولم لا تقر ما يكتبون عنك؟ فأجاب: إنني ما أقدمت على الكتابة للناس في إصلاح شؤونهم، وتقويم معوجّهم، إلا بعد أن عرفت أنني أستطيع أن أنزل منهم منزلة

المعلم من المتعلم، للناس خاصة وعامة، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم، ولا علاقة لي بهم، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم، فلا أفرح برضاهم، ولا أجزع لسخطهم؛ لأنني لم أكتب لهم، ولم أتحدث إليهم، ولم أشهدهم أمري، ولم أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطيع أن أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خير أو شر؛ لأنني راضٍ عن طريقتي التي أكتب بها رسائي، فلا أحب أن يكدرها عليّ مكدر، وعن آرائي التي أودعها إياها، فلا أحب أن يشككني فيها مشكك، ولم يهيني الله من قوة الفراسة ما أستطيع أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم، فاقبل على الأول لأستفيد علمه، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه، فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها في ساعة محدودة، ثم علم أن على يمين الطريق الذي يسلكه روضة غناء تعتنق أغصانها وتشتجر أفنانها وتغرد أطيافها وتتألق أزهارها، وأن على يساره غابًا تزار أسوده وتعوي ذئابه، وتفتح أفاعيه وصلاله، فمشى قدمًا لا يلتفت يمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره، ولا يسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية والصلال الناشرة فتعترض دون طريقه، وأما عامتهم: فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب وسلامة الوجدان ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه؛ فأنا أحمد الله في أمره، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه، ولا يسمع إلا ما يطربه، فأكل أمره إلى الله وأستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل له من بعد عسر يسرًا، فأنا إنما أكتب للناس لا لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت، بل لأجد في نفوسهم أثرًا مما كتبت، فلو أن هذه الملايين الاثني عشر التي يحتضنها هذان الجبلان أجمعت أمرها على الإعجاب بي والرضا عني، ثم رأيت من بينها رجلًا واحدًا ينتفع بما أقول، لكان الواحد المستفيد أثر في نفسي من الملايين المعجبين، أتدري لم عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها؟ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى اليوم طلبة يتعلمون في مدارسهم، وأنهم جالسون بين أيدي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان، فترى واحدًا منهم يكتب وهمه المالى قلبه أن يعجب اللغويين، أو يروق المنشئين، أو يطرب الأدباء، أو يضحك الظرفاء، ولا يدخل باب أغراضه ومقاصده أن يتفقد المسلك الذي يجب أن يسلكه إلى قلوب الذين يقول إنه يعظهم أو ينصحهم أو يهذبهم أو يثقفهم؛ ليعلم كيف ينفذ إلى نفوسهم، وكيف يهجم على قلوبهم وكيف يملك ناصية عقولهم، فيعدل بها عن ضلالها إلى هداها، وعن فسادها إلى صلاحها، فمثله كمثل الفارس الكذاب الذي تراه حاملاً سيفه كل يوم إلى

الجوهري ليرصع له قبضته أو الحداد ليشحذ له حدّه، أو الصقيل ليجلو له صفحته، ولا تراه يوماً في ساحة الحرب ضارباً به.

نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهباً من مذاهب الخير وطريقاً من طرق الهداية للضالّ عنها لو أنّ الفضيلة هي الخلق المنتشر فيهم، والغالب على أمرهم، ولو كان الأمر كذلك لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي، لا من حيث تشخيصها في أذهان الناس وقولهم، فإذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت مستقرها من نفسه جعلها ميزاناً يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وأفعالهم، ثم لا يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه، أحبوه أم أبغضوه، فإنما يبكي على الحب النساء.

الفصل الحادي والخمسون

العبرات

كنت أغبط نفسي على التجلد والصبر، وأحسبني قادرًا على الاستمسك في كل رزء مهما جَلَّ شأنه، وعظم وقته، فلما مات «مصطفى كامل» علمت أن من الرزايا ما لا يطاق احتماله، ولا يستطيع تجرعه.

كل يوم نرى الموت، ولا نزال نعد الموت غريبًا، هيهات! لا غرابة في الموت، ولكن الغريب موت الرجل الغريب.

كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نأبه لها، وأكبر نصيبها منَّا الحوقلة والاسترجاع، فلما مرت قافلة «مصطفى كامل» دهشنا وجزعنا؛ لأنه كان غريبًا في حياته، فأحرى أن يكون غريبًا في مماته.

مات «مصطفى كامل» فعرفنا الموت، وما كنا نعرفه قبل ذلك؛ لأننا ما كنا نرى إلا أمواتًا ينقلون من ظهر الأرض إلى بطنها، أما «مصطفى كامل» فكان حيًّا حياة حقيقية، فكان موته كذلك.

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئًا إذا بذلوا لذلك الرجل العظيم قطرة من المداد، ولا الباكون أنهم أبلوا بلاءً حسنًا إذا بذلوا له قطرة من الدمع، فإنه كان يبذل لهم ماء حياته قطرة فقطرة حتى أفناه، ومضى لسبيله وشتان ما بين صنيعهم وصنيعه. أين قطرات الدموع التي يريخ بها الباكون أنفسهم، أو قطرات المداد التي يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم، من قطرات الحياة التي أراقها «مصطفى كامل» في سبيل وطنه وأمته؟

كان «مصطفى كامل» سراجًا كبير الشعلة، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيتة وشيغًا، وتحترق ذبالته، فينطفئ نوره.

كان «مصطفى كامل» نشيطًا سريع الحركة فقطع جسر الحياة في لحظة واحدة.

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون، فلما صاح «مصطفى كامل» وأسمع في صياحه عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهوري، ولولاه ما كانوا يعرفون. كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسئون الظن به، فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال «فولتير، وهوجو، وغاريبالدي، وواشنطن» فلما نبغ بينهم «مصطفى كامل» عرفوا أن تربة الشرق لا تختلف كثيرًا عن تربة الغرب لو تعدها الزارعون. كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقار يضرب بها على أوتار القلوب، وكأنما كان بينه وبينها سلك كهربائي، فهي تتحرك بحركته وتسكن بسكونه. ما كان «مصطفى كامل» أذكي الناس، ولا أعلم الناس، ولا أعقل الناس، ولكنه كان أشجع الناس.

كان يفكر فيقتنع فيصمم فيمضي فلا ينتهي حتى الموت، كان يخطئ أحيانًا في اتخاذ الوسائل إلى آماله، ولكنه كان إذا اتخذها لا يتمهل ريثما يتبين أي طريق يأخذ، ولا أي مسلك يسلك، مخافة أن تفرط همته بين الأخذ والرد، فيكون خطؤه في ترده أكثر من خطئه في جهاده.

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش ويقولون له: إنك مخطئ أو مضر، أو غير محسن، أو غير عظيم، فما كان يصدق من ذلك شيئًا، كأنما كان ينظر بعين الغيب إلى هذا اليوم الذي اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه، وخصومه وأولياؤه، على أنه رجل عظيم. ما كان «مصطفى كامل» من الأغنياء، ولا من بيت الملك، وما كان أمرًا ولا ناهيًا، ولا رافعًا ولا خافضًا. ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته. ما لم يلق واحد من هؤلاء، ولا فضل لهم في ذلك عليه، فهو الذي علمهم كيف يحترمون العقول، ويجلون المناقب والمزايا.

فيا أيها القارئ الكريم: إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلًا فاجعل بين يديه حياة «مصطفى كامل» ليتعلم منها الشجاعة والإقدام.

ويا أيها المصري: كن أحرص الناس على وطنيتك. ولا تبغ بها بدلًا من عرض الدنيا وزخرفها. فإنك إن فعلت كنت «مصطفى كامل».

ويا أيها الإنسان: أقدم على عظام الأمور، ولا تلتفت يمنة ولا يسرة واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعارضين والناقمين والهازيين والساخرين فإنهم سيعترفون بفضلك، ويسمونك عظيمًا كما سمو «مصطفى كامل».

ويا أيها الراحل المودع: إن بين جنبي لوحة تعتلج لفراقك لا أعرف سبيلًا إلى التعبير عنها إلا القلم.

وهأنذا أعالج القلم علاجًا شديدًا على أن يسعفني بحاجتي، وأقلبه ظهرًا لبطن، وأكثر من استمداده، وأضغط به على القرطاس ضغطًا شديدًا، فلا أراه يغني عني شيئًا.

خطر لي أن الحزن سويداء القلب، وأنه بعيد الغور ولا تبلغه هذه الأداة القصيرة التي في يدي، فاستبدلت بها أداة أطول منها، فكان حكمها حكم سابقتها.

إذن كيف أعبر عن وجدي أيها الفقيد الكريم، وقد خرس القلم وعي اللسان؟

الآن عرفت السبيل ووصلت إلى ما أريد.

أنت الآن في عالم الأرواح. وقد انكشف لك كل شيء من أسرار النفوس ودخائل القلوب، ولا بد أن يكون قد انكشف لك ما يكن قلبي من الوجد عليك. والأسف على فراقك. فما حاجتي بعد ذلك إلى ترجمة القلم أو تعبير اللسان.

أيها الراحل المودع: طبت حيًا وميتًا، خدمت أمتك في حياتك وبعد مماتك، ولولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية في نفوس المصريين، ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة وهي حب الوطن وحب رجاله العاملين.

الفصل الثاني والخمسون

دمعة على الإسلام

كتب إليَّ أحد علماء الهند كتابًا يقول فيه: إنه اطلع على مؤلَّف ظهر حديثًا بلغة «التاميل» وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس. موضوعه: تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني، وذكر مناقبه وكراماته، فرأى فيه من الصفات والألقاب التي وصف بها الكاتب السيد عبد القادر ولقبه بها صفاتًا وألقابًا هي بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوَّة. فضلًا عن مقام الولاية كقوله: «سيد السموات والأرض» و«النفاع الضرار» و«المتصرف في الأكوان» و«المطلع على أسرار الخليقة» و«محيي الموتى» و«مبْرِئ الأعْمى والأبرص والأكمه» و«أمره من أمر الله» و«ماحي الذنوب» و«دافع البلاء» و«الرافع الواضع» و«صاحب الشريعة» و«صاحب الوجود التام» إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب!

ويقول الكاتب: إنه رأى في ذلك الكتاب فصلًا يشرح فيه المؤلَّف الكيفية التي يجب أن يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني، يقول فيه: «أول ما يجب على الزائر: يتوضأ وضوءًا سابغًا، ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار، ثم يتوجه إلى تلك الكعبة المشرفة. وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول:

«يا صاحب الثقلين. أغثني وأمدني بقضاء حاجتي. وتفرّج كربتي. أغثني يا محي الدين عبد القادر. أغثني يا ولي عبد القادر. أغثني يا سلطان عبد القادر. أغثني يا بادشاه عبد القادر. أغثني يا خوجة عبد القادر».

«يا حضرة الغوث الصمداني، يا سيدي عبد القادر الجيلاني، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة».

ويقول الكاتب أيضًا: إن في بلدة (ناقور) في الهند قبرًا يسمى «شاه الحميد» وهو أحد أولاد السيد عبد القادر — كما يزعمون — وإن الهنود يسجدون بين يدي ذلك

القبر سجودهم بين يدي الله. وإن في كل بلدة من بلدان الهنود وقراها مزارًا يمثل مزار السيد عبد القادر. فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد والملجأ الذي يلجأون في حاجاتهم وشدائدهم إليه. وينفقون من الأموال على خدمته وسدنته. وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعًا لصاروا أغنياء.

هذا ما كتبه إليّ ذلك الكاتب. ويعلم الله أنني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء، وأظلمت الدنيا في عيني. فما أبصر ممّا حولي شيئًا. حزنًا وأسفًا على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوام أنكروه بعدما عرفوه، ووضعوه بعدما رفعوه. وذهبوا به مذاهب لا يعرفها. ولا شأن له بها.

أي عين يجمل بها أن تستبقي في محاجرها قطرة واحدة من الدمع فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن، منظر أولئك المسلمين، وهم رُكَّعٌ سُجَّدٌ على أعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه في حياته. فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته! أي قلب يستطيع أن يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة فلا يطير جزعًا حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر من المشركين إشراكًا بالله، وأوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات!

لِمَ ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين. لِمَ يحملون لهم في صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن، وعلام يحاربونهم، وفيهم يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم، ولم يغرقوا فيه إغراقهم؟!

يدين المسيحيون بالهة ثلاثة، ولكنهم يشعرون بغربة هذا التعدد وبعده عن العقل. فيتأولون فيه ويقولون إن الثلاثة في حكم الواحد، أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهة أكثرها جذوع أشجار، وجثث أموات، وقطع أحجار، من حيث لا يشعرون!. كثيرًا ما يضمّر الإنسان في نفسه أمرًا وهو لا يشعر به، وكثيرًا ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتغال نفسه عليها، ولا يرى مثلًا لذلك أقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور ويتضرعون إليهم تضرّعهم للإله المعبود فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب، قالوا: إننا لا نعبدهم، وإنما نتوسل بهم إلى الله، كأنهم يشعرون أن العبادة ما هم فيه، وأن أكبر مظهر لألوهية الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين، يلتمسون إمداده ومعونته، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون.

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية، وليعتق رقابهم من رِقِّ العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم،

ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل. وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أنفة وعزة وإباء وغيره، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده غيرها سلطانه: قف مكانك، ولا تغل في تقدير مقدار نفسك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى، فقد ذلت رقابهم، وخفقت رؤوسهم، وضربت نفوسهم، وفترت حميتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين.

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد، وإن طلوع الشمس من مغربها، وانصباب ماء النهر في منبعه، أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده، ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله، ويقولون للأول كما يقول للثاني: «أنت المتصرف في الكائنات، وأنت سيد الأرضين والسموات».

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقوامًا يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهرًا، فإذا نزلت بهم جائحة، أو ألت بهم مُلِمَّة ذكروا الحجر قبل أن يذكره، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه.

بمن أستغيث؟ وبمن أستنجد؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملمة الفادحة! أأدعو علماء مصر وهم الذين يتهافون على «يوم الكنسة»^١ تهافت الذباب على الشراب؟ أم علماء الأستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام ليحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية! أم علماء العجم وهم الذين يحجون إلى قبر الإمام كما يحجون إلى البيت الحرام، أم علماء الهند وبينهم أمثال مؤلف هذا الكتاب.

يا قادة الأمة ورؤساءها، عذرنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها، وقلنا: إن العامي أقصر نظرًا وأضعف بصيرة من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها ماثلة في النصب

^١ يوم يذهب فيه علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعي للتبرك بكنس ترابه.

والتماثيل والأضرحة والقبور، فما عذرکم أنتم وأنتم تتلون کتاب الله، وتقرؤون صفاته ونعوته، وتفهمون معنی قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقوله: مخاطبا نبيه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

إنكم تقولون في صباحكم ومساءلكم وغدوكم ورواحكم: «كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف» فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يجصصون قبرا، أو يتوسلون بضريح؟! وهل تعلمون أن واحداً منهم وقف عند قبر النبي ﷺ، أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته، يسأله قضاء حاجة، أو تفريج هم؟ وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون أن النبي ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثاً ولعباً؟ أم مخافة أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور، ما دام كل منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد؟

والله ما جهلتم شيئاً من هذا، ولكنكم أثرتم الحياة الدنيا على الآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاص أمركم، وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم، ويخربون دياركم، والله شديد العقاب.

الفصل الثالث والخمسون

السياسة

حضرة السيد الفاضل

ما لك لا تكثر من الكتابة في الشؤون السياسية، إكثارك منها في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية؟ وكيف يضيق بالسياسة قلمك، وقد وسع ما هو أدق مذهباً منها، فاكتب لنا في السياسة، فأمتك تحب أن تراك سياسياً، والسلام.
«فلان»

أيها الكاتب:

يعلم الله أنني أبغض السياسة وأهلها بغضي للكذب والغش، والخيانة والغدر. أنا لا أحب أن أكون سياسياً؛ لأنني لا أحب أن أكون جلاًداً، لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد، وأولئك يقتلون الأمم والشعوب. هل السياسي إلا رجل قد عرفت أمته أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقسى منه قلباً، ولا أعظم كيداً، ولا أكثر دهاءً ومكرًا، فنصبته للقضاء على الأمم الضعيفة، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات، وأجزل لها من الخيرات؟ أليس أكبر السياسيين مقاماً، وأعظمهم فخراً، وأسيرهم ذكراً، ذلك الذي نقرأ صفحات تاريخه فنرى حروفها أشلاء القتلى، ونقطها قطرات الدماء؟ أيستطيع الرجل أن يكون سياسياً إلا إذا كان كاذباً في أقواله وأفعاله، يبطن ما لا يظهر ويظهر ما لا يبطن، ويبتسم في موطن البكاء، ويبكي في موطن الابتسام؟ أيستطيع الرجل أن يكون سياسياً. إلا إذا عرف أن بين جنبه قلباً متحجراً لا يقلقه بؤس البائسين ولا تزعجه نكبات المنكوبين؟

كثيراً ما يسرق السارق، فإذا قضى مأربه من عمله. رفع يديه إلى السماء متضرعاً إلى الله تعالى أن يرزقه المال حلالاً حتى لا يتناوله حراماً، وكثيراً ما يقتل القاتل، فإذا فرغ من أمره، جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء الثاكل وحيدها، ويتمنى بجعد الأنف لو رد إليه حياته، وافتداه بنفسه. أما السياسي فلا يرى يوماً في حياته أسعد من اليوم الذي يعلم فيه أن قد تم له تدبيره في هلاك شعب وقتل أمة، وآية ذلك أنه في يوم انتصاره — كما يسميه هو — أو في يوم جريمته — كما أسميه أنا وتسميه العدالة الإنسانية — يسمع هتاف الهاتفين باسمه، واسم الجريمة التي ارتكبها، مطمئن القلب، مثلج الصدر، حتى ليخيل إليه أن الفضاء بأرضه وسمائه أضيق من أن يسع قلبه الطائر المحلق فرحاً وسروراً.

يقولون: إن السياسة ليست علماً من العلوم التي يتلقاها الإنسان في مدرسة أو يدرسها في كتاب، وإنما هي مجموعة أفكار قانونها التجارب، وقاعدتها العمل. أتدري لماذا؟

لأن العلماء أشرف من أن يدونوا المكاييد والحيل في كتاب. ولأن المدارس أجل من أن تجعل بجانب دروس الأخلاق والآداب، دروس الأكاذيب والأباطيل، وإلا فكل طائفة من المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت نظام عام يؤلفها، ويجمع شتاتها، ويسمى علماً.

هؤلاء هم السياسيون، وهذه هي أخلاقهم وغرائزهم، فهل تظن يا سيدي أن رجلاً نصب نفسه لخدمة الحقيقة، ومناصرتها على الباطل، واستنقاذ الفضيلة من مخالب الرذيلة، ووقف قلمه على تهذيب النفوس وترقية الأخلاق. وملاً في رسائله فضاء الأرض والسماء بكاء على الضعفاء والمساكين والمظلومين والمضطهدين، يستطيع أن يكون سياسياً، أو محاسباً للسياسيين؟

الفصل الرابع والخمسون

خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا: إن الكتاب يعرف بعنوانه. فإني لم أرى بين كتب التاريخ أكذب من كتاب «بدائع الزهور» ولا أعذب من عنوانه، ولا بين كتب الأدب أسخف من كتاب «جواهر الأدب» ولا أر من اسمه، كما لم أر بين الشعراء أعذب اسمًا وأحط شعراً من «ابن مليك» و«ابن النبيه» و«الشاب الظريف».

لقد كثر الاختلاف بين العناوين وبين الكتب حتى كدنا نقول: إن العناوين أدل على نقائضها منها على مفهوماتها. وألصق بأضدادها منها بمنطوقاتها، وإن العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل.

الأتقياء:

لولا خداع العناوين ما سمعنا صالحاً تقياً كل من حرك سُبْحته. وأطال لحيته، ووسع جبته، وكوّر عمامته، ولقد نعلم أن وراء هذا العنوان كتاباً أسود الصفحات كثير السقطات، وأن تحت هذا الستار الحريري الرقيق نفساً سوداء مظلمة، لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة، ولا تهبُّ عليها نسمة من نسيمات الإحسان.

لن يؤمن المؤمن حتى يبذل في سبيل الله، أو في سبيل الجماعة من ذات نفسه، أو ذات يده، ما يشق على مثله الجود بمثله، أما الجود بالشفاه للهمهمة، والأنامل للمسبحة، فعمل لا يتكلف صاحبه له أكثر مما يتكلف لتقليب ناظريه، وتحريك هديه، وهل خلقت الشفاه إلا للتحريك، والأنامل إلا للتقليب.

إن للإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فإن بذل الضنين بماله في مواقف الرحمة والشفقة، والشحيح بنفسه نفسه في سبيل الذود عن حوضه. والذب عن عشيرته وقومه. وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيدٍ

في مغالبة شهوات نفسه ومقاومة نزواتها. فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانه رياءٌ ولا دهان، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب أو لا فأهون بهممته ومسواكه ومسبحته، وهو بعنوان المنافق الكاذب أجدر منه بعنوان التقي الصالح ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

الأمجاد:

يقولون إن الولد سر أبيه، ويريدون بذلك أنه المرأة التي ترتسم فيها صورته، والبذرة التي تكمن فيها حقيقته، وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد، فأعظموا شأن الرجل الذي يمسك بطرف سلسلة في النسب يتصل طرفها الأعلى بعظيم من عظماء النفوس، أو شريف من شرفاء الأخلاق.

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف، ويتوسعون في معناه، حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يسمونهم أمراء، والظلمة الذين يسمونهم ملوكًا، والسفاحين الذين يسمونهم قُودًا، واللصوص الذين يسمونهم أغنياء، فساقهم الخطأ في فهم الشرف إلى الخطأ في فهم المجد، فسموا ماجدًا كل من ولد في فراش ملك وإن كان الحاكم بأمر الله، أو أمير وإن كان الحجاج، أو وزير وإن كان ابن الزيات، أو قائد وإن كان تيمورلنك، أو غني وإن كان قارون.

لا مجد إلا مجد العلم ولا شرف إلا شرف التقوى، ولا عظمة إلا عظمة الآخذين بيد الإنسانية المعذبة، رحمة بها وحنانًا عليها.

أولئك هم الأمجاد، وأولئك الذين يفخر الفاخر بالاتصال بهم، والانتماء إليهم، وأولئك هم المفلحون.

الأغنياء:

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الأرض وراء لقمة يتبلغون بها أو خرقة يتقون بها لفحة الرمضاء، وهبة النكباء، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاءً ونحيبًا على صغار كفراخ القطا يتلوون في مضاجعهم من الجوع تلوي الأفاعي المضطربة فوق الرمال الملتهبة وتحت الشمس المحرقة، أسوأ حالًا ولا أنكد عيشًا، ولا أعظم شقاء من هؤلاء الفقراء الذين يسميهم الناس أغنياء.

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير، ويجلس كما يجلس، وينام كما ينام، ويشتهي كما يتشهى حتى لتكاد تثب أوعاءه من جوفه وتسيل أحشائه من بين أشداقه. شوقاً إلى ما حرّم على نفسه من أطايب العيش ولذائذه، ويستن^١ استنان الجواد الضامر في ميدان السبق وراء الدرهم البعيد مناله، حتى تنبهر أنفاسه، وتتخاذل أوصاله، حتى لو تخيل أن نجوم السماء دنائير منثورة، لطار إليها بغير جناح، فسقط هاوياً، أو أن في بطن الأرض كنزاً مذخوراً، لتمنى أن لو انفجر بركانها تحت قدميه فابتلعه فأصبح من الهالكين.

الغني هو الغني بما في يده عما في أيدي الناس، والفقير هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة مقنع، ولا تقف به نفسه عند مطعم.

فانظر تحت أي عنوان من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين؟!

المجرمون:

حضرت مجلساً من مجالس الأحكام، حكم فيه قاضٍ مرتشٍ على متهم سرق رغيّاً، فوضعت يدي على فمي مخافة أن يخرج أمر نفسي من يدي فأهتف صارخاً لما أَلَمَّ بقلبي من الرعب والفرع، صرخة تدوي بها جوانب القاعة دوي الموج التائر في البحر الزاخر، قائلاً فيها: مهلاً رويداً أيها الحاكم الظالم، فأنت إلى قاضٍ عادل تقف بين يديه، أحوج منك إلى كرسي فخم تجلس عليه، ولو عدل القانون بينك وبين هذا المائل بين يديك لبت وأعلاكما الأسفل.

إنك ترتزق في كل شهر ثلاثين ديناراً، فلم ترتش إلا لأنك شره طماع، ولم يسرق ذلك السارق الرغيف إلا لأنه جائع مرتاع، ولو ملك ثلاثين درهماً فقط ما فعل فعلته التي فعل، فأنت مجرم إلا أنك في وشاح شريف، وهو شريف إلا أنه في شملة مجرم. فيا لله للحقيقة التي عبثت بها القوانين، ولعبت بعقول الناس فيها العناوين.

رُبَّ نفس بين جدران السجون أظهر قلباً، وأنقى رداءً، وأبيض عرضاً، من مثلهما بين جدران القصور، ورب طريدة من طرائد المجتمع الإنساني ساقها القدر الذي لا مفر منه إلى وقفة بين أعواد المشنقة، كان أجدر بها ذلك المرابي الذي ينصب حباله ماله

^١ استن الجواد: عدا عدواً شديداً.

لخراب البيوت العامرة، وقتل النفوس الطاهرة، أو ذلك القائد الذي يسفك في موقف واحد من مواقفه دم مائة ألف أو يزيدون، في غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع والفخر الموضوع، أو ذلك السياسي الذي يدبر المكيدة للقضاء على أمة ضعيفة آمنة في سربها، سعيدة في عيشها؛ فيستعبد أحرارها، ويستذل أعزاءها، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها، وسعادتها وهناءتها.

التمدينون:

ليس بين المصري وبين أن يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب العصري أو الإنسان الراقي إلا أن يصقل جبهته، ويصف طرّته، ويفتح فمه للابتسام المتصنّع ويقوِّس يده للسلام المتعمل، ويكثر في حديثه من ذكر المدنية الغربية وشؤونها، وسرد أسماء نسائها ورجالها، وطرفها ونوادرها، ويستحسن ما تستحسنه — وإن كان البراز والانتحار — ويستطرف ما تستطرفه — وإن كان الزندقة والإلحاد — ثم يزعم أنه أرقى الناس أدبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأدقهم نظرًا في إدراك سقطات الناس وعثراتهم، وتحليل طبائعهم وغرائزهم. ثم لا يحول تمدينه هذا بينه وبين أن يكون فاسقًا ينتهك الحرمات أو مدمنًا يترامى على أعتاب الحانات، أو أحمق لا يصفح عن ذنوب، ولا يغضي عن هفوة، وسفيهاً يشتم حتى أميره وسلطان، ووالده وأستاذه، أو وقاح الوجه لا يستحي لمكرمة، ولا يستخذي لمروءة، وشحيحًا لا يشرك صاحبه في مطعم ولا في مشرب، ولا يفتح بابه لضيف زائر أو طارق حائر، زاعمًا أن التمدين شيء وذاك شيء آخر. إن كان حقًا ما يقولون من أن التمدين يصقل الطباع الخشنة، وينير النفوس المظلمة، ويهذب الأخلاق الجافية ويوسع الصدور الحرجة، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون، وكثير ممن نسيمهم همجين مهذبون.

لو كان بي أن أكتب لمحو الفساد من المجتمع الإنساني والقضاء على شروره وآثامه لما حركت يداً، ولا جردت قلماً؛ لأنني أعلم أن طلب الحال عثرة من عثرات النفوس، وضلة من ضلالات العقول، ولكنني أطلب مطلباً واحداً — لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصويره وإدراكه — هو أن يهذبوا قليلاً من هذه المصطلحات التي أنسوا بها والعناوين التي جمدوا عليها، فلا يسمون المنافق تقيًا، ولا المتمجد ماجدًا، ولا البخيل غنيًا، ولا الفقير مجرمًا، ولا المتوحش متمدينًا، حتى لا ينزع محسن عن إحسانه، ولا يستمر مسيء في إساءته.

الفصل الخامس والخمسون

الإغراق

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتاً لا حياة لها من بعده إلى يوم يبعثون.

يسمع السامع أن زيّداً ملك كريم، ثم يسمع أنه شيطان رجيم، فيخرج منه صفرّ اليدين، لا يعلم أين مكانه من هذين الطرفين.

يقولون إن المشعوذين إذا أرادوا أن يسحروا أعين الناس علقوا في سقف من السقوف قطعة من المغناطيس ووضعوا مقابلها في الأرض قطعة أخرى ثم يتركون في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تضطرب بين هذين الجاذبين.

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المغرّقين اضطراب الحديد في أيدي المشعوذين. الحقيقة بين الكاذب والكاذب، كالحبل بين الجاذب والجاذب، كلاهما ينتهي به الأمر إلى الانقطاع.

لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الأشخاص أنه جالس على كرسي القضاء، وأن الناس سيسألونه عمّا قال، كما يسألون القاضي عما حكم، ما طاش سهمه في حكمه، ولا ركب متن الغلو في تقديره.

كما أنه يجب على القاضي أن يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة، كذلك يجب على الكاتب أن يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها، وأن لا يعلو به فوق قدره، ولا ينزل به دون منزلته.

ليس بين كُتّاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ القديم متناقضات الحكم على الأشخاص، وليس بينهم من لم يتمنّ أن يكون في موضع أولئك المؤرخين المتطرفين، حتى لا يغلو غلوهم، ولا يتطرف تطرفهم في أحكامهم.

أيها الكتاب المحزونون: لا يحزنكم ما كان؛ ففضى ذلك الزمان بخيره وشره، ولا سبيل إلى رجوعه، ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الماضي، فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الحاضر، وكما أن للماضي مستقبلاً وهو حاضركم هذا، فسيكون لهذا الحاضر مستقبل آتٍ يحاسبكم فيه رجاله على إغراقكم في أحكامكم، كما تحاسبون اليوم رجال الماضي على غلوهم في أحكامهم، وتطرفهم في آرائهم.

إن من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون.

كل كاتب عندكم أكتب الكتاب وكل شاعر أشعر الشعراء، وكل مؤلف أعلم العلماء، وكل خطيب رئيس الأمة، وكل فقيه إمام الدين، فأين الفاضل والمفضل؟ وأين الرئيس والمرئوس، وكيف يكون زيد اليوم أفضل من عمرو، ويكون عمرو غداً أفضل منه، وأين ملكة التمييز التي وهبكم الله إياها لتمييزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم؟ وهل بلغ التفاوت بينكم في عقولكم وأذواقكم أن يكون الرجل الواحد في نظر بعضكم خير الناس وفي نظر البعض الآخر شر الناس؟!

إني حبست الآن قلmi عن الكتابة لأتجرد من نفسي ساعة من الزمان، فتخيلت كأنني رجل من رجال العصور الآتية، وأني ذهبت إلى دار من دور الكتب القديمة لأراجع تاريخ أحد عظماء عصركم هذا، فقرأت ما كتبتموه عنه في كتبكم وجرائدكم، فرأيت تارة عظيماً وأخرى حقيراً، ومرة شريفاً، ومرة وضيعاً، ورأيت عالماً وجاهلاً، وذكياً وغيباً، وعاقلاً وممروراً^١ في آن واحد فخرجت أضل مما دخلت، لا أعرف من تاريخ الرجل أكثر من أنه رجل، أي إنه ذكر بالغ من بني آدم!

أيها القوم: إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالاً عادلين في أحكامكم وآرائكم، إلا إذا أصلحتم نفوسكم أولاً، وتعلمتم كيف تستطيعون أن تتجردوا من أهوائكم وأغراضكم قبل أن تتناولوا أقلامكم.

أيها القوم: إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين، فكونوا راحمين؛ فارحموا أنفسكم واعفوها من الدخول في مآزق أنتم عاجزون عنها، وارحمونا فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات، وسئمت نفوسنا تلك المبالغات.

^١ الممرور: المصاب بخبل في عقله.

اللقطة

مر عظيم من عظماء هذه المدينة بزقاق من أَرْقَّةِ الأحياء الوطنية في ليلة من ليالي الشتاء ضرير نجمها، حالك ظلامها، فرأى تحت جدار متداعٍ فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء^١ وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء بالعود، وليس في يدها ما تنقيه به إلا أسمال تتراءى مزقها^٢ في جسمها العاري كأنها آثار سياط المستبدين، في أجسام المستعبدين.

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذي تؤله مناظر البؤس، وتزعج نفسه مواقف الشقاء، ثم تقدم نحوها ووضع يده على عاتقها برفق فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة وهمت بالفرار من بين يديه وهي تصيح: «لا أعود. لا أعود» فلم يزل يمسحها^٣ ويروضها حتى هدأ روعها وعاد إليها رشدها وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه، فنظرت إليه نظرة لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواعج الأحزان وكوامن الأشجان.

– ما اسمك أيتها الفتاة؟

– لا أعلم يا سيدي.

– بماذا ينادونك؟

– يدعونني اللقطة.

^١ القرفصاء: أن يحتبي الرجل بيديه، فيضعهما على ساقيه وهو جالس.

^٢ المزق: القطع.

^٣ مسحه: أمرَّ يده عليه.

- وهل أنت لقيطة كما يقولون؟

- نعم يا سيدي؛ لأنني لا أعرف لي أبًا ولا أمًا، في الأحياء ولا في الأموات، سوى رجل يتولى شأني، ويضمني إليه في منزله، وكنت أحسبه أبي فيمتلئ قلبي سرورًا به، وعطفًا عليه، فلما رأيت أنه يعذبني عذابًا أليمًا ويحملني من أثقال الحياة وأعبائها ما لا يحمله الآباء أبناءهم علمت أنني وحيدة في هذا العالم، وفهمت معنى الكلمة التي يناديني بها، فألمّ بنفسي من الحزن والألم ما الله عالم به، وكنت كلما مشيت في الطريق، ورأيت فتاة صغيرة سألتها: ألك أم؟ فتجيبني: نعم، ثم تقص عليّ من قصص نعمتها ورفاهيتها، وعطف أمها عليها، ورأفتها بها ما يزيدي همًا، ويملاً قلبي يأسًا، حتى كان يخيل إليّ أنني أذنبت قبل وجودي في هذا العالم ذنبًا عاقبني الله عليه بهذا الوجود، بيد أنني صبرت على هذا الرجل، وعلى ما كان يكلفني به من التسول على قارعة الطريق؛ إبقاء على نفسي، وضنًا بحياتي، أن تغتالها غوائل الدهر، وكان كلما رأى حاجتي إليه وإلى مأواه، اشتطّ في ظلمي، ولؤم في معاملتي، حتى صار يضربني ضربًا مبرحًا كلما عدت إليه عشاءً بأقل من المبلغ الذي فرض عليّ تقديمه في كل يوم، ولم أزل أصابره وأحتمل منه ما يعجز عن احتماله مثلي برهة من الزمان، حتى جاءني الليلة بداهية الدواهي، ومصيبة المصائب، فقد حاول أن يسلب من بين جنبيّ جوهرة العفاف التي لم يبق في يدي ما يعزيني عمّا فقدته من هناءة الحياة ونعيمها سواها، فلم أرَ بُدًّا من أن أفر من بين يديه متسللة تحت جناح الظلام من حيث لا يراني. وما زلت أمشي على غير هدى، لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطربًا، حتى أويت إلى هذا الزقاق كما تراني. فهل لك يا سيدي أن تحسن إليّ كما أحسن الله إليك؟ وأن تبتاع لي رغيفًا من الخبز أتبلغ به، فقد مر بي يومان لم أذق طعامًا ولا شرابًا؟

لم يسمع الرجل من الفتاة هذه القصة المحزنة حتى استقبلها بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العقد وهي سلكه فانتثر، ثم أخذ بيدها، ومشى بها صامتًا واجمًا يكاد لا يهتدي لسبيله حتى بلغ قصره، وهناك صنع بها صنع الكريم بأهله، وأبلغها من دهرها ما لم تكن تمنى نفسها بالوشل القليل منه، وما هي إلا أيام قلائل حتى ظهرت في ذلك القصر العظيم فتاة جديدة من أجمل الفتيات وجهًا، وأرقهن شمائلًا. وأكرمهن أخلاقًا، وأكملهن آدابًا. لا يعرف الناس عنها سوى أنها ابنة قريب لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة، فكان إلى هذا القصر مصيرها.

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتي رُبِّيَ التربية الحديثة التي يسمونها «التربية العصرية» ويريدون منها التربية الإفرنجية، فكانت كل ما حصلت من العلوم والمعارف والفنون الآتية:

- (١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجي، وكلبها الرومي.
- (٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة.
- (٣) البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس.
- (٤) الكبرياء والعظمة، واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها.
- (٥) الأثرة وحب الذات حباً يملأ قلبها غيرة وحسداً، حتى إنها لا تستطيع أن تسمع وصفاً من أوصاف الحسن يوصف به سواها.

رأت هذه الفتاة اللقطة قد أصبحت تقاسمها قلب أبيها وقلوب زائراتها من النساء بما وهبها الله من جمال في الخلق، وحلاوة في الطبع، وعذوبة في النفس؛ فأضمرت لها في قلبها من البغض والموجدة ما يضره دائماً أمثالها من اللواتي رُبِّيَ تربيتها، ونهجن في الحياة منهجها، فكانت تعتمد إساءتها وازدراءها، وتغري بتبكيتها وتأنيبها، والفتاة لا تبالي بشيء من هذا وفاءً لسيدها وولي نعمتها، وذهاباً بنفسها عن النزول إلى منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات، حتى حدثت ذات يوم الحادثة الآتية:

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي، فبينما هو صاعد في السلم إذ عثر برقعة ملقاة، فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة:

سيدتي

أنا منتظرك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو المعهودة.

«حبيبك»

فما أتم الرجل قراءة الرقعة حتى دارت به الأرض الفضاء، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم هل طار من مكانه أم لا يزال باقياً فيه، ثم كأنه أراد أن يخفف ما ألَمَّ بنفسه من الحزن والقلق فقال: لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقطة، ومن الظلم أن أتعجل باتهام ابنتي قبل أن أقف على الحقيقة، فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة، فرجع أدراجه، وما زال يترفق في مشيته ويتنقل في الحديقة من شجرة إلى شجرة حتى وصل

إلى شجرة اللقاء فكمن وراءها ينتظر ما خبأ له الدهر من حدثائه، وما أضمر له الغيب في طياته.

لم تكن الرسالة رسالة الفتاة الوضيعة، بل رسالة السيدة الشريفة، وبينما كانت الثانية واقفة في غرفتها أمام مرآتها تختار لنفسها أجمل الأزياء وأليقها بمواقف اللقاء، كانت الأولى نائمة في غرفتها نومةً هادئةً مطمئناً لا تزعجه زورة الطيف، ولا تروعه أحلام الشباب، حتى سمعت وقع أقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت، ثم رابها موقفه فأشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كل شيء. وعرفت أن سيدها سيقف على سر ابنته الذي كانت تعالج كتمانها زمناً طويلاً. وأنه لا بد قاتل نفسه في ذلك الموقف حزناً ويأساً. فعناها من أمره ما عناها، ثم أطرقت برأسها لحظة تتلمس وجه الحياة في دفع هذه النازلة، وتطلب المخرج منها، ثم رفعت رأسها، وقد قررت في نفسها أمراً.

نزلت مسرعة من سلم القصر، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها، وأمسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاة والتفتت إليها وقالت لها: ماذا تريد مني؟ أتجسسين علي!! قالت لها: لا يا سيدتي. وأفضت إليها بالقصة من مبدئها إلى منتهاها، فسقط في يدها، وعلمت أن أباه قد وقف على سرها، فقالت لها: لا تزعجي نفسك، فإن أباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب فعودي إلى غرفتك، وسأذهب إلى الموعد مكانك، حتى إذا رأيته هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجه من الشك في أمرك. ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة، وهناك برز الرجل من مكمته، واقترب منها حتى عرفها، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته، ثم قال لها: أيتها الفتاة: إني أحسنت إليك، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء، فأسأت إليّ بما فعلت، حتى كدت الليلة أهلك حزناً وكمدًا، وألصق بابنتي ذنبك وأحمل عليها عارك، فأخرجني من منزلي، فاللئيم ليس أهلاً للإحسان.

فخرجت خائبة تتعثر في أذيالها، حتى وصلت إلى شاطئ النهر، وهناك أخرجت مذكرتها من محفظتها، وكتبت فيها آخر كلمة خطتها أناملها:

«أحمد الله أني قدرت على مكافأة الرجل الذي أحسن إليّ بستر عاره، وإزالة همه وحزنه».

ثم ألقَتْ بنفسها في النهر، وما هي إلا دورة أو دورتان حتى افترق ذاك الصديقان الوفيان، جسمها وروحها، فطفا منهما ما طفا، ورسب ما رسب.

وفي صباح تلك الليلة عثر رجال الشرطة بجثة الفتاة الشهيدة فعرفوها، وعادوا بها إلى منزل سيدها. فبكاهها بكاءً كثيراً وندم على ما أساء به إليها من طردها وإزعاجها، ثم أمر بدفنها، ولم يبق في يده من آثارها غير حقيبتها.

مرت الأيام تلو الأيام، وجاءت الحوادث إثر الحوادث، وظهر للرجل من أخلاق ابنته وطباعها، وتهتكها واستهتارها، ما لم يكن يعرفه من قبل، حتى ضاق بأمرها ذرعاً، وجلس في غرفته في إحدى الليالي يفكر فيما ساق إليه الدهر من خطوبه ورزاياه، ثم ألمَّ به الضجر، فقام إلى صندوقه يفتش عن شيء يتلهى به، فعثر بتلك الحقيبة، ولم يكن قد فتحها قبل اليوم، فإنه ليقراً إذ عثر بتلك الكلمة الأخيرة التي كتبتها الفتاة على شاطئ النهر قبل موتها، فما أتى على آخرها حتى عرف كل شيء فسقط مغشياً عليه يعالج من الحزن والألم ما يعالج المحتضر من سكرات الموت.

وما استفاق من غشيته حتى صار يهذي هذيان المحموم، ولبث على هذه الحال بضعة أشهر، يمرض ثم يبل، ثم يمرض ثم يبل، حتى أدركته رحمة الله فمرض مرضاً لم ينقض إلا بانقضاء أجله.

فيا أيها الوالد المجهول، الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا الوجود الزاخر، أعلمت قبل أن تفعل فعلتك التي فعلت أنك ستبرز إلى هذا العالم فتاة تلاقي شقاءه وآلامه ما لا قبل لها باحتماله؟

ويا أيها الآباء العظماء: إن كنتم تريدون أن تسلموا بناتكم إلى هذه المدنية الغربية تتولى شأنهن، وتكفل لكم تربيتهن، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والإباء والأنفة، حتى إذا رزأكم الدهر فيهن، وفجعكم في أعراضهن وقفتم أمام ذلك المشهد هادئين مطمئنين، لا تتعذبون ولا تتألمون.

ويا أيها الناس جميعاً: لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب، ولا تفرّقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور، ولا تعتقدوا أن الفضيلة وقف على الأغنياء وحبائس على العظماء، فقد علمتم ما أضمر الدهر في طيات أحداثه من رذائل الشرفاء وفضائل اللقطاء.

الفصل السابع والخمسون

الصندوق

حضرة السيد الفاضل

يوجد في ضريح السيد البدوي صندوق توضع فيه النذور، ويبلغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه، فإذا فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء بأخذ نحو الربع مما فيه، والباقي يوزع على أصحاب الأنصبه الكثرين الذين يُعدُّون بالمئات، فهل ترون أن هذه القسمة شرعية، مع أن الذين يأخذون الألوف أغنياء والذين يأخذون الأحاد فقراء؟

أفتنا أيها السيد الفاضل بما يوجب الإنصاف والعدل الديني في هذه المسألة التي أصبحت الشغل الشاغل للكثير من الناس؟

«ابن جلا»

أيها السائل: أراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال كأنك تعتقد أنه ميراث شرعي، وأن لهؤلاء الذين تسميهم أصحاب الأنصبه من الحق في هذا المال مثل ما للوارثين من مال المورثين.

إن الذي أعلمه أن هذا الحق المزعوم حق موهوب، لا يستطيع أن يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية؛ لأن الذين يضعون المال في هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون أن يهبوه أحداً من السدنة والخدم ولو أن ذلك كان غرضهم لوضعوه في أيديهم بدلاً من الصندوق، ولكنهم لما تصوروا أن ذلك الميت حيٌّ في قبره يسمع نجواهم، ويفهم حديثهم، ويلبي دعاءهم، تجسم في نظرهم هذا الخيال، فأرادوا أن يعطوه جميع أحكام الأحياء وصفاتهم حتى حب المال وادخاره، فخيّل إليهم أن الصندوق من الميت بمنزلة

الكيس من الحي، فهم يهبونه المال ويضعونه في صندوقه؛ لأنهم يعجزون عن وضعه في يده.

أما كيفية تصرف الميت بهذا المال، وكيف ينفقه وفي أي شيء ينتفع به، فذلك أمر لا يخطر ببالهم، ولا يدخل في باب مقصدهم وأغراضهم.

فإن وجد بينهم من يعلم أن مرجع هذا المال إلى سدة الضريح وخدمته، فعلمه هذا لا يستفاد منه أن يهبه لهم، أو يمنحه إياهم؛ لأنهم لو أرادوه على أن يعطيهم ذلك المال، أو يعطيهم بعضه ويستبقي لنفسه البعض الباقي، لما وسعه ذلك ولا رأى إن فعله أن عمل عملاً صالحاً.

بل هو يعتقد أن أخذهم المال من الصندوق بعد أن يضعه فيه أمر لا علاقة له به ولا شأن له فيه؛ لأن المال قد خرج من يده إلى صاحب الضريح، وصاحب الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء.

فهو في جميع حالاته وشؤونه لا يهب هبة صحيحة، ولا يتصرف تصرفاً شرعياً، ولا يضع صدقة في موضعها، ولا يطرق باباً من أبواب البر المسنونة.

وعندي أن مثل هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه إلى غير يد، وانقطعت ملكيته الأولى من حيث لم تقم مقامها ملكية أخرى، يعتبر مالاً مهملاً، لا صاحب له، ولا علاقة لأحد به.

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية في هذا المال أن ينفق في مصارف الصدقات التي اعتبرها الشارع واعتمدها، وافتتحها بأداة الحصر التي تمنع غيرها من الاشتراك معها في حكمها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

فإن كان بين هؤلاء القوم المتظلمين من قلة أنصبتهم في ذلك الصندوق ذو حاجة داخل في قسمه من الآية الشريفة، فله الحق في ذلك المال من حيث كونه فقيراً معدماً، كعامة فقراء المسلمين، لا من حيث إن له صلة بصاحب الضريح تسوّغ له أن يكون من ذوي الأنصبة والسهم في صندوقه، فإن أمثال هذه الصلات والعلائق قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الأولى. فلا هياكل اليوم ولا سدة، ولا وسطاء ولا شفعاء، ولا أقرط تعلق في أذان الأصنام، ولا عقود تقلد بها أعناق الأوثان، ولا مال يوضع مع الموتى في قبورهم لينتفعوا به بعد بعثهم من مراقدهم، وإنما الناس جميعاً سواء بين يدي الله سبحانه وتعالى، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى، ولا زلفى لأحد يزلف بها إليه إلا يقينه وإيمانه، وبره وإحسانه.

ذلك ما أراه في هذه المسألة وهذا ما أعتقد فيه، ولا أعلم إن كنت أرضيت الناس فيما كتبت أو أغضبت، وإنما أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي، وحسبي ذلك وكفى.

الفصل الثامن والخمسون

الغناء العربي

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن إبرازها اللسان، فأبرزتها الألحان فهو أفصح الناطقين لساناً، وأوسعهم بياناً، وأسرعهم نفاذاً إلى القلوب وامتزاجاً بالنفوس، واستيلاء على العقول، وأخذاً بمجامع الأفتدة، وبيان ذلك أن النطق ثلاث طبقات تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبلاغ والتأثير فيها، فأدناها النثر وأوسطها الشعر، وأعلىها الغناء، فلو أن عاشقاً برّح به الهجر مثلاً فأراد أن يبلغك ما في نفسه من ذلك فإن قال لك: إني مهجور، فحسب، فقد أبلغك بعض ما في نفسه. وترك في قلبك من الأثر بمقدار ما تحتمله طبقة النثر من التأثير، وإن أنشدك قول الشاعر:

فواكبدا من حب من لا يحبني ومن زفراي ما لهن فناء

أو قول الآخر:

كأن قطاة علقّت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

فقد سلك بك طريق الخيال، وصوّر لك خواطر نفسه بصورة أوضح من الصورة الأولى، وترك في نفسك أثراً أعظم من الأثر الأول، وإن رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل:

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

فقد صَوَّرَ لك قلبه كما هو. وألمسك مواقع الألم والحزن منه، فبلغ بك التأثير منتهاه، وربما بكيت عند سماعه حزناً ورحمةً، وما بكيت إذ بكيت إلا لأن الغناء لم يُبقَ بقية من خواطر هذه النفس القريحة إلا نطق بها لك وأسمعك إياها، وكما أن الأبيات قيود المعاني كذلك الألحان قيود الأبيات، فلا يزال المعنى مشرّداً ههنا وههنا حتى يحتويه بيت من الشعر. فإذا هو مستقر في مكانه، ثم لا يزال البيت يتجاف عن الأذان ذات اليمين وذات الشمال، حتى يقوده الصوت الحسن، فإذا هو مستودع في الصدور.

والغناء فن من فنون الطبيعة، تهدي إليه الأمم بالفطرة المترنمة في هدير الحمام وخرير الماء، وحفيف الأشجار. فمن أبكاه الحمام غرد تغريده كلما أراد البكاء، ومن أطربه صوت الناعورة رنّ رنينها ليضطرب جملة أو ناقته فينشدان للمسير، وما زال هذا الفن متبدلاً ببداءة الأمة العربية لا يكاد يتخطى فيها حذاء الجمال، ومناغاة الأطفال، حتى إذا انتقلت من مضيق الحاجيات إلى منفسح الكماليات، وتوسعت فيه وزادت في أنغامه وضروبه، وتفننت في آلاته وأدواته، وكذلك كان شأن العرب في جاهليتهم، ينظمون أشعارهم على نسب متوازية، وأنغام متوازنة. فالبيت يوازن البيت في ترتيب الحركات والسكنات وتعدادها، والشرط والتفعيلة يوازنان الشرط والتفعيلة كذلك، فكأنما كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر ألحاناً موسيقية، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هذا النوع من الموسيقى. وهو نوع التناسب الشعري الذي هو قطرة من بحر هذا الفن الزاخر، ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التي كان لها من حضارتها وتمدينه متسع للبراعة في هذا الفن ومنتدح في مناحيه ومقاصده، ووفد الكثير من مغني الفرس والروم موالي في بيوت العرب وفي أيديهم العيدان والطنابير، والمعارف والمزامير، يلحنون بها أشعارهم الفارسية والرومية، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بها أشعارهم تلحيناً بزوا فيه أساتذتهم، وولّدوا ألحاناً وأنغاماً لم يأت بها من قبلهم، شأنهم في جميع الفنون والصناعات التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم، وظهر فيهم رجال أنكباء كان لهم الفضل الباهر في تقديم الغناء واتساعه مثل ابن سريج، ومخارق، وطويس، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وإبراهيم بن المهدي، ومعبد — الذي طالما

ضربت به وبحسن صوته الأمثلة على ألسنة فحول الشعراء. كقول أبي عبادة البحرى
في وصف فرس كان أهدها إليه أحد الأمراء:

هزج الصهيل كأن في نبراته نغمات معبد في الثقل الأول

والثقل والخفيف الأول والثاني أسماء اصطلاح عليها العرب ومرجعها إلى حركات
الأصابع الخمس في أوتار العود الخمسة شدة وضعفاً، وما أحسن قول أبي العلاء
المعري:

ولقد ذكرت يا أميمة بعدما نزل الدليل إلى التراب يسوفه^١
وهواك عندي كالغناء لأنه حسن لديّ ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضارة الدين وغضاضته في ذلك العهد — عهد الصدر الأول —
وشدته في النهي والتلهي بالغناء والعزف والزمير وأمثالها ونعيه على من يحترف ذلك
أو يتخلقه، فقد كان للمغنين الشأن الرفيع في مجالس الخلفاء والأمراء، والنصيب الأوفر
من جوائزهم وصلاتهم، ولا غرو في ذلك، فسلطان الوجدان فوق سلطان الأديان، ولقد
بلغ من شأن المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن إسحاق الموصلي شتم إبراهيم بن المهدي
في حضرة أخيه الرشيد غير هياب ولا وجل، فما استطاع أخو الخليفة أن ينتصف
لنفسه منه هيبةً وإجلالاً، وكان ابن عائشة المغني لا يغني إلا الملك، أو ولي عهده، حتى
كان الخليفة إذا أراد أن يختار من بين أبنائه من يعهد إليه بالأمر من بعده لا يكتب
له بذلك عهداً، بل يأذن لابن عائشة أن يغني عنده، فلا تطلع عليه شمس الغد حتى
يفد الناس إليه يهنئونه بولاية العهد، فإن دعاه إلى الغناء لديه أمير أو وزير وجد من
قوة الدالة بنفسه ما يدفع به الطلب عنه. ويروى أن ابن عتيق وهو من تعلم في شرف
البيت وجلال المحل رأى ابن عائشة يوماً وحلقه مخدوش، فقال: من فعل بك هذا؟ قال:
فلان، وأشار إلى ضاربه. فمضى ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه، فلما خرج

^١ ساف التراب: اشتهم. يريد أنه ذكر حبيبته في أعظم أوقات شدته وهو وقت ضلال الركوب ونزول
الدليل، اشتتم التراب ليستدل منه على الأرض.

أخذ بتلبيبه^٢ وجعل يضربه ضرباً موجعاً، والرجل يصيح: أي شيء صنعت؟ وما ذنبي إليك؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه، وأقبل الناس فحالوا بينه وبينه وسألوه عن ذنبه، فقال: إنه أراد أن يكسر مزماراً من مزامير داود، يريد أنه خنق ابن عائشة وخدشه في حلقه. ومما يروى من حوادث تتيهه وترفعه أنه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه:

أبعدك معقلاً أرجو وحصناً قد أعيتني المعازل والحصون

فأطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب، فبينما هو يسير إذ نظر إليه رجل من أهل وادي القرى كان يشتهي الغناء فدنا من غلامه وقال: من هذا الراكب المختال؟ قال: ابن عائشة المغني، فدنا منه وقال: جُعِلت فداك أنت ابن عائشة؟ قال: نعم، قال: عائشة أم المؤمنين؟ قال: لا، أنا مولى لقريش وعائشة أُمِّي، وحسبك هذا فلا تكثر؛ قال: وما هذا الذي بين يديك؟ قال: غنيت أمير المؤمنين صوتاً فأطربته فأمر لي بهذا المال وهذه الكسوة، قال: جعلت فداك هل تمنُّ عليَّ بأن تسمعني ما أسمعته إياه؟ فقال له: ويليكَ أمثلي يكلم بمثل هذا في الطريق؟ قال: فما أصنع؟ قال: الحقني إلى المنزل، يريد مخاطلته والنجاة منه وحرك بغلة شقراء تحته لينقطع عنه فعدا معه، حتى وافياً المنزل كفرنسي رهان، ودخل ابن عائشة فمكث طويلاً طمعاً في أن ينصرف فلم يفعل، فلما أعياه قال لغلامه: أدخله، فلما دخل قال له: من أين صَبَّكَ الله عليَّ؟ قال: أنا رجل من أهل وادي القرى أَشْتَهِي هذا الغناء، قال له: هل لك فيما هو أنفع لك منه؟ قال: وما ذاك؟ قال: مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك، فقال له: جعلت فداك والله إن لي لبنية ما في أذنهما علم الله حلقة من الورق،^٣ وإن لي زوجة عليها يشهد الله قميص، ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على خلتي وحاجتي لكان الصوت أعجب إليَّ منه، وما زال به حتى رحمه ابن عائشة وغناه الصوت بعد لأيٍّ فطرب له الرجل طرباً شديداً وجعل يحرك رأسه وينطح بها الجدار حتى خيف أن يندقَّ عنقه، ثم انصرف ولم يرزأه في ماله شيئاً.

^٢ التلبيب: ما في موضع اللب من الثياب؛ أي: ما يدور بالعنق من القميص ونحوه.

^٣ الورق: الفضة.

^٤ اللأي: الجهد.

وفي هذا الحديث فوق الغرض الذي سقناه له ما يدل على أن الغناء العربي كان قريباً إلى القلوب وأنه كان منها بمنزلة الأصابع من الأوتار، فإذا لمسها رنت رنين التُّكْلِ والمرزوعة في واحدتها. وأن الوجدان العربي وجدان رائق شفاف تأخذ منه مختلفات الأنغام، فوق ما تأخذ الكهرباء من الأجسام، كما تبلغ منه نظرات الغرام، فوق ما تبلغ من عقل شاربها المدام.

وكانت الأصوات عندهم تنسب إلى واضعيها وتسمى بأسماء أصحابها كما هو الشأن في الشعر، فيقال: صوت إسحاق أو معبد، كما يقال شعر مسلم أو بشار، وكان المغني أحرص على صوته من الكريم على عرضه، فإذا صنع صوتاً لا يسمح لأحد من المغنين أن يأخذه عنه حتى يغنيه مراراً وتعرف نسبته إليه، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم، وكان لإسحاق الموصلي القدرة الغريبة على مخالطة المغنين عن أصواته، حتى صنع مرة صوتاً وأراد الفحول منهم أن يأخذوه بعدما سمعوه منه أكثر من سبعين مرة فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه، فكان أحدهم لا يحجم إن رأى في صوت صاحبه مأخذاً أن يفجأه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ مهما عظم شأن المجلس وشأن صاحبه، وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة في ذلك كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم ممّا يدل على أن الغناء العربي كان له عند العرب صبغة جدية فوق صبغة اللهو، وأن الغربيين في هذا العهد ليسوا بأعلم بصناعة الغناء ولا أقوم على أمرها من العرب في ذلك العهد، ولو أن العرب توسعوا في فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها. ولكنهم كانوا قَلَمًا يحفلون بإدخاله في الأغراض العالية كالحروب والشؤون الوطنية وأمثال ذلك من المناحي والمقاصد إلا قليلاً، كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن أعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم وعلموا أن سبيل الوشاية بهم إلى الرشيد سبيل وعر دسّوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبي ربيعة:

ليت هنذا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدّت مرةً واحدةً إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامناً في نفس الرشيد من شعوره بسلطان
البرامكة عليه واستبدادهم بالأمر من دونه، فقال عند تمام الصوت: «نعم إني عاجز» ثم
كان أمره معهم بعد ذلك ما كان، ولقد مضى الصدر الأول من الإسلام وشأن فن الغناء
العربي هذا الشأن العظيم خصوصاً في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية، ثم
أخذت شمس الباهرة تنحدر إلى الغروب بانحدار اللغة العربية وشعرها حتى أصبح
في حضارة الاندلس قدوداً وموشحات، بعد أن كان قصائد ومقطعات، فكان لا يسمع
أبناء العرب في ذلك العهد إلا إلى قول المغني:

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح

أو قوله:

كللي يا سحب تيجان الربى بالطي
واجعلي سوارها منعطف الجدول

وليت الأمر وقف عند هذه الموشحات فإنها وإن لم تكن شعرية اللفظ فهي شعرية
المعنى عالية الخيال، وهي على علاتها خير من شعر العامة الذي قضى عليهم فساد اللغة
وانحطاطها بانتهاجه والتغني به كالزجل، والموالي، والقوما، والدوبيت، وكان ويكون،
غير ذلك مما يسمى في عهدنا هذا بالأدوار والتواشيح والأغصان والمذاهب وأمثالها.
فهل لجماعة المغنين في عصرنا أن يعفونا من: «أحب جميل طبعه الدلال» ومن:
«يا حلو صون عهد ودادي الله يصونك» ويأخذوا بنا في مسلك أشرف من هذا المسلك،
ويعيدوا للغناء العربي عهده الأول كما صنع شعراء العصر برفيقه الشعر، فلقد كان
الشعر والغناء أخوين أليفين، رضيعي ثدي وضجيعي مهد، ثم ضربهما الدهر بضرباته
فافترقا فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بينهما، وماذا على المغنين والشعراء في مصر
لو عقدوا بينهم عهداً أن يهذبوا أخلاق أمتهم ويرفعوا شأنها ليكون لهم من الفضل
في نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء، فينظم الشاعر المقطعات
الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، كالشجاعة والشهامة
والشرف وحب الوطن والاتحاد والتزهيد في صغائر الأمور، والترغيب في عظامها،

فياخذها منه المغني ولا يتكلف في تلحينها أكثر مما يتكلفه في تلحين سواها من الأدوار والمواويل ثم يغنيها في الناس غير مبالٍ بما يفاجئه به ضعفاء النفوس الجامدون من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف في مبدئه، وفي اعتقادي أن لهذه الطريقة من الأثر الحسن في نفوس العامة وتهذيب أخلاقهم وطباعهم، وتقويم ألسنتهم وعقولهم، ما يخلد للملحنين والمغنين أجمل ذكر في تاريخ عظماء الرجال.

الفصل التاسع والخمسون

التوبة

علم فلان، وكان شاباً من شبان الخلاعة واللهو، وقاضياً من قضاة المحاكم، أن المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد، فرنا إليها النظرة الأولى فتعلقها، فكررها أخرى فبلغت منه، فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا، وقد ختمت روايتهما بما تختتم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود.

عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين جنبيهما همًّا يضطرم في فؤادها، وجنيناً يضطرب في أحشائها، وقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل، أما الثاني فسر مذاع، وحديث مشاع، إن اتسعت له الصدور، لا تتسع له البطون، وإن ضن به اليوم لا يضمن به الغد. ذلك ما أسهر ليلها وأقضى مضجعها، وملك عليها وجدانها وشعورها، فلم تَرَ لها بُدًّا من الفرار بنفسها، والنجاة بحياتها، فعمدت إلى ليلة من الليالي السوداء فلبستها، وتلفعت بردائها، ثم ألقت بنفسها في بحرها الأسود، فما زالت أمواجها تتراعى بها حتى ألقتها إلى شاطئ الفجر، فإذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل البالية، في بعض الأحياء الخاملة، وذلك الجنين المضطرب.

كان لها أم تحنو عليها، وتتفقد شأنها، وتجزع لجزعها، وتبكي لبكائها ففارقتها، وكان لها أب لا همَّ له في حياته إلا أن يراها سعيدة في آمالها، مغتبطة بعيشها، فهجرت منزله، وكان لها خدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها! فأصبحت لا تسامر غير الوحدة، ولا تساهر غير الوحشة، وكان لها شرف يؤنسها ويملاً قلبها غبطةً وسروراً ورأسها عظمةً وافتخاراً. فقدته. وكان لها أمل في زواج سعيد من زوج محبوب فرزأتها الأيام في أملها.

ذلك ما كانت تتاجي نفسها به. صباحها ومساءها، بكورها وأصائلها فإذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب أحزانها علمت أنه ذلك الفتى الذي وعدها أن يتزوجها فخدعها عن نفسها، ولم يفِ بعهدها لها، فقذف بها وبكل ما تملك يدها في هذا المصير. فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها، ويأخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنبها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى لأنه قتلها، وعلى المجتمع الإنساني لأنه لا يأخذ القاتل بجريمته، ولا يسلكه في سلسلة المجرمين.

وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض. فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها أَلَمَّتْ بشأنها فمشت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات. ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد. وتعاني من صروف دهرها ما تعاني.

ولقد ضاق صدرها ذرعًا بهذا الضيف الجديد، وهو أحب المخلوقات إليها، وأكثرهم قربًا إلى نفسها. فجلست ذات ليلة، وقد وضعت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كفها، وظلت تقول:

ليت أُمِّي لم تلدني، وليتني لم أكن شيئًا.

لولا وجودي ما سعدت، ولولا سعادتي ما شقيت، وإن كان في العالم وجود أفضل منه العدم فهو وجودي.

لقد كان لي قبل اليوم سبيل إلى النجاة من هذه الحياة، أما اليوم، وقد أصبحت أُمًّا فلا سبيل.

أأقتل نفسي فأقتل طفلي؟ أم أحيأ بجانبها هذه الحياة المريعة؟

لا أحسب أن الموت تاركه حتى يذهب بي إلى قبري. فماذا يكون حال طفلي من بعدي؟

إنها ستعيش من بعدي، وتشقى في الحياة شقائي، لا لذنب جنته ولا لجريمة أجرمتها، سوى أنني أمها.

هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومي حينما تسمعين قصتي، وتسمعين شكاتي؟

لم يبق في يدي يا بنيتي من حلالي إلا قليل سأبيعه كما بعت سابقه، فكيف يكون شأني وشأنك بعد اليوم؟

محال أن أعود إلى أبي فأقص عليه قصتي؛ لأنه لم يبق لي مما يعزيني عن شقاء العيش وبلائه، إلا أن أهلي لا يعرفون شيئاً عن جريمتي، فهم سيكونني كما سيكون موتاهم الأغزاء، ولأنَّ يبكو مماتي خير لي ولهم من أن يبكو حياتي. وكذلك ظلت تلك البائسة المسكينة تحدث نفسها تارة، وطفلها أخرى بمثل هذا الحديث المحزن الأليم، حتى غلبها صبرها على أمرها، فأرسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هي كل ما يملك الضعفاء العاجزون، ويقدر عليه القانطون اليائسون. دارت الأيام دورتها وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها، وما يحمل بدنها وما تشتمل عليه غرفتها من حلي وثياب، وأثاث ورياش، ولم يبق لها إلا قميصها الخلق وملاءتها وبرقعها، ولم يبق لطفلها إلا أسمال باليات تتم عن جسمها نميمة الوجه عن السريرة، فكانت تقضي ليلها شر قضاء حتى إذا طار غراب الظلام عن مجتمه أسبلت برقعها على وجهها، وانزّرت بمنزرها، وأنشأت تطوف شوارع المدينة، وتقطع طرقها، لا تبغي مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها، وهمها لا يزال يسايرها ويت رسم مواقع أقدامها.

وأحسب أن عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فألتمت ببعض شأنها فاقتفت أثرها حتى دخلت غرفتها، فوغلت عليها، وسألتها ما خطبها؟ فأنست الفتاة عند رؤيتها، وكذا يأنس المصدور بنفثاته، والبائس بشكاته، فأصرحت لها بسرها وألقت إليها بخبيثة صدرها، ولم تترك خبراً من أخبار نعيمها، ولا حادثاً من حوادث بؤسها لم تحدثها به، فعرفت الفاجرة محنتها، ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولان الراح في زجاجتها، وعلمت أنها إن أحرزتها في منزلها فقد أحرزت غنى الدهر، وسعادة العمر، وما هو إلا أن أرسلت إليها بعض عقاربها ونفثت في نفسها بعض رقاها، حتى غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى بلغت بها الغاية التي لا مفر لها ولا لأمثالها من بلوغها.

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد، عيشاً أشقى من عيشها الأول في منزلها القديم لأنها ما كانت تستطيع أن تصل إلى لقمتها — وهي كل ما حصلت عليه في حياتها الجديدة — إلا إذا بذلت راحتها وشردت نومها، وأحقرت دماغها بالسهر، وأحشاءها بالشراب، وصبرت على كل من يسوقه إليها حظها من سباع الرجال وذئابهم، على اختلاف طبائعهم، وتنوع أخلاقهم؛ لأنها لم ترَ بُداً من ذلك. فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش إلى الرجاء سبيلاً.

ولو أن الدهر وقف معها عند هذا الحد لهان ولألفت الشقاء ومرنت عليه كما يألفه ويمرن عليه كل من سار في الطريق التي سارت فيها، ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كؤوس شقائه، فساق إليها ذئبًا من ذئاب الرجال كان ينقم عليها شأنًا من شؤون شهواته ولذاته، فزعم أنها سرقت كيسه في إحدى لياليه التي قضاهما عندها، ورفع أمرها إلى القضاء، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي كن يحسدنها وينفسن عليها حسننها وبهاءها حتى أدانها.

جاء يوم الفصل في أمرها فسيقت إلى المحكمة، وفي يدها فتاتها، وقد بلغت السابعة من عمرها، فأخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء حتى أتى دور الفتاة، فما وقفت بين يديه، ووقع بصرها عليه، حتى شدهت عن نفسها وألم بها من الحيرة والدهشة ما كاد يذهب برشدها، ذلك أنها عرفت وعرفت أنه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها وعله بلائها، فنظرت إليه نظرة شزراء، ثم صرخت صرخة دوى بها المكان دويًا، وقالت:

رويدك يا مولاي القاضي، ليس لك أن تكون قاضيًا في قضيتي! فكلانا سارق وكلانا خائن، والخائن لا يقضي على الخائن، واللص لا يصلح أن يكون قاضيًا بين اللصوص.

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب، وغضب لهذه الجرأة العجيبة، وهم أن يدعو الشرطي لإخراجها، فحسرت قناعها عن وجهها، فنظر إليها نظرة ألم فيها بكل شيء، فشعر بالرعدة تتمشى في أعضائه، وسكن في كرسيه سكون المحتضر في سرير الموت، وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت:

أنا سارقة المال، وأنت سارق العرض، والعرض أثمن من المال، فأنت أكبر مني جناية، وأعظم جرمًا.

إن الرجل الذي سرقت ماله يستطيع أن يعزي نفسه باسترداده أو الاعتياض عنه، أما الفتاة التي سرقت عرضها فلا عزاء لها؛ لأن العرض الذاهب لا يعود.

لولاك ما سرقت، وما وصلت إلى ما إليه وصلت، فاترك كرسيك لغيرك، وقف بجانب ليحاكمنا القضاء العادل على جريمة واحدة أنت مدبرها، وأنا المسخرة فيها.

إن شريعة تعلم أننا شركاء في جريمة واحدة، ثم تأتي بنا إلى هذا المكان، فتقف أحداً في أشرف المواقف، وتقف الآخر في أدناها، لشريعة ظالمة ليس بينها وبين العدل نسب موصول، أو زمام غير منقضب.

رأيتك حين دخلت هذه القاعة وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيام لك، ورأيت نفسي حين دخلت والعيون تتخطاني والقلوب تقتحمني فقلت: يا للعجب!! كم تكذب العناوين، وكم تخدع الألقاب، وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء، وجهالة جهلاء!!

بخٍ لأولئك الذين منحوك هذه الشهادة، شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب. ومرحى مرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد، ووضعوا بين يديك هذا القانون، وأوقفوا أمامك هذا الشرطي يأتمر بأمرك وينزل على حكمك.

إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضاة نفوساً ليست بأقلّ من نفوسنا شرّاً، ولا أخبث منها مذهباً، وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرق إلا العناوين والألقاب، والشمائل والأزياء.

أتيت بي إلى هنا لتحكم عليّ بالسجن، كأن لم يكفك ما أسلفت إليّ من الشقاء حتى أردت أن تجيء بلاحق لذلك السابق.

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها؟ أأست إنساناً ذا شعور وإحساس فترثي لشقائي وبلائي؟

إن لم تكن عندي وسيلة أمتُّ بها إليك، فوسيلتي عندك ابنتك هذه، فهي الصلة الباقية بيني وبينك.

فرفع القاضي رأسه ونظر إلى ابنته الصغيرة نظرة رحمة وإشفاق وقد قرّر في نفسه أن لا بد له من أن ينصف تلك البائسة وينتصف لها من نفسه، غير أنه أراد أن يخلص من هذا الموقف خلوصاً جميلاً، فأعلن أن المرأة قد أصيبت بدخل في عقلها، وأن لا بد من إحالتها على الطبيب. فصدق الناس قوله. ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه، وقلب غير قلبه، وما هي إلا أيام قلائل حتى استقال من منصبه بحجة المرض، ولم يزل يسعى سعيه حتى ضم إليه ابنته واستخلص أمها من قرارتها وهاجر بها إلى بلد لا يعرفهما فيها أحد، فتزوج منها وأنس بعشرتها، واحترف في دار هجرته حرفة لولا مخافة أن أدل عليه إذا ذكرتها لذكرتها، ولا يزال حتى اليوم يكفر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف الرعاية، وأنواع الكرامة، حتى نسيا ما فات، ولم يبق أمامهما إلا ما هو آتٍ.

الفصل الستون

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد، وما أسدى إليه من نعمة لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين.

لا يزال صاحب النعمة ضالاً عن نعمته، لا يعرف لها شأنًا، ولا يقيم لها وزنًا، حتى يدله الحاسد عليها بئكرانها، ويرشده إليها بتحقيرها، والغض منها، فهو الصديق في ثياب العدو، والمحسن في ثياب المسيء.

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الحاسد، ينقم على محسوده نعم الله عليه، ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها، وهو لا يعلم أنه في هذه النعمة، وفي تلك الأمنية قد أضاف إلى محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه من النعم.

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها، فإن أردت أن تزن نعمة وافتك فارم بخيرها في فؤاد الحاسد، ثم خالسه نظرة خفيفة، فحيث ترى الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها.

ليس بين النعم التي ينعم بها الله على عباده نعمة أصغر شأنًا، وأهون خطرًا من نعمة ليس لها حاسد، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين، وألقها في طريق الناقمين، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها، فاعلم أنهم قد منحوك لقب «المحسد» فليهنأ عيشك وليعذب موردك.

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل، فانظر إلى أكثرهما نقمة على صاحبه، وكلّفًا بالغض منه، والنيل من كرامته، فاعلم أنه أصغرهما شأنًا وأقلهما فضلًا.

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة مستقلة يتألم لها المذنب عند حلول أجلها، فالشارب يتألم عند حلول المرض، والمقامر يتألم يوم نزول الفقر، والسارق يتألم يوم دخول السجن.

أما الحاسد فعقوبته حاضرة دائمة، لا تفارقه ساعة واحدة. إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها، والنعمة موجود من الموجودات الثابتة التي لا يلم بها إلا التنقل من مظهر إلى مظهر، والتحوّل من موقف إلى موقف فبهيات أن يفنى ألمه، أو ينقضي عذابه، حتى تقر عينه التي تبصر، ويسكن قلبه الذي ينبض. الحسد مرض من الأمراض القلبية الفاتكة، ولكل داء دواء، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود، ليبليغ مبلغه من تلك النعمة التي يحسده عليها، ولا أحسب أنه ينفق من وقته ومجهوده في هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك الغض من شأن محسوده، والنيل منه، فإن كان يحسده على المال، فليُنظر أي طريق سلك إليه فيسلكه، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم أو الأدب فليتأدّب، فإن بلغ من ذلك مأربه فذاك، وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيظ الفاتك، والكمد القاتل.

الفصل الحادي والستون

الوفاء

يا صاحب النظرات

تزوجت منذ سنة من زوج صالحة طيبة القلب والسريرة، فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمان، وقد عرض لها في هذه الأيام رمد في عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياء، وأصبحت أعمى بجانبها، وقد بدا لي أن أطلقها وأتزوج من غيرها. فماذا ترى؟

«إنسان»

أيها الإنسان: لا تفعل، فإنك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين وجرم الغادرين، وكن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم، لتستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين.

لا تقل إنها عمياء فلا خير لي فيها، ولا غبطة لي بها، فإنك ستجد بين جنبيك من لذة المروءة والإحسان والجود والإيثار ما يحسدك عليه الناعمون بالهور الحسان، في مقاصير الجنان.

اجلس إليها صباحك ومساءك، وحادثها محادثة الصديق صديقه، بل الزوج وزوجه، وتلطف بها جهدك وروح عن نفسها ما يساورها من الهموم والكروب وقل لها: لا تجزعي ولا تحزني؟ فإنما أنا بصرك الذي به تبصرين ونورك الذي به تهتدين.

أعيذك أيها الإنسان بالله ورحمته، والعهد وزمامه، أن تجعل لهذا الخاطر السيئ — خاطر الطلاق والفرق — سبيلاً إلى نفسك، فإنها لم تسئ إليك فتسيء إليها، ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها، فإن كنت لا بد ثائرًا لنفسك فاثّر لها من القدر إن استطعت إليه سبيلاً.

إن عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه، ويعتدي عليه.

إن لم يكن احتفاظك بزواجك وإبقاؤك عليها عدلاً يسألك الله عنه فليكن إحساناً تحاسبك الإنسانية فيه.

إنك قد خسرت بصرها، ولكنك ستربح قلبها، وحسب الإنسان من لذة العيش وهنائه في هذه الحياة قلب يخفق بحبه، ولسان يهتف بذكره.

إنها أسعدتك برهة من الزمان، فليخفق قلبك رحمةً بها، بقدر ما خفق سروراً بعشرتها.

لا أحسب أنها كانت تاركتك، أو غادرة بك، لو أن هذا السهم الذي أصابها قد أصابك من دونها، فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك إلى فضيلة الصدق والوفاء.

إلى من تعهد بها بعد فراقك إياها؟ وأي موطن من المواطن هياتها لمقامها؟ وماذا أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على عيشها؟ وتأنس بها في وحشتها ووحدتها؟ كيف يهنأ لك عيش، أو يغمض لك جفن، إذا أظلك الليل فذكرتها وذكرت أنها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله، وأنها ربما طلبت جرعة ماء فلا تجد من يقدمها إليها، أو كسرة خبز فلا تجد من يدلها عليها، أو ربما قامت من مضجعتها في سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق إلى حاجة من حاجاتها فأخطأ تقديرها، فصدما الجدار في جبينها صدمة أسالت دمها حتى امتزج بدمعها؟ أيها الإنسان: إن لم تكن عادلاً ولا وفياً ولا محسناً فارحم نفسك من هذا الخيال الذي لا بد أن سيساورك، يفت في عضدك ويزعجك من مرقدك، فإن لم تكن هذا ولا ذاك، فغيرك أخاطب لأني لا أحسن إلا مخاطبة الإنسان.

إني محدثك عن صديق لي من كرام الناس وأوفيائهم تزوج امرأة حسناء فاغتبط بها برهة من الزمان، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجك، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر في حاشية الأفق، فلم يقنعه من الوفاء لها أن استبقاها واستمسك بها، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها شيئاً، فكان يعتب عليها في بعض الأحيان في أشياء لا يؤاخذ بها عادة إلا الناظرون المبصرون، يريد بذلك أن يلقي في روعها أنه لا يزال يعدها ناظرة مبصرة، وأنه لا يرى شيئاً جديداً طراً عليها، رحمة بها وإبقاء على ما كانت تحب أن تحاوله من الاعتداد بنفسها والإذلال بمزاياها.

ولقد قرأت جملة صالحة من نواذر العرب في آدابهم، ومكارم أخلاقهم ورقة شعورهم ولطف وجدانهم، فلم أر بينها نادرة أوقع في النفس، ولا أجمل أثراً في القلب، من قول أبي عبيدة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية، وكان كفيف البصر: اختلفت إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد أربعين عاماً، فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعي: خذ بيده يا غلام، بل يقول: أخرج معه يا غلام.

فإن كنت تريد أن يسجل لك من الوفاء في صفحات القلوب، ما سجل لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريخ، فلا تطلق زوجك، ولا تنقم منها أمراً قد خرج حكمه من يدها، وإن أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذائذ العيش، فاعلم أنه ما من لذة يتمتع بها الإنسان في حياته إلا ويشوبها الكدر، أو يعقبها الألم، إلا لذة البر والإحسان.

الفصل الثاني والستون

خبايا الزوايا

جلس قاضي التحقيق ليلة أمس على كرسي قضائه، ووقف عن يمينه رجل من ذوي الأسنان^١ قذر «دميم» المنظر، تسنح شعراته البيض في بادية رأسه ولحيته سنوح الشرر الأبيض في الدخان الأسود، وتتمشى في أديم وجهه غبرة قاتمة من رآها علم أنها نسيج دخان الحشيشة، الذي ينفثه من فيه صباحه ومساءه وغدوه ورواحه، ووقف عن يساره صبية ستة نحل الأبدان جوع الأكباد، لم يترك لهم الدهر — أكل الناس وشاربهم — إلا هيكلًا من العظم تلمع في رأسه عيناان جائلتان، لا يستقران في محجريهما إلا إذا استقر الزئبق الرجراج في قرار مكين.

نظر إليهم قاضي التحقيق نظرات تمازجها الرحمة، وتخالطها الشفقة، والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون، لولا أن من المناظر مناظر تستهوي القلوب القاسية، وتذيب الأفئدة المتحجرة، وأنشأ يسألهم واحدًا فواحدًا ما شأنهم؟ وما خطبهم؟ وما مصيرهم! فكان جوابهم جوابًا واحدًا خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الإنسان رأى خلنهم^٢ من حيث يخفى مكانها فتغر^٣ فيها ثغرة انحدر منها إلى أعراضهم، فعبث بها ما شاء وشاء العابثون، فكانوا في داره الضروع التي يحتلبها، حتى إذا استنفذ درتها^٤ ألح على دمائها فاستنزفها، ثم قالوا: إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم فإذا علم أنهم هلكوا

^١ جمع سن: وهو العمر.

^٢ الخلّة: الحاجة.

^٣ ثغر الشيء: ثلمه وفتحه.

^٤ الدرة: اللبن.

أو كادوا طفق يعللهم باللقمة بعد اللقمة، والمضغة بعد المضغة، ويرمقهم^٥ العيش ترميقًا لا إبقاء عليهم، بل على ما يصل إلى يده من المال من طريقهم، وزعموا أنه كان يريبه منهم في بعض الأحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه فيملأ أدمغتهم بدخان الحشيشة ليسرق عقولهم، ويحل عقدة إباثهم، ويتركهم لا يدرون ما يأتون ولا ما يدعون.

وما وصلوا من شكواهم إلى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدي القاضي فراعهم من أمرهم ما راعه، ثم علم أنه الجوع، فأمر لهم بخبز وأدم فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازرداد الوحش فريسته. وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر إليهم نظرة شزراء، كتلك النظرة التي يرمي بها الصائد صيده إذا أفلت من حبالته.

بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه، فارتعت لسماع حديثه الارتياح كله، وحسبت أنه يحدثني عن حادثة وقعت في مبدأ الخليقة في مغارة من مغاور الجن أو شفعة^٦ من شفعات الجبال، وقلت له: أتعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن إنسان؟ قال: لا تعجل فما حدثتك إلا عن رجل حمّار لا يفارق وجهه صورة حمارة ليله ونهاره، وربما سرت إليه تلك النتيجة من هذه المقدمة فكيف بك لو علمت أن هذه الرذيلة لا يترفع عنها في هذا البلد كثير من الأتقياء والصالحين، والأشراف والمستورين؟ قلت: لا تحدثني عن شيء، فلم يبق في قلبي متسع، لاحتماله أكثر مما احتملت والأمر لله وحده.

ليست مسألة الزوايا وخباياها أمرًا يستهان به، أو تفضي العيون عليه، فإننا نريد أن نعد لوطننا رجالًا ذوي شجاعة وإقدام، وعزة وأنفة، من الذين إذا عظم الخطب كانوا حماة الديار، وإذا اشتد البأس لا يولون الأدبار.

^٥ رمقه الشراب: أعطاه إياه حسوة حسوة.

^٦ الشفعة: رأس الجبل.

الفصل الثالث والستون

القمار

لا أستطيع أن أعتقد ما يسمونه الجنون الفرعي، ويريدون منه أن يكون الإنسان مجنوناً في شأن واحد من شؤونه، عاقلًا في باقيها، وعندي أن الرجل إمّا أن يكون عاقلًا أو مجنونًا، ولا ثالث لهما.

العقل قوة يقتدر بها المرء على ضبط نفسه عن شهواتها، فموقفه أمامها موقف واحد، فإما أن يغلبها جميعًا أو يغلبه جميعها.

أما ما يراه الرائي أحيانًا من استهتار الرجل في بعض الشهوات استهتارًا يستهلك نفسه وعقله، وزهده في بعضها زهد الأعفَاء القانعين، فذلك لأنه رغب في الأولى فاسترسل وراء رغبته، ولم يدعه إلى الأخرى داع من شهوات قلبه ونزعات نفسه، ولو دعاه لخف إليه ولبّاه، ولن يسمى الرجل زاهدًا أو عفيفًا إلا إذا أمسك نفسه من شهوة تدعوه إليها فيدفعها، وتثور ثائرتها بين جنبيه فيقمعها.

لا تقل إن السكير عاقل إن رأيت غير فاسق ولا عاهر، واعلم أنه يؤثر الفسق ولا تجذبه إليه جواذبه، ولو أثره لكان موقفه من المواخير موقفه من الحانات، ولا تقل إن الفاسق عاقل إن رأيت غير سارق ولا مختلس، فإنه لا يحب السرقة ولا الاختلاس، ولو أنه أحبهما لكان في التسلل إلى أعماق الدور والقصور، أبرع منه في التسلل إلى مكامن الفسق والفجور، ولا تقل إن المقامر إن رأيت لا شاربًا ولا فاسقًا، فإن القمار قد استهلك شهوته واستخلصها لنفسه، ولم يدع فيها فضلة لسواها، ولولا ذلك لكان أكبر السارقين، وأفسق الفاسقين.

ولو كنت من المصانعين، الذين يزخرفون لأرباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروها في نظرهم فضائل بما يلبسونها من أثواب التأويل، ويصبغونها من ألوان التعليل، لما

استطعت أن تصانع المقامر لأن حاله من الجهل الفاضح، والغباوة المستحكمة، أبعد الحالات عن عذر المعتذرين، وتأويل المتأولين.

ما جلس المقامر إلى مائدة القمار، إلا بعد أن استقر في ذهنه أن الدرهم الذي في يده سيتحول بعد هنيهة من الزمن إلى دينار، ويعود به إلى أهله فرحاً مغتبطاً، وأحسب أن العقول العشرة مجتمعة ومتفرقة، تعجز عن إدراك هذه العقيدة ومثارها.

إن كان يؤمل الربح لأنه يرى عن يمينه رجلاً قد ربح، فلم لا يخاف الخسران لأنه يرى عن يساره مائة خاسرين؟ وإن كان يضحكه منظر الربح لأنه يرى في بعض مواقفه أحد الرابحين ضاحكاً، فلم لا يبكيه منظر أصدقائه ورفقائه الخاسرين، وهم يتساقطون حواليه تساقط جنود المعركة تحت القذائف المنطلقة.

ما أشبه المقامر الذي يطلب من الدينار الواحد مائة دينار بالكيميائي الذي يطلب من القصدير فضة، ومن النحاس ذهباً، كلاهما يتاجر بالأحلام في سوق الأوهام، فيربح ربحاً مقلوباً ويكسب كسباً معكوساً، وما أشبههما جميعاً بذلك الرجل الذي علم أن في صحراء من صحاري أواسط أفريقيا كنزاً دفيناً لا تعرف له بقعة معينة، وليس عليه دليل، فحمل فأسه على كتفه ومشى في تلك الصحراء يحفر الحفرة التي تستنفد قوته وتستهلك منته. وتبلغ من نفسه ما لا يبلغ كُرُّ الغداة ومَرُّ العشي. حتى إذا بلغ قرارتها. وعلم أنه لم يعثر بضاляته. تركها وبدأ يحفر غيرها بجانبها. فلا يكون نصيبه من الأخرى أوفر من نصيبه من الأولى. وهكذا. حتى أدركه الموت، وهو في بعض تلك الحفر. فكان هو نفسه الكنز الدفين. إلا أنه كنز لا يطعم فيه طامع ولا يرغب فيه راغب.

إن كنت لم تسمع في حياتك باجتماع النقيضين، وتلاقي الضدين، فاعلم أن المقامر في آنٍ واحد أجشع الناس، وأزهق الناس، فلولا حبه المال لما هان عليه أن يبذل راحته وشرفه وسعادته وحياته في سبيله! ولولا زهده فيه لما أقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغاية يطلبها ولا لمأرب يسعى إليه.

أنا لا أريد أن أنصح للمقامر بترك القمار؛ لأنني أعتقد أن من يملك عقلاً مثل عقله، وفهماً مثل فهمه، لا يستطيع أن يفهم كلمة ممّا أقول، ومن عجزت حوادث الدهر وعبر الأيام عن أن ترد عليه ضالّة عقله وتهديه السبيل إلى نفسه لا تنفعه كلمة كاتب، ولا موعظة واعظ، وإنما أريد أن أقول للذين لم يقدر لهم أن يخطوا خطوة واحدة في هذه الطريق الوعرة حتى اليوم: لا تقامروا جدّاً ولا هزلّاً، فإن هزل القمار يجر إلى جده، ولا تمروا بمعاهد القمار قصداً ولا عفواً، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ولا

تصاحبوا المقامرين بحال من الأحوال، فإنهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا ملتهم، فإن فعلتم خسرتم مالكم وشرفكم وعزتكم وكرامتكم من حيث لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوّض عليكم ما خسرتم، فارحموا أنفسكم إن كنتم راحمين، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين.

الفصل الرابع والستون

الأوصياء

مرض فلان مرض الموت فلم يحفل بالمنية لأنه اقتطف زهرة الحياة جميعها، ولأن الثمانين قد ألحَّت عليه بصبحها ومساءها، وليلها ونهارها، فلم تترك له خيطاً من خيوط الأمل، ولا شعاعاً من أشعة الرجاء لولا أن بين يديه ولدًا صغيراً في السابعة من عمره قد ماتت أمه منذ عهد قريب. والشيوخ الكبار إلى أبنائهم الصغار حنين الإبل إلى أعطانها، فنظر إليه، وهو يحوم حول فراشه نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع المنسجم، ثم زفر زفرة حرّى خيل لرائيها أنها الزفرة الأخيرة، وأنشأ يقول:

أي بني، من لي بقلب يردك مثل قلبي، وعين تسهر مثل عيني، وروح ترفرف فوق رأسي مثل روحي، ونفس تضم جوانحها عليك مثل نفسي؟

أي بني، كأني بركب الموت، وقد نزل بي، وحلّ بساحتي، وكأني به، وقد احتملني من فضاء القصر إلى مضيق القبر، ومن نور الحياة إلى ظلمة الموت، وكأني بك، وقد طفقت تنشدني فلا تجدني، وتفتش فلا تراني ففزعت وارتعت، ثم صرخت فصعقت، ولم تجد بجانبك من يمسح دمعك ويخفف حزنك.

من لي بصديق أثق بوده وإخلاصه، ورحمته وحنانه، فأكل إليه أمرك وأعتمد عليه في تأديبك وتخريجك، وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة في مستقبل دهرك؟

فما أتم نجاهه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي كان يأنس به ويستخلصه لنفسه، وقد سمع آخر نجواه، فقال له: هوّن عليك يا مولاي فأنا صديقك الذي تنشده، وأنا والد ولدك من بعدك، وخليفتك بعد الله عليه، ثم تهافت على فراشه يبكي لبكائه، وينشج لنشيجه، فاستنار قلب الرجل بنور الأمل وقال: أحمداك اللهم قد رحمت ولدي وحفظت بيتي.

وما هي إلا أيام قلائل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده، ثم أجاب دعوة ربه تاركًا في يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه، وماله وولده.

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقًا له في الأعوام الأخيرة من أعوام حياته بعدما رآه يكثر الاختلاف إليه، ويطيل اللبث بجانبه، ويلزم الوقوف عند أمره ونهيه، ويخف لقضاء حاجاته ولبناته، ذلك إلى ما كان يراه متجملًا به من صلاح مملوء بالركعات والسجادات، والتسبيحات المتواليات، وعفة حتى عن اللقمة يصيبها على مائدته. وتورع حتى عن الجرعة يتجرعها في حضرته. فاستخلصه لنفسه. وأنزله من قلبه المنزلة التي لا ينزل معه فيها غير ولده. وأصبح أثر الناس عنه حتى ما يستطيع فراقه لحظة، ولا يصبر عنه ساعة، إلى أن أحس باقتراب الأجل، فأوصاه بما أوصى، وعهد إليه بما عهد.

هذا هو تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ، أما تاريخه بعد مماته فأسمعك منه ما تهوي له الأفلاك عجبًا وتجرُّ له الجبال هُدًى.

لم تكن صلاته إلا رياء ونفاقًا، وركوعه وسجوده إلا كيدًا ومداهنة، وعفته وزهادته إلا حباله نصبها ليعلق بها عقل الشيخ، وقد علق، فيسلبه ماله وولده، وقد فعل، وما كان اختلافه إليه، ولا تردده عليه إلا طمعًا في هذا المصير الذي صار إليه، فلما علم أن قد تم له من أمره ما أراد، أطلق يده في مال الصغير يعبث به عبث النكباء بالعود، ويبتاع به لنفسه ما شاء الله أن يبتاع من قصور ودور وبساتين وضياع، فنبه ذكره بعدما كان خاملاً، ونبت ريشه بعدما كان عاريًا، وأصبح صاحب السلطان المطلق في ذلك القصر يذل من يشاء ويعز من يشاء.

أما شأنه مع الولد فقد علم أنه سيبلغ عمًّا قليل أشدَّه، ويملك رشده، وأنه سيقطع عليه لذَّته، ويقف له موقف المعارض سبيله، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير، فلم يرَ بُدًّا من أن يعد لذلك اليوم عدته، فعمد إلى الولد فقطعه عن المدرسة لأنه لا يحب أن ينشأ متعلمًا، ثم أغرى به من ساقه إلى مواطن الفسق ومجامع الفجور، لأنه لا يحب أن ينشأ عاقلًا، وما زال ينفق عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجاب حتى علق الشراب برأسه علوق السلال بالصدور، فأصبح بين الحانات والمواخير، كالطائر بين الأغصان، لا يرسل الساق إلا ممسكًا ساقًا.

فكأنما وكَّلَ بعقله مقراضًا يبضع له في كل يوم منه بضعة حتى كاد يأتي عليه، فما بلغ السن التي يرشد فيها القاصرون حتى استحال الوصي على القاصر قيِّمًا على المعتوه، ولم يبذل في سبيل الوصول إلى ذلك أكثر من لقيمات ألقاها من فتات تلك المائدة إلى أعضاء المجلس الحسبي، فأدخلوه تلك الجنة الزاهرة بغير حساب.

شرع الله شريعة الحجر على السفهاء والمعتوهين، وإقامة القَوَامِ عليهم، رحمة بهم، فاستحالت على يد المجالس الحسبية نقمة عليهم وأصبح اللص الذي يجهل صناعة فتح الأقفال ويتقي مغبة تسلق الجدران، قادرًا على أن يسرق ما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يأمن على نفسه الوقوف أمام محكمة الجنايات، وجر الأغلال الثقال في غيابات السجون، وانتقلت الثروات العظيمة من أيدي أصحابها مخافة أن يسرفوا فيها إلى أيدي آخرين يبددونها تبديدًا، ويمزقون أديمها تمزيقًا، من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسب، أو وشيجة رحم، حتى أصبح السعي إلى جمع المال وادخاره للوارثين في هذا العصر عملًا من الأعمال الباطلة، وضربًا من ضروب الخرق الواضح، والجهل الفاضح، فمن لي إن أنا دبرت المال وجمعته ألا يكون خليفتي عليه من بعدي لصًا من أولئك اللصوص الذين تمنحهم المجالس الحسبية، ما تمنعهم الشرائع الإلهية؟ ومن لي أن أعيش إلى أن أدرك ولدي فأتولى أمر تربيته بنفسي قبل أن يظفر به في حادثته ظفر جارج من أظفار أولئك الأوصياء فيميت نفسه، ويقتل عقله. ويفسد عليه حياته، ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق نفسي في عالمها، ويزعج عظامي في مرقدتها.

فلقد حدثني من قص عليّ تلك القصة أن ذلك الوصي لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام ما أراد، عمد إلى تزويجه من فتاة حسناء من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها لولا أن له في ذلك مأربًا من المآرب الفاسدة، فإنها ما كادت تخلع ثوب عرسها حتى أنشأ يختلف إليها، ويكثر ازديارها في الجناح الذي تسكنه من القصر، بما له على زوجها وعليها من حق الولاية والرعاية وبحجة النظر في شؤونها ومرافقتها، ثم ما زال يختلها عن نفسها ويزين لها ما يزينه الشيطان للإنسان حتى علقت بحبالته، كما علق بها غيرها من قبلها فكرهت زوجها، وبرمت به، فراه من أمرها ما رابه، فرصدها ليلة من الليالي حتى عرف سرها وموضع هواها، فشكا فلم يجد سامعًا، ثم بكى فلم يجد راحمًا، فكان يقضي كثيرًا من ليلاليه في غرفة من غرف القصر واجمًا مطرقًا مسلمًا رأسه إلى ركبتيه، ودمعه إلى خديه، لا سмир له ولا مؤنس إلا رنات الضحكات التي تنهل عليه من مخدع زوجه، فكان يثب تارة وثبة الأسد فيثير في القصر ثائرة شعواء تضج لها جوانبه، فيتسارع إليه الخدم فيضربون على يده وفمه، وأخرى يعود إليه بلهه وخبله، فينظر إلى هذه المناظر المؤلمة نظر الضاحك اللاعب.

مرت على تلك الحوادث سنوات استأثر فيها ذلك الوصي بتلك الدائرة الواسعة وألح عليها بكلكله، حتى اجتز وبرها، ثم استكشط جلدها فلم يبق منها إلا هيكل عظمي

قائم، فلما علم أن قد قامت قيامة الناس عليه، وأن قصته مع الغلام وزوجته قد ملأت مسمع الخافقين، وأن نجمه الثاقب قد مال إلى الأفول، عمد إلى حيلة شيطانية ختم بها تلك الرواية بهذا الفصل المحزن الأليم.

تفتّح للغلام بعد انقباضه، وابتسم إليه بعد تقطيعه، وابتاع له جميع ما اقترحه عليه من ثوب فاخر، ومركب فاره، ومزاهر وعيدان وكؤوس ودنان، ثم خلا به في ساعة من ساعات نشوته وارتياحه فقال له: أيها الصديق قد آن أوان استقلالك بشأنك وانفرادك بأمرك، فاكذب إلى المجلس الحسبي رقعة تطلب فيها رفع الحجر عنك، واكتب توقيعك على هذه «المخالصة» براءة لذمتي، فاستطير الغلام فرحاً وسروراً، وما لبث أن كتب الأولى ووقع الأخرى، ثم أوعظ إلى المجلس الحسبي بتلبية طلبه، فلباه، وقضى برفع الحجر عنه، فاستقبل تلك النعمة استقبال الظامئ كأس الشراب، وكان لا بد له من أن يشرب حتى يبشم، ففتش بين يديه عن مال ينفقه فلم يجد، وكان الرجل قد وكل به عوناً من أعوانه يداخله ويتحين فرصة حاجته إلى المال فيمنحه ما يريد، فكان يعطيه المال باليمين، ويأخذ منه صك البيع باليسار، وما زال هذا يعطي وذاك يأخذ حتى أصبح نصف «الدائرة» بعد عامين ملكاً لعون الوصي وللوصي غداً بثمن لا يساوي عشر معشارها، بل بغير ثمن، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بمالها، وأنفق عليها إلا ثمرتها؟ هنالك قام الوصي وقعد، ونادى في الناس بصوت يشبه صوت الحق ونغمة تشاكل نغمة الصدق: أيها الناس، قد كنت أنذرتكم بمصير هذا الغلام إن صار أمره إلى نفسه، فكذبتم قولي، وسفهتم رأيي، وما زلتُم تقولون وتتقولون حتى أخرجتم صدري، ودفعتموني إلى الغدر بذلك العهد الذي أخذه عليّ ذلك الصديق الكريم أن أتولى شأن ولده من بعده، ولا أتخلّى ساعة واحدة عن رعايته وتعهده، فكان ما كان مما تعلمون من تبديد ثروته وتمزيقها، فما أنتم ترون بأعينكم شؤم رأيكم وجريرة سعيكم. ثم أعاد كرتة على الغلام وسعى سعيه في المجلس الحسبي فأعاده سيرته الأولى ووضع في عنقه غلاً لا فكاك له من بعده إلى يوم يبعثون.

ليت شعري، هل يعلم ذلك المقبور في لحدّه ما صنعت يد الحدثان بماله وولده، وأن المال قد ورثه غير وارثه، واستأثر به غير صاحبه؟ وأن ولده قد أصبح ذلك الملك الكبير، والجنة والحري، يطلب المضغة فتعوزه، والجرعة فتلتوي عليه؟ وأنه يبيت الليالي ذوات العدد مطرّحاً في زوايا الحانات، لا وطاء غير أديم التراب، ولا غطاء غير قطع السحاب؟ وهل أعد عدته للوقوف بين يدي الله تعالى في ذلك اليوم المشهود؟ يوم

تكشف الهنات، وتفضح العورات. فيمسك ولده بيمناه ووصيه بيسراه، ثم يناجي ربه ويقول:

اللهم اعدني على هذا الكاذب الذي ختلني وخدعني وخفر ذمتي وخاس بعهدي
وخان أمانتي، وأفسد وصيتي، وخذ لولدي بحقه من هذا الظالم الذي سرق ماله، وهتك
عرضه، وعذب نفسه، ونغص عيشه، فأنت أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين.

العام الجديد

في مثل هذا اليوم من كل عام يقف ركب العالم السائر بمنزلة من منازل الحياة، فينزل عن مطايهاه ليستريح فيها ساعة من وعثاء السفر بعد أن نال منه الأين والكلال، وأضناه سري الليل وسير النهار، ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا.

هنالك يجتمع السَّفَرُ^١ في صعيد واحد فيتعارفون ويتصافحون، ويتفقد بعضهم بعضًا، فيجدون أن فلانًا مات جوعًا، وفلانًا مات ظمًا، وآخر افترسه سبع، وآخر قتله لص، وآخر مات غيلة، وآخر سقط عيًّا، وآخر طارت به قنبلة، وآخر هوت به طيارة، وآخر اجتاحه بركان، وآخر تردى عليه معدن، ثم يعودون إلى جرائد الإحصاء فيدون فيها حاضريهم، كما دونوا ماضيهم، ثم يوازنون بين هذا وذاك فيجدون أن الحاضر شر، وأن ميادين الحروب لا تزال ملوثة بالدماء، ومصانع الموت لا تزال تفتن في عدده وتستكثر من أدواته، وأن جذور الشر القديمة لا تزال ناشبة بنفوس البشر، حتى ما يتمنى أحد أن تقع عينه على أحد، وأن سحب البغضاء القائمة لا تزال مخيمة على المجتمع الإنساني من أدناه إلى أقصاه شعوبًا وقبائلَ وأجناسًا وأنواعًا، ومذاهبَ وأديانًا، ومنازلَ وأوطانًا، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه، فإن عرف أنه يوافقه أبغضه لأنه يخالفه في دينه، فإن وافقه فيه أبغضه لأنه ينطق بغير لغته، فإن نطق بها أبغضه لأنه لا يشاركه في وطنه، فإن كان مشاركًا له أبغضه لأنه يزاحمه في حرفته، فإن بُعد عن طريق مزاحمته أبغضه لأنه يخالفه في رأيه، فإن لم يخالفه أبغضه لأنه لا يحاكيه في لونه، فإن لم يجد شيئًا من هذا ولا ذاك أبغضه لأنه شخص سواه! كأن قضاءً حتمًا على الإنسان أن يبغض كل صورة غير الصورة التي يراها كل يوم في مرآته.

^١ السفر: المسافرين.

فإذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم، والموازنة بين حاضرمهم وماضيهم، أضافوا إلى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب، فتناسوا كل هذا ووضع كل منهم يده في يد أخيه مهنئاً له بالعيد السعيد داعياً له بدوام الغبطة والهناء، ثم تنادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية.

علام يهنئ الناس بعضهم بعضاً؟ وماذا لقوا من الدنيا فحرصوا على البقاء فيها؟ ويغضبوا المراحل التي يقطعونها منها؟ وهل يوجد بينهم شخص واحد يستطيع أن يزعم أنه أصبح سعيداً كما أمسى؟ أو أمسى سعيداً كما أصبح؟ أو أنه رأى بروق السعادة قد لمع في إحدى ليلاليه ولم يرَ بجانبه ما يرى في الليلة البارقة من رعود قاصفة، ورياح عاصفة، وصواعق محرقة، وشهب متطيرة؟

بأية نعمة من النعم؟ أو صنعة من الصنائع، تمنُّ يد الحياة على إنسان لا يفلت من ظلمة الرحم إلا إلى ظلمة العيش، ولا يفلت من ظلمة العيش إلا إلى ظلمة القبر، كأنما هو يونس، الذي التقمه الحوت فمشى في ظلمات بعضها فوق بعض! وأية يد من الأيادي أسدتها الأيام إلى رجل يظل فيها من مهده إلى لحده حائرًا مضطربًا، يفتش عن ساعة راحة وسلام تهدأ فيها نفسه، ويثلج صدره، فلا يعرف لها مذهباً ولا يجد إليها سبيلاً، إن كان غنياً اجتمعت حوله القلوب الضاغنة، واصطلحت عليه الأيدي الناهبة، فإما قتلته، وإما أفقرته، وإن كان فقيراً عد الناس فقره ذنباً جنته يداه، فتتناوله الأكف بالصفع والأرجل بالركل والألسن بالقذف، حتى يموت الموتة الكبرى بعد أن مات الموتة الصغرى، وإن كان عالماً ولع الحاسدون بذمه وهجوه، وتفننوا في تشويه سمعته، وتسويد صحيفته، ولا يزالون به حتى يعطيهم العهود والمواثيق التي يرضونها أن يعيش عالماً كجاهل وحيّاً كميت، وأن يكتم علمه في صدره، فلا يفضي به إلى لسان ولا قلم، حتى يدركه الموت، وإن كان جاهلاً اتخذه العالمون مطية يركبونها إلى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يهادنونها ولا يرفقون بها حتى يعقروها. وإن كان بخيلاً ازدرته القلوب، واقتحمته العيون وتقلصت له الشفاه، وبرزت له الأنياب، وانقبضت له الأسرة، والتهب له الأنظار، وأرسلت إليه الأغصان ألسنة نيرانها حتى تحرقه، وإن كان كريماً محسناً عاش مترقباً في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شر الذين أحسن إليهم، إما لأنه أذاقهم جرعة باردة فاستعذبوها فاستزادوه فلم يفعل، فهم ينتقمون منه، أو لأنهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يخيل إليهم أن المحسن يريد أن يبتاع منهم نفسه بما يسدي، وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الإحسان بلا مقابل فهم ينقمون عليه إن عرف كيف يفلت من أيديهم.

لا سعادة في الحياة إلا إذا نشر السلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشري، ولن ينتشر السلام إلا إذا هدأت أطماع النفوس، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف، فعرف كل ذي حق حقه، وقنع كل بما في يده عمّا في يد غيره، فلا يحسد فقير غنيًا، ولا عاجز قادرًا، ولا محدود محدودًا، ولا جاهل عالمًا، وأشعرت القلوب الرحمة والحنان على البائسين والمنكوبين فلا يهلك جائع بين الطاعمين ولا عار بين الكاسين، وامتلأت النفوس عزة وشفقًا، فلا يبقى شيء من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال أموال الناس باسم الدين مرة والإنسانية أخرى، ولا ترى طبيبًا يدعي علم ما لم يعلم ليسلب المريض روحه وماله، ولا محاميًا يخدع موكله عن قضيته ليسلب منه فوق ما سلب منه خصمه، ولا تاجرًا يشتري بعشرة ويبيع بمائة، ثم ينكر بعد ذلك أنه لص خبيث، وكاتبًا يضرب الناس بعضهم ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح الزند ليظفر بالشرر المتطاير منهما.

وما دامت هذه المطالب أحلامًا كاذبة وأمانى باطلة، فلا مطمع في سلام ولا أمان، ولا أمل في سعادة ولا هناءة، ولا فرق بين أمس الدهر ويومه ولا بين يومه وغده، ولا فرق بين مغفلات أيامه غير ما عرفت وما ذاق أحد من نغماته غير ما ذقت، وليفرح بالعام الجديد من حمد ما مضى من أيامه وسالف أعوامه.

الفصل السادس والستون

سحر البيان

رأيت في إحدى روايات شكسبير، وهي الرواية المعروفة برواية «يوليوس قيصر» موقفًا لبطلين من أبطال الفصاحة، وفارسين من فرسان البيان. وقد وقف كل منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب، ووقف الشعب الروماني بينهما موقف الكرة من أقدام اللاعبين. تعلو بها حينًا وتسفل أحيانًا، فلا تثبت صاعدة ولا تستقر هابطة، فعلمت أن العامة عامة في كل عصر، والشعب شعب في كل مصر. وأن سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر، وأن رأس التاريخ اليسوعي، مثله في ذنب التاريخ الحمدي، تدنو به كلمة، وتثنأى به أخرى، وتجذبه دمة وتدفعه ابتسامة، وتطير بلبه الشعريات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء.

علم بروتس الشريف الروماني أن يوليوس قيصر قد استعبد الشعب الروماني وأذل نفسه ذلاً. ملك عليه حواسه ومشاعره حتى ما يكاد يشعر بمرارته، وكذلك الذل إذا نزل بالنفوس سلبها كل شيء حتى الشعور بنزوله فيها، وعلم أن حياة ذلك الشعب بموت ذلك القيصر. فهان عليه أن يقتل صديقه وسيده، افتداءً لأُمته ووطنه، فطعنه طعنة نجلاء، سلبته نفسه في لحظة واحدة، فهاج الشعب الروماني على القاتل وأعوانه، هياج الأمواج الثائرة على السفن الماخرة، فوقف الرجل خطيباً أمام ذلك الشعب الهائج المحتدم وقفة المستبسل المستमित، وكان لا بد له في هذا الموقف من أحد المصيرين، إما نصر يعلو به إلى مدارك الأملاك، أو خذلان يهوي به إلى مقر الأسماك، ومن أحد المخرجين: إما مخرجه مرفوعاً على محفة الأبطال، أو محمولاً على أعناق الرجال، فبعد لأي ما استطاع بعض الزعماء أن يسكن ثائرة الثائرين ويستدرجهم إلى سماع دفاع القاتل عن نفسه، أو التفكه بمنظره المضحك، وهو يتلمس في هذه الظلمة الحالكة المخرج من جريمته.

الخطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة): أيها الرومانيون، أتعدونني بالصبر قليلاً على سماع ما أقول من حلو الكلام ومره، إكراماً لموقفني وإكراماً للعدل؟

أنا لا أريد أن أخدعكم، ولا أعبت بعقولكم وأهوائكم بل أريد منكم أن تنظروا إلى قضيتي نظر الحذر المتيقظ الذي لا يعطي هواده ولا يلقي قياداً؛ لأنني لا أعتقد أن في زاوية من زواياها كميناً أخاف أن تقع عليه العيون.

أيها الرومانيون، إن كان بينكم صديق لـ«قيصر» يحبه ويدوب حزناً عليه فليسمح لي أن أقول له: أيها الصديق الكريم، إن بروتس قاتل قيصر كان يحبه أكثر منك.

أيها القوم: والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، فاعلموا أنني ما قتلت قيصر لأنني كنت أبغضه، بل لأنني كنت أحب روما أكثر منه. كان قيصر طماعاً فقتلته، ففي ساعة واحدة منحته دمي وقلبي وخنجري.

أنا لا أصدق أن بينكم من يحزن لموت قيصر، فأنتم رومانيون، والروماني لا يحب أن يعيش ذليلاً.

من منكم يكره أن يكون رومانياً؟ من منكم يكره أن يكون حرّاً؟ من منكم يحتقر نفسه؟ من منكم يزدري مصلحة وطنه؟ إن كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم؛ لأنه هو الذي يحق له أن يثار لنفسه مني؛ لأنني لم أسئ إلى أحد سواه.

الشعب: لا، لا، ليس فينا واحد من هؤلاء.

بروتس: إذن أنا لم أسئ إلى أحد منكم.

وهنا دخل أنطونيوس صديق قيصر ورأس الناقمين على قتلته والمطالبين بثأره هو وآخرون يحملون على أيديهم جثة قيصر لتأبينه في هذا المجمع الحاشد فاستأنف بروتس الكلام وقال:

ها هي جثة قيصر، وها هو صديقه أنطونيوس جاء ليأبنه فاستمعوا له واعلموا أن قيصر المذنب غير قيصر الماجد، وقد سمعتم ما قيل عن الأول فاسمعوا ما يقال عن الثاني، واسمحوا لي أن أقول كلمة أختتم بها خطابي.

أيها الرومانيون: إن الخنجر الذي ذبحت به قيصر في سبيل روما لا يزال باقياً عندي لذبح بروتس في سبيل قيصر إذا أرادت روما ذلك.

تأثير الخطبة

الشعب: ليحيَ بروتس.

أحد الناس: أنا أقترح أن نحمله على الأكف إلى منزله.

آخر: انصبوا له تمثالاً.

آخر: امنحوه عرش قيصر.

آخر: إنه أفضل من قيصر.

آخر: إن قيصر كان ظالماً.

آخر: إنه كان الظلم بعينه.

آخر: لتهنأ روما بالخلاص منه.

آخر: ألا نسمع تأبين أنطونيوس؟

آخر: نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك.

وهنا نزل بروتس والقلوب طائرة حوله، والعيون حائمة عليه. ثم وقف على أثره أنطونيوس، فرمقه الشعب بين الغضب والحقد. ولولا إشارة من بروتس ما استطاع أن يثبت في موقفه لحظة واحدة، ثم أخذ يتلو كلمة التأبين المشهورة التي هي آية الآيات في اللغة الإنكليزية فصاحة وبيانا.

القصيدة

أنطونيوس: أيها الرومانيون ...

أحد الناس: اسمعوا ما يقول أنطونيوس.

آخر: لا. لا نسمعه.

أنطونيوس: اسمعوني إكراماً لبروتس.

أحد الناس: ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس؟

آخر: لا يقول شيئاً.

آخر: إذن نسمعه.

أنطونيوس: أيها الأصدقاء، إنني ما جئت هنا الساعة لأرثي قيصر بل لأدفن جثته.

أيها القوم: ما من أحد من الناس إلا وله في حياته أعمال حسنة وأخرى سيئة.

أما حسناته فتموت بموته، وأما سيئاته فتبقى من بعده إلى يوم يبعثون.

كذلك كان قيصر في حياته ومماته، وكذلك كانت سيئاته.

أيها القوم: ما كنت لأستطيع أن أقف موقفي هذا بينكم ولا أن أقول كلمة ممّا أريد أن أقول لولا أن بروتس قاتل قيصر أمرني بالوقوف وأمرني بالكلام، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أطعته، وأذعنت له لأنه رجل شريف.

أيها القوم: يقول الشريف بروتس إن قيصر كان رجلاً طماعاً، وأنا لا أستطيع أن أخالفه فيما يقول؛ لأنه رجل صادق لا يكذب.

أنا لا أستطيع أن أقول إن قيصر كان رجلاً قانعاً معتدلاً؛ لأن الشريف بروتس يقول غير هذا.

كل ما أستطيع أن أقوله إن الفدية التي افتدى بها أعداؤنا أسراهم الذين جاء بهم إلى روما قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها.

كل ما أستطيع أن أقوله إنني رأيت قيصر بعيني يبكي لبكاء الفقراء ويحزن لحزنهم، ويبيت الليالي ذوات العدد ساهراً لا يغمض له جفن حدباً بهم، وعطفاً عليهم. كل ما أستطيع أن أقوله إنني عرضت بنفسي تاج الملك على قيصر في «لوبركال» عدة مرات فأباه زهداً فيه، وتعففاً عنه.

كنت أستطيع أن أقول إن الطمع لا يسكن قلباً مثل هذا القلب ولا يخالط فؤاداً مثل هذا الفؤاد، لولا أن بروتس يقول إن قيصر رجل طماع وأنا لا أستطيع مخالفته؛ لأنه رجل شريف.

أيها الرومانيون: إنكم أحببتم قيصر قبل اليوم حباً جمّاً، فما الذي يمنعكم اليوم من البكاء عليه.

إن لم تبكوه لصفاته الكريمة، فابكوه لأنكم كنتم تحبونه، ابكوه لأنه كان بالأمس ينطق بالكلمة فتدوي في صدور العظماء دوي الرعد في آفاق السماء، فأصبح اليوم مطرَحاً مهيناً في ظل هذا الحائط، ولا يجد بين الناس من يأبه له، ولا من يعطف عليه. أيها العقل الإنساني: كيف حالت حالك، وتغيرت أيك؟ وكيف انتقلت من الصدور الإنسانية، إلى الصدور الوحشية، وكيف ضللت سبيلك، وعميت عليك مذهبك، فحسبت الخير شراً، والشر خيراً، واختلط عليك الأمر، فلم تستطع أن تميز بين الحسنات والسيئات والمكارم والجرائم.

أيها الرومانيون: عفواً إن هذيت بينكم، أو أسأت إليكم، واعلموا أن الحزن قد قسم فؤادي قسمين: قسم على هذا المنبر، وقسم في ذلك النعش.

أيها الأصدقاء: إن بين جنبي قلبًا يخفق بحبكم والعطف عليكم والرفقة بكم ولولا مخافة أن تنفجر صدوركم حزنًا وجزعًا لقلت لكم: إن قيصر قتل مظلومًا. إنني أعتقد أن بروتس ورفاقه قوم شرفاء عظماء؛ لذلك أحب أن أسوء نفسي وإلى قيصر وإليك قبل أن أقول إنهم أخطأوا في قتل قيصر. «وهنا صمت أنطونيوس وأرسل من جفنيه بضع قطرات من الدموع».

الانقلاب

أحد الناس (يقول لصاحبه): يلوح لي أن فيما يقول الرجل شيئًا معقولًا. آخر: إنك إذا أنعمت النظر وجدت أن قيصر قد أسوء إليه. آخر: لقد أضر في نفسي زهده في تاج الملك. آخر: لقد أحزنني عليه أنه كان يبكي رحمة بالفقراء. آخر: إن الذي يرثي لبؤس البؤساء لا يكون طماعًا ولا ظالمًا. آخر: إذن فسيكون لمقتل قيصر شأن غير الشأن الأول. آخر: لا بد من عقاب القاتل. آخر: (يقول لجليسه): أنظر إلى أنطونيوس فهو يبكي وينتحب. آخر: ليس في رومة رجل أشرف من أنطونيوس. أنطونيوس: أتأذنون لي أن أفارق موقعي هذا لحظة، لأقف قليلاً بجانب جثة القتيل؟

الشعب: نعم ... نعم.

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل إلى جثة قيصر، وهو لا يزال في ملابسه التي قتل فيها، ولا تزال طعنات الخناجر ظاهرة في قبائه) ثم قال: أنطونيوس: من كان يملك منكم دموعاً فليعدها لهذا الموقف العظيم، فإنه موقف يحتاج إلى كل ما في عيونكم من دموع. إنكم تعرفون جميعاً هذا القباء، ولكنكم لا تعرفون من تاريخه شيئاً، أنا أعلم أن قيصر لبسه أول ما لبسه في مساء اليوم الذي انتصر فيه على «الدفى» ذلك الانتصار العظيم الذي نالت به روما فخر الأبد. (ثم وضع يده على أحد الثقوب التي في القباء وقال): في هذا القباء الشريف مزقت جثة هذا الفاتح العظيم.

ومن هذا الثقب مرَّ خنجر بروتس إلى صدر قيصر. ومن هذا الثقب أطل دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب، وأحسب أن جميع أفراد النوع الإنساني قد مرُّوا بخاطر قيصر واحدًا واحدًا قبل أن يمر بخاطره صديقه: «بروتس».

عرف قيصر أن قاتله هو صديقه، وصنيعة إحسانه، ففترت همته، وعجز عن المقاومة؛ لأن الطعنة التي أصابته في جسمه، لم تكن بأقل من الطعنة التي أصابته في قلبه، ولم يكن منظر المدى والخناجر، أبشع في نظره من منظر الخيانة والغدر، هنالك عجز قيصر عن أن يقول شيئاً غير الكلمة التي ودع بها قاتله الوداع الأخير: «وأنت أيضًا يا بروتس»؟

وهناك تحت تمثال «بومباي» وجد قيصر قتيلاً وقد لف وجهه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل.
ها أنتم تبكون على قيصر، فشكراً لكم على هذه الدموع الكريمة التي طهرتم بها ما لوُثِّت به يد الظلم تربة هذه الأرض من الدماء.

إنكم تبكون لمنظر قباء قيصر الممزق، فكيف بكم لو شاهدتم ما تمزق من جثته؟.
(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه، وقال):

إن في كل جرح من هذه الجروح لساناً يشكو إليكم، فاستمعوا له فهو أنطق من لسان الرثاء.

أحد الناس: يا له من منظر فظيع!

آخر: ورحمته لقيصر!

آخر: إن يوماً يُقتل فيه قيصر ليوم شرُّه مستطير!

آخر: يا للدناءة والسفالة!!

آخر: يا للغدر والخيانة!!

آخر: الانتقام. الانتقام.

الشعب (وهو يضجُّ ضجيجاً عظيماً): حَرِّقُوا القتلة، مَرِّقُوهم، لا تَبْقُوا على أحد منهم.

أنطونيوس— مهلاً. مهلاً، أنا لا أريد أن أشعل بينكم فتنة عمياء ولا أريد أن تطالبوا القتلة بالدماء التي أراقوها، فإنني لا أزال أعتقد أنهم قوم شرفاء وربما كانوا يعرفون أسباباً لقتله لا نعرفها، وإنما أريد أن أقول لكم: إن قيصر كان يحبكم حباً جماً، فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم عليه.

لولا أنني أؤثر البقاء عليكم، ولولا أنني أحب تخفيف ما أَلَمَّ بقلوبكم من الحزن على فقيدكم، لتلوت عليكم وصيته؛ لتعلموا أن الرجل كان يحبكم وأنه ما كان خليقًا أن يقتل بينكم، وفيكم عين تطرف وعرق ينبض.

الشعب: اقرأ الوصية.

أنطونيوس: إنني أخاف على صدوركم أن تنشقَّ حزنًا على القتل الشهيد.

الشعب: نريد سماع الوصية.

أنطونيوس: إنه يعطي كل فرد من أفراد الشعب الروماني خمسة وسبعين فرنكًا، ويوصي بجميع غاباته ومنترهاته للأمة.

أحد الناس: يا له من رجل كريم!

آخر: يا له من رجل شريف!!

آخر: ويل للقتلة!

آخر: الثورة. الثورة.

آخر: سنحرق منزل بروتس.

ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع روما تدفق الأمواج الثائرة في القاموس المحيط.

أنطونيوس (في موقفه وحده): أيتها الفتنة العمياء قد أيقظتك من مرقدك فارفعي

رأسك وامضي في سبيلك، واشتعلي حتى يحرق لسانك أديم السماء ووجه الغبراء.

وهكذا استطاع أنطونيوس في موقف واحد أن يستعبد الشعب الروماني لنفسه

قبل أن يفيق من استعباد قيصر له وكذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لا مفر لها من إحدى

العبوديتين: إما العبودية لحملة التيجان، أو لحملة البيان.

الفصل السابع والستون

الكبرياء

حضرة السيد الفاضل

لي في البلدة التي أسكنها كرامة الحاكم؛ لأنني أشغل وظيفة عالية فيها، وقد بدا لي أن أختلف إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاختلفتُ حتى فاجأني يومًا من الأيام ما لم يكن في الحساب.

حدث أن صعلوكًا يعرفني، ويعرف مقامي، تمادى في وقاحته وسوء أدبه، حتى وقف بجانبني في الصلاة، فاشمأزت نفسي من هذا الأمر اشمئزًا عظيمًا، وحاولت أحتمله فلم أستطع، فخفت إن أنا طردته أن يؤاخذني الناس به، فهل تعرف مسوِّعًا شرعيًّا يفرِّق بين درجات الناس في مواقف الصلوات؟
«سائل»

يا مولانا الحاكم:

رحماك بهذا الصعلوك المسكين الواقف بجانبك، لا تضمن عليه بمذقة من ظلك الظليل أن تمتد إليه فتقيه أشعة التصعلك الحارة التي يتلظى فيها، ولا تحرمه نفحة من نفحاتك العطرة التي تهب من بين أردانك علَّه يجد فيها روح الحياة، ويتنسم منها نسيم السعادة والهناء، فيهدأ ساعة من الزمان عن الشعور بمصائبه ورزاياه، وأحسن كما أحسن الله إليك، إن الله يحب المحسنين.

ليفرخ روعك وليتلج صدرك، واعلم أن هذا المسكين الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم، وبرَّح به الشقاء، أن يقطع قطعة من سعادتك أو يفتلذ فلذة من شرفك، فشرفك كالمصباح تستمد منه المصابيح، ونوره نوره، وبهاؤه بهاؤه.

لا تظلم الرجل ولا تقل إنه وقح الوجه، أو سيئ الأدب؛ فإنني — بما أعلم من أخلاق هؤلاء البائسين وطباعهم وآمالهم التي تعتلج بها صدورهم وتهتف بها أحلامهم — أعتقد أنه ما وقف بجانبك إلا طمعاً في دورة الفلك التي علت بك، وأنزلتكم منازل العظماء، أن تدور به كذلك فتنزله منزلتكم، وتعلو به إلى مقامك، فاغفر له جهله وقصوره، فمثلك من يقيل العثرة ويستر الزلة.

إنك تريد مني أن ألتمس لك من أبواب الشريعة الإسلامية باباً يسوغ لك طرد هذا الصعلوك المجترئ عليك من موقفه الذي اختاره لنفسه بجانبك فاسمع ما ألقى عليك. إن الذي وقفت بين يديه في مصلاك أعظم شأنًا وأجلُّ خطرًا، من أن يحفل بثوبك اللامع، وجبينك الساطع، وردائك المطرز، وقميصك المحبر، وأن يعرف لك من الفضل والشرف أكثر مما تعرف لصاحبك فما كان له أن يأمرك بالتقدم عليه في موقف الصلاة، ولا أن يأمره أن يقف منك موقف العبد من السيد، والمحكوم من الحاكم. إن للجمعة والجماعة فضائل كثيرة، وحكمًا جمّة، أَرادها الشارع منهما، وإنك لن تجد بين هذه الحكم، وتلك الفضائل، حكمة أغلى، ولا فضيلة أنفس من خلق التواضع الذي يشعر به العظيم عندما يرى أنه قد وقف من الفقير في ذلك الموقف المقدس موقف الأخ من أخيه والكفيء من كفيئه.

إن كنت تريد يا مولانا الحاكم من اختلافك إلى المسجد ألا تترك للفقير موقفًا من المواقف يملك فيه الخيار لنفسه، حتى موقفه بين يدي ربه، فخير لك أن تستصحب معك عند ذهابك شرطتك وأعوانك لتأمرهم فيه بما يرضيك من طرده وإقصائه والتنكيل به جزاء له على وقاحته وسوء أدبه، فإن تم لك من ذلك ما أردت، فاحذر أن تنطق بعد ذلك بكلمة العبودية، بعدما نطقت بكلمة الألوهية، حتى لا تجمع على نفسك بين رذيلتي الظلم والرياء.

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم أن الله لا يقبلها منك ولا يجزل لك ثوابها، حتى تقف بين يديه موقف من خالطت خشية قلبه، وملكت عليه السكينة سمعه وبصره، فلم يعد يبصر شيئاً مما حوله، ولا يعلم أواقف هو في صفوف الملوك، أو في زمرة الصعاليك؟

أيها العظماء:

ليست العظمة التي تعرفونها لأنفسكم إلا منحة من الفقراء إليكم فلولا تواضعهم بين أيديكم ما علوتم. ولولا تصاغرهم في حضرتكم ما استكبرتم، فلا تجزؤهم بالإحسان سوءاً، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر، تستدفعوا النقم، وتستديموا النعم.

أيها العظماء:

ما هذه القصور التي تسكنونها، ولا هذه الدور التي تعمرونها، وهذه الأودية التي تجرون أذيالها، إلا ألواناً وأصباغاً لا علاقة بينها وبين حقائق نفوسكم، ولا صلة لها بجواهر أفئدتكم وقلوبكم، وما هو إلا أن تطلع عليها شمس الحقيقة حتى تذهب بها ذهابها بألوان السحاب وأصباغ الثياب، فإذا أنتم عراة مجردون، لا تشفع لكم إلا فضائلكم، ولا تنفعكم إلا مواهبكم ومزاياكم.

أيها العظماء:

لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشؤونكم، فإن كنتم من أرباب الفضائل فحري بالفاضل أن لا يشوه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء، أولاً، فما تحمل الأرض على ظهرها أسمج وجهاً، ولا أصلب خدّاً من جهلة المتكبرين، فانظروا أين تنزلون، وفي أي مقام تقيمون؟

الفصل الثامن والستون

الانتحار

قرأت في بعض الصحف أن رجلاً من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد، أو شدة مرض، أو بؤس حال، بل لأنه حزن على وفاة صديق له فقتل نفسه.

إن الرجل المؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتحر، فكيف هان عليه، وهو في آخر يوم من أيام حياته، أن يضم إلى خسارة دنياه، خسارة آخرته، وهي العزاء الباقي له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء وعناء؟

إن الانتحار نزعة فاسدة وعادة مستهجنة، رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتهما.

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك الشرقيين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في شرفهم وكرامتهم، وكنا إذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهاك، قلنا يوشك أن يقتل الشرقي نفسه بنفسه إذا علم أن تلك عادة من العادات الغربية، فقد صار قريباً ما كان بعيداً، وأصبح مألوفاً ما كنا نعدّه فرضاً من الفروض.

الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجبن والخور، وما يصل إليه العقل من الاضطراب والخبيل، وأحسب أن الإنسان لا يقدم على الانتحار، وفي رأسه ذرة من العقل والشعور.

حب النفس غريزة ركبها الله تعالى في نفس الإنسان لتكون ينبوع حياته وعماد وجوده، والمنتحر يبغض نفسه أشد مما يبغض العدو عدوه، فهو شاذ في طبيعته، غريب في خلقه، معاند لإرادة الله تعالى في بقاء الكون وعمرانه، ومن كان هذا شأنه كان بلا قلب ولا عقل.

لا عذر للمنتحر في انتحاره مهما امتلأ قلبه بالهم ونفسه بالأسى، ومهما أَلَمَّتْ به كوارث الدهر، وأزمت به أزمات العيش؛ فإن ما قدم عليه أشد ممًا فر منه، وما خسره أضعاف ما كسبه.

لو كان ذا عقل لعلم أن سكرات الموت تجمع في لحظة جميع ما تَفَرَّقَ من آم الحياة وشدائدها في الأعوام الطوال، وأن قضاء ساعة واحدة فيما أعد الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه، وما يكابده من مصائب حياته وأرزائها لو يعمر ألف سنة.

ما أكثر هموم الدنيا، وما أطول أحزانها، لا يفيق المرء فيها من همٍّ إلَّا إلى همٍّ، ولا يرتاح من فاجعة إلَّا إلى مثلها، ولا يزال بنوها يترجون فيها ما بين صحة ومرض، وفقر وغنى، وعز وذل، وسعادة وشقاء، فإذا صح لكل مهموم أن يمقت حياته، ولكل محزون أن يقتل نفسه، خلت الدنيا من أهلها، واستحال المقام فيها، بل استحال الوفود إليها، وتبدلت سُنَّةُ الله في خلقه، ولن تجد لِسُنَّةِ الله تبديلًا.

ما سمي القاتل مجرمًا إلَّا لأنه قاسي القلب متحجر الفؤاد، وأقسى منه قاتل نفسه، لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول، فهو أكبر المجرمين، وأقسى القاتلين.

يخدع المنتحر نفسه إن ظن أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة، وأنه إنما يفعل فعلته عن روية وبصيرة، فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزق الأول من مآزق الموت حتى يثوب إلى رشده وهداه ويحاول التخلص ممَّا وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلًا.

إن ألقى نفسه في الماء تخبط وبسط يده إلى من يرجو الخلاص على يده وود لو يفترق نفسه بكل ما تملك يمينه، وإن حبس نفسه في غرفته ليموت مختنقًا بالغاز ولو سقط عليه سقف الغرفة ليستشق نسمة من نسيمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل، فاسد السمع والبصر.

إن فكرة الانتحار نزغة من نزغات الشيطان، وخطرة من خطرات النفس الشريرة، فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليترث ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت، وآلام النزع، وماذا يكون حديث الناس عنه بعد موته، وهل يمكن أن يوجد بينهم عاذر له أو مشفق عليه، أو مقتصد في النيل منه والسخرية به؟ وليعرض على مخيلته قبل ذلك أشكال العذاب وأنواع العقاب التي أعدها الله في الدار الآخرة لأمثاله.

الانتحار

إنني لا أظنه بعد ذلك فاعلاً إلا إذا كان وحشاً في ثوب إنسان، أو بطلاً من أبطال
المارستان.

الفصل التاسع والستون

الحياة الشعرية

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس أحياناً لسمح في نظرهم وجه الحياة الحسية ومر مذاقها في أفواههم، حتى ما يغتبط حي بنعمة العيش، ولا يكره ميت طلعة الموت. لذلك ترى كل حي يهرب من الحياة الحسية جد الهرب، لاجئاً إلى الحياة الشعرية من أي باب من أبوابها؛ لأنه يرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يريح فؤاده، ويثلج صدره، وينفي عن نفسه السامة والضجر من صنوف المناظر وأفانين المشاهد، وغرائب المؤتلفات، وعجائب المختلفات.

لولا حب الحياة الشعرية ما وجد في الناس كثير من المولعين بتخدير أعصابهم كشاربي الخمر ومدخني الحشيش وأكلي الأفيون. وهي وإن كانت في نظرهم حياة سعادة يتخللها شقاء، إلا أنها خير عندهم من حياة شقاء لا تتخللها سعادة، ولولا حب الحياة الشعرية ما وجد في الناس هذا الجم الغفير من الشعراء المتخيلين والعابدين المتبتلين.

لا يجد السكير لذة العيش وهناءته إلا إذا أسلم نفسه إلى كأس الشراب فنقلته من هذا العالم البسيط المحدود إلى عالم واسع النطاق، شاسع الأطراف يرى فيه كل ما تشتهي نفسه أن تراه، فإن كان قبيح الوجه مشوه الخلقه تخيل أنه شرك الأبصار، وفتنة النظر، وأن القلوب محلقة على جماله تحليق الأطيار على الأشجار، وإن كان فقيراً معدماً لا يملك فلساً واحداً توهم أنه جالس على عرش الملك والصولجان في يمينه، والتاج فوق رأسه واعتقد أن عبيد الله تعالى جميعاً عبيده، وجنود المملكة بأسرهم جنوده، حتى ذلك الجندي الذي يسحبه على وجهه إلى غرفة السجن ليقضي فيها ليلته، وجملة القول أن عينه لا تقع على ما يحزنه من المنظورات، وأن أذنه لا تسمع ما ينفره

من المسموعات، حتى ليرى الجمال الباهر في وجه العجوز الشمطاء، ويسمع في صوت الرعد القاصف ألحان الغناء.

ولا يشعر المتعبد بنعيم الحياة إلا إذا جنَّ الليل، وأوى إلى معبده، وخلا بنفسه، فتخيل أن له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطير بها في جو السماء فيرى الجنة والنار، والعرش والكرسي، ويسمع صرير القلم في اللوح، ويقرأ في أم الكتاب حديث ما كان وما يكون.

ولا يستفيق الشاعر من هموم الحياة وأكدارها ومصائبها وأحزانها، إلا إذا جلس إلى منضدته، وأمسك بيراعه، فطار به خياله بين الأزهار والأنوار، وتقل به بين مسارح الأفلاك ومسابع الأسماك. ووقف تارة على الطلول الدوارس، يبكي أهلها النازحين وقطانها المفارقين. وأخرى على القبور الدوائر، يندب جسومها الباليات، وأعظمها النخرات.

ليس الأمل إلا باباً من أبواب الحياة الشعرية، ولا يوجد بين قلوب البشر قلب لا يخفق بالآمال العظام والأمانى الحسان؛ فالأمل هو الحياة الشعرية العامة التي يعيش في ظلها الناس جميعاً أذكى وأغبياء، فهماء وبلداء، والأمل هو السد المنيع الذي يقف في وجه اليأس، ويعترض سبيله أن يتسرب إلى القلوب، ولو تسرب إليها لضاعت بالناس هذه الحياة وثقل عبؤها على عواتقهم، فطلبوا الخلاص منها ولو إلى الموت، طلباً للتغيير والانتقال، وشغفاً بالتحوّل من حال إلى حال.

يقولون: أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء، ويقولون: ما لذة العيش إلا للمجانين. أتدري لماذا؟ لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين، وذلك أن عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية والمغالطات الشعرية، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائق الملموسة ولا يسمح له علمه بأحوال الدنيا وشؤونها، ومعرفته أن المصائب والآلام لازم من لوازمها التي لا تفارقها، يؤمن منها في طبيعتها من دوام السرور واستمرار الهناءة، فلا يطلب سعة العيش من وراء الأمل كبقية المؤمنين، ولا يتلذذ بتصديق ما لا يكون تلذذ المجانين.

والحق أقول، لولا الحياة الشعرية التي أحيانا أحياناً في هذه الكلمات التي أكتبها، لأحببت، زاهداً في هذه الحياة الحسية، أن تطلع الشمس من مغربها إيداناً بانقضاء العالم وفنائه، ولتمنيت حباً في الانتقال من حال إلى حال أن أنتقل ولو إلى رحمة الله.

الفصل السبعون

رباعيات الخيام

وقفت برباعيات عمر الخيام^١ يوماً من الأيام كما يقف مسافر ضل به سبيله في فلوات الأرض ومجاهلها بواي معشب أريض في وسط فلاة جرداء عند منقطع العمران، فما خطوت فيه بعض خطوات حتى رأيت ما شاء الله أن أرى من أنوار بيضاء، وورود حمراء، وألوان من النبات، مشتبهات وغير مشتبهات، وغدران مطردة متسلسلة تنبسط في تلك الديباجة الخضراء تبسط النجوم البيضاء في الديباجة الزرقاء وأسراب من الحمام والعصافير والبلابل والشحارير، تتطاير من فرع إلى فرع، وتنتقل من غصن إلى غصن، وتجتمع لتفترق، وتفترق لتجتمع، وتتقاتل مرة، وتتلاءم أخرى، وتصعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء، ثم تهبط حتى تصافح صفحة الماء، ولا تزال تغرّد في صعودها وهبوطها تغريداً مختلف النغمات، متنوّع النبرات، فيتألف من ذلك الاختلاف والتنوع نغم لذيذ لا أعرف له شبيهاً إلا تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها في نغم الحور الحسان، في فراديس الجنان.

فلم أزل أتقلب في أعطاف تلك الغلائل الخضراء، وأجرّ ذيول تلك الجداول البيضاء، وأقلب طرفي فلا أرى رائحاً ولا غادياً. أتسمّع فلا أسمع هاتفاً ولا داعياً، حتى وقف بي الحظ على دوحة فرعاء، ماثلة على رأس بعض الجداول، وقد اضطجع في ظلها على قطيفة من ذلك العشب الناعم رجل هانئ باسم، يقرأ تارة سورة الجمال في وجه فتاة جالسة بين يديه، ويقبل أخرى ثغر الكأس التي تتلأأ في يمينه، ويترنم بين هذا

^١ عمر الخيام: شاعر فارسي كان في القرن السادس من الهجرة، ورباعياته هذه مترجمة إلى أكثر لغات العالم.

وذاك بمقطوعات شعرية بديعة، يمثل فيها جمال الطبيعة وهدهدها وسعادة الوحدة وهناءتها، ويطير بأجنحة خياله في عالم بديع من عوالم الغيب، تاركاً هذا العالم الحافل بالهموم والآلام، طارداً عن نفسه كل خاطر من خواطر الشرور والآثام؛ ليستكمل لذته في الحياة التي يحياها بين ظله ومائه وكأسه وفتاته.

فإن مر بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عز وسلطان، ولذة واستمتاع، قال: ما لي وللملك والسلطان، والحاشية والجند، والقصور الشَّمَاءِ، والجنان الفياض، هنالك المحنة والشقاء، والفتنة الشعواء، والهموم والأرزاء، والدماء والأشلاء، والعويل والبكاء، وهنا الراحة والسكون في ظلال الوحدة والانفراد، حيث لا سيد ولا مسود، ولا عابد ولا معبود، وبين هذين الثغرين: ثغر الفتاة، وThغر الكأس، وذينك الصديقين: هذا الكتاب المفتوح، وذلك الغصن المثل، كل ما يتمنى السعداء لأنفسهم من غبطة في الحياة وهناءة.

وإن ذكر الآخرة وما أعد الله فيها من العذاب للمسرفين على أنفسهم قال: إن من العجز أن أبيع عاجل السعادة المعلوم بأجلها المجهول، أنا اليوم موجود، فلا بد أن أستمتع بمتعة الوجود، أما الغد فلا علم لي به. ولا بما قُدِّرَ لي فيه، وعسير عليّ أن أتصور أننا معشر الأحياء الناطقين قطع من المعدن الصامت تدفن اليوم في باطن الأرض لينبش عنا النابشون غداً.

ثم يعود إلى نفسه مستغفراً الله من ذنبه في شكه وارتيابه فيقول: اللهم إنك تعلم أنني ما كفرت بك مذ آمنت، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضمّر المؤمنون الموحدون، فاغفر لي آثامي وذنوبي، فإني ما أذنبت عناداً لك، ولا تمرّداً عليك، ولكنها الكأس غلبتني على أمري، وحالت بيني وبين عقلي وأنت أجَلُّ من أن تقاضيني مقاضاة الدائن غريمه؛ لأنك كريم. والكريم يمنح العطية منحاً، ولا يقرضها قرضاً، ويسبغ نعمته الوارفة الظليلة حتى على العصاة والمجرمين.

وأحياناً يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكي أحياءهم وأمواتهم، ويقول مخاطباً فتاته: رويداً أيتها الفتاة في خطاك على هذه الأعشاب النابتة، فلعل جذورها ممتدة إلى كبد فتاة مثلك كان لها قلب مثل قلبك، ووجدان مثل وجدانك، وجمال ورواء مثل جمالك وروائك، ثم ضرب الدهر ضرباته فإذا أنت في غلالة هذه الأشعة البيضاء، وإذا هي في دجنة تلك الأعماق السوداء، فارقني بها، واسكبي هذه الفضلة من كأسك على تربتها علّها تتسرب إليها فتطفئ ذلك اللاعج الذي يعتلج بين جوانحها.

ثم يتخيل أحياناً كأنه واقف بين يدي رجل خَزَّاف يحرق حمأته في تنوره فيقول له: رحمة أيها الخزاف بهذه النار، فقد كانت بالأمس إنساناً مثلك، وستكون أنت في مستقبل الأيام حمأة مثلاً، وربما ساقك القدر إلى يد خزاف تحتاج إلى رحمته ورفقه، فافرق بها اليوم يرفق بك خزافك غداً.

وأونة يلبس ثوب الواعظ المذر فينعي على السعداء سعادتهم، ويذكرهم بما آلت إليه حال الملوك السالفين، والأقوال الماضين، من خرائب دورهم وعمران قبورهم، وغروب شمسهم، وعفاء آثارهم.

ثم ينتقل من ذلك إلى البكاء على نفسه، وترقب ذلك اليوم الذي تصوِّح فيه زهرته، وتنطفئ جذوته، وتضعف منته، ويمحو نهار مشيبه ليل شبابه، فيزحف إلى قبره خطوة خطوة حتى يتردى فيه، فيعود كما كان سرّاً مكتوماً في ضمائر الأقدار، وذرة هائمة في مجاهل الأكوان.

وهكذا ما زال ينتقل من عبرة بليغة، إلى عظمة بديعة، ومن خيال جميل إلى تشبيه رقيق، ومن وصف ناطق، إلى تمثيل صادق، حتى أصبحت أعتقد أن هذه النفس التي تشتمل عليها بردة هذا الشاعر الجليل مرآة صافية قد تمثل فيها هذا الكون بأرضه وسماؤه، وليله ونهاره، وناطقه وصامته، وصادحه وباغمه، وأنَّ فخار الأعراب بمُتَنَبِّئِهَا وَمَعْرِئِهَا، والفرنسة بلامرئينها وفيكتورها، والسكسون بشكسبيرها، وملتونها، والطلليان بدانتها، والألمان بجيتها، والرومان بفرجيلها، واليونان بهوميها، ومصر القديمة بينتأؤورها، ومصر الحديثة بأحمدها، لا يقل عن فخار فارس بخيامها.

الفصل الحادي والسبعون

إلى تولستوي^١

قف ساعة واحدة نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك، وتتخذ السبيل إلى دار عزلتك، فقد عشنا في كنفك على ما بيننا وبينك من بعد الدار، وشط المزار، عهدًا طويلًا كنا فيه أصدقاءك، وإن لم نرك، وأبناءك وإن كان لنا آباء من دونك، وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضي حق عشرتك بدمعة نذرفها بين يديك في موقف الوداع.

حدثنا الناس أنك ضقت بهذا المجتمع الإنساني ذرعًا بعد أن أعجزك إصلاحه وتقويمه فأبغضته، وعفت النظر إليه، وأبغضت لبغضه كل شيء حتى زوجك وولدك، ففررت بنفسك منه إلى غاب تسمع زئير سباعه، أو دير تأنس برنة ناقوسه، وأسجلت أن لا تعود إليه وأن تقطع كل صلة بينك وبينه إلى الأبد، فعذرناك، ولم نعتب عليك، ولم نسلك جبانًا ولا رعيديًا، ولا موليًا ولا مدبرًا؛ لأنك قاتلت فأبليت، حتى لم يبق في غمدك سيف، ولا فوق عاتقك رمح، ولا في كنانتك سهم، والعدو كثير عدده، صعب مراسه، وافرة قوته، والشجاعة في غير موضعها جنون، والوقوف أكثر من ثمانين عامًا أمام عدو لا أمل في براحه، ولا مطمع في زياله: عناد، وهل يكون مصيرك إن أنت ثبت في موقفك حتى سقطت قتيلًا في المعركة إلا مصير أولئك الفلاسفة العظماء من قبلك الذين قاتلوا حتى قتلوا فهدرت دماؤهم، واغتمضت عيونهم قبل أن يروا منظرًا من مناظر الصلاح والاستقامة في المجتمع البشري يعزون به أنفسهم عن أنفسهم، ويروّحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزاع، وفي أفواههم من مرارة الموت.

^١ كتبت هذه المقالة على أثر ما جاء في الأخبار أن (تولستوي) الفيلسوف الروسي المشهور ترك منزله هائمًا على وجهه ليعتزل الناس في أحد الأديرة، أو في إحدى الغابات.

ماذا لقيت من الدنيا؟ وما الذي أفدت منها؟ وأين وقع علمك وفضلك؟ ولسانك وقلمك؟ وقوة عارضتك؟ ومضاء حجتك، من آثام الناس وشرورهم وقسوة قلوبهم وأفئدتهم، وظلم ألسنتهم وأيديهم؟

قلت لقيصر: أيها الملك، إنك صنيعة الشعب وأجير، لا إلهه ومعبوده، وإنك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الأكار في المزرعة، وذلك العامل في المصنع، كلاكما مأجور على عمل يعمل، وكلاكما مأخوذ بإتقان ما يعمل، فكما أن صاحب المصنع يسأل العامل هل وقى عمله ليوفي له أجره، كذلك يسألك الشعب: هل قمت بحماية القانون الذي وكل إليك حراسته فأنفذته كما هو من غير تبديل ولا تأويل؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟ هل استطعت أن تستخلص عقلك من يدي هواك؟ فلم تدع للحب ولا للبغض سلطاناً على نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومحجته؟ وهل أصممت أذنك عن سماع كلمات الملق والمداهنة والمدح والثناء؟ فلم تفسد على الناس فضائلهم، ولم تقتل عزة نفوسهم ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك، أو الطمع في ضعفك، مذهب الزلفى إليك بالكذب والنميمة والتجسس، والتسقط، وذلة الأعناق وصرع الخدود؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه، وراك أميناً على العهد الذي عهد إليك به، أبقي عليك وأبقى لك عرشك وتاجك، وحفظ لك يدك التي اصطنعتها عنده، وأحسن إليك كما أحسنت إليه، أو لا، كان له معك شأن غير هذا الشأن، ورأي غير ذلك الرأي.

فما سمع منك هذه الكلمات حتى أكبرها وأعظمها؛ لأنه لم يجد بين الكثيرين الذين يعاشره من يسمعه مثلاً فحقد عليك وأضمر لك من الشر ما يضر أمثاله لأمثالك، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل لبعدهم لمقاتلة الحق ومصارعته في مواقف خوفه وقلقه.

وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل أن تملك وحدك — وأنت نائم في سريرك، بين روضك ونسيمك وظلك ومائك — هذه الأرض التي تضم بين أقطارها مليون فدان، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين — الذين يفلحونها ويحراثونها، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها، ويسوقون ماشيتها، ويتقلبون بين حرها وبردها وأجيجها وثلجها — شبراً واحداً فيها، فاعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك، وموتهم في سبيل حياتك، واعلم أن الأرض لله يورثها من يشاء.

ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من نفسك، فعمدت إلى أرضك فجعلتها قسمة بينك وبين القائمين عليها من الزارعين، ثم عمدت إلى فأسك فحملتها، وماشيتك فأخذت بزمامها، ولم تزل سائرًا حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التي استبقيتها لنفسك فضربت مع الضاربين، وخضت مع الخاضعين! لتعلم ذلك الجبار بفعلك ما لم تستطع أن تعلمه إياه بقولك، فسخر منك، ورثى لعقلك، وألف من أحاديثك رواية غريبة يروّج بها عن نفسه — في مجتمعات أنسه ولهوه — ما يساوره من السأمة والضرر.

وقلت للكهّان: إن المسيح عاش معذبًا مضطهدًا لأنه لم يرض أن يقر الظالمين على ظلمهم، وإنه أبى أن يخفي المصباح الذي في يده تحت ثوبه، بل رفعه فوق رأسه غير مبالٍ بنقمة الملوك على ذلك النور الذي يكشف سواتهم، ويهتك أستارهم، وأنت تزعم أنك خليفته، وحامل أمانته، والقائم بنشر آياته، والمت رسم مواقع أقدامه في خطواته، فما هذه الجلسة الذليلة التي أراك تجلسها تحت عروش الظالمين؟ وما هذه اليد التي تبسطها إليهم بالمودّة والإخاء كأنما تريد أن تعقد بينك وبينهم عهدًا أن يظلموا ما شاءوا ويسلبوا ما أرادوا باسمك واسم الكتاب الذي تحمله في يدك، وما هذه السلطة التي تزعمها لنفسك أن تدخل الجنة من تشاء، وتخرج منها من تشاء؟ وما هذه القصور التي تسكنها، والديباج الذي تلبسه، والعيش البارد الذي تنعم به؟ وأنت الراهب المتبتل الذي كتب على نفسه الانقطاع عن الدنيا وزخرفها إلى عبادة الله والانكماش في طاعته.

ذلك ما قلت للكّهّان، فكان جوابه أن أرسل إليك كتاب الحرمان، وهو يعلم أنك لا تعترف له بالقدرة على إعطاء ولا منع، ولكنه أراد تشويه سمعتك والغض من كرامتك، وإغراء العامة بك، فكان ذلك كل ما أفدت من نصيحتك وعظتك.

وأبكاك منظر المنفيين في سيبيريا، وما يلاقون من صنوف العذاب ويعالجون من أنواع الآلام، فصرخت صرخة دوى بها الملآن: الأعلى والأدنى، وقلت: أيها الناس إن الشر لا يدفع الشر، وإن الأشقياء مرضى فعالجوهم ولا تنتقموا منهم، فالتربية الصالحة تمحو الجرائم، والانتقام يلهب نارها، واجعلوا المدارس مكان السجون، والمعلمين مكان السجانين. فلم يسمع صرختك سامع، ولا بكى لبكائك باك، وما زال القضاة يحكمون، والجنّد يصادرون، والسجانون يعذبون، والمسجونون يصرخون.

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة في معارك الحروب، وبكاء النساء المعولات خلف أزواجهن وأولادهن وإخوتهن، وهم سائرون إلى حرب لا يعرفون لها مصدرًا ولا موردًا،

وقد حمل بعضهم لبعض ضغائنَ وسخائمَ لا سبب لها إلا ذلك الوهم الذي غرسه في قلوبهم قساة السياسة فخيل إليهم أنهم أعداء وهم أصدقاء، فخلعوا ثوب الإنسان ولبسوا فروة السبع، وأنشَب كل منهم ظفره في صدر أخيه كأنه يفتش عن قلبه لينتزعها من مكانه، ذلك القلب الذي لو شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكاناً علياً لولا جور السياسة وظلالها.

فما أغنى عنك بكاؤك وحنينك، ولا أجدى عليك عويلك وأنينك، فالحرب لم تزل باقية، ومصانع الموت لم تكتف بما أعدت من المهلكات لمعارك الأرض حتى أصبحت تعد مثلها لمعارك السماء.

فهنئاً لك أيها الرجل العظيم ما اخترتَ لنفسك من تلك العزلة الهادئة المطمئنة، لقد نجوت بها من حياة لا سبيل للعاقل فيها إلا أن يسكت فيهلك غيظاً، أو ينطق فيموت كمدًا.

ربما استطاع الحكيم أن يحيل الجهل علماً، والظلمة نوراً، والسواد بياضاً، والبحر برّاً، والبر بحرّاً، وأن يتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء. ولكنه لا يستطيع أن يحيل رذيلة المجتمع الإنساني فضيلة، وفساده صلاحاً.

ما دام الإنسان لا ينتهي عن ظلم الإنسان حتى يخافه، وما دام لا يحسن إليه إلا إذا أراد أن يتخذه عبداً يعبده من دون الله، وما دام للأثرة هذا السلطان الأكبر على أفراد المجتمع، ومن أكبر كبارهِ إلى أصغر صغاره، فإنسان اليوم هو بعينه إنسان الغابات والأحراش بالأمس، لا فرق بينه وبينه سوى أنه قد أوى اليوم بشروره ومفاسده إلى بيت من الزجاج يفعل فعلاته من ورائه، ولكن الزجاج شفاف لا يكتُم ما وراءه.

الفصل الثاني والسبعون

وارحمتاه^١

في ذلك الإقليم القاحل في تلك الصحراء المحرقة طائفة من فقراء المسلمين وبائسيهم، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله، والثقة به، ولا من الحياة غير السنة تهتف بها في صباحها ومساءها، وبكورها وأصائلها بالدعاء إلى الله تعالى أن يتولى أمرها، ويسدد خطاها، وييسر لها السبيل إلى الخلاص من عدوها القاهر الذي نزل بها في دار أمنها وسكونها نزول القضاء النافذ، يريد أن يسلبها ما أبقت الأيام في يدها، وما أبقت في يدها سوى لقيمات غير سائغة، وجرعات غير هنيئة، وظل غير ظليل.

وارحمتاه لجماعة المسلمين في طرابلس، إنهم عاجزون عن أن يعدّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير أجسام ستصبح عمّا قليل أشلاء مبعثرة تحت كل كوكب، وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات المدافع والبنادق فتسكن، وأرواح ستطير في آفاق السماء طيران ذلك الدخان في أجواز الفضاء.

وارحمتاه لهم، إنهم يستغيثون فلا يجدون مغيثًا، ويستصرخون فلا يسمعون مجيبًا، وقد تقطعت بهم الأسباب، وأعوزتهم الوسائل، وسُدَّت في وجوههم السبل، فلا يبق لهم منها إلا سبيل الموت، وفي الموت راحة البائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها، لولا أنهم يتركون من بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم أرامل ضعفاء، وأيتامًا صغارًا، وشيوخًا كبارًا، لا يعلمون ماذا أضمر لهم القدر في صدره من نعيم أو شقاء.

كأنّي أراهم وقد غلت في صدورهم حمية الدين والوطن ودارت في رؤوسهم سكرة العزة العربية، فأبَوْا إلا أن يزحفوا إلى الموت الأحمر زحف المستقتل المستبسل الذي يعلم

^١ كتبت أثناء الحرب بين إيطاليا وطرابلس الغرب.

أن باب الحياة السعيدة الأبدية لا يفتح إلا بين يدي الأرواح التي احتقرت أجسادها وازدردتها، فتجردت من أثوابها الرثة البالية وألقته من ورائها، وكأنني أرى الرجل منهم، وقد دخل إلى بيته ليعدّ عدّته، ويودع أهله الوداع الأخير، فبكت أمه وناحت زوجته وصاح ولده، فبكى لبكائهم، ورنّ لرنينهم، لا جزعاً من الفراق، لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى، ولا خشية من الموت، لأنه يعلم أن الحياة الذليلة أحقر من أن يرضن بها صاحبها، بل مخافة أن تستبد بأعراض بيته وحرماته، تلك الأيدي الظالمة التي لا ترحم صغيراً، ولا تعطف على كبير، أو أن يهلكوا من بعده جوعاً وفقراً؛ لأنه لم يترك لهم قوتاً يتبلّغون به، ولا عماداً يعتمدون عليه، فإذا علم أن موقفه بين أهله موقف جليل يكاد يغلب فيه على صبره، نظر نظرة في السماء أرسل فيها إلى ربه جميع ما تهافت به نفسه القريحة من وجد ورحمة وبكاء وحنين، وأمل ورجاء، ثم انفلت من بين أيديهم، ومضى لسبيله لا يلوي على شيء مما وراءه، حتى يبلغ ساحة الحرب، فلا يزال يقرع باب الحياة الأخرى حتى يفتح له.

هناك تنوح النائحات، وتبكي الباقيات، وتطير النفوس، وتصعق القلوب، وترن المنازل والدور بالنحيب والتعداد، وهناك ترى المرأة المسلمة المخبأة التي لم ترَ في حياتها وجه الشمس إلا من كوة بيتها: برزة الوجه، عارية الرأس حيرى مولعة هائمة في الطرق والمذاهب، تسائل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها، فإذا بقيت في حيرتها بياض يومها وسواد ليلها، وإما عادت إلى بيتها بالثقل القاتل والحزن الدائم، وهناك ترى الشيوخ الكبار والأطفال الصغار، والعاجزين والضعفاء لاثنين بالتلال والآكام، يحاولون أن يتقوا بها صواعق الحرب وشهبها، فلا تقيهم، أو عائدين بالمضايق والشعاب يفرون إليها من وجوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم، وهناك ترى أولئك القوم الذين يسمون أنفسهم مجاهدين، أو فاتحين، أو قوّاداً عظاماً، أو سواساً كباراً، يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشية الفرح المختال، وينظرون إلى أولئك المساكين الذين سرقوا حريتهم واستقلالهم، وانتهبوا أرواحهم وأموالهم، نظر السيد إلى مولاه الذي ملك ولاءه بماله، واستعبده بفضلته وإحسانه، وربما رموا إليهم في تلك الساعة بلقيمات كتلك التي يلقيها سيد الكلب إلى كلبه، أو الراعي إلى ماشيته، ليشهدوا العالم الإنساني أجمعه على كرمهم وسخائهم، وعظفهم ورحمتهم، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الأوصال، ولا أيّموا النساء، ولا يتّموا الأطفال، ولا انتهكوا الحرمات إلا خدمة للإنسانية العامة وإجلالاً لشأنها.

لا أحسب أن مسلمًا دخل الإيمان قلبه فملأه رحمة وإحسانًا، وعطفًا وحنانًا، يستطيع أن يتخذ لجنبه في ظلمة الليل مضجعًا، أو يجد لنفسه في ضحوة النهار قرارًا، حزنًا على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم في مشارق الأرض ومغاربها يلتمسون ناصرًا يعينهم على أمرهم، أو منجدًا يدفع عنهم عادية البلاء فلا يجدون إلا أممًا إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل، فهي تعجز عن النظر لنفسها، فأحرى ألا تنظر لغيرها، فلم يبق بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوهم بقليل من القوت يستعينون به على جهاد عدوهم ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتصورون جوعًا من بعدهم.

أيها المسلمون:

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفًا هو أقرب إلى الله، وأدنى إلى رحمته وإحسانه، وأجلب لمغفرته ورضوانه، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين، تطعمون جائعهم، وتكسون عاريهم، وتسلمون أعزلهم، تعالجون جريحهم، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده.

إنكم إن تحسنوا إليهم تحسنوا إلى أنفسكم، وإن تنقذوهم من كربتهم تنقذوا جامعتكم وملتكم، فإن بينكم وبينهم لحمة أقوى من لحمة النسب، وشيعة أوثق من وشيعة القربى، وإنكم جميعًا تَصْلُونَ إلى قِبَلَةٍ واحدة، وتهتفون في الغداة والعشي بذكر واحد، وتتوجهون بقلوبكم في نعمائكم وبأسائكم إلى إله واحد، وتقفون في بيت الله بين حرمة والمقام موقفًا واحدًا.

أيها المسلمون:

إنكم إن اجتمعتم اليوم لن تفرقوا غدًا، وإن هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلوا من بعده أبدًا، وإنكم إن قدَّمتم بين أيديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم، ووفى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته، ﴿وَإِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

الفصل الثالث والسبعون

خطبة الحرب

يا أبطال برقة، وليوث طرابلس، وحماة الثغور، وذادة المعازل والحصون، صبرًا قليلًا في مجال الموت، فها هي نجمة النصر تلمع في آفاق السماء، فاستنبروا بنورها، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم.

إن الله وعدكم النصر، ووعدتموه الصبر، فأنجزوا وعدكم وينجز لكم وعده. لا تحدثوا أنفسكم بالفرار، فوالله إن فررتم لا تفرون إلا عن عرض لا يجد له حاميًا، وشرف لا يجد له ذائدًا، ودين يشكو إلى الله قومًا أضاعوه، وأنصارًا خذلوه. إنكم لا تحاربون رجالًا أشداء، بل أشباحًا تتراءى في ظلال الأساطيل، وخيالات تلوذ بأكناف الأسوار والجدران، فاحملوا عليها حملة صادقة تطير بما بقي من ألبابها، فلا يجدون لبنادقهم كفاً ولا لأسيافهم ساعدًا.

إنهم يطلبون الحياة، وأنتم تطلبون الموت، ويطلبون القوت، وتطلبون الشرف، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم، وتطلبون جنة عرضها السموات والأرض، فلا تجزعوا من لقاءهم، فالمت لا يكون مرًا المذاق في أفواه المؤمنين.

إنكم تعتمدون على الله، وتثقون بعدله ورحمته، فتقدموا إلى الموت غير شاكّين ولا مرتابين، فما كان الله ليخذلكم، ويكلّمكم إلى أنفسكم، وأنتم من القوم الصادقين.

إن هذه القطرات من الدماء التي تسيل من أجسامكم ستستحيل غدًا إلى شهب نارية حمراء تهوي فوق رؤوس أعدائكم فتحرقهم، وإن هذه الأتات المتصاعدة في صدوركم ليست إلا أنفاس الدماء صاعدة إلى إله السماء أن يأخذ لكم بحقكم ويعيدكم على عدوكم، والله سميع الدعاء.

إن أعداءكم قتلوا أطفالكم، وبقروا بطون نساءكم، وأخذوا بلحى شيوخكم الأجلء فساقوهم إلى حفائر الموت سوقًا، فماذا تنتظرون بأنفسكم؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم وأصدقوا حملتكم عليهم، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل أرض وتحت كل سماء، وأزعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم، ويقتلهم ومنامهم، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين!

احفروا لأنفسكم بسيوفكم قبورًا، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا يكون حفرة من حفر النار.

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين، ولا الوسطة بين الطرفين، ولا العيش الذي هو بالموت أشبه منه بالحياة، بل اطلبوا إما الحياة أبدًا، وإما الموت أبدًا.

غداً ينتهك أعداؤكم حرمة أرضكم ودياركم، ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم، ويطأون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم، وينظمون في ثقب أنافكم مقاود يقودونكم بها إلى مواقف الذل والهوان، كما تقاد الإبل المخشومة إلى معاطنها، فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون. موت الجبان في حياته وحياة الشجاع في موته، فموتوا لتعيشوا، فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم. إن هذه الأساطيل الرابضة على شواطئكم، والمدافع الفاغرة أفواهاها إليكم، والبنادق المسددة إلى صدوركم ونحوركم، لا يمكن أن يتألف منها سور منيع يعترض سبيلكم في رحلتكم من هذه الدار إلى تلك الدار، فسيروا في طريقكم إلى آخرتكم؛ فإن الأعداء إن ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت.

المستميت لا يموت، والمستقتل لا يقتل، ومن يهلك في الإدبار أكثر ممن يهلك في الإقدام، فإن كنتم لا بد تطلبون الحياة فانترعوها من بين ماضغي الموت.

إن كُتِّب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم، ووضعوا صحائفهم بين أيديهم، وانتظروا ماذا تملون عليهم من حسنات أو سيئات، فأملوا عليهم من أعمالكم ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تركته في نفوسكم تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأولئك الأبطال العظام.

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غداً أذلاء.

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم، وتنشدوه فيعجزكم.

موتوا اليوم شهداء في ساحة الحرب تكفنكم ثيابكم، وتغسلكم دماؤكم وتصلي عليكم ملائكة الرحمن، قبل أن يسبق قضاء الله إليكم فيموت أحدكم فلا يجد بجانبه مسلمًا يصلي عليه صلاة الجنازة ثم يمشي وراء نعشه إلى قبره حتى يودعه حفرته، ويخلي بينه وبين ربه.

خطبة الحرب

إن الشيخين أبا بكر وعمر، والفارسين خالدًا وعليًّا، والأسدين حمزة والزبير،
والفاتحين سعدًا وأبا عبيدة، والبطلين طارق بن زياد وعقبة بن نافع وجميع حماة
الإسلام وذادته، من السابقين الأولين والمجاهدين الصابرين، يشرفون عليكم اليوم من
علياء السماء؛ لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذي تركوه في أيديكم، فامضوا لسبيلكم،
واهتكوا بأسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم، وقولوا لهم: إنا بكم لاحقون، وإنا
على آثاركم لمهتدون.

إن هذا اليوم له ما بعده، فلا تسلموا أعناقكم إلى أعدائكم؛ فإنكم إن فعلتم لن
يُعبدَ الله بعد اليوم على ظهر الأرض أبدًا.

الفصل الرابع والسبعون

الإنسانية العامة

الجامعة الإنسانية هي الكلية العامة التي يلجأ إلى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته أزمة، أو نزلت به نازلة، وهي المطلع الذي يشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنبئ ظلماءه، وتكشف غمائه، وهي الحكم العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها، ويدبُّ دبيب العداوة والبغضاء بين أحيائها، وهي السلطان المطلق الذي يجلس على كرسي عظمته وجلاله، فتخر له الجباه سُجَّدًا، وتبتدر يديه الأفواه لثمًا وتقبيلاً.

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الأساسية الثابتة التي رأت طينة آدم أولاً، وسترى نفخة إسرافيل آخرًا والتي تسير مع الإنسان حيث سار في بره وبحره وسهله وحزنه وحياته وموته، وتدور معه حيث دار في إيمانه وكفره وصلاحه وفساده، واستقامته واعوجاجه، لا يتغير لونها ولا يتحول ظلها، ولا تستحيل مادتها، ولا تبلى جدتها على كَرِّ الليالي ومر الأيام.

ما من جامعة من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينية أو العائلية إلا وهي تعتمد على الجامعة الإنسانية في سيرها وتستظل بظلها، وتهتدي بهديها، فالمجاهد الوطني يقول: إني أدافع عن وطني، وأحمي حوزته، وأقوم على ثغوره وعوراته مقام الذائد المناضل؛ لأنني أعتقد أنني إن أغفلت ذلك وأغفله في وطنه كل ممنوٌ بمثل ما أنا ممنوٌ به في وطني تساقطت الحواجز القائمة في وجه المطامع البشرية، فجرى سيلها متدفعًا لا يقوم له شيء حتى يأتي عليه، والمجاهد الديني يقول: إني أعتقد أن الإنسانية لا تزال معذبة يأكل قويُّها ضعيفها، ويغتال كبيرها صغيرها، ويستضعف حاكمها محكومها، حتى تدين بالدين الذي أدين به، فأنا إن حاربت البلاد، وقاتلت العباد، فإنما

أريد بخوض هذا البحر الأحمر من الدماء أن أصل إلى سفينة الإنسانية المشرفة على الغرق، فأستخلصها من يد الموت الذي يحيط بها.

هكذا يقول دعاة الدين ودعاة الوطن، ودعاة كل جامعة، وهكذا يجب أن يقولوا، فإن لم يفعلوا، وأبوا إلا أن يغفلوا ذكر الجامعة الإنسانية في دعائهم إلى جامعاتهم التي يدعون إليها، فسد عليهم أمرهم في كل ما يقولون وما يفعلون.

ليس لصاحب وطن من الأوطان، أو صاحب دين من الأديان أن يقول لغيره ممن يسكن وطنًا غير وطنه، أو يدين بدين غير دينه: أنا غيرك، فيجب أن أكون عدوك؛ لأن الإنسانية وحدة لا تكثر فيها ولا غيرية، ولأن هذه الفروق التي توجد بين الناس في آرائهم ومذاهبهم، ومواطن إقامتهم وألوان أجسادهم، وأطوالهم وأعراضهم إنما هي اعتبارات ومصطلحات، أو مصادفات واتفاقات، تعرض لجوهر الإنسانية بعد تكوينه واستتمام خلقه، وتتوارد عليه توارد الأعراض على الأجسام، ففي كل بلد وفي كل عصر يستعجم العربي ويستعرب الأعجمي، ويسلم المسيحي ويتمسح المسلم، ويلحد المؤمن، ويؤمن الجاحد، ويستشرق المغربي، ويستغرب المشرقي، ولو شئت أن أقول لقلت إنه لا يوجد فوق رقعة الأرض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ينتهي طرفها الآخر بوطن غير وطنه، ودين غير دينه، وأمة غير أمته.

إذا جاز لكل إقليم أن يتنكر لغيره من الأقاليم، جاز لكل بلد أن يتنكر لغيره من البلاد، بل جاز لكل بيت أن ينظر تلك النظرة الشذراء إلى البيت الذي يجاوره، بل جاز للأب أن يقول لولده، وللولد أن يقول لأبيه: إليك عني، لا تمد عينيك إلى شيء مما في يدي، ولا تطمع أن أوثرك على نفسي بشيء مما اختصاصتها به؛ لأنني غيرك، فيجب أن أكون عدوك المحارب لك، وهناك تنحل كل عقدة وتنقسم كل عروة، ويحمل كل إنسان لأخيه بين أضلاعه من لواجم البغض والمقت ما يرنق عيشه، ويطيل سهره، ويقلق مضجعه ويحبب إليه صورة الموت، ويبغض إليه وجه الحياة، وهناك يصبح الإنسان أشبه شيء بذلك الإنسان الأول في وحشته وانفراده، يقلب وجهه في أفاق السماء، وينبش بيديه طبقات الأرض فلا يجد له في الوحشة مؤنسًا، ولا على الهموم مُعِينًا.

الجامعة الإنسانية أقرب الجامعات إلى قلب الإنسان، وأعلقها بفؤاده، وألصقها بنفسه؛ لأنه يبكي لمصاب من لا يعرف — وإن كان ذلك المصاب تاريخًا من التواريخ، أو أسطورة من الأساطير، ولأنه لا يرى غريقًا يتخبط في الماء، أو حريقًا يتلظى في النار، حتى تحدثه نفسه بالمخاطرة في سبيله، فيقف وقفة الحزين المتلهف إن كان ضعيفًا،

ويندفع اندفاع الشجاع المستقتل إن كان قوياً، ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب فيخفق قلبه وتطير نفسه لأنه يعلم أن أولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانية، وإن لم يكن بينه وبينهم صلة في أمر سواها، ولولا أن ستاراً من الجهل والعصية يسلبه كل يوم غلاة الوطنية والدين أو تجارهما على قلوب الضعفاء السذج، لما عاش منكوب في هذه الحياة بلا راحم ولا ضعيف بلا معين.

لا بأس بالفكرة الوطنية، ولا بأس بالحمية الدينية، ولا بأس بالعصية لهما، والذود عنهما، ولكن يجب أن يكون ذلك في سبيل الإنسانية وتحت ظلالها، أي أن تكون دوائر الجامعات كلها داخلية في دائرة الإنسانية العامة غير خارجة عنها، والوطنية لا تزال عملاً من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية، فإذا هي خيالات باطلة وأوهام كاذبة، والدين لا يزال غريزة من غرائز الخير المؤثرة في صلاح النفوس وهداها حتى يتمرد على الإنسانية وينابذها، فإذا هو شعبة من شعب الجنون. فإن كان لا بد للإنسان من أن يحارب أخاه أو يقاتله، فليحاربه مدافعاً لا مهاجماً، وليقاتله مؤدباً لا منتقماً، وليكن موقفه أمامه في جميع ذلك موقف العادل المنصف والشفيق الرحيم، فيدفعه قتيلاً، ويعالجه جريحاً، ويكرمه أسيراً، ويخلفه على أهله وولده بأفضل ما يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق على ولده من بعده، وليكن شأنه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

الفصل الخامس والسبعون

أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمة هائمة متبدية على الفطرة النقية البيضاء، لا تعبث الحضارة بجمالها، ولا تعبث المدنية في صورتها، شمسها في آفاقها، فتنبسط أشعتها على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها، من حيث لا تعترض في سبيلها من الظل سحب، ولا من السقوف حجب، وينبت نباتها حيث يجري ماءها، لا تعبث فيه الأيدي بتربيع ولا تدوير، ولا تقويس ولا تعريج، ويجري ماءها في سبيله حيث ينساب به تسلسله واطّرادها، لا تلوي به عن قصده الحفائر، ولا تنتصب في وجهه القناطر، ويهيم وحشها في جبالها. وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبس الأول عرين موصود. ولا الآخر قفص محدود، والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية تتمثل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وفطرتها.

ينطق العربي بما يعلم. ويقول ما يفهم ويصوّر ما يرى ويحدّث عمّا تمثل في نفسه حديثاً صادقاً لا تكلف فيه ولا تعمل. لأنّ كلا ما هو محيط به من هواء وماء وأرض وسماء. وطعام وشراب، ومرافق وأدوات على الفطرة السليمة الخالصة، فأحرى أن يكون شعره كذلك.

ذلك كان شأن الشعر العربي والعرب على فطرتهم. وذلك معنى قولهم: الشعر ديوان العرب؛ لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية، ومثال خواطرهم الحقيقية والخيالية، فإن ظن ظان أن التماثيل والنصب والصور والتهاويل، وبقايا الآثار، وقطع الأحجار التي نراها في خرائب اليونان والرومان، والفينيقيين والفراعنة، أدل على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب قلنا له: ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وقد تحدث المؤرخون بعبث الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته، أما الديوان العربي فصورة صحيحة وآية ثابتة، لا تغيير فيها ولا تبديل.

ثم جرت بعد ذلك جوارٍ بالسعد والنحس، فانتقلت الأمة العربية من بداوتها إلى حضارتها، وهاجر معها شعرها بهجرتها، فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان: بشار، وأبو نواس، فطرقوا معاني لم تكن مطروقة، ونهجوا مناهج لم تكن معروفة، فقلنا لا بأس، فالشعر العربي أوسع من أن يضيق بحاجات أمته وضرورتها، في جميع شؤونها وحالاتها، حتى جاء أبو تمام شيخ الصناعة اللفظية، فسلك إلى كثير من معانيه البديعة طريق اللفظ المصنوع والأسلوب المتكلف، فتغر في الشعر العربي ثغرة ألحَّ عليها السائرون على أثره من بعده بأظفارهم وأنيابهم حتى صَيَّرُوهَا فوهة واسعة لا تمنع ما وراءها ولا تدفع ما أمامها، فأصبح الشعر على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدي والسراج والورَّاق وأبي الحسن الجزار والصفى الحلي وأمثالهم، أشبه شيء بتلك الآنية الصينية التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم ظهرًا زاهيًا، وبطنًا خاويًا، لا تشفي غلة، ولا تبض بقطرة، ولا تسمن ولا تغني من جوع، ثم جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلة أدون من هذه المنزلة، فجاءوا بشيء هو أشبه الأشياء بتلك التفاعيل التي وضعها الخليل ميزانًا للشعر، لا يروق لفظها ولا يفهم معناها.

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر الوبيل، وقف الشعر العربي بضعة قرون وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلل، حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان رسلاً في هذا العهد الأخير أخذوا بيده، ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره فأصبحنا نرى في أبراد الكثير منهم، أجسام امرئ القيس، والنابغة، ومسلم، وأبي نواس، وأبي عبادة، والشريف، ومهيار، لا فرق بينهم وبينهم سوى أن هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار، وأولئك مبتدعون يفترون الأ Bakar.

حوانيت الأعراض

أنا لا أستطيع أن أتصوّر الفرق بين رجل يمد يده إلى خزانة بيتي فيسرق مالي، وبين آخر يمد لسانه أو قلمه إلى شرفي فيستلبه، كلاهما مجرم فاتك، وكلاهما لص مغتال، وإن كان أولهما في نظر القانون وفي عرف الناس أكبرهما إثماً، وأسوأهما أثراً.

المال خادم من خدام الشرف، وحاجب من حجابة والوقوف على بابه، ولولا مكان الشرف، والكلف بصيانته، والضم به أن يعبث بجوهره عابث، ما كان لامرئ في هذا المعدن الصامت أرب أكثر من أن يقيم به صلبه، ويمسك به حوباءه، فإن كان سارق المال مجرمًا من حيث كونه هاتكًا لذلك الحجاب المسبل دون الشرف، فجدير بمن يسرق الشرف نفسه أن يكون رأس الجانين وأكبر المجرمين.

يكون للرجل — من الصحفيين مثلاً — عند الرجل من كرام الناس وسراتهم وذوي السيرة الصالحة فيهم مأرب من المأرب التي لا يعرف لنفسه فيها حقًا، ولا يمت إليها بسبب من الأسباب الظاهرة أو الباطنة، فما هو إلا أن يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من سهامه النافذات، يصيب به مقتلاً من شرفه وكرامته، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يمكنه من لحيته يلف عثونها على يده ثم يقوده بها إلى حيث شاء كما تقاد السائمة إلى مصرعها.

يحب الرجل المجد حباً يملأ ما بين جوانحه، ويكلف به حتى يصبح أثر عنده من نفسه التي بين جنبيه، ويقضي لكلفه به وحرصه عليه سواد ليلاليه يساهر الكوكب حتى ينحدر إلى مغربه، وبياض نهاره يساير الشمس حتى تغرب في حماتها، ويقم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حرباً عواناً يحمل في سبيلها ما لا يستطيع أن يحمله بشر، حتى إذا أمكنه المقدار منه وبدأ ينهل أول نهلة من مورده البارد العذب، رآها ممزوجة بذلك العلقم المر الذي صبه له في إنائه ذلك المجرم الأثيم.

إن بين جدران بعض تلك القاعات التي يسمونها «إدارات» قومًا مفاليك قد دارت عليهم الأيام دورتها، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم، ممن ولد مولدهم ونشأ منشأهم. فضاعت بهم سبل العيش التي ما كانت تضيق بهم لو أن الله أبقى لهم بعد أن سلبهم فضيلة الفهم والعلم فضيلة العمل الصالح والسيرة المستقيمة، فلم يجدوا بين أيديهم منفذًا ينفذون منه إلى القوت، فتحوا حوانيت للتجار بأعراض الناس وكرامتهم سَمَوْهَا صُحُفًا، وأكثر مشتملاتها أعراض الأشراف والعظماء وأرباب الجد والعمل، الذين سبقوهم إلى فردوس السعادة، وخلفوهم وراءهم يتأكلون غيظًا لحرمانهم مما أفاض الله عليهم. فهم إن فتشت عنهم، وكشفت عن دخائل نفوسهم، علمت ألا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين الذين يدينون بقتل الملوك والأمراء، وأستغفر الله، فللفوضويين رأي في تلك الجرائم يرونها، وفكرة خاصة يعتقدون صحتها، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون الغادين والرائحين ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزودون، وهم مقفرو الأيدي من الزاد.

ولقد كان يكون خطبهم سهلًا ومصابهم محتملاً، لو أنهم صرحوا عن أنفسهم وأبدوا للناس صفحات وجوههم، وطلبوا قوتهم من طريق الكدية الواضحة البنية، ولكنهم مراءون مخادعون، يشتمون باسم الموعظة ويقرضون الأعراض باسم النصيحة، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية أو الأدبية، ووالله ما بهم من أدب ولا دين، ولا عظة ولا نصيحة، ولكنهم قوم محدودون، قد بلغت الفلاكة منهم مبلغًا، وضاعت بهم الأرض الفضاء على رحبها، فهم يروّحون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء، وتنغيص لذة السعداء. ويطلبون قوتهم فيما بين هذا وذاك من يد تلك الفئة الساذجة التي لا تستطيع أن تفرق بين الكاتب الذي يكتب ليقوم معوجًا، أو يصلح مختلًا، أو يرفع بدعة باطلة، أو يكشف عن حقيقة خافية، وبين الآخر الذي يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس، لا يفارقه حتى تفارقها، والذي لا يلذه شرب الماء إلا ممزوجًا بدم. ووالله ما أدري ما الذي أقامهم هذا المقام وعهد إليهم هذا العهد، ومن الذي وكل إليهم النظر في شؤون الناس والفصل في قضاياهم، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم وما هم بالبررة الأتقياء الذين يصلحون أن يكونوا أمثلة حسنة في منازلهم، فيكونوا قدوة صالحة في أمتهم، ولا بالعلماء الفضلاء فنهتدي بهدايمهم، ونستن بسنتهم، ولا بالصادقين المخلصين فنتعبد بإجلالهم وإعظامهم، بل ليس لواحد منهم فضل الصانع في مصنعه، أو التاجر في حانوته، أو العامل في معمله، فيصلح أن يكون حكمًا في قضايا

الأشراف والنبلاء، وميزاناً لحسناتهم وسيئاتهم. وعندي أن لو جمعت عيوب الناس جميعها في كفة ميزان، ووضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة والكذب والنميمة والتجسس، وهتك الأعراض، واتهام الأبرياء، واستهواء الضعفاء، لثقلت كِفَتُهُمْ أمام كِفَّة الذين يزعمون أنهم يَقُومُونَ معَوجَّهُمْ ويثقفون منادهم، ويصلحون ما فسد من شؤونهم.

الفصل السابع والسبعون

الرثاء

ما أنس لا أنسى رجلاً كان خير من لقيت من الرجال، وكان يعجبني منه أدبه وفضله، وعفته وحيائه، وشرف نفسه، وطهارة قلبه، وأنه كان صبوراً محتملاً تفرع الخطوب صفاة قلبه فتردد عنها ثانية، كما ترد الكرة عن الحائط إذا قرعتها. كان فقيراً لا يملك من الدنيا أكثر مما يقيم صلبه، ويمسك حوباءه ويستر سواته، فزوجه أبوه بابنة عم له لم يكن مثلها في دمايتها، وسوء خلقها، وجفاء طبعها، ممن يطمع مثله في جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبعه، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه؛ لأنه كان برّاً به، مطيعاً له، نازلاً عند أمره ونهيه، وعن مجافاة زوجه واطراحها والانقباض عنها؛ لأنه كان واسع الصدر، فسيح رقعة الحلم، رقيقاً بالضعفاء والعاجزين، فتزوجها وفي نفسه من المضمض والألم ما يلهب الجوانح، ويذيب لفائف القلوب.

وأذكر أنني على طول عشتري له، ولصوق نفسي بنفسه، ما سمعته يشكو إليّ يوماً من الأيام ما كان يعالجه من سوء عشتريها، ويكابده من شرورها التي لا تغبه ليلها ونهارها ثقة بالله ورحمته، وإيثاراً لفضيلة الصبر والجلد، وسكوناً إلى ما جرت به الأقاليم في ألواح المقادير. فكنت أرحم صمته وسكونه، وأرثي لجمود عينيه عن البكاء؛ لأنني أعلم أن نيران الأحزان لا يسكن اضطرامها، ولا يهدأ اعتلاجها، إلا باطراد العبرات وتساعد الزفرات. وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأطاييها؛ أنه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين إلى أحد أصدقائه في الريف فيقضي عنده يومين أو ثلاثة ثم يعود وفي ثغره ابتسامة تتلألأ تتلألأ نجمة الصبح قبل انحدارها إلى مغربها ثم لا تلبث أن تتلاشى، ولا يلبث أن يعود إلى جموده الأول، لا يحزن فيبيكي، ولا يفرح فيبتسم،

حتى يخيل للناظر إليه أنه يعيش في عالم غير هذا العالم، ولا يظلمه ليل ولا يضيئه نهار.

قضيت في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من دخيلة نفسه ما يحسب أنني أجهله فأكتمه ذلك العلم جهدي رفقا به وإشفاقا عليه، حتى زرتة في منزله ذات يوم فرأيتة جائئا في مقعده الذي كان يقتعده من غرفته وقد أطرق إطرافا طويلا ذهل فيه عن نفسه فلم يشعر بدخولي حتى أخذت مكاني، فرفع رأسه فأدهشني من منظره اصفرار وجهه وذبول عينيه، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه، ثم نظر إلي نظرة طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل وقال:

- أعتقد أن الله موجود؟ قلت: نعم، معالجا نفسي على كتمان ما كان يذهب بلبي من تنكر حاله، وتغير أطواره.

قال: وتعتقد أنه عادل؟ قلت: نعم.

قال: وراحم؟ قلت: نعم.

فبسط يده إلي فعل الضارع المستصرخ وقال:

- هل لك أن تحدثني أيها الصديق عن نزول الصواعق، وثورة البراكين، وطغيان البحار، وغرق السفن، وانتشار الأوباء، وفتك الأدوية، ونكبات الفقر والجوع، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء، والضلوع التي لا تزال ملتهبة بنيران الهموم والأحزان؟ هل تعتقد أن ذلك كله عدل من الله ورحمة؟

قلت: نعم، إن الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا فيدخر لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدررون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها.

قال: إن الله أكرم من أن يجعل الشر طريقا إلى الخير، وألا يحسن إلى عباده إلا بعد أن يسلبهم الإساءة.

قلت: ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

قال: إنه كتب على نفسه الرحمة.

قلت: نعم، إنه أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء.

قال: حدثني عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسه شر، ولم يتسرب إلى قلبه كيد، ما لي أراه مفترشا حجر أمه وقد تولى الليل إلا أقله يتقلب على مثل جمر الغضى مما يساوره من الآلام؟ فينتفض تارة ويختلع أخرى، ويصرخ صرخات تستمطر الدموع،

وتحول بين العين وبين الدموع؟ وما لي أرى أمه باكية مولهة، ذاهلة اللب موجعة القلب، تفزع لفزعاته، وتصرخ لصرخاته، وقد اختبل عقلها والتاث أمرها، وعظم يأسها، وفنيت حيلتها وقلّ مساعدها وضعف ناصرها، فأنشأت تقلب وجهها في السماء ضارعة إلى الله تعالى أن يأخذ بيدها ويرحم نفسها برحمة ولدها، وبينما هي تنتظر صوت الإجابة يرن في آفاق السماء، إذا بها تسمع حشرة الموت في صدر ولدها، وإذا به ينزع نزغاً مؤلماً يطير باللب، ويذهب ببقية الصبر، حتى تفيض نفسه، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى أصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رافة؟

قلت: وما يدريك لعل الله أراد به خيراً فرحمه بالموت المعجل من حياة علم أنه سيلقى فيها مثلما تلقى أنت اليوم من الشقاء الممض والعذاب الأليم؟ فنالت هذه الكلمة من نفسه، وجمد أمامها جموداً طويلاً، ثم قال: أحسنت أيها الصديق، ليت الذين يشقون في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا، وحقارة شأنها، فيتمنون لو لم تلدهم أمهاتهم، ولم يكتب لهم سطر واحد في الوجود، وبعد فهل لك في سفرة معي إلى ذلك الصديق الريفى نقضي عنده يوماً واحداً ثم نعود؟ على أن تكون معي كما كان موسى مع الخضر، لا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً؟

فوافيت رغبته، وقبلت شرطه ثم قام وقمت، ولو أنني ملكت في هذه اللحظة الدنيا بحذافيرها لوهبتها لمن يكشف لي سر صديقي ويدلني على مكان نكبته التي زعزت نفسه، وصهرت قلبه، وملكته عليه لبه، وكادت تعبت ببقيته، وما هي إلا ساعات حتى بلغنا المنزل الذي أردناه، وقد أطل الليل بجناحيه، فقضينا واجب التحية والسلام، ثم خلا الصديق بصديقه خلوة طويلة لا أعلم ما دار فيها بينهم، ثم خرجا إليّ فجلسنا ساعة نتحدث. ثم قمنا إلى فراشنا فنمت نوماً متقطعاً مملوءاً بالوساوس والهواجس، فما انتصف الليل حتى شعرت أن صديقي يتحرك في فراشه، ويطل النظر إليّ ليعلم أنائم أنا أم مستيقظ؟ فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى اختلاساً حتى وصل إلى المشجب فلبس أثوابه، ثم تسلل من الغرفة فخفق قلبي خفقة الرعب والفرع وقلت: لا بد أن الرجل يريد بنفسه شراً، وأنا أكون ألأم الناس إن أنا تركته يصنع بنفسه ما يشاء، فقامت على أثره أتتبع خطواته، وأسير وراءه من مدرجة إلى أخرى، حتى بلغ مقبرة البلد، فوقف هنيهة يشرف على تلك النواويس العظام التي جثمت في أمكنتها جثوم الآبال في معاطنها، ثم مشى يتصفح القبور قبراً قبراً، فخيّل إليّ أنه شبح من أشباح الموتى يهيم في أرجاء تلك المقبرة الموحشة، فملكني من الخوف

والرعب ما كاد يحل عقدة لساني لولا إجلالي هذا الموقف الرهيب، وشعوري أنني واقف على أبواب تلك الدور التي سلب خوفها العاقلين عقولهم، وأطار طائر الغمض عن أجفانهم، ونغص عليهم ما يتمنون أن يصفو من طعامهم وشرابهم، والتي ينفذ إليها كل يوم وفود البشر محمولين على أيدي أهليهم، وذوي أرحامهم. ليقدموهم بأنفسهم هدية إلى الحشرات والديدان لتأكل لحومهم وتمتص دماءهم وتتخذ من سواد عيونهم وبياض ثغورهم، مراتع ترتع فيها كما تشاء. من حيث لا يملك مالك منهم عن نفسه دفعا، ولا يعرف إلى النجاة سبيلا.

مرت بخاطري تلك الذكرى فملكت عليّ نفسي حتى ذهلت عن موقعي، وأنستني الحيرة في أمر نفسي الحيرة من أمر صديقي، وفيما يعالجه منذ الليلة من غرائب الشؤون وعجائبها، ثم استفتتُ رأيته جاثيا أمام قبر من تلك القبور جيّ العابد بين يدي معبوده، فدلقت إليه حتى دنوت منه فسمعتة يقول:

اللهم إنك تعلم أنني ما كفرت نعمتك، ولا خفرت ذمتك، ولا هتكت حرمة من حرمايك، ولا نزلت عند سخطك وغضبك، ولا تبرمت بقضائك وقدرك، وأنت أحسنت إليّ بتلك الطفلة إحساناً عظيماً لأنك أنقذت بها حياتي من همومها وآلامها، ثم لم تلبث أن سلبتنيها وشيكاً هنا ما كنت بها وأرجى ما كنت إلى قضاء ساعات العمر بجانبها، فاغفر لي جزعي وحزني فكثير عليّ أن لا أجزع ولا أحزن.

لقد تبدلت الأرض غير الأرض والسموات، وكأنما استحالت في نظري حقائق الأشياء، فأصبحت لا أرى في النجمة لألاءها، ولا في الزهرة جمالها، ولا في السماء صفاءها، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود حتى إذا ذهبت ذهب بذهابها كل شيء؟ لقد ذهبت بي الأيام فيما مضى كل مذهب، وجرعتني من كؤوس الشقاء جرعا ما احتمل فم قبل فمي مرارتها، فاغفرت لها كل ذنوبها عندي حينما أسدت إليّ تلك اليد التي أنستني جميع هموم الحياة وآلامها. وأما اليوم وقد صفرت منها يدي، وأقفر بفراقها ربعي. وحالت تلك الصفائح بيني وبينها، فلا عزاء ولا سلوى.

من لي بضربة من ضربات الدهر تذهب بذاكرتي جملة واحدة، فلا أعود أذكر أيام حياتها معي ومقعدها بجانب، وصوتها الرقيق، وحديثها العذب، وصفاء عينيها، ورونق وجهها، وصورة قومتها وجيئتها وذهوبها وضحكها وبكائها ويقظتها ومنامها، وحزنها لفراقي وسرورها بلاقائي، فإني كلما ذكرت ذلك شعرت كأن قلبي المجموع قد استحال إلى أفلاذ صغيرة تتطاير في أجواز الفضاء.

اللهم إنني أعلم أن الدنيا ليست بدار قرار، فلا أمل في البقاء فيها، والركون إليها، والاستمتاع بلذة العيش فيها، وأنها الجسر الذي يمر به الأحياء إلى دارهم الأخرى، وكل ما كنت أطمع فيه منها أن يكون لي كما للناس جميعاً رفيق يعينني على قطع تلك الشقة البعيدة، ويهون عليّ آلام وحشتها وكآبتها، فحرمتني ذلك الرفيق المعين. فكيف أسير، وأين أعيش؟

اللهم إنك سلبتني كل شيء حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ويطفئ بها المحزونون لواعج قلوبهم، فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليان الماء في القدر المحكمة الغطاء، فامنن عليّ بدمعة واحدة أطفئ بها غليلي، ولا أحسب أنك تمنعنيها، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت على نفسك أن تعالج بها نكبات المنكوبين، وبؤس البائسين.

اللهم لا ريبة في عدلك، ولا ظنة في كرمك، ولا اعتراض على قضائك وقدرك، ولا سخط في ابتلائك ومحنتك، خرج أمر نفسي من يدي، وأصبحت لا أستطيع أن أبصر ما بين يديّ، فاغفر لي سقطتي وزلي.

اللهم إنك منعنتني حظي من الحياة، فلا تمنعني حظي من الموت، فاستردّ إليك عاريتك التي أعرتنيها فقد عجزت عن حملها، وضقت ذرعاً بأمرها؛ إنك بعبادك رؤوف رحيم.

وما أتم كلمته هذه حتى صاح صيحة عظمى، ثم سقط على صفائح القبر، فعلمت أن الرجل قد انفجر، وأن الله قد استرد وديعته إليه، واختار للرجل ما عنده، فذعرت وارتعدت والتفت حولي فإذا صديقه واقف ورائي يشهد المنظر الذي أشهد، ويزرف من الدموع أضعاف ما أذرف، فدنونا منه معاً وحركناه فإذا هو ميت، فنقلناه إلى المنزل، وبتنا حول سريرته نقضي حق صحبتته تارة بالدموع وأخرى بالإطراق والخشوع، وهناك قص عليّ ذلك الصديق قصته وكشف لي عن خبيثة أمره فقال: أنه قضى زمناً طويلاً يشكو إليّ آلام نفسه التي يعالجهم من سوء عشرة زوجه وخشونة طبعها، وجفاء خلقها، ثم اقترح عليّ يوماً من الأيام أن أزوجه من أختي ففعلت رحمة به وإشفافاً عليه، من حيث لا يعلم أبوه ولا أحد من أهله بذلك فكان يزورنا في كل شهر مرة أو مرتين، وظل على ذلك عدة سنين، حتى وعكت تلك المسكينة وعكة ذهب بها إلى ربها، وتركت له فتاة في الخامسة من عمرها فكانت هي عزاء الوحيد عن كل ما فاتته من نعيم الحياة وهناءتها، وكان يختلف إليها كما كان يختلف إلى أمها، وشغف بها شغفاً

بلغ به حد الجنون، وكان كثيرًا ما يقول لي: إنني أشعر أن حياتينا أنا وهذه الطفلة حياة واحدة، وأنا إما أن نعيش معًا أو نموت معًا، وكأنه ألهم بما سيكون، فقضى الله أن تمرض الفتاة مرضة شديدة لم تمهلها أكثر من خمسة أيام ثم لحقت بأمها ولمَّا تسلخ الثامنة من عمرها، فنعيتها إليه بكتاب أرسلته إليه بالأمس، فجاء وجئت معه، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله أن يكون.

دفنت صديقي بيدي، وألحدته بجانب ابنته التي قطع جسر الحياة الطويل في لحظة واحدة شوقًا إليها، ووجدًا عليها، ثم عدت إلى بلدتي صفر الكف من ذلك الإنسان الذي كنت مالئًا منه يدي، والذي كنت أُجلُّه وأعظمه حيًّا ولا أزال أبكيه وأذكره ميتًا، وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بمواقف الصبر والجلد والوفاء والكرم عبرةً أعتبر بها حتى يجمع الله بيني وبينه.

كفى حزنًا بموتك ثم إنني نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظام وأنت اليوم أوعظ منك حيا

الفصل الثامن والسبعون

الشعر

كتب إليّ كاتب يقول: عرفناك قبل اليوم شاعرًا ما تكاد تكتب سطرًا ثم رأيناك بعد ذلك كاتبًا ما تكاد تنظم بيتًا، فلمَ لمَ تكتب في عهدك الأول، ولمَ لمَ تنظم في عهدك الثاني؟ كأنما ظن عافاه الله أنني أكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس، أو أهيم في وادٍ غير ذلك الوادي! وهل الشعر إلا نثارة^١ من الدر ينظمها الشاعر إن شاء شعرًا، وينثرها الكاتب إن شاء نثرًا؟ أو نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمائم، وأخرى من أوتار العידان والمزاهر، أو عالم من عوالم الخيال، يطير فيه الطائر بقادمتين^٢ من عروض وقافية أو خافيتين^٣ من فقر وأسجاع.

الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض الكلام فيما يعرض له من شؤونه وأطواره التي لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته، ولولا أن غريزة في النفس أن يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحًا عن نفسه، وتطريبًا لعاطفته، ما نظم ناظم شعرًا، ولا روى عروضي بحرًا.

ما كان الرجل العربي في مبدأ عهده ينظم الشعر. ولا يعرف ما قوافيه وأعاريضه، وما علله وزحافات؟ ولكنه سمع أصوات النواير وحفيف الأوراق وخيرير المياه، وبكاء الحمائم، فلذَّ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ولذَّ له أن يبكي لبكائها وينشج لنشيجها، وأن يكون صداها الحاكي لرناتها ونغماتها؛ فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم من

^١ النثارة: ما تناثر من الشيء.

^٢ القادمة: مفرد قوادم، وهي عشر ريشات في جناح الطائر.

^٣ الخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه اختفت.

شؤونه سوى أنه تلك النغمة الموسيقية العذبة الخالصة، ولا من أبحره وضروبه سوى أنها صورة من صورته، ولون من ألوانه.

ذلك منتهى نظر العربي إلى الشعر، وذلك ما دعاه إلى أن يسمى النبي الذي بعثه الله إليه شاعرًا، وهو يعلم أنه ما قصد في حياته قصيدة ولا رجز أرجوزة، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفصلات أبلغ الكلام وأفصح وأعلقه بالنفوس وآخذه بالألباب، وأملكه للعواطف والمشاعر، وأجمعه لصنوف التشبيهات البديعة، والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة، والكنائيات المستطرفة، وأمثال تيك ممًا لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه إلا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري فشبه له فسمّى ما سمعه شعرًا وسمى الناطق به شاعرًا، وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون.

ما كل موزون شعرًا، وكل ناظم شاعرًا، فالوزن ملكة تعلق بالنفس من طول ترديد المنظوم والتغني به مقطوعًا تقطيعًا يوازن تفاعيله. فهو نغمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغناء، يتمثل في قول الملك الضليل:^٤

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

كما يتمثل في قول الخليل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

ويتراءى في أوتار الحلق الناطق كما يترأى في أوتار العود الصامت.

أما الشعر فأمر وراء الأنعام والأوزان، وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحلي في جيد الغانية الحسنة، أو الوشي في ثوب الديباج المعلم، فكما أن الغانية لا يحزنها عطل جيدها، والديباج لا يزري به أنه غير معلم، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون.

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم، وما أنت ترى ألا صلة بينهما غير تلك الصلة الاصطلاحية التي لا منشأ لها سوى ما اعتاده الناس من أنهم ينظمون ما يشعرون به، وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمّت على كثير من الناس أمرهما، وهي التي أدخلت النظامين في عداد الشعراء وألقت عليهم جميعًا رداءً واحدًا لا يستطيع معه التمييز بينهما إلا القليل من الناقدین، فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات

^٤ هو لقب امرئ القيس.

المائة بيت فلا نجد بيتاً، ونتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة، وأصبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئاً غير شاعر لأنه لا يوجد بين الناس من يعجزه تصوُّر تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين.

ولقد كتب الكاتيون في تعريف الشعر وأمعنوا إمعاناً بُدَّ به عن مكانه وضل به عن قصده، وعندي أن أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير، وميزان جودته ما يترك في النفس من أثر، وسر ذلك أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه، وقوة خياله، ودقة مسلكه، وسعة حيلته، من رفع ذلك الستار المسبل بينه وبين السامع، فيريه نفسه على حقيقتها حتى يكاد يلمسها ببنانه، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه، يبكي لبكائه، ويضحك لضحكه، ويغضب لغضبه، ويضطرب لطربه، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال، فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها، وشموسها وأقمارها، ورياضها وأزهارها، وسهولها وجبالها، وصادحها وباغمها^٥ وناطقها وصامتها، من حيث لا ينقل إلى ذلك قدماً، أو يلاقي في سبيله نصباً. فإن سمع قول القائل:

وقانا لفحة الرمضاء وإد	سقاها مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلاًلاً	ألذَّ من المدامة للنديم
يصد الشمس أننى واجهتنا	فيحجبها، ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية ^٦ العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم

خيل إليه أنه يخطر في ذلك الروض البليل بين أنواره وأزهاره، خطران النسيم بين ظلاله وأشجاره، وأنه يرى بعينه أولئك العذارى السانحات، وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء، فتَوَلَّهْنَ وفَزَعْنَ إلى جوانب عقودهن يلمسهن بأطراف بنانهن، يحسبن أن قد وهت فانتثرت جواهرها على بساط ذلك الروض الأريض.

^٥ يقال: بغم الغزال إذا صوت بأرخم صوته، فهو باغم.

^٦ الحالية: لابسة الحلي.

وإن سمع قول الآخر:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا	بها أثر منهم جديد ودارس
حبست بها صحتي وجمعت شملهم	وإنني على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً	ويوماً له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية	حبثها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها	مها تدريها ^٧ بالقسي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها	وللماء ما دارت عليه القلانس

تمثل له كأنه مرَّ في ضاحية من ضواحي بغداد بدار موحشة فسمع فيها أصوات قوم يلهون ويقصفون^٨ ويقرعون الكؤوس بأمثالها، فاقترَب منها وأطل من خصاص^٩ بابها، فرأى أولئك القوم مجتمعين حول دن من الخمر قد تكاملت سنه، وشيب الدهر فوديه^{١٠} ففصدوه فسال دمه الأحمر في كؤوس من الذهب منقوشة نقوشاً فارسية قد صورت في قرارها صورة كسرى فارس ودارت في جوانبها صور فرسانه متنكبي قسيهم يطاردون بقر الوحش الهارب من بين أيديهم، ورأهم يملأون الكؤوس خمراً إلى ما يوازي أعناق أولئك الفرسان ثم يمزجونها بالماء إلى ما يغطي رؤوسهم، فتسلل من مكانه مغتبطاً بمجتمعهم، وبما هيئ لهم من الهناء والنعمة فيه، ثم مرَّ بتلك الدار بعد أيام فرأها مقفرة من أهلها لا تسمع بها نغمة ولا نامة،^{١١} فدخلها فلم يرَ فيها إلا أعواد ريحان قد يبس أكثرها، مبعثرة في جوانبها. وخطوطاً كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها في غدوها ورواحها بين أولئك الندماء فانصرف حزيناً مكتئباً يسمع صفير الريح الضاربة في جوانبها فيردد قول القائل:

^٧ ادري الصيد: ختله.

^٨ قصف: أقام في أكل وشرب ولهو.

^٩ الخصاص: كل خلل وخرق في باب أو غيره.

^{١٠} الفودان: ناحيتا الرأس.

^{١١} النامة: النغمة والصوت.

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالاً بعد حال

وإن سمع قول الآخر:

ويوم كتنُّور الإمام سجرنه^{١٢} وأوقدن فيه الجزل حتى تضرَّما
رميت بنفسي في أجيح سموه وبالعيس حتى بض منخرها دما

شعر كأن لهيب تلك الهاجرة يهب في وجهه فيشيع عنه فراراً من لفحاته، ويكاد يبكي رحمة بذلك الشبح المصهور الذي ملكت عليه تلك التنوفة الحمراء سبيله، وحالت بينه وبين نفسه، فلا هو بصابر إن رام صبراً، ولا بناجٍ إن أراد نجاء.
وإن سمع قول الآخر:

وارحمتا للغريب في البلد النا زح، ماذا بنفسه صنعا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه حزناً على ذلك الغريب الحائر، وتمنى أن لو التقى به في بعض مذهبه فعطف عليه وأنس وحشته. ثم أخذ بيده فأنزله من بيته منزلاً كريماً وأبدله أهلاً بأهل، وجيراناً بجيران.
وإن سمع قول الآخر:

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدًّا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًّا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيبي هويت لهم رشدًا
وإن زجروا طيرًا بنحس تمرُّ بي زجرت لهم طيرًا يمر بهم سعدًا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدًا

^{١٢} سجر الرجل التنور: ملأه وقودًا.

لهم جلُّ مالي إن تتابع لي غنى وإن قلَّ مالي لم أكلفهم رَفْدًا
وإنني لعبد الضيف ما دام ثاويًا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدًا

أكبر تلك المكرمة وأجلَّها، ونظر إليها وهي في علياء سمائها، نظر الفلكي إلى كوكبه الساري، وشعر كأن نورها قد لمع فامتد شعاعه إلى نفسه فأضاءها.
ولا غرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ، فلطالما كان للشعر السلطان الأكبر على النفوس العظيمة، فقد نكب الرشيد البرامكة عندما دس له أعداؤهم ذلك المغني الذي غناه هذا الصوت:

ليت هنذا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرّة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعدما قرَّبهم وأدناهم عندما دخل عليه سيف مولاه وأغراه بهم في قوله:

لا تقيلن عبد شمس عثارًا واقطعن كل رقلة^{١٢} وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودُّد فيهم وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس
فلقد ساءني وساء سوائي قربهم من نمارق وكراسي

بل عطف عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الحطيئة وأطلقه من سجنه حين سمعه يقول:

ماذا تقول لأفراخ بذني مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

^{١٢} الرقلة: النخلة التي تقوت اليد.

بل سمع النبي ﷺ قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه في قتله أخاها النضر بن الحرث على ما بينه وبينه من صلة القرابة:

أحمد يا خير ضئ كريمة	في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرَّك لو مَنَنْتَ، وربما	مَنْ الْفَتَى، وهو الْمَغِيْظُ الْمُحْنَقُ
والنضر أقرب من أصبت وسيلة	وأحقهم، إن كان عتق، يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه،	لله أرحام هناك تشقق

فبكى وقال — وهو من لا ظنة^{١٤} في عدله، ولا ريبة في حكمه —: «لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته».

لا مؤثر في نفس الإنسان مثل الشعر، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته إلا للشعر، وللشعر الفضل الأول في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ الباهر من التفوق والكمال. ولقد أحب الإنسان الشعر ناطقاً وصامتاً، أما الناطق فقد عرفته، وأما الصامت، فالتماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال: شعر، وهذه النغمات الموسيقية التي تصوّر خواطر القلوب وجداناتها فتتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق، وعاطفة الحماسة في نفس الجندي: شعر، وهدير الأمواج: شعر؛ لأنه يمثل عظمة الجبارين، وظلام الليل: شعر؛ لأنه يطلق دموع الباكين، وحفيف الأوراق: شعر؛ لأنه يمثل تناجي العشاق، وبكاء الحماثم: شعر؛ لأنه يمثل فجعة البين ولوعة الفراق، تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة، وفم الطبيعة أخرى، هي التي زخرت لنا هذه الحياة، وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض حتى أحببناها، وولعنا بها، وحرصنا عليها، وأعدنا العُدَّة للبقاء فيها. والسكون إليها، فكتبنا ودوناً وألفناً واخترعنا، وتعلمنا فعلمنا، وبنينا فشيّدنا، وغرسنا فجَنّينا، وعملنا فربحنا، واجتهدنا فأثرينا، وأملنا فسعيننا، وسعيننا فبلغنا، فكأن الشعر سر هذه الحياة، وعلة هذا الوجود، لا تطير إلينا الحقائق إلا على جناحه، ولا يطيب لنا العيش إلا في جواره، فلنمجد الشعراء كل التمجيد، ولنكبرهم كل الإكبار، فهم مشارق شمس الحكمة، ومطالع كواكب الفضل، وهم الينابيع الصافية التي يترقق مأوها، ثم يتسرب إلى الأفئدة فيملؤها سعادة وهناءة.

^{١٤} الظنة: التهمة.

الفصل التاسع والسبعون

الشهيدتان

لم تغتمض عيناى ليلة أمس؛ لأنني بُتُّ أسمع في الدار الملاصقة لبيتى أنين امرأة متوجعة، تعالج همًّا ثقیلاً، وتشكو مرضاً أليماً، ويخيل إليّ أني لا أسمع بجانبها معللاً يعللها، ولا جليساً يتوجع لها، فلما أصبح الصباح ذهبت إليها، فإذا قاعة صغيرة مظلمة لا تشتمل على أكثر من سرير بالٍ يترأى فوقه شبح مائل من أشباح الموتى، فترفت في مشيتي حتى دنوت منها، وكأنها شعرت بمكاني فحركت شفتيها تطلب جرعة ماء، فأسعفتها بها. فاستفاقت قليلاً، فوقفت بجانبها أسأئها عن خطبها، فأنشأت تقص عليّ قصتها بصوت خافت متقطع كنت كأني أنتزعه من بين ماضغيها انتزاعاً وتقول:

زوجني أبي منذ سنوات من رجل مزواج مطلق، لا يكاد يصبر على امرأة واحدة عامًا واحدًا، ولو كان للفتاة رأي في نفسها من دون رأي أوليائها لعرفت كيف أحسن الاختيار لنفسي، بل لو لم يكن في الأمر إلا أن أتبتل كما تتبتل الراهبات، أو أتزوج زواجًا ينتهي بي إلى هذا المصير، لكان لي في الرهبانية رأي غير ما يراه النساء جميعًا، ولكنني عجزت فأذعنت، وحملت إليه فاستقبلني بأحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحظى نسائه لديه، وأكرمهن عليه، فكان يرييني من ذلك ما يريب الفريسة من ابتسامة الأسد، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر المجرم يوم القصاص، فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب فتزوج فبنى وأنا أني أصبحت في المنزل وحيدة منقطعة لا مؤنس لي إلا طفلي الصغيرة فجذعت عند الصدمة الأولى، ثم نزلت على حكم القضاء الذي لا أملك ردّه ولا أعرف وجه الحيلة فيه، واحتملت طفلي إلى بيت أبي فوجدته مريضًا مشرقًا، فبكى رحمة بي،

واستغفرني من ذنبه إليَّ فغفرته له، وما هي إلا أيام قلائل حتى مضى لسبيله
مفجوعاً برزئي الذي نزل بي، فعلمت أن الدهر قد سجل عليَّ في جريدة
الشقاء أياماً طوالاً لا أعلم متى يكون انقضاؤها، ولا أدري ما الله صانع فيها،
فظللت أستكتب الناس الكتب إلى ذلك الرجل أسأله القوت؛ لأستعين به على
تربية طفله، أو التسريح، عسى أن يبدلني الله خيراً منه زكاة وأقرب رحماً،
فضن بالأولى واستعظم الأخرى، فلم أرى لي سبيلاً غير سبيل العمل، فلبثت
بضع سنين ساهرة الليل، قائمة النهار، أستقطر الرزق من سَمِّ الخياط، فلا
أبلغ منه الكفاف. حتى نال مني الجهد. فذهبت بمعضلة من الأدواء خرجت
لها عن كل ما أملك من حلية وذخيرة. وكسوة وآنية، وأصبحت لا أملك
درهماً أبتاع به قارورة الدواء، ولا أجد مزقة أمسك بها قوائم هذا السرير
المتداعي، ولم يقنع الدهر مني بذلك حتى رماني بالدهاية الدهياء التي يصغر
بجانبها كل عظيم من خطوبه ونكباته، فقد كتبت إلى ذلك الرجل منذ شهر
أصف له حالتي وأفضي إليه بذات نفسي وأسأله أن يمدني وابنتي بقليل من
القوت نمسك به تلك الصبابة التي أبقتها خطوب الأيام وأرزاؤها من أعظمنا
وجلودنا، ولبثت أترقب رجع الكتاب كما يترقب الغريق سواد السفينة، فإني
لجالسة منذ أيام على هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه إليَّ وسيئاته عندي، فلا
أفرغ من عقد إلا إلى عقد، ولا أنتهي إلا إلى حيث أبتدئ، وقد أجلسْتُ طفلي
بين يدي أتطلع إلى وجهها الساطع في ظلمات تلك الخطوب كما يتطلع الملاح
في ظلمات بحرهِ إلى نجمة القطب. إذ هجم عليَّ ذلك الظالم الجبار فاخطف
ابنتي من بين يدي من حيث لا أملك دفعاً لما نابني، ولا أجد ما أنود به عن
نفسي، إلا زفرات لا يسمعها سامع، وعبرات لا يرحمها راحم، فشعرت كأن
سهم الدهر الذي كان يروغ قبل اليوم ههنا وههنا. قد أصاب في هذه المرة
المقتل، فبت ليلتي كما يجب أن تبتي امرأة بائسة معدمة قد فجعها الدهر
بكل ما تملك يدها وبكل ما تتعلق به آمالها، فأصبحت لا تجد أمامها يداً
تنبسط إليها، ولا عيناً تبكي عليها، وقد مرَّ بي على ذلك نَيْفٌ وعشرون ليلة
لا يرقأ لي دمع ولا يهدأ بي مضجع، حتى إذا اختلست من يد الظلام نعسة
ترأت لي تلك الفتاة في نومها كأنها صارخة باكية تهتف باسمي، وكأن أباهما
يوسعها ضرباً وتعذيباً، وكأنني أحاول استنقاذاها مما هي فيه فلا أجد إليها

سبيلًا، وهأنذا أشعر أن سحابة الموت تغشّي على بصري، وأني مفارقة هذا العالم قبل أن ألقى على ابنتي نظرة أتزود بها منها قبل أن أفارق هذه الدار.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى جرّضت بريقها وتتابعَت أنفاسها وشطر بصرها، فجثّوت عند سريرها أدعو لها الله أن يعينها على أمرها، ويمدها برحمته وإحسانه. فإني لكذلك، وقد استغرقت في هذا المشهد الذي بين يديّ استغراق العابد في هيكله. إذ رأيت من خلال الدموع التي كانت تزدهم في عيني شبحًا منتصبًا عند باب الغرفة فتأملتّه فإذا رجل يمسك بيده فتاة صغيرة. فتقدمت نحوه فرأيتّه خاشعًا مستكينًا ينظر إلى فتاته نظرات الوجد والرحمة، والفتاة كأنها خرقة بالية لا يتحرك بها عضو، ولا ينبض بها عرق. فقلت: من أنت وماذا تريد؟ قال: أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه الفتاة، قلت: لعلك جئت تستغفرها من ذنبك إليها في التفريق بينها وبين ابنتها؟ قال: يا سيدي، ما زالت الفتاة منذ فارقت أمها تبكي عليها بكاءً مرًّا، وتهتف باسمها في يقظتها ومنامها، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طب، ولا ينجع فيها دواء، فلما رأيت أن الأمر قد وصل بها إلى هذا الحد جئت بها إلى أمها أرجو أن تجد بين ذراعيها شفاءً من دائها، قلت: ذلك موكل إلى القضاء، ولا يعلم الغيب إلا الله، ثم تقدمت نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها، فاحتملتها برفق حتى وضعتها بين ذراعي أمها، فما هو إلا أن هتفت الفتاة بأمها، والأم بفتاتها، حتى فاضت نفساهما معًا، كأنما كانتا من الردى على ميعاد!!

الآن وقد عدت من دفن تينك الشهيديتين، وجلست لكتابة هذه السطور، أشعر أن نفسي تسيل من بين جنبي حزنًا على تلك المرأة المسكينة، لا بل حزنًا على جميع البائسات من النساء اللواتي يقتلن الرجال كل يوم صبرًا بسيف الطلاق الماضي، من حيث لا يجدن راحمًا يرحمهن، ولا ثائرًا يثأر لهن.

الفصل الثمانون

الدعاء

وهي خلاصة قصيدة لفكتور هيجو

قومي يا بنية إلى الصلاة، فقد نزل ستار الليل، ودبَّ الشفق الأحمر في حاشية الأفق، وأطلت عيون الكواكب من فروج السحب، وأجرى البدر المنير ليقلته الفضية البيضاء على صفحة النهر، ومسحت أيدي النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار، غبار النهار.

قومي يا بنية إلى الصلاة، فقد مات النهار، وماتت بموته الآلام والأحزان والأحقاد والأضغان، والمظالم والمآثم، ولم يبقَ من تلك الأعاصير والزوابع ما يعترض وفد الدعاء في طريقه إلى أبواب السماء.

قومي يا بنية إلى الصلاة، فقد أوى الناس إلى منازلهم، والطيور إلى وكناياتها، والوحوش إلى أوجرتها، وأخذت الطبيعة مكانها من مرقدتها، ولم يبقَ من أصواتها إلا أنين الراحة المتمثل في جعجة هذه المركبة المقبلة، وجوار هذه السائمة العائدة من حقولها، ودمدمة تلك الرياح الضاربة في نواكب الأشجار، وأعالى الأبراج.

قومي يا بنية إلى الصلاة، فقد جاءت الساعة التي يجثو فيها الأطفال حول أسرتهم حفاة الأقدام عراة الرؤوس، شواخص الأبصار، يطلبون الراحة من الله تعالى لأبائهم وأمهاتهم وللناس أجمعين، فترن أصواتهم، في علياء السماء، رنين نغمات الموسيقى في أجواز الفضاء فيردها الملائكة طائرين بها إلى عرش الرحمن، فإذا فرغوا من دعائهم وقضوا حق الله عندهم، وحقهم عند أنفسهم؛ ذهبوا إلى مضاجعهم وناموا نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه الأحلام

الجميلة حول أفواههم الباسمة، كما تتطاير أسراب النحل حول أحواض الأزهار.

قومي يا بنية إلى الصلاة. واطلبي الرحمة لتلك التي التقطت ذرتك الأولى من عالمها، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريرًا قبل سريرك، ومن أحشائها مهادًا قبل مهادك، والتي قدم لها الدهر كأس شقائه ونعيمه، فشربت الأولى وآثرتك بالأخرى.

اطلبي لها الرحمة فإنها كانت طيبة القلب، طاهرة النفس، تحب حتى من لا يحبها وترحم حتى من لا يرحمها، وتبتسم ابتسامة عذبة صافية لا يمازجها ذلك الريب الذي يمازج ابتسامات النساء، وتمد يدها إلى اجتناء كل ثمرة إلا ثمرة الشجرة المنهي عنها، وكانت تقف أمام مسرح الحياة الحافل بالزخارف والتهاويل وقفة المتمهل الذي يتهم سمعه وبصره، وتنظر إليه نظرة الحكيم العاقل الذي يعلم أن السعادة الكاذبة أمرٌ مذاقًا في الأفواه من الشقاء الصادق، وأن الذين يضحكون سرورًا بهذه الصور الخالية إنما يكونون من حيث لا يشعرون، وأن الجالسين حول مائدة الشهوات واللذائذ إنما يقامرون بأنفسهم ولا بد أنهم خاسرون، فتحول بصرها، وتشيح بوجهها، وتعود أدراجها، بقلب غير مخدوع، وفؤاد غير مصدوع.

اذكري يا بنية أن تطلبي الرحمة لأبيك كما تطلبينها لأمك، فهو أحوج إليها منها، ولأن الخطايا قد أثقلت ظهره فأصبح لا يستطيع أن يرفع رأسه إلى السماء، وغلت يده، فلا يستطيع أن يمدّها إلى الله بالدعاء.

إنني أشعر يا بنيتي حينما أسمع نشيد دعائك أنني أسمع صوت انقسام القيود عن قدمي، وأن تلك السحابة السوداء التي تغطي على عيني تنقشع عنها قليلًا قليلًا وكأن جناحي المهيض قد نبت له ريش ناعم جميل أحاول أن أطير به في أعالي السماء.

اطلبي الرحمة للآباء العائدين إلى منازلهم تحت جناح الظلام بدموع منهلة، وقلوب واجمة، بعد أن سايروا الشمس من مشرقها إلى مغربها، فلم يجدوا ما يمسحون به دموع أبنائهم الذين ينتظرونهم في منازلهم.

اطلبي الرحمة للأمهات الجالسات حول أسرة أبنائهن المرضى وقد رجفت قلوبهن، وحارت أبصارهن مخافة أن يذقن مرارة الشكل والشكل كثير على قلوب الأمهات.

اطلبي الرحمة للبخل الذي يجيع بطنه ويشبع صندوقه، والأحمق الذي يتسم للمعان الحرير في صدره، والذهب في أصابعه، والملك الذي يشعل نار الحرب في أمته، ليطفئ نار غضبه، والزوج الذي لا يحاسب نفسه على ليلة سوء يقضيها خارج بيته، ويحاسب زوجه على ابتسامة تبسمها لرجل غيره، وسائر البائسين الذين لا يشعرون ببؤسهم، والأشقياء الذين يظنون أنهم سعداء.

اطلبي الرحمة لأولئك الذين عمروا الأرض وبنّوا دُورَهَا، وشادوا قصورها وزخرفوا سهولها وجبالها، وأغوارها، وأنجادها، فجازتهم سوءًا بما عملوا، وابتلعتهم في أعماق جوفها، فأصبحوا في تلك الحفرة المظلمة الموحشة التي تختلط فيها الرؤوس بالأقدام، والنعال بالتيجان، والتي ينطوي فيها كل قديم تحت كل حديث، انطواء اللجة تحت اللجة في البحر المحيط، يتألمون وينطقون، ولا يستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم، أو يلبي دعاءهم. اطلبي الرحمة لهم، فإن الدعاء الخالص يستحيل في نظرهم إلى روضة غنّاء تزهو فوق أجداثهم، واركعي فوق التربة التي يئنون تحتها، واسقيها من دموعك قطرات باردة تبلّ غلتهم، وتطفئ جذوة الحزن الملتهبة في أحشائهم؛ إنهم إلى الرحمة محتاجون وإلى الله راغبون.

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار، والعصاة والطائعين، والمُحدين والمؤمنين، وكل دارجة في الأرض، وكل سابحة في السماء، ولا تيأسي أن يستجيب الله دعائك؛ فلكل بداية نهاية، ولكل سائلة قرار.

كما أن النهر يصب في البحر، والطائر يقع على الغصن، والشمس تجري لمستقرها، والنفس تصعد إلى عالمها، كذلك أبواب السماء، مفتحة لخالص الدعاء.

الفصل الحادي والثمانون

الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسدًا أحدًا على نعمة، فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره، لو أن للأوهام سلطانًا على النفوس لما تضاءلت الفقراء بين أيدي الأغنياء، ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أربابًا من دون الله. أنا لا أغبط الغني إلا في موطن واحد من موطنه، إن رأيته يُشبع الجائع ويواسي الفقير، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون ثم أرثي له بعد ذلك في جميع موطنه الأخرى.

أرثي له إن رأيته يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ليسد في وجهه باب الأمل، وأرثي له إن رأيته يعتقد أن المال هو منتهى الكمال الإنساني، فلا يطمع في فضيلة ولا يحاسب نفسه على رذيلة، وأرثي له وأبكي على عقله إن مشى الخيلاء، وطاول بعنقه السماء، وسلم بإيماء الطرف، وإشارة الكف، ومشى في طريقه يخزر بعينه خزرًا ليرى هل سجد الناس لمشيته، أو صعقوا من هيئته؟ وأرحمه الرحمة كلها إن عاش شحيحًا جعدًا مقتراً على نفسه وعياله، بغيضًا إلى قومه وأهله، ينقمون عليه حياته، ويستبطنون ساعة حتفه.

أما الفقير فهو أسعد الناس عيشًا، وأروحهم بالًا، إلا إذا كان جاهلًا مخدوعًا يظن أن الغني أسعد منه حظًا، وأرغد عيشًا، وأثلج صدرًا فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه، ويجلس في كسر بيته جلسة الكئيب المحزون يصعد الزفرة فالزفرة، ويرسل العبرة فالعبرة، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن ربَّ صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير وعيشه، ويرى أن ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه أسطع ذبالًا وأكثر

لألاء من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق بين يديه، وأن تلك الحشية من الشعر أو
الوبر أنعم ملمسًا وألين مضجعًا من وسائد الحرير ونضائد الديباج.
لقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس أنهم يحفلون بالأغنياء لأنهم
أغنياء، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبل غلة أو يسيغ غصة، وليت شعري إن كان لا
بد لهم من إجلال المال وإعظامه حيث وجد، فلم يقبلون أيدي الصيارفة ولا ينهضون
إجلالًا للكلاب المطوّقة بالذهب، وهم يعلمون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء؟
لو عامل الفقراء بخلاء الأغنياء بما يجب أن يعاملوا به لوجدوا أنفسهم في وحشة
من أنفسهم، ولشعروا أن بدرات الذهب التي يكتنزونها إنما هي أساور ملتفة على
أقدامهم، وأغلال آخذة بأعناقهم، ولعلموا أن الشرف في كمال الأدب، لا في رنين الذهب،
وفي جلائل الأعمال، لا في أحمال المال.
فليعظم الناس الكرماء، وليحتقروا الأغنياء، وليعلموا أن الشرف شيء وراء الغنى
والفقر، وأن السعادة أمر وراء الكوخ والقصر.

الفصل الثاني والثمانون

على سرير الموت

مررت يوماً من الأيام على باب منزل صغير في أحد الأزقة الضيقة، فرأيت حوله مجمعاً حافلاً تصطك فيه الأقدام بالأقدام، وتمتزج فيه الأنفاس بالأنفاس، وقد تخلله قوم من رجال الشرطة وسمعت قائلاً يقول: «قبح الله الانتحار» وآخر يقول: «أحسبه شاباً غريباً لأنني لم أرَ عيناً تدمع عليه» فعلمت أن هناك شاباً منتحراً، وأن هذا الحادث سبب هذا الاجتماع.

لم أقنع بالإجمال، فأحببت معرفة التفصيل، فحاولت الدخول إلى المنزل فما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فتريت حتى لمحت رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فدخلت معه وهناك رأيت على سرير الموت فتىً في نحو العشرين من عمره، رقيق الجسم أصفر اللون، لم تستطع يد الموت أن تمحو كل آثار جماله، بل بقيت منه بقية كتلك البقية من الطيب التي يستنشقه الإنسان في الزهرة الذابلة.

اهتم الضابط بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه، واهتم الطبيب بجثته ليعرف علة موته، أما أنا فجلست بجانبه جلسة الكئيب المحزون أفكر في مصيبتة، وأندب شبابه وجماله، فلمحت حول سريره أوراقاً منتثرة فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب بما أفعل، علّني أجد فيها عبرة من العبر.

وما هي إلا ساعة، حتى قرر الطبيب أنه منتحر بشرب مادة الزرنخ وقرر الضابط نقل جثته إلى المستشفى، فنقلت الجثة، وانفض الجمع المزدحم، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك من أمره شيئاً.

خلوت بنفسي والأوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق، تناول كأس الحب بيده، فارتشف منها الرشقة الأولى فوجدها حلوة المذاق، فألصق الكأس بفمه، واستمر

يشرب لا يرفعها، ولم يشعر بالمرارة المتجددة في جرعاتها حتى أتى على الجرعة الأخيرة، فإذا هي السم الناقع الذي قتله وذهب بحياته.

قرأت تلك المذكرات فبكيت بكاء رحمت نفسي منه، ثم طويتها وألقيت بها بين أوراقى، وظلت على ذلك أعوامًا طويلاً.

وبينا أنا أقلب أوراقى ليلة أمس إذ عثرت بها في سفت صغير، قد اصفرَّ لونه لتقدم العهد عليه، كما يصفر الكفن حول الجثة البالية، فشعرت برعدة تتمشى في أعضائي، وتخلت أنها في هذا السفت شبح كاتبها في ذلك القبر.

ثم عدت إلى نفسي فنثرتها للمرة الثانية وأعدت قراءتها، فرأيت قلب العاشق مرسومًا فيها رسمًا صحيحًا في حالي سعادته وشقائه، وهأنذا أنشرها في الناس لتكون عبرة يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم في هذا السبيل، سبيل الحب القاتل:

١

رأيتها فأحببتها، وما كنت أعرف الحب من قبلها.

كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة، لها من الشمس نورها وجمالها، وليس لها منها حرارتها ولذعاتها.

كنت أشعر قبل اليوم كأن قلبي في صحراء هذه الحياة وحيد موحش لا يعرف القلوب، أو يعرفها ثم ينكرها، فلما أحببت رأيت بجانبه قلبًا يؤنس ويزيل وحشته، فوجدت بين جوانحي من اللذة والغبطة ما لو قسم على القلوب جميعًا ما خالطها حزن ولا مسّها ألم.

كنت أسمع باسم السعادة ولا أفهم معناها غير أنني كنت أسمعهم إذا ذكروها ذكروا بجانبها القصر والحديقة، والفضة والذهب، والسُّلطة والجاه، والشهرة والصيت، فلما أحببت اعتقدت ألا سعادة في الدنيا غير سعادة الحب، وأيقنت أن الناس جميعًا إنما يطلبون سعادة الأجسام لا سعادة النفوس، فمثّلهم كمثّل الدفين المكفّن بالحريّر والديباج، وباطنه مسرح الدود ومرتع الهوام والحشرات.

أحببتها قبل أن أعرف عنها شأنًا من الشؤون سوى أنها تحبني، فكأنني ما منحتها قلبي إلا لأنها منحنتي قلبها، وهو ثمن قليل في جانب هذه المنحة الغالية التي ما كنت أحدث نفسي بها، ولا كانت تستطيع أن تمثلها في عيني خواطر الأمانى، ولا سوانح الأحلام.

عشتُ دهرًا بين أقوام لا يعينهم أمري ولا يهمهم شأني، وذقت من آلام الحياة وشقاء العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر، فسمعت من يسألني: كيف حالك؟ ومن يقول لي: ما أشد جزعي لمصابك؟ ومن يتباكى رحمةً بي وإشفاقاً عليّ، ولكني لم أر بجانبى يومًا من الأيام عينًا تدمع، ولا قلبًا يخفق!

رأيت من يحب جمالي كما يحب تمثالاً متقن الصنع، ومن يحب مالي كما يحبه في كيسه أو خزانته، ومن يعجب بحديثي إعجابه برواية بدیعة، ولكني لم أر في حياتي من يحبني!

أما اليوم فقد وجدت بجانبى القلب الذي يخفق لأجلي، والعين التي تبكي في سبيلي، والنفس التي تحبني لا لشيء سواي، فقليل لها مني أن أمنحها حياتي، فكيف أبخل عليها بقلبي!

جلست إليها للمرة الأولى فحدثتني نفسي أن أمد يدي إلى يدها فأضعها على صدري لأطفئ بها غلتي، فما لمستها حتى نظرت إليّ نظرة العاتب، وقالت: كن رجلًا في حبك، واترك الطفولة لغيرك.

إن كنت تحبني لنفسى فما أنت قد ملكتها عليّ وأحرزتها من دوني. وإن كنت تحبني لهذه الصورة الجسمانية فما أضعف همتك. وما أصغر نفسك!.
أتدرف دمعك، وتسهر ليلك، وتذيب حبة قلبك، من أجل عظمة تلمسها، أو جلدة تلمسها؟

أنت شريف في نفسك، فكن شريفًا في حبك، واعلم أنني ما أحببت غير نفسك فلا تحب غير نفسي.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى رأيتني قد صغرت في عين نفسي وتمنيت أن لو عجل إليّ أجلي قبل أن يمر هذا الخاطر الفاسد في ذهني، ثم استوهبتها ذنبي فوهبته لي، وما عدت من بعدها إلى مثلها.

٤

الآن عرفت مبلغ عظمتها، وفضل هدايتها، ومقدار ما يبلغه الحب الشريف من النفس، فهأنذا أشعر كأن نفسي مرآة يغشاها الصدا، وكأن الحب صيقل يصقلها فيجلو صفاتها شيئاً فشيئاً.

كنت أحمل بين جوانحي لأعدائي ضغناً وحقداً، فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به من قبل؛ لأن الحب ملك عليّ قلبي، واستخلصه لنفسه فلم يترك فيه مجالاً لشيء سواه.

كنت ضيق الصدر إن مسني ألم. سريع الغضب إن فاتني مأرب. فأصبحت فسيح رقعة الحلم، لا يستفزني غضب، ولا يحرمني مخرج لأنني قنعت بسعادة الحب، فلم أحفل بعدها بشيء سواها.

كنت شديد القسوة، متحجر القلب، لا أعطف على بائس، ولا أحنو على ضعيف، فأصبحت أشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري ولا تصيبني، وأتألم لبؤس كل بائس وحزن كل محزون؛ لأن الحب أشرق في قلبي فملأه نوراً. فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً بينه وبين القلوب.

وجملة القول أنني كنت وحشاً ضارياً أعيا العالمين رياضته وتذليله، فصرت بين يدي الحب الشريف إنساناً شريفاً، وملكاً كريماً.

٥

خرجت بها في الليل إلى ضفة النهر، وكان الماء رائقاً، والسماء صافية، وفي كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته فاختلف علينا الأمر حتى ما نفرّق بين الأصل والمرأة، ولا ندري أين مكان الماء من مكان السماء، فمشينا طويلاً لا ينيس أحداً بكلمة، وكأن سكون الليل قد سرى إلى أفئدتنا، وملأ ما بين جوانحننا، فأمسكنا عن الحديث هيبه وإجلالاً.

وكننت أشعر في تلك الساعة بخفة في جسمي، وصفاء في نفسي حتى كان يخيل إليّ أنني لو شئت أن أطير لطرت بغير جناح، وأن في استطاعتي أن أخترق بنظري حجب السماء وأنفذ إلى الملاء الأعلى فأرى هناك ما هو محبوب عن نظر الناس أجمعين، وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم سبيله فلا يهتدي إلى مغربه، وأن يختبئ الليل في بردته فلا يعثر به فجره، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم وما دام الظلام.

فالتفتُ إليها وسألتها: هل تشعر بالسعادة التي أشعر بها؟

قالت: لا؛ لأنني أعرف من شؤون الأيام وأحوالها غير ما تعرف، ولأنني لا أنظر إلى الدنيا بالعين التي تنظر بها إليها!

أنت سعيد بالأمل، وأنا شقية بالحقيقة الواقعة.

إنك سعيد لأنك تظن أن سعادتك دائمة لا انقطاع لها، وأنا شقية لأنني أتوقع في كل لحظة زوالها وفناءها.

إنك إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء، وأن تحول بين الأرض ودورتها، وأن تمنع الساكن أن يتحرك، والمتحرك أن يسكن، فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها.

وهنا أمسكت عن الكلام وأطرقت برأسها طويلاً، فرأيت مدامعها تنحدر على خديها بيضاء صافية كاللؤلؤ المكنون، فبكيت لبكائها، وقلت: لم تبكين؟ قالت: خوف الفراق، قلت: فراق الحياة، أو فراق الموت؟ قالت: أما فراق الحياة فإنني لا أخافه؛ لأنه لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تحول بيني وبينك، إنما أخاف فراق الموت؛ لأنه الفراق الذي لا حيلة لي فيه. ولا منتدح عنه، قلت: هل لك أن نتعاهد على أن نعيش معاً ونموت معاً؟ قالت: ذلك ما يهوّن عليّ ألمي، فتعاهدنا، ثم رجعنا أدراجنا، والليل يشمر أذياه للفرار من النهار، ثم افترقنا على ميعاد، وذهب كل منا لسبيله.

٦

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعة واحدة عن هذا الإنسان؟

ألا يستطيع أن يستقيه كأساً واحدة لا يخالطها كدر، ولا يمازجها شقاء؟

ألا يستطيع أن يحرمه السعادة بتاتاً فلا يذيقه من كأسها قطرة واحدة ما دام

يريد أن يمنحه اليوم ليسلبه غداً؟

إن الإنسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم، ولكنه يعجز عن احتمال السعادة

المتقطعة.

يقولون: إن الأمل حياة الإنسان، وما قتل الإنسان ومزق شمل حياته إلا الأمل.
ليتنى ما سعدت؛ لأنني ما شقيت إلا بسعادتي، وليتنى ما أملت؛ لأن اليأس القاتل
ما جاءني إلا من طريق الأمل الباطل.

ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي، وأشعة آمالي، وينبوع سعادتي وهناءتي.
ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا جمالاً وبهاء، فمات بموتها كل حي في هذا
الوجود.

أرى الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، وأرى الطيور صامتة لا تغرد،
والغصون ساكنة لا تتحرك، وأرى النجوم آفة، والأزهار ذابلة، والطبيعة واجمة حزينة،
لا يفتر ثغرها ولا يتلأأ جمالها، وأرى الدنيا كأنما عادت إلى عهدها الأول لا يسكنها
إنسان ولا يخطر بها حيوان، وكأنني فيها آدمها الوحيد المسكين يندب جنته ويشكو
وحدته.

أيها الدهر الغادر: إن غلبتني عليها فإنك لن تستطيع أن تغلبني عن نفسي، لك
أن تُخرج من الدنيا من تشاء، ولكن ليس لك أن ترد إليها من تخرج منها.
ويا أيتها النفس الهائمة في سمائها، لا تجزعي ولا تعجلي، فوالله لأفين بعهدك
ولأذهبن عمّا قليل وحشتك ليكونن عهدنا في مستقبلنا كعهدنا في ماضينا، فما تعارفنا
في العالم الأول إلا بأرواحنا فلنكن كذلك في العالم الثاني.

الفصل الثالث والثمانون

غدر المرأة

يقصون في بعض الأساطير القديمة أن حكيماً من حكماء اليونان كان يحب زوجته حباً ملك عليه قلبه وعقله. وأحاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد وكان يمازج هناءته الحاضرة شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها، فيموت ويفلت من يده ذلك القلب الذي كان مغتبطاً باعتلاقه إلى صائد آخر يعتلقه من بعده، وكان كلما أثبت زوجته سرّه وشكا إليها ما يساور قلبه من ذلك الهم، حنت عليه، وعللته بمعسول الأمانى وأقسمت له بكل محرّجة من الأيمان أنها لا تسترد هبة قلبها منه حياً وميتاً. فكان يسكن إلى ذلك الوعد سكون الجرح الذرب تحت الماء البارد. ثم لا يلبث أن يعود إلى هواجسه ووساوسه، حتى مرّ في بعض روحاته إلى منزله في إحدى الليالي المقمرة بمقبرة المدينة. فبدا له أن يدخلها ليرّوح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى، وكثيراً ما يتداوى شارب الخمر بالخمّر، ويلذّ للجبان وهو يرتعد فرقاً الإصغاء إلى حديث المردة والجان، فرأى في بعض مذاهبه بين تلك القبور امرأة متسلبة جالسة أمام قبر جديد لم يجف ترابه وبيدها مروحة من الحرير الأبيض مطرزة بأسلاك من الذهب، تحركها يمنية ويسرة لتجفف بها بلل ذلك التراب فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعت لمراه. ثم أنست به حينما عرفته. فسألها ما شأنها. وما مقامها هنا؟ ومن هذا الدفين؟ وما هذا الذي تفعل؟ فأبت أن تجيبه عمّا سأل حتى تفرغ من شأنها، فجلس إليها وتناول المروحة منها، وظل يساعدها في عملها حتى جف التراب فحدثته أن هذا الدفين زوجها، وأنه مات منذ ثلاثة أيام، وأنها جالسة منذ الصباح مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاءً بيمين كانت قد أقسمتها له في مرض موته ألا تتزوج من غيره حتى يجف تراب قبره، وأن هذه الليلة هي ليلة بنائها بزوجها الثاني فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن إليها أن تحنت بيمين أقسمتها له. أو تخيس بما

عاهدته عليه، ثم قالت له: هل لك يا سيدي أن تقبل هذه المروحة هدية مني إليك. وجزاء لك على حسن صنيعك معي؟ فتقبلها منها شاكرًا بعد أن هنأها بزواجها الجديد! ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية، ومشى في طريقه مشية الرائح النشوان يحدث نفسه ويقول: إنه أحبها وأحسن إليها، فلما مات جلست فوق قبره لا لتبكيه. ولا لتذكر عهده، بل لتتحلل من يمين الوفاء التي أقسمتها له؛ فكأنها وهي جالسة أمام زوجها الأول تعد عدد الزواج من زوجها الثاني وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل أمامها جبينها، وتصف طرتها وتلبس حليتها، للزفاف إلى غيره.

وما زال يحدث نفسه بمثل هذا الحديث حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا يشعر، ورأى زوجته ماثلة أمامه مرتاعة لمنظره المؤلم المحزن فقال لها: إن امرأة خائنة غادرة أهدت إليّ هذه المروحة فقبلتها منها إليك. لأنها أداة من أدوات الغدر والخيانة، وأنت أولى بها مني. ثم أنشأ يقص عليها قصة المرأة حتى أتى عليها، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها إربًا إربًا. وأنشأت تسب تلك المرأة وتشتمها، وتنعي عليها غدرها وخيانتها وسفالتها ودناءتها، ثم قالت: ألا يزال هذا الوسواس عالقًا بصدرك ما دمت حيًّا؟ وهل تحسب أن امرأة في العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة؟ فقال لها: إنك أقسمت لي ألا تتزوجي من بعدي، فهل تفيين بعهدك؟ قالت: نعم، ورماني الله بكل ما يرمي الغادر إن أنا فعلت. فاطمأن لقسمها وعاد إلى هدوئه وسكونه.

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضًا شديدًا، فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى أشرف على الموت، فدعا زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فاذا كرت فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسها، فأمرت أن يسجى بردائه ويترك وحده في قاعته حتى يحتفل بدفنه في اليوم الثاني ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكيه وتندبه ما شاء الله أن تفعل، وإنها لذلك إذ دخلت عليها الخادم وأخبرتها أن فتى من تلاميذ مولاهما حضر الساعة من بلده ليعوده حينما سمع بخبر مرضه، فلما سمع حديث موته زعر زعرًا شديدًا وخرّ في مكانه صعبًا وإنه لا يزال صريعًا عند باب المنزل لا تدري ما تصنع في أمره، فأمرت أن تذهب به إلى غرفة الأضياف وأن تتولى شأنه حتى يستفيق، ثم عادت إلى بكائها ونحيبها، فلما مر الهزيع الثاني من الليل دخلت عليها الخادم مرة أخرى مذعورة مرتاعة وهي تقول: رحمتك وإحسانك يا سيدتي فإن ضيفنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذابًا أليمًا، وقد حرت في أمره، وما أحسبه إن نحن أغفلنا أمره إلا هالكًا،

فأهمها الأمر وقامت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفة الضيف فرأته مسجى على سريريه، والمصباح عند رأسه فاقتربت منه ونظرت في وجهه، فرأت أبداع سطر خطته يد القدرة الإلهية في لوح الوجود، فخيل إليها أن المصباح الذي أمامها قبس من ذلك النور المتلألئ في ذلك الوجه المنير، وأن أنينه المنبعث من صدره نغمة موسيقية محزنة ترن في جوف الليل البهيم، فأنساها الحزن على المريض المشرف الحزن على الفقيد الهالك، وعناها أمره، فلم تترك وسيلة من وسائل العلاج إلا توسلت بها إليه حتى استفاق ونظر إلى طبيبته الراكعة بجانب سريريه نظرة الشكر والثناء، ثم أنشأ يقص عليها تاريخ حياته، فعرفت من أمره كل ما كان يهمها أن تعرفه، فعرفت مسقط رأسه وسيرة حياته وصلته بزوجها وأنه فتى غريب في قومه لا أب له، ولا أم، ولا زوجة ولا ولد، وهنا أطرقت برأسها ساعة طويلة عالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت، ثم رفعت رأسها وأمسكت بيده، وقالت له: إنك قد ثكلت أستاذك وأنا ثكلت زوجي، فأصبح همنا واحداً، فهل لك أن تكون عوناً لي وأن أكون عوناً لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مساعداً ولا معيناً. فألمَّ بخبيئة نفسها فابتسم ابتسامة الحزن والمضض، وقال لها: مَنْ لي يا سيدتي أن أظفر بهذه الأمانة العظمى، وهذا المرض الذي يساورني ولا يكاد يهدأ عني قد نَخَصَّ عليَّ عيشي، وأفسد عليَّ شأن حياتي، وقد أُنذرتني الطبيب باقتراب ساعة أجلي إن لم تدركني رحمة الله، فاطلبي سعادتك عند غيري، فأنت من بنات الحياة، وأنا من أبناء الموت. فقالت له: إنك ستعيش، وسأعالجك ولو كان دواؤك بين سحري، ونحري، قال: لا تصدّقي ما لا يكون يا سيدتي فأنا عالم بدوائي، وعالم بأني لا أجد السبيل إليه، قالت: وما دواؤك؟ قال: حدثني طبيبي أن شفائي في أكل دماغ ميت ليومه، وما دام ذلك يعجزني فلا دواء لي ولا شفاء، فارتعدت وشحب لونها وأطرقت إطرقة طويلة لا يعلم إلا الله ماذا كانت تحدث نفسها فيها. ثم رفعت رأسها وقالت: كن مطمئناً فدواؤك لا يعجزني، ثم أمرته أن يعود إلى راحته وسكونه، وخرجت من الغرفة متسللة حتى وصلت إلى غرفة سلاح زوجها فأخذت منها فأساً قاطعة، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاساً حتى وصلت إلى غرفة الميت، ففتحت الباب فدار على عقبه وصَرَ صريراً مزعجاً، فجمدت في مكانها رعباً وخوفاً، ثم دارت بعينها حولها فلم تر شيئاً فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضرب به رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده، ولم تكد تهوي بها حتى رأت الميت فاتحاً عينيه ينظر إليها، فسقطت الفأس من يدها، وسمعت حركة وراءها فالتفتت فرأت الضيف والخادم واقفين يتضحكان، ففهمت كل شيء.

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها: أليست المروحة في يد تلك المرأة أجمل من هذه
الفأس في يدك؟ أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر
دماغه قبل نعيه؟ فصارت تنظر إليه نظراً غريباً، ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها.

الفصل الرابع والثمانون

الضاد^١

كان العرب الأولون أحرارًا في لغتهم، يضعون لكل ما يخطر ببالهم من المعاني ما يريدون من الألفاظ، لا يتقيدون بقاعدة ولا شرط، ونحن عرب مثلهم تجري في عروقنا دماؤهم، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل، فسهمنا في الضاد سهمهم، وحقنا فيها حقهم، فلم يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب، ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا، وحاجاتنا أكثر من حاجاتهم، ومرافقنا أوفر عددًا من مرافقهم وأوسع فصولًا وأنواعًا؟ أين باديتهم الخلاء المقفرة التي لا يعمرها إلا القليل من الخيام المبعثرة بين معادن الإبل ومرابض الشاء، من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات، وأنواع الآلات، وغرائب المصنوعات، وأكثرها مستحدث مستطرف لم تتداوله السنون والأيام، ولم تعصف به عواصف القرون والأعوام.

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش، أن تضيق حاجاتهم عن لغتهم، فيتفكها بوضع خمسمائة اسم للأسد، وأربعمائة للداحية، وثلاثمائة للسيف ومائتين للحية وخمسين للناقة؟ وتضيق عن حاجتنا، فلا نعرف لأداة واحدة من آلاف الأدوات التي يضمها المعمل اسمًا عربيًا واحدًا؟ اللهم إلا القليل التافه من أمثال: المسبر والمبرد، والمنشار والمسمار؟

أيكون لسفينة البر — وهي لا تحمل إلا الرجل، أو الرجل ورفيقه — مائتا اسم ومائتان من الأسماء لأعضائها وأوصالها، ورحلها وكورها. ولا يكون لسفينة البحر — وهي المدينة المتنقلة في الدماء — القليل من ذلك الحظ الكثير؟

^١ الضاد: عنوان اللغة العربية.

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمر لغوي يعقدونه في كل عام بالحجاز بين نخلة والطائف، يجتمع فيه شعراؤهم وخطباؤهم، ويتناشدون ويتساجلون ويتحاورون، ويتطارحون، ويعرضون أنفسهم على قضاة منهم يوازنون بينهم، ويحكمون لمبرّزهم على مقصرهم حكماً لا يُردُّ ولا يُعَارَضُ، ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أَحْسَوْا بتشعب لغتهم بين اليمن والشام ونجد وتهامة لصعوبة التواصل في تلك البقاع وَبَعْدَ مَا بين قاصيها ودانيها فكان مطمح أنظارهم في ذلك المجتمع توحيد لغتهم وجمع شتاتهم والرجوع بها إلى لغة قريش التي هي أفصح اللغات وأقربها مأخذاً وأسهلها مساعاً وأحسنها بياناً.

أيقدر هؤلاء العجزة الضعفاء في جاهليتهم الأولى على ما نعجز عنه نحن؟ ونحن إلى مؤتمرهم أحوج منهم إليه؛ لأن تشعب اللغة في عصرهم لا يمكن أن يبلغ مبلغه في عصرنا بين لغة الأدباء ولغة العلماء ولغة الدواوين ولغة المتصوفين، ولغة المترجمين، ولغات العامة التي لا حصر لها.

إن كان الجاهليون في حاجة إلى مجتمع لتوحيد اللغات المتشعبة، فنحن في حاجة إلى مجتمعات كثيرة: مجتمع لجمع المفردات العربية المأثورة وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية في كتاب واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به، ومجتمع دائم لوضع أسماء للمسميات الحديثة بطريق التعريب أو النحت أو الاشتقاق، وآخر للإشراف على الأساليب العربية المستعملة، وتهذيبها وتصفيها من المبتذل الساقط والمستغلق النافر، والوقوف بها عند الحد الملائم للعقول والأذنان، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرّز منهم والمقصر، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

الفصل الخامس والثمانون

سياحة في كتاب

أعجب ما أعجب له من أمر نفسي أنني أحب الجمال خيالاً، أكثر مما أحبه حقيقة، فيعجبني وصف الروض أكثر ممّا يعجبني مرآه، ولا أطرب لمنظر الفتيات الجميلات، طربي لمنظر القصائد الغزليات، وأحب أن أقرأ وصف المدن الجميلة، وما كتبه الكاتبون على قصورها ودورها، وسهولها وبطاحها وأنهارها وجداولها. وميادينها وتماثيلها، وأنديتها ومجامعها ولا يهمني أن أراها، كأُنني أريد أن أستديم لنفسي تلك اللذة الخيالية وأخاف أن تحول الحقيقة بيني وبينها وأحسب أنني لو كنت عاشقاً لأصبحت أضحوكة العاشقين. وأعجوبة الهازئين والساخرين، ولكان مثلي مثل ذلك الرجل الذي أحبّ امرأة فاستزارها فمنعته حيناً ثم زارته، فلما رآها تركها وذهب لينام فعجبت لشأنه وسألته: ما باله؟ فقال لها: أريد أن أنام علّني أرى طيفك في المنام!

جاء يوم شم النسيم فخرج الناس إليه يستقبلونه استقبال الجيش المدجج للملك المتوّج، ويرحبون به ترحيب العشاق بيوم التلاق بعد طول الفراق، ويبسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للسحب الماطرة، وقد ذهبوا في شأنه المذاهب كلها: فمن صاعد إلى رؤوس الجبال، وسارب في سهل الرمال، وواقف موقف الإعجاب والإجلال. بين جمال الأنوار، وأنوار الجمال، ومقلب طرفه بين حسن الزهرات وحسن الفتيات. لا يعلم أنشبه القامات الغصون، أم الغصون القامات.

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب، وما كان لي أن أذهب مذهبهم لأنني لا أعجب بما يعجبون، ولا أهتف لما يهتفون، فقبعت في كسر بيتي أفتش عن ضالة خيال أجد فيها من السعادة والهناءة ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثغر الصهباء، فلمحت بجانبني كتاب بلاغة العرب، وهو الكتاب الذي ترجمه الأستاذ «كامل حجاج»،

وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية وزبدة ما جادت به قرائح كتابها وشعرائها. فقلت: حسبي من الرياض هذه الزهرات، ومن النساء تلك النفحات. خطوات الخطوات الأولى من سياحتي في هذا الكتاب فرأيتني واقفاً تحت نافذة قصر اللوفر في باريس، ورأيت الناس وقوفاً في ذلك الميدان الفسيح وقد هاج بعضهم في بعض حتى ضاقت بهم رقعة الأرض، ورأيتهم يمدون أعناقهم إلى تلك النافذة وينظرون إليها نظرة الفلكي إلى كوكبه اللامع، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحب، وإنهم لذلك إذ أطل عليهم نابليون الأول من نافذة قصره كما يطل البدر من وراء الأفق يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس، وملك روما كما يسميه أبوه، فضج الناس لمطلعه ضجيجاً ملاً مسمع الخافقين، وابتسموا لمراه ابتسامة أضاء ما بين المشرقين والمغربين، وهنا سمعت الشاعر الكبير^١ يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر الزاخر قائلاً له:

رويداً أيها الرجل المغرور بالتاج والسرير، والملك الكبير. والجيش الخاضع، والشعب الطائع، أنت تقدّر لطفك في مستقبل الأيام ملكاً كملكك، ومجداً كمجداك، وعزاً وسلطاناً كعزك وسلطانك، غير عالم بما تكتمه ضمائر الأيام من الحوادث العظام، والخطوب الجسام، فهل أخذت على الأيام عهداً لنفسك فتأخذ لولدك؟ وهل وثقت بما في يدك فتثق بما في يد غيرك؟
أيها الملك المغرور: إنك ستفارق عما قليل هذا القصر الكبير. إلى الكوخ الحقير، وسيحيط بك الجند في منفاك إحاطة الإخضاع والإذلال. لا إحاطة الإعظام والإجلال، وسيموت ولدك محروماً هذا العرش الذي هيأته له بل محروماً بضعة أشبار من تربة فرنسا يضطجع فيها ضجعة الموت.
أيها الملك المغرور، لا تقل: إن المستقبل لي فإنما المستقبل لله.

تركت هذا الموقف الفخم الجليل وقد امتلأت نفسي عبرة بمصائر الأيام، ومصارع الكرام، وتقلبات الدهر ما بين رفع وخفض، وإبرام ونقض، ومشيت حتى وصلت إلى برية جرداء، ودوية قفراء، لا يطررها إنسان، ولا يدب بها حيوان، فلمحت على البعد رجل يمشي على بعض الشواطئ فوق أرض رملية يخدع ظاهرها، ويقتل باطنها، ويدب

^١ فيكتور هيجو.

ماؤها في أحشائها، دبيب الصهباء في الأعضاء، ويكمن في صدورها كمون الأسرار في صدور الأقدار.

فما هي إلا بضع خطوات حتى وقع نظري على رجل مسكين، غاصت قدماه في الرمل فحاول نزعهما فغاص إلى ركبتيه، فتحلحل، فغاص إلى صدره، وما زال يساعد على نفسه بنفسه، ويهبط شبرًا كلما حاول أن يرتفع فترًا، حتى لم يبقَ منه على ظهر الأرض غير فمٍ يصرخ بالنداء، وعين تذرِف بالبكاء، ثم ما لبث أن غطاهما الرمل فرفع يديه بالدعاء، فلم يجد من رحمة في الأرض ولا في السماء.

وقفت أمام هذا المشهد المؤثر المحزن وقفة أرسلت فيها بضع قطرات من الدمع على هذا البائس المسكين، وقلت في نفسي: إنني عجزت عن إسعاده في نكبته ومعونته في شدته، فلا أقل من أن أسعده بقليل من الأسف على مصيره المحزن الأليم.

ثم فارقتَه ومشيت حتى بلغت منزل الشاعر لامرتين فرأيتَه جالسًا في غرفته الصغيرة وليس معه من يؤنسه غير كلبه المقعي على عتبة بابه، فسمعتَه يخاطبه ويقول له:

أيها الكلب الأمين، قد هجرني الناس وبقيتَ بجانبي، وخانني الأصدقاء ووفيت لي، فأنت في نظري أوفى الأوفياء، وأصدق الأصدقاء، ولولا أنك كريم الأخلاق متواضع، تأبى إلا أن تعرف لسيدك منزلته من السيادة عليك، وتحفظ له فضل ما أسدى من النعمة إليك، لأكبرت جلستك هذه عند عتبة الباب، ولأجلستك بجانبي على فراشي؛ لأنك صديقي ومؤنسي، ولأنك أحق بالإكرام من كثير من أولئك الذين يفترون الطنافس، ويتوسدون الوسائد، وحسبي منك هذه النظرات التي تلقيها عليَّ بهدوء وسكون، كأنك تقرأ فيها صفحة وجهي، ما غاب عنك من دخيلة أمري، وكأنني أسمعك تقول: ما باله، وما شأنه؟ وما الذي يبكيه؟ ليتني أعرف دخيلة أمره، وليتني أستطيع أن أكون فداءه! فحسبي منك ذلك، وهل يطمع الإنسان أن يجد من أوفى أصدقائه أكثر مما أجده في لفتاتك، وألمحه في نظراتك؟

سمعت لامرتين يناجي كلبه بهذا النجاء الرقيق، فتسللت وذهبت لشأني وأنا أقول في نفسي: إذا كان لامرتين — وهو أشعر شاعر في فرنسا، وفرنسا مهبط وحي الشعر — لم يجد له صديقًا وفياً غير كلبه المقعي على عتبة غرفته، فأين يذهب سائر الشعراء، ومتى يجدون الأصدقاء؟

تركت منزل لامتريين وذهبت إلى منزل «دي موسيه» فرأيتة معتزلاً في غرفة من غرف منزله يبكي بكاءً مرّاً. ويزفر زفيراً شديداً، تكاد تنقطع له أحشائه، فقلت: ليت شعري ما أبكاه؟ وما الذي دهاه؟ فسمعتة يترنم بقصيدة من قصائده يشرح فيها تاريخ وجده وهواه، شرحاً مؤثراً مؤلماً حتى كان يخيل إليّ أن كل بيت من أبياتها جذوة نار ملتهبة، وسمعتة يشكو فيها من خيانة حبيبته «جورج صائد» ويعالج نفسه على أن يسلوها، ويتناسى عهدها وزمامها فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. وما هو إلا أن أتم قصيدته حتى تغير لونه وشخص بصره. واضطرب اضطراب الأغصان اليابسة. بين أيدي الرياح العاصفة، ثم أخذ يهذي هذيان المحموم، ويخلط في كلامه خلطاً شديداً، فعلمت أن الرجل قد جُنَّ، وأن العالم الشعري قد فُجِعَ إلى الأبد. فمضيت لسبيلي، وأنا أسأل الله العافية. وأقول: إن جمال المرأة أحقر من أن يقتل أوفر عقل، وأعجز من أن يطفئ أكبر قريحة.

ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سر محجب

تركت منزل دي موسيه، ومشيت في شارع من شوارع باريس، فرأيت شيئاً رثَّ الثياب، زري الهيئة، يمشي مشية هادئة مطمئنة، ويجر في رجليه نعلالاً بالية، قد أطلت أصابعه من خروقتها كما تطل الحيات من أحجارها، فأتبعته نظري فرأيتة لا يرفع طرفه سكوناً وإطراقاً، ولا يكاد يحرك عضواً من أعضائه رزانةً ووقاراً، فقلت في نفسي: إن لهذا الرجل شأنًا، فمشيت وراءه حتى رأيته قد وقف على باب حانوت إسكاف، فلم يجد صاحب الحانوت في مكانه، فجلس على الأرض ينتظره حتى يعود فيخصف له نعله، فسألت بعض المارة عنه فقال: هذا «كورني» شاعر فرنسا، فأخذتني الدهشة وملكني العجب، حتى كاد يحول بيني وبين عقلي، وقلت في نفسي: ويح لكم معشر الناس. أتضنون بقطعة من الجلد الأسمر على رجل يقلد أعناقكم الدر والجوهر؟! أعجزتم عن أن تجمعوا أمركم على أن تمسحوا هذه الغضون عن تلك الجبهة التي تجود عليكم كل يوم بما يفرج كربتكم، ويخفف محتكم، ثم رجعت أدراجي وأنا أقول: كأن قضاءً حتمًا على الدهر ألا ينيل هؤلاء الأدباء من دهرهم ما يريدون ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون.

إن في جلسة «لامرتين» منفردًا في منزله لا مؤنس له غير كلبه، وفي عزلة «دي موسيه» في غرفته بين دموعه وأحزانه، وفي جلسة «كورني» أمام حانوت الإسكاف ينتظر ترقيع نعله، لآية للمتفكرين، وعبرة للمعتبرين.

الآن عدت من سياحتي في ذلك الكتاب أشكر للكاتب ما كتب، وللمترجم ما ترجم، وأقول: من لي في كل يوم بسياحة مثل هذه السياحة في كتاب مثل هذا الكتاب؟

دمعة على الأدب

مات بالأمس إمام الشعر البارودي، وإمام النثر محمد عبده، فجزعنا ما جزعنا، وسكبنا عليهما من الدموع ما سكبنا، ثم كفكفنا من تلك الدموع، وخفضنا من زفرات الضلوع، حينما سمعنا قول القائل: إن في الباقي عزاء عن الفاني، وإن في الأبناء خلفاً من الآباء، ولقد كر على عهدهما الشهر بعد الشهر، والدهر بعد الدهر، والأدب جاثم في مكمنه هامد لم يبعث من مرقده بعدما قبرناه ولم ينشر من قبره بعدما واريناه، فتساءلنا: أين الباقي الذين يزعمون؟ والخلف الذين يذكرون؟

أين فطاحل اللغة العربية، لا السياسية، وأرباب الأقلام العربية، لا الأعجمية؟ عذرنا المويلحي الكبير واليازجي؛ لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما، فهل مات شوقي وحافظ والبكري والمويلحي الصغير؟

ما مات منهم أحد، وإنما كانت حياة ذينك الرجلين حياة الصناعيين، وكان لوجودهما سر من الأسرار ينبعث في الألسنة فيطلقها والأقلام فيجريها وكانت منزلتهما من الأحياء منزلة الأم من مصابيح الكهرباء، تشتعل المصابيح بتيارها، وتضيء بأسرارها، فإذا فرغت مادتها وانقضى أجلها، عم الظلام واشتد الحلك، والمصابيح — كما هي — جسم بلا روح، ولفظ بلا معنى.

أما شوقي فقد طار في جو غير هذا الجو، وهام في وادٍ غير ذلك الوادي، وما زالت تعبت به الأنواء حتى أغرقته في شبر من الماء، وأما حافظ فقد انقبضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء^١، أما حياته الشعرية فلم يبقَ منها غير نظم المقالات السياسية من

^١ هو كتاب لفيكتور هيجو الشاعر الفرنسي ترجمه حافظ إبراهيم ترجمة فصيحة ولم يتمه.

العام إلى العام، وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان، وأفانين الأشجان؟ وأما البكري والمويلحي فقد قضيا حق التأليف، هذا بصهاريجه^٢ وذاك بفتراته^٣ ثم لحقا بالسابقين، ومضيا على أثر الماضيين:

أين سكانك لا أين لهم أحجازاً أوطنوها أم شاماً

أين الروضة الغناء التي كنا نتفياً ظلالها، ونهصر أغصانها، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها؟ وأين البلابل التي كانت تنتقل بين أشجارها فتطرب بالأغاريد، وتستهيوي بالأناشيد.

فأسألنها واجعل بكاك جواباً تجد الدمع سائلاً ومجيباً

أنا لا أعجب لشيء عجبى لهؤلاء الأدباء: يحزنون فلا يبكون، ويطربون فلا يضحكون، ويألمون بلا أنين، ويعشقون بغير حنين.

أيطرب البلبل فيغرد، ويشجي الحمام فينوح، ويطرب الشاعر، ويشجي الكاتب، فلا ينطق لسانهما، ولا يهتز قلمهما؟

لما أسنَّ عمر بن أبي ربيعة ورأى أن شعر الغزل والتصابي غير لائق بشيبه ووقاره، عزم على هجره فما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وغلب على أمره كما يغلب المرء على غرائزه وسجاياه، فاحتال لذلك بأن حلف ألا يقول بيتاً من الشعر إلا أعتق رقبة، فشكا إليه رجل حباً برَّح به، فحنَّ واهتاج، ونظم أبياتاً في شأن الرجل ووجده، ثم أعتق عن كل بيت رقبة.

فهل نذر أدباؤنا ما نذر عمر بن أبي ربيعة، وهم في شرخ الشباب وإبان الفتوة؟ إن كانوا فعلوا ذلك فأسأل الله لهم قصة كقصة عمر تهيج أشجانهم فتحث أيمانهم، والأمة كفيفة لهم بوفاء النذور، وكفارة الأيمان:

^٢ هو كتاب «صهاريج اللؤلؤ» للسيد البكري.

^٣ هو كتاب «فترة من الزمن» المسمى «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحي.

وذو الشوق القديم وإن تعزَّى مشوق حين يلقي العاشقينا

القسم الثالث

الفصل السابع والثمانون

البيان

أعرف أديبًا من أفضل الأدباء في هذا البلد المصطلعين باللغة وفنونها، الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومنثورها، إلا أنه لا يكتب كلمة في صحيفة، ولا ينشر في الناس كتابًا، إلا أعجم كتابته وأبهمها، وتعمل فيها تعمُّلاً يأخذ على القارئ عقله وفهمه، فلا يدري أي سبيل يأخذ بين مسالكها وشعابها، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه، الآخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة والملكة الراسخة، فلا سبيل له إلى التخلص منها، والنزوع عنها، حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله إليه في بعض الشؤون الخاصة وكتبه بتلك اللغة السهلة البسيطة التي يسمونها اللغة العامية، فأعجبت بأسلوبه في كتابه هذا إعجابًا كثيرًا ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل، وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته، قادر على الإبانة عن أغراضه ومراميه، كأفضل ما يتقدر متقدر على ذلك، إلا أنه يتكلف الركة والتعقيد في كتابته تكلفًا، ويأخذ نفسه أخذًا، ولو أنه أرسل نفسه على سجيتهما فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها هذا لكان من أعظم الكتاب شأنًا، وأرفعهم صوتًا في عالم الكتابة والأدب، ولكن هكذا قُدِّرَ له أن يقضي بنفسه على نفسه. وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يُعجبني فيه سواها، وما أحسبها أفلتت من يده، ولا جاءت في هذه الصورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها، والتدقيق في وضعها فأرسلها عفو الخاطر إرسال من يعلم أنه إنما يُسأل عن الإجابة في الشعر، لا عن البراعة في النثر، وأن الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب، أمام قوة الشاعر، غير عالم أنه كاتب من أفصح الكتاب وأبينهم، ولو شاء لكان شاعرًا من أقدر الشعراء وأفضلهم، وأنه ما أحسن إلا حيث ظن الإساءة، ولا أساء إلا حيث ظن الإحسان.

ووالله لا أدري ما الذي يستفيده هؤلاء الأدباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن في أساليبهم الكتابية والشعرية وتكلف الإغراب والتعقيد فيها، وهم يعلمون أنهم إنما يكتبون للناس لا لأنفسهم، وأن الناس، خصوصاً في مثل هذا العصر عصر المدنية والعمل، والحركة والنشاط أضنُّ بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه، أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن معانيه، ولم لا يؤثر أحدهم إن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله، أو للشهرة والذكر أن ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها علمائها وجهلائها، وهل الشعر والكتابة إلا أحاديث سائرة يحدث بها الشعراء والكتاب الناس ليُفَضُّوا إليهم بخواطر أفكارهم، وسوانح آرائهم، وخلجات نفوسهم، وهل يعني المتحدث في حديثه شيء سوى أن يعي عنه الناس ما يقول، وأن يجد بين يديه سامعاً مصغيّاً، ومقبلاً محتفلاً، وأي فرق بين أن يجلس الرجل إلى جمع من أصدقائه ليقص عليهم بعض القصص، أو يفيض إليهم ببعض الآراء فيتلطف في تفهيمهم، وإيصال معانيه إلى نفوسهم، ويفتن في اجتذاب ميولهم وعواطفهم، وبين أن يجلس إلى مكتبه ليبعث إليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم، ولم لا يعنيه في الأخرى ما يعنيه في الأولى؟

ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون والحُفَّاظُ أيهم أكثر مادةً في اللغة وأوسع اطلاعاً على مفرداتها، وتراكيبها، وأقدر على استظهار نوادرها وشواذها ومترادفها ومتواردها، ولا متحفاً لصور الأساليب وأنواع التراكيب، ولا مخزناً لأحمال المجازات والاستعارات، وحقائب الشواهد والأمثال؛ فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره، إنما يُعْنَى بها المؤلفون والمدوّنون وأصحاب القواميس والمعجم وواضعو كتب المترادفات ومصنّفو فقه اللغة وتاريخ أدبها، أما البيان فهو تصوير المعنى القائم في النفس تصويرًا صادقًا يمثله في ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئاً، فإن عجز الشاعر أو الكاتب — مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه — عن أن يصل بسامعه إلى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء الفضلاء، أو أذكى الأذكياء، ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب.

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود الديني، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر!

لم يزل علماء الدين يتشدّدون فيه ويتنطعون، ويقتطعون من هضبته الشَّمَاءِ صخوراً صَمَاءَ يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة حتى صَيَّرُوهُ عبأً ثَقِيلاً على

كواهل الناس وعواتقهم فَمَلَّه الكَثِيرُ منهم وبرموا به، وأخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه، وتمشوا بأوامره ونواهيهِ مع شؤون المجتمع وأحواله، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم والأخذ بأسباب دنياهم.

ولم يزل جماعة اللغويين وعبداء الألفاظ والصور يتشددون في اللغة ويتحذلقون ويتشبهون بالأساليب القديمة والتركيب الوحشية، ويغالون في محاكاتها واحتذائها، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حساباً شديداً على الكلمة العربية والمعنى المبتكر، ويقيمون المناحات السوداء على كل تشبيه لم تعرفه العرب، وكل خيال لم يمر بأذهانهم، حتى ملَّهم الناس وملَّوا اللغة معهم فتمردوا عليهم وخلعوا طاعتهم، وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقفهم وعلاقاتهم فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم وشبه العامية في كتاباتهم، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها، لولا أن تداركها الله برحمته، فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابها الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه، فاتخذوا لأنفسهم في مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوباً وسطاً معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها وبين تمثيل روح العصر وتصوير الحياة، ولولاهم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فماتت، أو غلبت عليها العامية فاستحالت.

قال لي أحد الأدباء المتكلفين في معرض اعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه في هذا المنهج الخشن الوعر الذي ينهجه في أسلوبه: أنت تعلم أن الناس في هذا البلد قد ألفوا من طريق خطأ الحس أن ينظروا بعين الإجلال والإعظام إلى كل أسلوب شعري أو كتابي معقد غامض، وإن تفهت معانيه وهانت أغراضه، وبعين الازدراء والاحتقار إلى الأساليب السهلة البسيطة وإن اشتملت على أشرف الأغراض وأبرع المعاني، أي أنهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهَّموا التفاهة والفسولة، ولا يرون الركافة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسمو المعاني وشرفها، وهي حالة طبيعية في جميع النفوس البشرية أن تزدرى المبذول لها، وتستسني قيمة المنوع عنها، وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر فحسب، بل مع أدباء كل عصر وجيل، فهم يسمون البُحْثري وأبا نواس والشريف الرضي وأمثالهم: شعراء الألفاظ، ويسمون المتنبي والمعري وابن الرومي

وأشباهم: شعراء المعاني، ليس بين الأولين والآخرين فرق في جودة المعاني وشرفها إلا أن الأولين أمطروها على الناس وبعثوها تحت أقدامهم فهانت عليهم، وضمن بها الآخرون ووعروا سبيلها فعظمت في أعينهم، وحلت في صدورهم. قال: ولقد عرضت السلعتين في سوق الأدب فكتبت أتفه المعاني وأدونها في أخشن الأساليب وأوعرها فنفتت في تلك السوق نفاقاً عظيماً، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها، وكتب أشرف المعاني وأبرعها في لطف الأساليب وأعذبها فما أبه لها إلا القليل من الناس، وربما لم يأبه لها أحد، فلم أر بُدّاً من أن أنتهج لنفسي في الكتابة الخطة التي أعلم أنها أجدر بي وأجدى عليّ.

فعجبت لرأيه عجباً شديداً وقلت له: أما هذا الذي تذكره فإنني لا أعرفه إلا لفئة قليلة من القراء فاسدة الذوق لا يعبأ بها عابئ، وليس هذا رأي جمهور المتأدبين، بل ولا رأي العامة من أبناء هذه اللغة، وهب أن الأمر كما تقول، فالأدب ليس سلعة من السلع التجارية لا همّ لصاحبها سوى أن يحتال لنفاقها في سوقها، إنما الأدب فن شريف يجب أن يخلص له المتأدبون — بأداء حقه والقيام على خدمته — إخلاص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم، والأدباء هم قادة الجماهير وزعمائهم فلا يجمل بهم أن ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالتهم وفساد تصوراتهم، ولم أزل به حتى أذعن للرأي الذي رأيته له، فحمدت الله على ذلك.

ليس من الرأي ولا من المعقول أن ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل — في هذا العصر عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف أكثر من العامة إلا قليلاً — باللغة التي كان ينظم بها امرؤ القيس وطرفة والقطامي والخطفي ورؤبة والعجاج، ويكتب بها الحجاج وزباد وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعري في عصور العربية الأولى، فليس عصرنا كعصرهم، ولا جمهورنا كجمهورهم، وأحسب لو أنهم نُشِروا اليوم من أجداثهم لما كان لهم بُدٌّ من أن ينزلوا إلى عالمنا الذي نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم أو يعودوا إلى مراقدهم من حيث جاءوا.

ليست الأساليب اللغوية ديناً يجب أن نتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة، إنما هي أداة للفهم وطريق إليه، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً.

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها، ثم نكون أحراراً بعد ذلك في التصور والتخيل واختيار الأسلوب الذي نريد.

يجب أن يشف اللفظ عن المعنى شفوف كأس الصافية عن الشراب حتى لا يرى الرائي بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر وحتى لا يكون للمادة اللفظية شأن عنده أكثر مما يكون للمرأة من الشأن في تمثيل الصور والمخائل.

ويجب أن يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل أن يتمثل اللفظ، حتى إذا حَسُنَ الأول أفاض على الثاني جماله ورونقه؛ فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى، بل لا مفهوم للفظ الجميل إلا المعنى الجميل.

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع إليه من يريد معرفتها، ومقياس تقاس عليه؛ لوجب أن يكون قانونها العقلي أن يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده، فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم في نفسه، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف مهما صغر قدرها واتضع شأنها أعود بالنفع على الأمة وأجدي عليها من حرفة القلم.

لا يبك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه في الأمة، ولا يقضي حياته ناعياً عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية إليه، فالأمة قد ارتقت واستنارت، وأصبحت طماحة متطلعة لا يقنعها من قلم الشاعر أن يرن على صفحة القرطاس دون أن يطربها ويملك عواطفها، ولا من قلم الكاتب أن يسود بياض الصحف دون أن ينير لها أذهانها، ويغذي عقولها ومداركها، فإن كان لا بُدَّ باكياً فليبك على نفسه ولينح عجزه وقصوره، وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول.

إنني لا ألوم على الركافة والتفاهة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم فأظلمت أقلامهم، وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل، ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة، ولم يمارسوا أدبها ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأعجمية على أمرهم فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية، ولا خاصة من خواصها، وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك فهو لأء جميعاً لا حول لنا فيهم ولا حيلة؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك، إنما ألوم المتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة، واطَّلَعُوا على أدبها، وفهموا سر فصاحتها، وأنقم منهم عدولهم عن المحجة في البيان إلى الجمجمة والغمغة فيه، وأنعي عليهم نقص القادرين على التمام.

الفصل الثامن والثمانون

الناشئ الصغير^١

لي ولد وحيد في السابعة من عمره، لا أستطيع على حبي إيّاه وافتتاني به أن أتركه من بعدي غنيًّا لأنّي فقير، وما أنا بأسف على ذلك ولا مُبتئس؛ لأنّي أرجو بفضل الله وعونه، ورحمته وإحسانه، أن أترك له ثروة من العقل والأدب، هي عندي خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب.

أحب أن ينشأ معتمدًا على نفسه في تحصيل رزقه وتكوين حياته، لا على أي شيء آخر، حتى على الثروة التي يتركها له أبوه. ومن نشأ هذا المنشأ، وألف ألا يأكل إلا من الخبز الذي يصنعه بيده، نشأ عزوفًا عيوفًا مترفعًا لا يتطلع إلى ما في يد غيره، ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان.

أحب أن ينشأ رجلًا، ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل، وقلّمًا يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة، ودافع من الحاجة، وفرق بين الغني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرًّا وفضولًا، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته، وتقويم أود حياته.

أحب أن يعيش فردًا من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة، يصارع العيش ويغالبه، ويزاحم العاملين بمنكيه، ويفكر ويتروى، ويجرب ويختبر، ويقارن الأمور بأشباهها ونظائرها ويستنتج نتائج الأشياء من مقدماتها، ويعثر مرة وينهض أخرى، ويخطئ حينًا ويصيب أحيانًا، فمن لا يخطئ لا يصيب، ومن لا يعثر لا ينهض، حتى تستقيم له شؤون حياته.

^١ كتبت هذه الرسالة جوابًا على سؤال هذا نصه: «أيهما أصلح للإنسان: أن يولد فقيرًا أو غنيًّا؟».

ذلك خير له من أن يجلس في شرفة من شرف قصره مطلاً على العاملين، والمجاهدين، يتمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية في أحد ملاعب التمثيل. أحب أن يمر بجميع الطبقات، ويخالط جميع الناس، ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينه بؤس البؤساء وشقاء الأشقياء، ويسمع بأذنيه أنات المتألمين وزفريات المتوجعين؛ ليشكر الله على نعمته إن كان خيراً منهم، ويشاركهم في همومهم وآلامهم إن كان حظه في الحياة مثل حظهم؛ لتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم. أما الغني الذي لم يذُق طعم الفقر في حياته فقلماً يشعر بآلام الناس ومصائبهم، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم، فإن حاول يوماً أن يمدّ يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب، فعل ذلك متفضلاً ممتناً لا راحماً ولا متألماً.

والألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه، بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها، فمن حُرِمَ حُرْمَ كُلِّ فضيلة من فضائل النفس، وكلّ مكرمة من مكرماتها، وأصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالإنسان الناطق.

أحب أن يجوع ليجِدَ لَذَّةَ الشعب، ويظمأً ليستعذب طعم الري، ويتعب ليشعر ببرد الراحة، ويسهر لينام ملاء جفونه، أي إنني أحب له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها.

وما السعادة في الدنيا إلا لمحات البرق تخفق حيناً بعد حين في ظلمات الشقاء، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها، وأشقى الأشقياء أولئك المترفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا يزالون ينعمون فيها ويتقبلون في جنباتها حتى يستنفدوها، فيستولي على عقولهم مرض السامة والضجر، فيتألمون من الراحة أكثر مما يتألم التعب من التعب، ويقاسون من عذاب الوجود أكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان، وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الإلمام بمشتهيات غريبة لا تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها، تفريجاً بكربتهم، وتنفيساً عن أنفسهم وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم في ملاعب القمار، ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلا جماعة الفارين من سجون السامة والملل. يعالجون الداء بالداء، ويفرون من الموت إلى الموت.

أحب أن يكون غنيًا بالمعنى الحقيقي، لا بالمعنى الاصطلاحي، أي أن يكون مُستغنيًا بنفسه عن غيره، لا كثير المال والثراء، وما سُمي المال غنىً إلا باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه، وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب، فإنَّ أكثر الناس فقرًا إلى المال وأشدهم ولعًا بإحرازه، وأعظمهم مُخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الأغنياء، أصحاب المال والثراء، وإن كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالاً فهو في جانب الفقراء المقلين، أكثر منه في جانب الأغنياء الكثيرين، ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فإذا هو في نظره الحياة نفسها، يجمعه ولا يدري ماذا يريد منه، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه، ولا يخشى عقابه، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله، فضلًا عن كثيره، وإذا بلغ المرء في حالته العقلية إلى درجة أن تنقلب في نظره حقائق الكون، وتتغير نواميسه، فيرى الرؤوس أذنابًا، والأذناب رؤوسًا، والوسائل غايات، والغايات وسائل، فقل على عقله السلام.

لا أكره أن ينشأ ولدى غنيًا، ولا أحب أن أعرضه لمخاطر الفقر وآفانه، ولكني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر.

أخاف عليه أن يعتدَّ بالمال اعتدًا كثيرًا، ويقدره فوق قدره، ويعتبره الكمال الإنساني كله، فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه، وألَّا يجد من حوله من عثراته وخطائمه مرآة يرى فيها هناته وعيوبه؛ لأنَّ عشاء الأغنياء متملقون، مدهانون، يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم.

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة، لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة، ولا تعنى بشيء سواها، فيصبح رجلًا قاسيًا صلبًا، ميت النفس والعواطف، لا يرحم بائسًا، ولا يعطف على منكوب، ولا يرثي لأمة، ولا يبكي على وطن، ولا يشترك في شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها، ولا يعنيه ما دام راضيًا عن نفسه مغتبطًا بحظه، أسقطت السماء على الأرض، أم بقيت في مكانها.

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والآداب، ويزدري المواهب والعقول، والفضائل والمزايا؛ فيصبح عارَ أمته وشنارها، ووصمتها الخالدة التي لا تزول، ومن أشرب قلبه حب المال، ونزل من نفسه إلى قرارتها، لا يحترم غيره ولا يقيم إلا لأربابه وزنًا، ويخيل إليه أن من عداهم من الناس لا قيمة لهم في الحياة، بل لا حق لهم في الوجود.

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلا من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته، ومن اشترط الغنى في زوجة قلما تنزع نفسه إلى اشتراط شيء سواه، فيسقط في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه.

أخاف عليه إن ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته، فيتركه صغيراً في أيدي الخدم، وكبيراً في أيدي عشراء السوء، فيصبح نكبته الكبرى في حياته، وعاره الدائم بعد مماته.

أخاف عليه أن يقضي أيامه ولياليه مروعاً مذعوراً خافق القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة إن خسر، ويصعقه فوت الربح إن فاته، ويطير بنومه وهدوئه هبوط الأسعار، ونزول الأسهم، وتقلبات الأسواق، وخسران القضايا ومنازعات الخصوم، والآفات السماوية والجوائح الأرضية.

وما حُزن الفقير الذي أنفق آخر درهم بيده من حيث لا يعرف له طريقاً إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله بأشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه، أو الذي كان يؤمل أن يتمم به مليونه فلم يُتَح له.

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعاً، ولا يجد ما يسدّ به رمقهم، بأطول من ليلة الغني الذي يسقط إليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت، أو أن سهماً من أسهمه قد نزل.

وحَدَّثني من رأى بعينه من جُنَّ وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره يحترق، وسمعت كثيراً من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الإملاق، وكلُّ أثرها عندهم أنها تنقلهم إلى منزلة في الغنى أدنى من منزلتهم الأولى.

أخاف عليه أن يصبح واحداً من أولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم، وهدم ما ترك لهم آبائهم وأجدادهم من مال وجاه، فأندب حظي في قبري، وأقرع السنَّ على أن أكن فارقت هذه الحياة لا مال لي فيها ولا ولد.

ولا أزال أذكر حتى الساعة أنني مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين، رأيت غلاماً من الوارثين جالساً بإحدى الحانات يمرح في نعمائه، وآخر من المُتشردين نائماً تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب في بأسائه، أما الأول فقد كان جالساً بين مائدتي شراب وقمار، تسلب الأولى

عقله والأخرى ماله، وقد أحاط به جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميدانها، يضحكون لنكاته، ويؤمّنون على أقواله، ويصدقون أكاذيبه، ويتحركون بحركته، ويسكنون بسكونه، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين، ويصيح صياح الثعالب، وأما الثاني فقد كان عارياً إلا قليلاً، يفتح إحدى عينيه من حين إلى حين كلما رنّت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم، ويضم ركبتيه إلى صدره كلما أحس صوت مركبة مارة بجانبه، وقد يبسط كفه أحياناً وهو مغتمض إن خُيّل إليه أن يداً تمتد إليه بالإحسان، ولا يد هناك ولا إحسان.

رأيت هذين المنظرين الغريبيين المتناقضين، فثارت في نفسي تلك الساعة عاطفتان مختلفتان، عاطفة البغض والاحتقار للأول، وعاطفة الرحمة والشفقة على الثاني، وقلت في نفسي: لو كان لي ولد وكان لا بد له من أن يكون أحد هذين الغلامين، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثرًا، أو المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين، على أن أراه بين فئة الوارثين، لأنني أرجو له في الأولى أن يجد بين الراحمين راحمًا يحسن إليه، ويستنقذه من شقائه، ويأخذ بيده في طريق الحياة الطيبة الصالحة أما في الثانية فإني لا أرجو له شيئاً.

إن للرحمة طيشًا كطيش القسوة والشدة، وأطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد أيام حياته في جمع الثروة لأولاده دائبًا ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعليمهم ضنًا بهم أن يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأعبائها فإذا ذهب لسبيله وخلي بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين في الأثقال التي يحملونها من مكان إلى آخر، فهم ينقلونه من خزائنه شيئًا فشيئًا إلى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينفد، فإذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين، صفر الأكف، فارغي الجيوب، مطرقي الرؤوس، لا حول لهم ولا حيلة، فقد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم، وعدموا في عام واحد أو عامين قرنًا كاملاً مجيدًا من أعلاه إلى أسفله، ولا يعلم إلا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك.

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفاقًا صحيحًا لرحمهم من هذا المصير المحزن، وضمن بهم على هذا التراث المشؤوم.

يقولون أن الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات، وأنا أقول: إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وألا ننخدع بصور الألفاظ وألوانها

علمنا أن للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء، بل أشد منها خطراً وأعظم هولاً، فإن كان بين الفقراء: اللصوص والقتلة والسطار والعيارون وقاطعوا الطرق، فبين الأغنياء: المحتالون والمزورون، والمغتصبون والخائنون، والمداهنون والمالمثون وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم، والتجار الذين يسرقون من الأمة في يوم واحد باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعياروه في شهر كامل، والقوام والأوصياء الذين يورثون التركات من دون وارثيها، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والحفاظة عليها، والسماسرة الذين يغتالون الأسواق بأجمعها، والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها، والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها.

على أن جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى، فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكلبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وجد في الأرض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق، ولا يسرق السارق، ولا يسلب السالب، ولا يلص اللص إلا جزءاً من حقه الذي كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة، وللرحمة سبيل إلى الأفتدة والقلوب.

ليفتح الأغنياء المدارس وليبنوا الملاجئ، ولينشئوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميادين الحياة بالمساعدة والمعونة، فإن وجدوا بعد ذلك لصوصاً أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر وينعوا عليه جرائمه وآثامه. لا أريد أن أقول أن الغنى علة فساد الأخلاق، وأن الفقر علة صلاحها، ولكن الذي أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء: إنني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين، ولم أرَ إلا قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين.

إن العلوم والمعارف، والمُخترعات والمُكتشفات، والمدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر، وثمره من ثمراته، وما المداد الذي كتبت به المصنفات، ودُوِّنت به الآثار إلا دموع البؤس والفاقة، وما الآراء السامية والأفكار الناضجة التي رفعت شأن المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم والأحزان، وما انفجرت ينباع الخيالات الشعرية، والتصورات الفنية، إلا من صدوع القلوب الكسيرة؛ والأفتدة الحزينة، وما أشرقت شمس الذكاء والعقل في مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيمة والزوايا المهجورة، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء، وحكماء وأدباء، إلا في مهود الفقر، وجحور الإملاق، ولولا الفقر ما كان الغنى، ولولا الشقاء ما وجدت السعادة.

إن المجتمع الإنساني اليوم ميدانُ حربٍ يعترك فيه الناس ويقتتلون لا يرحم أحدٌ أحداً، ولا يلوي مقبل على مُدبر، يَعُدُّون وَيُسْرِعُونَ، ويتصادمون ويتخبطون، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض كأنهم هاربون من معركة، أو مفلتون من مارستان، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم، وتموج موج البحر الزاخر، يغرق فيه من يغرق، وينجو من ينجو.

أندرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل إلى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية، ولم هذا الجنون الاجتماعي التائر في خاصتهم وعامتهم، علمائهم وجهلائهم؟ ولم هذه الحروب القائمة، والثورات الدائمة، والقتال المستحرب بين البشر جماعات وأفراداً، وقبائلً وشعوباً، وممالك ودولاً؟

لا سبب لذلك سوى شيء واحد: هو أن الناس يعتقدون اعتقاداً خطأ أن المال معيار السعادة وميزانها الذي توزن به، فهم يسعون إليه لا من أجل الجمع والادخار، كما يجب أن يكون، بل ومن أجل القوت وكفاف العيش، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي لملء جميع الخزائن وتهدة كافة المطامع فهم يتناهبون به ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة، أو تنازع البقاء، وما هو بالتنازع ولا التناظر، إنما هو التفاني والتناحر، والدم السائل، والعدوان الدائم، والشقاء الخالد.

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة أن يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة، وأن الإفراط في الطلب شقاء كالتقصير فيه، وأن سعادة العيش وهناءة وراحة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريق واحد وهو الاعتدال.

الآن أستطيع غير خاشٍ لوماً ولا عتباً أن أقضي للناشئ الفقير على الناشئ الغني قضاءً لا مُجاملة فيه ولا محاباة، ومن ذا الذي يُجامل الفقراء ويحابيهم! وأن أقول للناشئ الفقير: صبراً يا بُني وعزاء؛ فإنك لم تخلق إلا للعمل، فاعمل واجتهد، ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك، ولا تحصد غير الذي زرعه يدك، فإن لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك، والزمن خير مؤدب ومهذب، وإن ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها، وإن كنت ممن لا يعدون وظائف الحكومة ومناصبها غنماً عظيماً كما يعدها القعدة العاجزون، فما هو ذا فضاء الأرض أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور التي ليس لها مثل عقلك وقوتك، فإن الله لم يخلقك

في هذا العالم ولم يبرزك إلى هذا الوجود لتموت فيه جوعاً أو تهلك ظمأً، ولا تصدق ما يقولونه لك من أن الناشئ الغنيَّ أسعد منك حالاً، وأوفر حظاً، وإن راقك منظره وأعجبك ظاهره، فلكل نفس همومها وآلامها، وهموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها.

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي ونفس هادئة وقلب شريف، وأن تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الأرض التي فلقها بيده، وتعهدها بنفسه، وسقاها من عرق جبينه.

الفصل التاسع والثمانون

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة في جبل المقطم فظنوها قتيلة أو منتحرة، حتى حضر الطبيب، ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً. تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميته الشنعاء في مصر، وهذا أول يوم سَجَلْتُ فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزاينا هذا الشقاء الجديد.

لم تمت هذه المسكينة في مفازة منقطعة أو بيداء مجهل، فنفرز في أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة، بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم، وفي ملتقى غاديهم برائحهم، ولا بد أنها مرّت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيباً، ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة واحدة تسدّ بها جوعتها، فما أقسى قلب الإنسان، وما أبعد الرحمة من فؤاده، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء.

لِمَ ذهبَت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم في ساعتها الأخيرة؟ لعلها ظنّت أن الصخر ألين قلباً من الإنسان فذهبت إليه تبيّثه شكواها، أو أن الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستجديه فضلة طعامه، وأحسبُ لو أن الصخر فهم شكواها لأشكاها،^١ ولو أن الوحش ألَمَّ بسريرة نفسها لرثى لها وحنا عليها؛ لأنني لا أعرف مخلوقاً على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان.

^١ شكا إليه فأشكاها أي أرضاه وقبل شكواها.

ألم يلتقِ بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها.

ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل، ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره!

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيًا واحدًا زائدًا عن حاجته فيتصدق به عليها؟

الهم لا هذا ولا ذاك، فالمال والحمد لله كثير، والخبز أكثر منه، ومواضع الخلط والحاجات بادية مكشوفة يراها الرءاؤون ويسمع صداها السامعون، ولكن الأمة التي ألقت ألا تبذل معروفها إلا في مواقف المفارقة والمكاثرة، والتي لا تفهم من معنى الإحسان إلا أنه الغل الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم، لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبه قلبًا رحيماً.

لقد كان الإحسان في مصر كثيرًا في عصر الاكتتابات والحفلات، وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الجرائد تسجيلًا يشهده ثلاثة عشر مليونًا من النفوس، فأما اليوم وقد أصبح كل امرئ موكولًا إلى نفسه، ومسئولًا أمام ربِّه وضميره أن يتفقد جيرته وأصدقائه وذوي رحمه ويلتمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدّها، فما هم الفقراء يموتون جوعًا بين كثبان الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا مُعين.

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيًا تتبلغ به أو درهمًا تبتاع به رغيًا فلم تفعل، وكان في استطاعتها أن تعرض عِرْضَهَا في تلك السوق التي يعرض فيها الفتيات الجائعات أعراضهن فلم تفعل؛ لأنها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها، على أن تعيش بعارها، فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعًا غير شرفائها وأعفائها.

الفصل التسعون

الأدب الكاذب

كنا وكان الأدب حالاً قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر، أو يحدث نفسه به، أو يكون عوناً لفاعليه. فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس، أو نزوة من نزوات العقل، وجد في نفسه عند غشيانه من المضيض والارتماض ما ينغصه عليه ويكر صفوه وهنائه، ثم أصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم، وحركات وسكنات، وإشارات والتفاتات، لا دخل لها في جوهر النفس، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها، فأحسن الناس عند الناس أدباً وأكرمهم خلقاً وأشرفهم مذهباً، من يكذب على أن يكون كذبه سائغاً مهذباً، ومن يخلف الوعد على أن يحسن الاعتذار عن إخلافه، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه، ومن يقترف ما شاء من الجرائم والذنوب على أن يحسن التخلص من نتائجها وآثارها، وأفضل من هؤلاء جميعاً عندهم أولئك الذين برعوا في فن «الآداب العالية» أي فن الرياء والنفاق، وتفوقوا في استظهار تلك الصورة الجامدة التي تواضع عليها «جماعة الظرفاء» في التحية والسلام، واللقاء والفرق، والزيارة والاستزارة، والمجالسة والمنادمة، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر النفس وإسفافها، أكثر مما يرجع إلى أدبها وكمالها، فكأن الناس لا يستنكرون من السيئة إلا لونها، فإذا جاءتهم في ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا إليها، ولا يعجبهم من الحسنة إلا صورتها، فإذا لم تأتهم في الصورة التي تعجبهم وتروقه عافوها وزهدوا فيها، أي أنهم يفضلون اليد الناعمة التي تحمل خنجرًا، على اليد الخشنة التي تحمل بدرة، ويؤثرون كأس البللور المملوء سمًا على كأس الخزف المملوء ماءً زلاً، ولقد سمعت بأذني من أخذ يعدُّ لرجل من أصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعاً للوَّث صحائفهم ثم ختم كلامه بقوله: وإني على ذلك أحبه وأجلُّه لأنه رجل «ظريف»! وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاقرة والمقامرة كأن جميع

هذه الأشياء فضائل لا شك فيها، وكأن الرذيلة وحدها هي الخروج عن تلك القوانين التي وضعت لها، وما عهدنا ببعيد بذلك القاضي المصري الذي أجمع الناس في مصر منذ أيام على احتقاره وازدراؤه لا لأنه لعب القمار بل لأنه تلاعب بأوراق اللعب في أحد أندية القمار، وسموه لصاً دنيئاً، والقمار لصوصية من أساسه إلى ذروته.

أعرف في هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد ومركز واحد: أحدهما خير الناس، والآخر شر الناس، وإن كان الناس لا يرون رأيي فيهما.

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق والآداب، ومزاولتها ليله ونهاره فقراً فيها فصول الصدق والأمانة والعفة، والزهد والسماحة والنجدة، والمروءة والكرم، وقصص السحما والأجواد والرحماء والمؤثرين على أنفسهم، وافتتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه أن الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف! وفهموا من معناه مثل ما فهم، وأخذوا منه بمثل الذي أخذ، فغضب في وجه الأشرار، وابتسم في وجهه الأخيار، والأولون أكثر عدداً وأعظم سلطة وجاهاً، فسمي عند الفريقين شرساً متوحشاً، وامتدح إحسان المحسن، وذم إساءة المسيء، والمحسنون في الدنيا قليلون، فسمي وقحاً بذياً حتى بين المحسنين، وبذل معروفه للعاجز الخامل، ومنعه القادر النابه؛ فلم يشعر بمعرفه أحد فسمي بخيلاً، واعتبر الناس بقيمهم الأدبية؛ لا بمقاديرهم الدنيوية، فلقي الأغنياء والأشراف بمثل ما يلقي به العامة والدهماء؛ فسمي متكبراً، وقال لمن جاءه يساومه في ذمته: إني أحبك ولكني أحب الحق أكثر منك؛ فكثر أعداؤه وقَلَّ أصدقاؤه.

أما الثاني فأقل سيئاته أنه لا يفي بوعده، ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه أحد مخلفاً، وما رآه الناس في يوم من يوم من أيامه عاطفاً على بائس أو منكوب، ولكنه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين، ويستبكي لهم، فعُدَّ من الأجواد السحما، وكثيراً ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم، ولكنه لا يزال يمسح رؤوسهم، ويحتضنهم إلى صدره في المجامع والمشاهد كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين، فسمي الوصيِّ الرَّحيم، ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم، إلا أنه يخلط جدُّه بالهزل، ومرارته بالحلاوة فلم يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه الماجن الظريف.

ذلك هو الأدب الذي أصبح في هذا العصر رأياً عاماً يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم، ويُعلِّمُ الوالدُ ولدهُ والأستاذُ تلميذه، ويقتتلون اقتتالاً

شديدًا على انتحاله والتجمل به، كما يقتتلون على أعز الأشياء وأنفسها حتى تبدلتِ الصور، وانعكست الحقائق، وأصبح الرجل المُخلص أخرج الناس بصدقه وإخلاصه صدرًا، وأضلهم بهما سبيلًا، لا يدري أيكذب فيسخط ربه ويرضي الكاذبين؟ أم يصدق فيرضي نفسه ويسخط الناس أجمعين؟ ولا يعلم أيهجر هذا العالم إلى عزلة منقطعة يقضي فيها بقية أيام حياته غريبًا شريدًا؟ أم يبرز للعيون فيموت همًّا وكمدًا؟

يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح، وأن يكون أدب الجوارح تابعًا له وأثرًا من آثاره، فإن أبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات والسكنات أساس صلاتهم وعلاقتهم، وميزان قيمهم وأقدارهم، فليعترفوا أن العالم كله مسرح تمثيلي، وأنهم لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين.

الفصل الحادي والتسعون

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي منذ أعلنت هذه الحرب، قبحها الله؛ وقبح كل ما تأتي به، ألا أكتب كلمة في صحيفة سيارة في شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها حتى ينقضي أجلها وأن أترك هذا القلم هادئاً مطمئناً في مرقده مدرجاً في ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن ينبعث كما يريد لا كما يُراد منه، ولكنّ نازلاً نزل بهذا المجتمع المصري منذ عام أو عامين لم أحفل به في مبدئه، ولم أُلّق له بالاً، وعددته في النوازل الصغيرة المترددة التي لا تلبث غيومها أن تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الإلهي فتنتقشع، ولكن ها قد مضى العام والعامان وهو باقٍ في مكانه، لا يتحول ولا يتحلل بل تزداد قدمه على الأيام ثباتاً ورسوخاً، وأحسبه سيبقى في مستقبل أيامه أضعاف ما بقي في ماضيهما إن لم نُثَرَّ عليه معشر الكتاب حرباً شعواء، تهز جذرانه هزاً وتدكها دكاً، وتلحق أعالیه بأسافله؛ لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبالٍ بتلك الأليّة التي كنت آليتها، فلعل أصدقائي من أفاضل الكتاب يساعدونني في هذا الشأن الذي إن عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غداً.

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقاذر العامة التي يسمونها الملاعب الهزلية وما هي في شيء من الهزل ولا الجد، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ولا بأي فن من الفنون الأدبية، فأقبل عليها الناس إقبالاً عظيماً، وأغرموا بها غراماً شديداً، فليقبلوا عليها ما شاؤوا، وليفتتنوا بها ما أرادوا، ولكنّ فريقاً واحداً من الأمة هو الذي نضن به على تلك المواطن الساقطة أن تطأها قدمه أو تظلل سماؤها رأسه؛ لأننا نضنُّ به على كل منقصة في العالم تزري به، أو تنال من كرامته.

ذلك الفريق المضمون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين إخواننا وأبناءنا، وعنوان مجدنا وشرفنا، وصورة وجودنا وحياتنا، ومناط أمانينا وآمالنا فائذونا لكاتب من كتابكم، وصديق من أصدقائكم، أن يحادثكم قليلاً في هذا الشأن كما يحادث الأب ولده، أو الأخ أخاه لا قاسياً ولا متجبراً بل عاتباً متلطفاً، وأمله عظيم أن ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يحب لكم، وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم.

الحق أقول، إن الحياء يكاد يعقد لساني بين أيديكم، فلا أدري كيف أحدثكم، ولا ماذا أقول لكم؟

أعظكم في أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقباه مثل ما أعلم، أو أدعوكم إلى اجتناب سيئة لا أحسب أن بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم ترزأ الأمة بمثلها في حاضر تاريخها أو ماضيه! أو أقول لكم: إن هذه الأماكن التي تطوَّها أقدامكم إنما هي مقابر المجد والشرف ومدافن الفضائل والأخلاق، ومصارع الأعراض والحرمان! وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فأعلمكم منه ما لا تعلمون؟!

لا يجهل أحد منكم شيئاً مما أقول، ولكنه الشباب يغري الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة، فيمضي إليها قُدماً، لا يجهل مكان الخطر منها، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومناورتها حتى يتردى فيها، وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم.

إنني لا أرى في هذه المجامع التي تفتتون بها وتتهافتون عليها حسنة تغتفر سيئة، أو جمالاً يفي بقبح، أو خيراً يعزي عن شر. فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أوتي حظاً قليلاً من سلامة الذوق أن يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر إليه، وملحها ثقيلة مستبشرة لو نطق بها ناطق في مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلبَ نظره في وجوه الجالسين حوله لرأى في ابتسامات السخرية المترققة في شفاهم ما يذيه حياءً وخجلاً، وأناسيدها سوقية مبتذلة في موضوعها وصورة أدائها لا يطرب لمثلها إلا أصحاب الأذواق العامية الخشنة الذين يطربون لنشيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات وضجيج الباعة في الأسواق، فماذا بقي فيها من وجوه الحسن بعد ذلك؟

بقي فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة في الأمة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا، والمحامين والأطباء والمعلمين أفاضل الأمة وعيونها، وغيرهم من طبقات الأمة كالصُّنَّاعِ والخدم والأكارين وأمثالهم.

بل بقي ما هو شر من هذا جميعه، وهو تمثيل الشهوات البدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا وأطفالنا، وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التي ترخى على مثلها الستور، وتقام من حولها الدعائم والجدران. فلو أن غريباً وفد إلى هذا البلد وهو لا يعلم من شأنه شيئاً، فذهب إلى مكان من تلك الأمكنة ليرى في مرآته صورة الأمة ممثلة في مسارحها الوطنية لقضى عليها للنظرة الأولى بأنها أخط الأمم وأدناها.

ذلك إلى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشتم وجمل الفحش والهجو التي لا يطرق أذنه مثلها في موقف من مواقف حياته أو مشهد من مشاهدها، إلا إذا قدر له أن يتغلغل بنفسه يوماً من الأيام في تلك الأحياء العامة الساقطة حتى يصل إلى «عرب اليسار» أو «عشش الترجمان» فيسمعها هناك في مشاجرات القرايين ومهاترات الشحاذين.

ولقد قال لي أحد الأصدقاء الظرفاء مرة إن شتائم «أم شولح» قد انتقلت إلى بيتي ولا أعرف كيف انتقلت إليه، فأني أسمع الكثير منها منذ أيام يتردد في أفواه الأطفال هازلين، وفي أفواه الخدم جادّين.

أُتدرون أيها الأصدقاء من هم هؤلاء الذين يسمون أنفسهم ممثلين، ويسمون ما يهزون به في مسارحهم روايات، والذين يدعونكم معشر المتعلمين الراقيين إلى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون؟

لو أن جماعة من الزامرين وآخرين من الطبالين وآخرين من القرايين وجماعة غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلولانية والحواة والرقاة وبقية السائلين المستجدين الذين يَمرون بأبواب المنازل كل يوم ضاجّين صارخين فلا نلقي لهم بالاً ولا نعيدهم أذنًا اتَّفَقُوا فيما بينهم على أن يكونوا جماعة واحدة يدًا واحدة في مكان واحد لكانوا هم بعينهم جوق كشكش والبربري وشرفنطح لا فرق بينهم وبينهم سوى أن أولئك يقفون بأبوابنا صارعين مبتهلين يقنعون باللقمة ويجتزئون بالشربة، وهؤلاء يأبون إلا أن نقف على أبوابهم ونتعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم إلا إذا دفعنا الإتاوة المضروبة عليها.

وألطف كلمة سمعتها في هذا الشأن قول بعض المفكرين: «كان الشر مفرقاً في أنحاء البلد فجمعه كشكش في مكان واحد».

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء وأنتم عيون الأمة اليقظة وعقولها المفكرة، أن تنخدعوا بالأعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين، فترفعوهم بأيديكم إلى هذه المرتبة العالية

التي لم يخلقوا لها، ولا يمتون إليها بسبب من أسباب العلم أو الذكاء أو الشرف أو الخلق، وها هم أولاء نوابغ الممثلين في أمتكم أشقياء بائسون لا يكادون يجدون بين ظهرانيكم ما يقيمون به أود عيشهم، أو يعينهم على ما هو بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه.

من الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجدي الشريف في مسارح أبيض ورشدي وعكاشة وأمثالهم إن كنتم أنتم لا تذهبون إليها! ومن هو أولى بها من بعدكم إن قطعتم صلتكم بها!؟

أعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين، فإذا فتش عنكم في مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين في مراقص كشكش والبربري وأمثالهما راضين عن مقامكم فيها، مغتبطين بسفسافها وهذياناتها!؟ ألا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان — مشهدهم في الأجواق الهزلية الساقطة، ومشهد العامة والسوقة في الأجواق الجدية الشريفة — إن الأمة المصرية أمة غريبة الشأن يفسدها العلم ويصلحها الجهل، أو أن يتطرف متطرف منهم في رأيه فيقول: ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء، موفورًا لها حظها من الأخلاق والآداب. فذلك خير لها من علم يهوي بها في مهواة الشقاء والعار.

لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة، فلم أر بين المحتالين والمتوقعين من هو أعظم كيدًا، ولا أسمى وجهًا من هؤلاء القوم.

إنهم يحاولون دائمًا أن يلبسوا مفاستهم وشروهم ثوب الفضيلة والجد، وهو وإن كان ثوبًا شفافًا ينم عمًا وراءه، إلا أنه يكفيهم للذود عن أنفسهم في مواقف الجدل والمناظرة، كما يكفي البرقع الشفاف المرأة المتهتكة للدخول في سلك المخدرات المتحجبات.

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل، ولا يتركون مفسدة من المفاست ولا رذيلة من الرذائل إلا ويلصقونها به، وينشدون مختلف الأناشيد في السخرية بشكله والهزاء بصفاته وأعماله، ثم لا يخجلون أن يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الأناشيد: «ما دامت بلادنا زراعية، حبوا الفلاح إن كنتم تحبوا وطنكم».

وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء، وينقمون على المصري تبديد أمواله في سبيل شهواته، وليس للنساء في مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم في الساعة التي تمثل فيها هذه الروايات وتلقى هذه الأقوال!.

ويهدمون اللغة العربية هدمًا بهذه اللهجة العامية الساقطة التي يكتبون بها رواياتهم، وينظمون بها أناشيدهم وينشرونها في كل مكان، ويفسدون بها الملكات اللغوية في أذهان المتعلمين، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة العربية وحمايتها، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة: «ما لها لغتنا العربية، آل همجية، يا دي المصيبة يا دي العار، فشر ... دي لغة المدنية، اتمسكوا بها صغار وكبار».

ولا يستحيون أن يجمعوا في نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم: «أبيع هدومي عشان بوسة، من خذك القشطة يا ملبن، يا حلوة زي البسبوسة، يا مهلبية تمام واحسن»، وبين قولهم: «مصر يحميك ربك، ما تشوفي إلا أيام سعدك» أي إنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات «الوطنية» و«حب وطنك» و«مت في سبيل الأوطان» وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التي لا معنى لها في أفواههم إلا أنهم يعتقدون أن المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغًا لا يبلغه أطفال المكاتب ولا سكان المارستانات.

لا أرى لكم معشر الطلبة المصريين أمام هذه النازلة العظمى التي نزلت بنا إلا أن ينتدب فريق من عقلاتكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب إلى تلك الملاعب وشرح مضارّها وسيئاتها لهم، فإن امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر، وهكذا حتى يصبح في عرفكم جميعًا أن الدخول إلى تلك الأماكن عارٌ يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه.

نحن في حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنّا في كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب، وأن في نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا إلى مصاف الأمم العظيمة، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأي شيء غير ذلك، فإن فات آباءنا أن يورثونا خلق العظمة والإباء في عهدهم، فلنتخلّق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا.

إنكم لا تذهبون في الحقيقة إلى هذه الأماكن وحدكم بل يذهب إليها معكم إخوانكم وأخواتكم، وبقية أفراد أسركم؛ لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم، وتروون لهم ما سمعتم، فكان سكان البلد جميعًا رجالًا ونساء كبارًا وصغارًا يجتمعون في هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة، فهل يستطيع أن يتصور خطرًا على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر؟

إنني لا أدعوكم إلى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من أجل أنفسكم فقط، بل من أجل إخوتكم وأخواتكم اليوم، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غدًا، ومن أجل

مستقبل الأمة المصرية كلها الذي أعتقد أنه أمانة في أيديكم، ووديعة موكولة إلى كرم نفوسكم، وشرف ضمائرکم. اهدموا هذه الأماكن هدمًا بالإعراض عنها واحتقارها، ثم قفوا بعد ذلك على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين: ها قد نجت الأمة من خطر عظيم، وها نحن قد قمنا جميعًا بالواجب علينا لوطننا.

الفصل الثاني والتسعون

الشيخ علي يوسف

هكذا تقوم القيامة، وهكذا ينفخ في الصور، وهكذا تطوى السماء طي السجل للكتاب. أفيما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذي كان ملء الأفئدة والصدور، وملء الأسماع والأبصار، وملء الأرجاء والأجواء، جثة ضاوية نحيلة مدرجة في كفن، ملحدة في مهوى من باطن الأرض سحيق؟

ما أعظم الفرق بين الحياة والموت! تغرب الشمس فلا تلبث أن تطلع من مشرقها، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة، وتعري الأشجار عن أوراقها، ثم تعود إلى جمالها مخضرة نضرة، حينما تهب عليها نسيمات الربيع، وينام الأحياء في مضاجعهم، حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري، وعيشت أشعته بأهداب جفونهم قاموا من مراقدهم، وذهبوا في سبلهم التي خلقوا لها، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ولا يؤمل أوبته أمل، فكأن ما صار إليه: العدم الذي لم يسبقه وجود.

اللهم إنا نعلم أن الموت غاية كل حي، وأن مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سهامًا طائشة، ولا نياقًا عشواء، وأن ورود الحياة لا يمكن أن تنبت إلا في التربة التي نبتت فيها أشواك الموت، ولكننا لا نستطيع أن نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع، إذا فارقنا عزيز علينا؛ لأن ساحة الصبر التي منحتنا، أضيق من أن تسع نازلة البلاء الذي ابتليتنا، فاغفر اللهم لنا عجزنا وبكاءنا على الهلكى والذاهبين.

اللهم إنك تعلم أننا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقة لا نجد فيها ظلًا نستظل به، ولا أكمة ناوي إليها، وأن الصديق الذي نعثر به في طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التي ننتهي إليها في تلك الصحراء بعد الأين والكلال وطول السير والسرى، فنترامى في ظلالها الوارفة هانئين مغتبطين، فإذا هبت ريح عاصفة على تلك

الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها في جو السماء وأصبحنا من بعدها ضاحين بارزين، فإنَّا لا نجد بُدًّا من البكاء والجزع؛ لأن من الشقاء ما لا يستطيع احتماله ولا يطاق تجرع كأسه.

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل زاهب، والنجم المتلألئ الذي كنا نتنوره من حين إلى حين في هذه السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم، والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفرتها، فنحن إن بكيناه فإنما نبكي الأمل الزاهب، والسعادة الراحلة والحياة الطيبة، ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من سعادتنا وآمالنا!

ما كنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين، ميت الأمس الشيخ محمد عبده، وميت اليوم الشيخ علي يوسف، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكنافها، يمسكها الأول أن تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها، ويمسكها الثاني أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها، واليوم لا نرجو لها من بعدهما أحدًا، فويل للأمة في دينها وويل لها في جامعتها.

العلماء والخطباء والكتّاب في هذه الأمة كثير، ولكن الرجال قليل.

إنما ينفع الأمة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه: الرجل الذي يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الأسرة من أسرته التي يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعي لها، فيقوم لها بكل ما تريد، ويسعى لها سعي الكادح المجد، ويرحم صغيرها، ويحنو على كبيرها، ويحتمل مغارمها، ويغتفر عبث أطفالها، وجهل شيوخها، ويرى لها في كل شأن من شؤونها خيرًا مما ترى لنفسها، أرضاها ذلك أم أغضبها، من حيث لا يمين عليها بذلك. ولا يطلب عندها جزاءً ولا أجرًا، بل من حيث لا تعلم ما يلاقي بينه وبين نفسه من آلام الحياة وما يعالج من شوائبها في سبيلها.

وكذلك كان شأن الشيخ علي يوسف في أمته، فقد مات بموته آخر من بقي لها من الرجال.

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونهم؛ لأن الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم، ولأن الحقيقة الكامنة في سويداء قلبه كانت أعمق مكانًا، وأدقّ مسلًا، من أن تتناولها النظرة الطائرة، ولأنه كان مخلصًا متحننًا يعمل في سره أكثر مما يعمل في علانيته، ثم لا يدل بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه.

رأيته في حادثة الأزهر — في تلك الأيام التي كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الأزهر والأزهريين — يقضي كثيرًا من ليلاته مترددًا على أبواب القائمين

بالأمر، ضارعًا إليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض مطالبهم، قائلًا عنهم ما كان يقوله النبي ﷺ عن فئة حنين: «اللهم إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الأرض أبدًا» فلا يقف في سبيله إلا حماقة أولئك الذين كان يظن هؤلاء المساكين أنهم أصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم.

ورأيته يضم إلى كنفه كثيرًا من أصدقائه الذين نبأ بهم الدهر بعد سقوط دولة «عبد الحميد»، وتنكر لهم الناس جميعًا خصوصًا أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم، ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم، وكان يلاقي في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين له ما لا يستطاع احتماله، فلم يُبالِ بشيء من ذلك. ورأيت كثيرًا من أعدائه الذين كانوا في بعض أيام حياتهم حربًا عليه وشقاء له يعودون إلى حظيرته واحدًا بعد آخر يستغفرونه فيجلس إليهم ويتحدث معهم حديث المودة والإخاء كأنما كانوا معه على ميعاد.

وما رأيته في يوم من أيام حياته حاقدًا ولا واجدًا، ولا منتقمًا ولا طالبًا بثأر ولا ناذيًا عن نفسه إلا في الساعة التي يعلم فيها أن قد جد الجد، وأن قد أصبح عرضه وشرفه على خطر، ولم أرَ سائلًا دخل إليه يشكو حاجة من الحاج صادقًا كان فيها أم كاذبًا ويسأله المعونة عليها من ماله أو جاهه إلا أعانه عليها ما وجد إلى ذلك سبيلًا؛ رحمةً وإشفاقًا، لا رياءً ونفاقًا، وكان يرى الرأي ويرى الناس جميعًا غيره فلا يثنيه عنه ثأن حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل، فإذا هو مصيب والناس جميعًا مخطئون.

ففي سبيل الله يا علي ما فقدنا بفقدك، وفي ذمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذه الدنيا سرًا كامنًا بين أحشاء ضلوعك لا يكتننها ولا يستشف باطنها إلا قليل من الناس، فما رآها الناس جميعًا رأي العين إلا وهي طائفة في جو السماء إلى ربها، وكذلك شأن هذه الأمة البائسة المحدودة لا ترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمتهم، إلا وهم ذاهبون إلى قبورهم حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم، فمثلاهم ومثلهم كمثل صاحب الدار الذي يجهل أن في أرضها كنزًا مخبوءًا حتى إذا باعها ممن يستخرج ذلك الكنز منها جلس إلى ظل حائطها يبكي بكاء البائس المحزون.

لقد كنت يا علي مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها، بل كنت أفضل من الحقيقة؛ لأن الحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، أما أنت فكنت تخدم

أصدقاءك وأعدائك، أما الأولون فلأنك كنت تحسن إليهم بجاهك أو بمالك أو برأيك، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عرضك وشرfk، فويل للفريقين معًا من بعدك، وكنت القطب الذي تدور حوله ربح الأتلام في هذا البلد، فقد كانت وظيفة الكتّاب أن يشرحوا آراءك أو يفسروا كلماتك أو يكتنوها مقاصدك أو يوافقوك أو يخالفوك أو يمدحوك أو يذموك، فإن كتبوا في شأن من الشؤون غير هذا فترتوا واستبردوا، فواضيعة الأتلام وما أضيق مذاهب الكتاب بعد رحيلك، وكنت العصمة التي تعتصم بها الأمة في مواقف بؤسها وشقائها، ومواطن خطوبها وكروبها، وما أحسب إلا أن الدهر مدخر لها من ذلك في مستقبل أيامها أكثر مما ادّخر لها في ماضيها، فما أكثر شقاءها وبلاءها بعد اليوم.

أيها الراحل الكريم: لقد كنت أرجو أن أجد بين جنبي بقية من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذي أعالجه فيك حتى يبلى على مدى الأيام كما يبلى الكفن لولا قدر أبعدني عن موطنك في آخر أيام حياتك فحرمني جلسة أجلسها بجانب سريرك أسمع فيها آخر كلمة من كلماتك، وأرى آخر نظرة من نظراتك، وحال بيني وبين خطوة أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لي في حياتك من الخطوات الواسعات، ووقفة أقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على تربتك أول دمعة يذرفها الباكون عليك، فلئن بكيّت موتك يومًا فسأبكي حرمانني وداعك أيامًا طويلاً حتى يجمع الله بيني وبينك.

الفصل الثالث والتسعون

العظمة

إن رأيت شاعرًا من الشعراء، أو عالمًا من العلماء، أو نبيلًا في قومه، أو داعيًا في أمته قد انقسم الناس في النظر إليه وفي تقدير منزلته انقسامًا عظيمًا وانفجرت مسافة الخُلف بينهم في شأنه، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه إلى رتبة الملك، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به إلى منزلة الشيطان، فاعلم أنه رجل عظيم.

العظمة أمر وراء العلم والشعر، والإمارة والوزراء والثروة والجاه، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون، والعظماء منهم قليلون، وإنما هي قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعورًا بأنه رجل غريب في نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال، ولا مقدود على مثالهم، ولا داخل في كلية من كلياتهم العامة، فإذا نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة أصبح لا ينظر إلى شيء من الأشياء بعين غير عينه، ولا يسمع بأذن غير أذنه، ولا يمشي في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه، ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه وشأن صاحبه سلطانًا عليه في رأي أو فكر أو مشايعة لمذهب أو مناصبة لطريقة، بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم أنَّ حقًا على الناس جميعًا أن يستقيدوا له، وينزلوا على حكمه ويترسوموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه فترى جميع أعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس وأعمالهم تبهر العيون وتدهش الأنظار، وتملأ القلوب هيبة وروعة، فإن كان شاعرًا كان مبتكرًا في معانيه أو طريقته، أو كاتبًا أخذ على النفوس مشاعرها وأهواءها، أو فقيها هدم من المذاهب قديمًا وبنى جديدًا، أو ملكًا شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملك سواه، أو وزيرًا ساس أمته بسياسة جديدة لا عهد لهم بمثلها من قبل، أو قائدًا ضرب الضربة البكر التي ترن في مسمع الجوزاء.

تلك هي العظمة، وهذا هو الرجل، ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم، ومعترك أنظارهم وأفهامهم، ومثار الخلف والشقاق بينهم في استكناء أمره، وتقدير منزلته فيعجب به الذين فطروا على الإعجاب بكل غريب والافتتان بكل جديد، حتى ينتقل بهم الإعجاب به إلى الافتتان بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته، والإغراق في حبه، والمشايعه له، والسير بعجبائه وغرائبه في كل صقع وناح، فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعاً غير جميل، فلا يجدون لهم بداً من مقابلة الإغراق في حبه بالإغراق في بغضه، على قاعدة المشادة والمعاندة. وهناك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه، ويناضل عنه أولئك يريدون استبقاءها في يده، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هانئاً مغتبطاً، لا يحزن ولا يبتئس؛ لأنه يعلم أن جميع هذه الأصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هي أبواق شهرته وعظمته.

لا أريد أن أقول إن الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى وما يفعل، وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط، فربما كان من هو أضعف منه قوة، وأخمل ذكراً، أسدً منه رأياً وأصدق نظراً، وإنما أريد أن أقول إن أحداً من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب وعقول المفكرين والسنة الناطقين وقلوب المحبين والمبغضين، إلا الرجل العظيم.

أحبب علياً قوم حتى كفروا بحبه، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه. وسمى بعض الناس أبا بكر وعمر شيخي المسلمين، وأنكر بعضهم صحبتهما وإخلاصهما، وعاش محيي الدين بن العربي بين فئة تراه قطب الأولياء، وأخرى تراه شيخ الملحدين، واغتبط فريق من المسلمين بآبى رشد فسموه فيلسوف الإسلام، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصاقاً في المسجد الجامع. وسمى قوم صاحب كتاب «الإحياء» حجة الإسلام، ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهابّ الريح، وعاش المعري بين رضا الراضين عنه ونقمة الناقمين عليه، يلثم الأولون مواطئ نعاله، ويسحبه الآخرون على وجهه في الطرقات العامة. وشرب سقراط كأس السم بين أفواه باسمة شماتة به، وعيون دامعة حزناً عليه. وجرت الأقلام بمدح المتنبي تارة فإذا هو سيد الشعراء، وبذمه أخرى فإذا هو أكبر المتكلفين، ورفع قوم شكسبير إلى مرتبة الكمال الإنساني فقالوا: نابغة الدهر، وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخسة والدناءة فقالوا: المنتحل الكذاب. وافتتن المفتنون بنابليون الأول فعلوا به إلى رتبة الأنبياء، وتنكر له خصومه وأعداؤه فسلكوه في سلك

الحمقى والممرورين، وذاق كل من لوثر وكالفين وغليلو وفولتير ونيتشه وتولستوي كأسى الحب والبغض في حياته وبعد مماته إلى القطرة الأخيرة منهما، وما انقسم الناس في هذا البلد في هذا العصر في شأن رجل من الرجال انقسامهم في شأن جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وعلي يوسف وقاسم أمين.

وما كان واحد من هؤلاء في المنزلة التي يرفعه إليها المغرقون في حبه، أو ينزل به إليها الغالون في بغضه، ولكنهم كانوا قومًا عظماء فانقسم الناس في شأنهم، وذهبوا في أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم إلا في شأن الرجل العظيم.

ليس معنى الوجود في الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نفقًا يتصل أوله بباب مهده وآخره بباب لحدّه ثم ينزل فيه انزلاقًا من حيث لا تراه عين ولا تسمع ديبه أذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الأرض، وإنما الوجود قرع الأسماع، واجتذاب الأنظار، وتحريك أوتار القلوب، واستثارة الألسنة الصامتة، وتحريك الأقدام الراقدة، وتأريث نار الحب في نفوس الأخيار، وجمرة البغض في قلوب الأشرار، فعظماء الرجال أطول الناس أعمارًا وإن قصرت حياتهم، وأعظمهم حظًا في الوجود وإن قلت على ظهر الأرض أيامهم.

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، ويحمل أحجار هيكلاها على رؤوسهم هادموها وبُنائُها، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك سواد الأصدقاء، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيد واحد، فاعلم أن العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعًا.

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم فلا يزال ذلك القصر ثابتًا في مكانه لا يتزعزع ولا يتحلل ما بقيتا في مكانهما، فإذا سقطت إحداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطهما.

لا يعجبك أن يتفق الناس جميعًا على حبك؛ لأنهم لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره، ثم يقعي على دَنَبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل، يضربونه فيصطبر لهم، ويعبثون به فيبصبص بدَنَبه طلبًا لرضاهم، ويهتفون به فيقترب، ويزجرونه فيزدجر.

ولا يعجبك أن يتفقوا على بغضك؛ لأنهم لا يتفقون إلا على بغض الخبثاء الأشرار الذين لا يحبون أحدًا من الناس فلا يحبهم من الناس أحد.

وليعجبك أن يختلفوا في شأنك، وينقسموا في أمرك، ويذهبوا في النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب، فتلك آية العظمة، وذلك شأن الرجل العظيم ...

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائد عنه وعادٍ عليه، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقي به دوحة العظمة التي ينعم في ظلها القائد العظيم. كن الناطق الذي تحمل الريح صوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا تكن الريح التي تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يبهون لها، ولا يعرفون لها يدها.

كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرات الأرض في سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرة التي تطؤها الأقدام وتدوسها الحوافر والأخفاف.

كن زعيم الناس إن استطعت، فإن عجزت فكن زعيم نفسك، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء، والتلصق بهم، أو مناصبتهم العداء والوقوف في وجههم، فإن فعلت كنت التابع الذليل، وكانوا الزعماء والأعزاء.

الفصل الرابع والتسعون

الانتقاد

سألني بعض الأصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده، وأدابه وواجباته، ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود، ولا آداب ولا واجبات، وأن لكل كاتب أو قائل الحق في انتقاد ما يشاء من الكلام، مصيباً كان أم مخطئاً، محقاً أم مبطلاً، صادقاً أم كاذباً، مخلصاً أم غير مخلص؛ لأن الانتقاد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان. وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تفارقانه من صرخة الوضع، إلى أنه النزاع، وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبة فيه ولا مرأء فإن أصاب الناقد في نقده فقد أحسن إلى نفسه وإلى الناس، وإن أخطأ فسيجد من الناس من يدلّه على موضع الخطأ فيه، ويرشده إلى مكان الصواب منه، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ، حتى يستقيم له الصواب كله. فإن أبينا عليه أن ينتقد إلا إذا كان كفواً في علمه، ومخلصاً في عمله كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس، فقد أبينا عليه أن يخط سطرًا واحدًا في الانتقاد، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت؛ لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدودًا معينة واضحة، فكل منتقد يزعمها لنفسه، وكل منتقد عليه يجرد منتقده منهما، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل في عمله، فيسمح به لجماعة المنتقدين!

على أن المنتقد الناقم لا تمنعه نقمته من أن يكون مصيباً في بعض ما يقول؛ لأنه لم يأخذ على نفسه عهداً أن يخلق جميع المآخذ التي يأخذها، وألا يكتب إلا الباطل والمحال، وإنما هو رجل عيَّاب بالحق وبالباطل، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ إلى السيئات المختلفة.

ولقد كُتِبَ أول انتقاد في التاريخ بمداد الضغينة والحقد، فقد كانت توجد في عصور اليونان القديمة طائفة من الشعراء يجوبون البلاد، ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية في الأسواق والمجمعات، وبين أيدي الأمراء والعظماء، فيكرمهم الناس

ويجلونهم إجلالاً عظيماً، ويجزلون لهم العطايا والهبات، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعة من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم، ولا يحظون عند الملوك العظماء حظوتهم؛ فأخذوا يعيبونهم، ويكتبون الكتب في انتقاد حركاتهم وأصواتهم، ومعاني أشعارهم وأساليبهم، وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد، والفضل في ذلك للضغينة والحق، فلرذيلة الحق الفضل الأول في وجود الانتقاد وبزوغ شمس المنيرة.

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه في استحسان الكلام واستهجانه رأياً صائباً. لا، بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه — متى رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة الفهم — أصح من رأي الأديب المتكلف الذي يتعمل الانتقاد تعملاً، ويتعمق تعمقاً كثيراً في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما، ورُبَّ ابتسامة أو تقطبية يمزج بوجه السامع العامي عفواً أنفع للأديب حين يراهما، وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه، من مجلد ضخم يكتبه عالم متضلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره.

وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها، أو خاصتها أو عامتها، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلماً كان أو جاهلاً، أن يدي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه، واستهجان من يستهجن منه. وهل رفع العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم في صحائف المجد، إلا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة، والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهمائها؟

وبعد، فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعاً إلا الغبي الأبله الذي لا يبالي أن يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين أنفسهم، ويزعجه كل الإنزعاج أن يتحدثوا بها في مجامعهم، ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها، أو الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم، ويفرق من رؤية الأشباح، ولو رجع إلى أناته ورويته لعلم أن النقد إن كان صواباً فقد دلَّه على عيوب نفسه فأنقأها، أو خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته منه؛ لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا أسراهم، يأمرونهم بالباطل فيذعنون، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون، ولئن استطاع أحد أن يخدع أحداً في كل شأن من الشؤون فإنه لا يستطيع أن يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه، ولو أن الأصمعي وأبا عبيدة وأبا زيد والمبرد والجاحظ والقالي وقدامة وابن قتيبة والآمدي وأبا هلال والجرجاني بعثوا في هذا العصر من مراقدهم، وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر

شوقي مثلاً لما كرهوها، أو يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نشر «فلان» لما أحبوها،
فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل إليها، فهي تختفي حيناً، أو تنكر، أو تترأى
في ثوبٍ غير ثوبها، ولكنها لا تنمحي ولا تزول.
فلتنطق ألسنة الناقدين بما شاءت، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت،
فلقد حرمتنا الحرية في كل شأن من شؤون حياتنا، فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر
والتفكير.

الفصل الخامس والتسعون

يوم العيد

أفضل ما سمعت في باب المروءة والإحسان أن امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس يطوقه الناس في تلك الليلة لابتياح اللعب لأطفالهم الصغار، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمز هو آية الآيات في حسنه وجماله، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيماً، لا لأنها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الأطفال الصغار، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدا الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد كما وعدته، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالي به مغلاة شديدة حتى علمت أن يدها لا تستطيع الوصول إلى ثمنه، وأنها لا تستطيع العودة بدونه، فسأقتها الضرورة التي لا يقدرها إلا من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم، وفؤاداً مستطاراً كفؤادها، إلى أن تمد يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أن الرجل لا يراها ولا يشعر بمكانها، ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق في آن واحد خفقتين مختلفتين، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها.

وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها، ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها ففاجأوها وهي جالسة بين يدي ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور، فهجم الجنديان على الأم فاعتقلها، وهجم الرجل على الولد فانترزع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخة عظمى، لا على التمثال الذي انتزع منه، بل على أمه المرتعدة بين يديه، وكانت كلمة نطق بها وهو جاثٍ بين يدي الرجل: رحماك بأمي يا مولاي، وظل يبكي بكاءً شديداً.

جمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر، وأطرق إطرًا طويلًا، وإنه لذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد، فانتفض انتفاضة شديدة، وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعًا، فالتفت إلى الجنديين وقال لهما: أظن أنني أخطأت في اتهام هذه المرأة، فإني لا أبيع هذا النوع من التماثيل، فانصرفا لشأنهما. والتفت هو إلى الولد فاستغفره ذنبه إليه وإلى أمه، ثم مشى إلى الأم فاعتذر إليها عن خشونته وشدته، فشكرت له فضله ومروءته، وجبينها يرفض عرقًا حيًا من فعلتها، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان.

لا تأتي ليلة العيد حتى يطلع في سمائها نجمان مختلفان، نجم سعود ونجم نحوس، أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأودية والحل، ولأولادهم اللعب والتماثيل، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب، ثم ناموا ليلتهم نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرهم تطاير الحمام البيضاء حول المروج الخضراء، وأما الثاني فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا يئنون في فراشهم أنينًا يتصدع له القلب، ويذوب له الصخر؛ حزنًا على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بالسنتهم وبأعينهم: ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون به أندادهم، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم؟ فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها.

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البر والمعروف، ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل.

إن رجلًا لا يؤمن بالله ورسله، وآياته وكتبه، ويحمل بين جنبه قلبًا يخفق بالرحمة والحنان، لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء، ولا قلبه من الخفقان، عندما يرى في العيد، في طريقه إلى معبده، أو منصرفه من زيارته، طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين، تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلًا من أثوابها وصواحبتها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها، ورثاثة ثوبها، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن، فلا يجد بداً من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها، وعلى بؤسها ومتربتها؛ لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترققة في عينيها.

يوم العيد

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم في سجن
مظلم من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام
مرة أو مرتين.

الفصل السادس والتسعون

من الشيوخ إلى الشبان

لا نستطيع أن ننكر عليكم معشر الأبناء أن شبابكم أعظم قوةً ونشاطاً، وأبعد همة، وأقوى عزيمة، من شيخوختنا، وأن أيدينا الشاحبة المعروفة لا تستطيع أن تصل إلى ما تصل إليه أيديكم الفتية المقتدرة، وأن آراءكم وأفكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التي تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدةً وحرارةً، وأبعد غوراً وعمقاً، من آرائنا وتصوراتنا، ولكن الذي ننكره عليكم ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا، واحتقاركم لنا، ورميكم إيانا بالجمود مرة، والخرف أخرى، كلما اختلفنا معكم في شأن من الشؤون، كما أننا ننعي عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بأنفسكم هذا الاعتداد العظيم الذي يخيّل إليكم معه أن هذه الألوان الجميلة التي تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هي خاصة بكم، ووقف عليكم، لم تمر بعصر غير عصركم، ولم يَزُ به شباب غير شبابكم، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الأول في ابتكارها وافتراع عذرتها، ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الروية والأناة، وأن تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر إلى الماضي — وإن لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من خصائصه — لعلمتم أن هذا العهد الذي يمر بكم اليوم، والذي تفاخرونا به وتدلون علينا بأحلامه وأمانيه، وتصوراته وخیالاته مر بنا مثله في زماننا، فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما تتصورون ونفكر كما تفكرون، ونردد في أنفسنا وأحاديثنا وعلى أسلات أقدامنا جميع هذه الآراء والأفكار التي تردودونها اليوم، حتى انطوى ذلك العهد، وزالت معالمه، وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهادئة التي كانت تعترك بين جوانحنا، ودخلنا غمار الحياة الحقيقية حياة الجد والعمل والنظر والتأمل والخبرة والتجربة، فاستطعنا أن نرجع إلى نفوسنا، ونثوب إلى رشدنا، وأن نهبط بهدوء وسكون إلى أعماق قلوبنا، ونستعرض تلك الآراء والأفكار والأحلام والآمال بإمعان وتدقيق، فاستطعنا أن نميز صالحها من

فاسدها، وصادقها من كاذبها، ومعقولها من موهومها، وأن نقلب الأشياء على جميع وجوهها، ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح، ونوازن بين هذه وتلك، فأخذنا بما أربت حسناته على سيئاته، وأطرَحْنَا ما زادت سيئاته على حسناته، فلا فضل لكم في الحقيقة في هذا الذي تزعمون أن لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعاً، وإنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته، ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء من ذلك، وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة، وأخص صفاته قصر النظر وسرعة الحكم، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة ماضيه وحاضره ومستقبله، فهو لا يستطيع أن يتصور تصوراً ثابتاً متيناً أن الماضي أساس الحاضر ومنبع وجوده، لا يشرق إلا من مطلعته، ولا ينبت إلا في تربته، وأن المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة؛ وليس أقرب إليه من أن يتصور أن في استطاعته أن يمحو بيده في لحظة واحدة وجه الكون بأرضه وسماؤه، ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التي يريدها ويتصورها، وأن في إمكانه أن يحيل الترب أمواهاً، والأمواه ترباً، وأن يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع إلا بإرادته، وأن يرغمها متى أراد أن تمزق حجاب الليل وتبرز في سماءه، ولا يزال يتخطب في أمثال هذه التصورات والأحلام التي لا فائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع في رأسه أول طبيعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته، وتفتت حدته، ثم لا يلبث أن يسقط جاثياً بين يدي القوة الإلهية والقوى الطبيعية، معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة، هاتفاً: إن للكون إلهاً لا أستطيع محادثته، وللطبيعة سنة لا أستطيع تبديلها.

كنا نفكر كثيراً في شأن المرأة كما تفكرون اليوم، ولا نجد حديثاً ألد ولا أطرب من الحديث عنها، وكنا لشدة إعجابنا بها، واهتمامنا العظيم بترفيعها وتدليلها، والوقوع من نفسها موقعاً جميلاً ندافع عنها ضد أنفسنا، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا أكثر مما تطلبه لنفسها، ونتمنى بجدة الأئف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية إلى أقصى حدودها، فتتبرج كيف تشاء، وتسفر كما تريد، وتجلس إلى الرجل جنباً لجنب في المجتمعات العامة والخاصة، دون أن يعارضها معارض، أو يكدر عليها صفوها مكدراً، بل كنا نذهب في مجاملتها ومحاسنتها إلى أكثر من ذلك، فكنا نغفر لها سيئاتها الأدبية ونسميها سقطات؛ أي هفوات فردية لا أهمية لها، ونغريها بمحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيانتها لها ومقابلة فعلاته بمثلها؛ لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه، ونقول لها: ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان

هو يخونها، وكنا نظن أن هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا، صادرة من أعماق قلوبنا، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فيها، وأنها آراء الشباب وخواطره وأحلامه وتصورات، ولا يثقل على الشباب في ريعانه شيء مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرأة، وذلك الجدار القائم بينها وبينه.

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون، وننفر من كل قديم كما تنفرون، ونعد الأول آية الآيات مهما سخف واستبرد، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته ونفس قدره، لا لأننا وازناً بينهما، وفاضلنا بين مزاياهما فحكمنا عليهما، بل لأننا كنّا قريبي عهد بزمان الطفولة، والطفل سريع الملل كثير السّامة، لا يصبر على لعبته أكثر من يوم ثم يملها فيكسرهما، ويستبدل منها.

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به، لا نكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها أعمالنا في الحياة، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف أنواعها وألوانها، فنلتقطها بأسرع مما يلتقط «الفلم» صورته، كأن قضاء حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها.

وكان العارف منّا بلغة أجنبية لا يلبث أن يفتتن بها وبأصحابها افتتاناً شديداً ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها، فيترفع عن ذكر رجالها وعظمائها في أحاديثه واستشهاداته، ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحد غيره، لا لأنه يفهمهم أو يفهم غيرهم، بل لأنه كان بسيطاً غريزاً يحتقر كل ما في يده، ويستعظم كل ما في يد غيره.

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه التصورات والأفكار، وأنها لم تكن عقائد راسخة في نفوسنا بل أشباحاً وصوراً تتراءى في حياتنا، فنعجب بها، ونستطير فرحاً وسروراً بجمال منظرها وبهجة ألوانها، فأصبحنا معتدلين في آرائنا متئين في أحكامنا، نحب حرية المرأة ولكننا نكره فسقها وفجورها، ونأخذ مواد المدنية والحضارة من الأمم المتمدينة ولكنّا لا نقلدها، ونحن نحب أدب الغربيين ونعجب بأدبائهم وعلمائهم، ولكنّا لا نحتقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا.

نحن لا نطلب منكم معشر الأبناء وأنتم في ثورة الشباب ونشوته أن تكونوا معتدلين متئين في أحكامكم وتصوراتكم، أو هادئين في مطامعكم وآمالكم، فليس من الرأي أن نطلب عندكم ما لم تكن نطلبه عن أنفسنا، ولكن أمراً واحداً كنّا نحرص عليه في عهدنا أشد الحرص هو الذي إليكم أن تحرصوا عليه مثلنا، وتضنوا به ضنّاً.

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا وأجدادنا، وأوسع منهم علمًا وأقوى إدراكًا، وربما اعتقدنا في الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون، أو متأخرون أو جامدون، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها، فلا نلقبهم بلقب من هذه الألقاب التي تلقبونها بها، ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم ما قدر لهم أن يقضوه بيننا من أيام حياتهم، وكان شأننا معهم في برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم شأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق إذ كان مسيحيًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان أبوه لا يزال على دينه فطلب إليه أن يبني له بيعة في قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية فبناها له كما أراد ولم ينع عليه شأنًا من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب إلى ربه.

ذلك ما نزرع إليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لأبائنا وأجدادنا، واذكروا أن سيأتي عليكم ذلك اليوم الذي أتى علينا، وأنكم ستكرهون فيه أن يعاملكم أبناؤكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم، فاتقوا الله فينا وفي شيخوختنا، فنحن أبائكم الذين ولدناكم — وأسأتذتكم آبائكم — أن ترموهم في وجوههم بالجهل والجمود، وما هم بجاهلين ولا جامدين ولكنهم شيوخ عاجزون.

الفصل السابع والتسعون

الزهرة الذابلة

ورد إليّ من صاحب التوقيع الكتاب الآتي:

أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمري حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح، غير أنني عزمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما يخفي الغيبُ في سره حتى فوجئت بمرض «الحمى» العضال الذي ضعضعني، وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابني «الصمم» الكامل فضاعت بذلك آمالي وأظلمت الأرض في وجهي فرأيت أن أستغيث بك لعلك تسدي إليّ جميلًا بكلمة تعزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء والسلام.

٦ يناير سنة ١٩١٤.

لا أستطيع أن أعزيك عن مصابك يا بني، فهو فوق ما يحتمل المتحمل، ويطبق الجلد الصبور ولو حاولت ذلك منك لكذبتك وغششتك، ولكن شأني معك شأن أولئك الخادعين من المعزين الذين يختلفون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوين ليقولوا للثاكل: «لقد قدمت بين يديك شفيعًا يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك»، وللباكّي أباه: «ما مات من خلف مثلك»، وللباكّي أخاه: «إن في الباقي عزاء عن الماضي»، وللباكّي زوجها: «الشباب غض والرجال كثير»، وللفاقد بصره: «حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقي الله لك من نور بصيرتك»، وللمحتضر المشرف: «إن في لقاء ربك عوضًا من لقاء الدنيا»، ولمن حلت به نكبة مثل نكبته: «لقد كفاك الله بما ابتلاك سماع أقوال الكذب وكلمات السوء»، وكأنّما هم يحسبون أن الفواجع والرزايا صفقات

تجارية إذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخرجه، هانَ عليه هذا لذاك واغتفر ما فات لما هو آتٍ، ولا يعلمون أن الحزن على الذاهب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب أو نفثة من نفثات الود، ولا دخل للحساب والمعارضة في شيء من ذلك، وإن أقسى الآباء قلبًا وأصلبهم فؤادًا، لو ساومه مساوم في فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الأرض والسماء؛ لكان رأيَه في ذلك رأي ابن الرومي في قوله:

وما سرنى أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد

وإن الأم تبكي وحيدها كما تبكي عاشر عشرة من أولادها، والصديق يبكي فراق صديقه وإن كثر أصدقاؤه في كل محلة يحل بها، والزوجة تبكي زوجها وإن كانت تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيب يترقيها، وإن البائس المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكًا وبؤسًا يضمن بحياته الضن كله إذا أحس بوشك فراقها وإن علم أنه سينتقل منها إلى جنة عرضها السموات والأرض، فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم، ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أحرانهم وازدراؤهم، وتصغير شأنها في أعينهم، ويلقون في نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوبًا تحس بإحساسها وتشعر بشعورها، من حيث يظنون أنهم يخفون عنهم آلامهم ويأخذونهم بنسيانها.

وأعوذ بالله أن أكون يا بني من الكاذبين في تعزيتك، أو الغاشين لك فيها، ولو أردت نفسي على ذلك لما استطعت، وكيف يستطيع أن يعزيك عن مصابك من لا يستطيع أن يعزي نفسه عن مصابه فيك، فقد ترك كتابك هذا بين جنبي لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك، حتى صرت كأني أنا الذي ابتليت بما ابتليت به وكأن الذي أصابك من البلاء قد أصابني من دونك، فلقد انقطع عنك بفقدك سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعًا من سبب وصلة، فأصبحت وأنت في دار الأنس والاجتماع، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها، كأنك تعيش من وحشتك وكأبتك في مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم، لا تأنس فيها بأحد ولا يأنس بك فيها أحد، ولا ترى بين يديك إلا نصبًا مائلة وتمائيل جامدة.

تحسب العين أنهم جدا أحياء لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرفه عن نفسك في ساعة من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء، ولا رنة حذاء، ولا خرير نهر، ولا تغريد طير، ولا حفيف شجر، ولا زفيف ريح، ولا ثغاء شاة، ولا نقيق ضفدع، ولا صرير جندب، سواء لديك ليلك ونهارك، وصبحك ومساؤك، ويقظتك ومنامك، فإن فررت من وحشتك هذه إلى مجتمع من المجتمعات العامة، فجلست إلى الناس ساعة تتفرج^١ فيها مما بك، لا تسمع شيئاً مما يقولون، ولا يعينهم أن يسمعو شيئاً مما تقول، فإن قلبت نظرك في وجوههم لتتسقط حرفاً من حروفهم، أو تتفهم حركة من حركات شفاههم، أو إشارة من إشارات أيديهم، أنكروا عليك نظراتك، وسخروا منك فيما بينهم وبين أنفسهم، لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التي يضمرونها في أنفسهم ورموا بها في وجهك من حيث لا تعلم، فإن رأوا منك أنك تقتضب الأحاديث اقتضاباً، وتذهب منها في أودية غير أوديتهم، وأنك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس أسماعهم، فتعلو به عليها، أو تنزل به دونها، وأنك تبتسم في موضع التقطيب، وتقطب في موضع الابتسام، أصبحوا ينظرون إليك بتلك العين التي ينظرون بها إلى الأطفال الصغار والبله الأغرار، فإن ألمت بسر نظرتهم هذه إليك ألمك من الحزن والهم ما لا طاقة لك باحتماله، وأصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه إليك، وكل ابتسامة تتراءى لك، واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس إليك من أصدقائك وعشرائك، بل من أبويك وأهلك، فلا يكاد يسلم لك صديق، أو يصفو لك حميم.

فإذا فررت من الناس نجاة بنفسك من لؤمهم وقسوتهم فررت إلى خلوة موحشة قاتمة تتراءى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرك وماضيك، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك في أيامك الأولى، وما انتهى إليه أمرك في أيامك الأخرى، فلا تنفك خلوة ولا يؤنسك اجتماع.

وأخوف ما أخاف عليك إن استمر بك هذا الشأن — ولا أسأل الله لك دوامه — وظللت تنطق ولا تسمع، وتقول ولا تفهم ما يقال أن تصبح في يوم من أيامك لا سامعاً ولا ناطقاً، فالسمع مادة النطق التي يستمد منها قوته وحياته، ومن لا يسمع لا يحسن النطق، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير.

^١ طلب الراحة والفرجة.

وكثير عليك يا بني وأنت زهرة يانعة في روض الشباب، وابتسامة لامعة في ثغر
الآمال، وفجر مشرق في سماء الحياة أن تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من
ربى الحياة، فلا تلبث إلا قليلاً حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا
يعدو بك إلا قليلاً حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء.

فوارحمته لك يا بني مما بك اليوم، ومما يستقبلك به الدهر غداً، فأسأل الله تعالى
لك أن يرفع عنك محنتك، أو يمنحك عيناً ثرة من الدمع لا ينضب معينها، تسكب منها
صباح كل يوم ومساءه سجلاً على فؤادك المتاع فتبرد غلته، وتفتأ لوعته، فالدموع هي
الرحمة العامة التي يلجأ إليها المنكوبون المحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب
من مذاهب الأرض ولا في سبيل من سبل السماء ناصرًا ولا معينًا، والسلام عليك — من
الراثي لك، الباكي عليك — ورحمة الله.

الفصل الثامن والتسعون

الوجهاء

جرى بيني وبين أحد الوجهاء المصريين الحديث الآتي:

الكاتب: ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء، من السحب السوداء؟

الوجيه: إن بين جنبيَّ همًّا يعتلج، وكمدًا يذهب باللب ويطير بشظايا القلب، وناظرًا من الحزن متأججة متطربة دخانها هذا الذي تراه.

الكاتب: أحق ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه، قصر غمدان، وخورنق النعمان، وحرور وولدان، وظل ظليل، ونسيم عليل، وخزائن تموج بالذهب، موج التنور بالذهب، ذلك إلى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس! وأمدك به من الجاه العريض والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة، فليت شعري ما شكاتك بعد ذلك؟

الوجيه: أشكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر، والشقاء المقبل في السعد المدبر، وإنني لأرى في السماء غمامة دكناء يوشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى والكارثة العظمى.

الكاتب: ما كنت أحسب أن الشقاء يمر لك ببال بعدما أعطاك الدهر عهدًا مكتوبًا بتلك الأحرف الذهبية، ألا يسدد سهمه إليك، ولا يدور بدورته عليك.

الوجيه: متى كان الدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه، فالناس في يده كالكرة ذات الألوان في يد الصبي، يديرها فترى الأسود في مكان الأبيض، والأبيض في موضع الأسود، وكذلك بقية الألوان تملو أسافلها وتسفل أعاليها، ودورة السعود والنحوس أسرع في عمر الدهر من لمح الطرف ولفطة الجيد.

الكاتب: هل لك أن تحدثني من أي منفذ نفذ الدهر إليك وما عهدتك شاربًا ولا عاهراً، ولا مقامراً ولا مستهتراً؟ وما للدهر مدخل يتسرب منه إلى خزائن الأغنياء غير هذا المدخل.

الوجيه: أين يذهب بك أيها الصديق، وهل يؤتى الأغنياء في هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة، وهل يكب العظماء على وجوههم ويلصق بالرغام معاطسهم، إلا الشغف بنظرة الأمير، ولفتة الوزير، وزورة المدير، وأنت تعلم أن رجلاً مثلي لا يمكن أن يكون له مطعم في المجد الصحيح، فلست بصاحب علم فأفخر به، ولا صاحب قلم فأمتُّ بما يمتُّ به أصحاب الأقلام من خدمة المجتمع الإنساني وتهذيبه، فلم يبق أمامي غير هذا المجد الكاذب، وهو مجد القربى من الحكام والعمال، ولا سبيل إليه إلا ببذل ثمن غالٍ تقصر عنه خزائن قارون وكنوز روكفلر، وقد أنفقت فوق الطاقة ووراء الفاقة، في بناء القصور نزلاً للحكام، وغرس البساتين منازةً لهم، وإعداد الفرش والآنية لمأربهم وولائمهم، فلما نضب معين الذهب، وعيت الأرض أن تثمر فوق ما تثمر، لجأت إلى مصرف من المصارف المالية فأثقلني بالديون، وأرهقني بالطلب، ففزعت منه إلى آخر، ثم إلى آخر، فكنت كناقش الشوكة بالشوكة، أو غاسل الدم بالدم، ولو كشف لك من أمري ما كشف لي منه لعلمت أن جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار، ودور وقصور لم يبق لي منه إلا تلك الأرقام السوداء المسطورة في جرائد الصيارف، وهأنذا اليوم طريد المصارف والغرماء، وغريم القضاة: قضاء الأرض وقضاء السماء.

ذلك كل ما يستفيد الوجيه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ما تأتي به، فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب وزخرفة الباطل، ولا تنفس عليه بؤسه الكامن وشقاءه الخفي، فهو أنعس خلق الله، وأكثرهم همًّا وأثقلهم مئونة، وأخسرهم حاضرًا ومستقبلًا، يكون عنده من الضياع أو العمائر جملة لا تثمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيهاً، والوجاهة كلمة صغيرة معناها في نظر الناس كبير، كأنما هي عندهم من جوامع الكلم، فالوجيه في اصطلاحهم هو الرجل الذي يمدُّ لكل غريب نزل بلده مائدة، ويسبغ العطاء على كل عابر سبيل مر بحيه، ويشترك في جميع الجرائد والمجلات وإن كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ويبتاع تذاكر حفلات الجمعيات الخيرية على اختلاف ألوانها وأشكالها وإن كان لا ينتفع بواحدة منها، ويشترك في جمعية الرفق بالحيوان، وجمعيات الرفق بالإنسان، ويبتاع المؤلفات الحديثة التي يكلفه المدير أو المأمور بابتياعها وإن كانت في علم الأرتناطيسي أو علم

المنطق وكان هو عمدة أو شيخ بلد، ولا تتم شروط الوجهاء عنده فيأخذ منها بالحظ الأوفر إلا إذا بذل للحكومة المعونة الكبرى في مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب، وأمثال ذلك مما تضربه الحكومة علينا ضرب الجزية على أهل الذمة في سالف الأزمان، والتي لا فرق بينها وبين خراج الأتليان وعشور النخيل وعوائد الأملاك. **الكاتب:** إنها تبرعات ومبرات لا إجبار فيها ولا إلزام، فالحكومة لا تشهر عليكم سلاخاً، ولا تعد لكم سجنًا، وكل ما في الأمر أن رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم إلى هذه الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة.

الوجيه: لا أزال أكرر القول: إن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون، والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد، مجبور باطنًا مختار ظاهرًا، أما الظاهر فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على إحسانه، وأما الباطن فهو أن الوجيه منّا — كما علمت — مفلس من جميع أنواع المجد إلا مجد الزلفى عند الحكام، والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم إلا على مقدار ما يفتح من أبواب خزائنه لهم، فمنّا من يزوره المدير أو المفتش لأنه وهاب الآلاف، أو المأمور لأنه من أصحاب المئات، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له إذا أقبل، ولا يشيعه إذا انصرف لأنه لا يلبي دعوة ولا يحضر مجمعًا، ولا يكتب رقمًا في قائمة اكتتاب، فلا يلبث أن يسلس قياده، ويصحب عناده، هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغب الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاخًا أو تعد لهم سجنًا، ولكنها تبلغ به في شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و«الويركور» و«البطانطا» والعوائد الشخصية في عدة أعوام، ولقد راجعت صحيفة حسابي في هذا العام — عام الأزمة والجذب — فوجدت أنني دفعت خراج الأتليان مرتين ولا أعلم كم أدفعه في السنة الآتية.

الكاتب: هب أن الأمر صحيح كما تقول، فالحكومة لا تودع هذا المال خزانتها، ولا تقضي به غرضًا من أغراضها الخاصة، وإنما تنفقه فيما ينفع الأمة في تربيتها وتهذيبها، وتقدمها وارتقائها.

الوجيه: ذلك ما يجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التي تُمَلَأ من أموال الأمة لهذه الأغراض التي تذكرها، ولكنها ترضى بمال هي في حاجة إليه لإصلاح السودان وبناء العمارات وتشديد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصاً الأجانب منهم وإقرار عيون السياح الأوروبيين بالمناظر البهيجة والمشاهد الجميلة، فلا ترى لها بدءاً من حمل تلك الحملات على أعناقها بلا رحمة ولا شفقة، ولا نظر إلى ما تتكبده في هذا السبيل مما يذيب الشحم ويعرق العظم، وليتها كانت تتدرج في الطلب وتهادن فيه فتدرك في ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدادها وإرهاقها، فقد حكى عن أحد رؤسائها أنه علم أن أحد المديرين سلب أهالي مديريته المال دفعة واحدة وأنهم ضاقوا به ذرعاً فأحضره في مجلسه وأمر أن تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتقل، به، ثم أمر أن تنتزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألّم، فقال له: هكذا يجب أن يكون أخذ الأموال من الرعية، متفرقاً تحتمله، لا مجتمعاً تتألّم له.

الكاتب: حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك، وبذلك المال في سبيله، وللآخرة خير وأبقى.

الوجيه: من أين يأتيني الثواب والأجر، وهل يثاب المرء إلا على قدر نيته وإخلاصه في عمله؟ وإنني أعترف لك عني وعن جميع الوجهاء أمثالي بما عرفت من أحوالهم، ومارست من طباعهم، أننا لا نريد من بذل ما نبذل إلا رضا الحاكم، والتودد إليه، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجهة مرة، وقضاء المآرب والحاجات أخرى، والله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخططهم هذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الرياء في الإحسان والنفاق في المعاملة خطة قست معها قلوبنا، واستحجرت أفئدتنا، حتى إن أحدنا يكاد لا يحسن بالدرهم الواحد إلى جاره الفقير البائس إلا أمام قاضٍ فطن وشهود عدول، وحتى زهد فينا الفقراء ولوت المساكين وجوها عن أبوابنا، وجفانا ذوو الرحم والأقرباء، وأصبحت قصورنا في نظرهم قبوراً يستدرون لها الرحمات، لا مناهل يرجون منها الصدقات، وأقفرت «مضايفنا» إلا من عريضة المطربشين ورطانة المبرنطين، فمن أين لثواب الله أن يعرف طريقنا عافاك الله!؟

الكاتب: أتغضبك كلمة الحق إن قلتها لك أيها الصديق؟

الوجيه: قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل.

الكاتب: أعجب ما رأيت من أمرك في حديثك معي أنك تعرف الحق وتتنكر له كأنك لا تعرفه، وتمد يدك إلى الصواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه، فقد زعمت أن مجد القريبى من أولياء الأمر باطل، ولقد أصبت فيما تقول فما شأنك به وما نهوضك إليه، وما لك واللصوق بأمر أنت تعلم قلة جدواه، وسوء مغبته، ولقد كان لك طريق مختصر إلى المجد الصحيح والشرف الصميم، لو كنت أكبر منك همّة، وأصح رأياً، وأقوى عزيمة، فمجد الكرم ليس بأقل شأنًا من مجد السيف والقلم، ولا أرى أنك كنت تنفق في سبيله إلا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب، وما كان يصيبك في الأول من الشقاء ما أصابك في الثاني، فالكريم معانٍ على أمره، ومبارك له في عيشه، متى صح له معنى الكرم، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه إلى تفقد الضعفاء ومواساة الفقراء، من حيث لا يبتغي على ذلك أجرًا سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر، ورفع الذكرى في الآخرة والأولى، ولكنكم بخلتم بأموال الأمة عليها واحتجنتموها من دونها، وأبت لكم همتمكم الضعيفة أن يكون لكم كما كان لأمثالكم في الأمم الأخرى آثار في بناء المدارس والملاجئ والمستشفيات تسمى بأسمائكم، وتسجل في صحيفة أعمالكم، فتتالون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعذب بعقولكم، ويلعب بأموالكم، ويرغمكم على الإحسان إرغامًا، من حيث يكون له الغنم، وعليكم الغرم، فلا ذكرًا حصلتم، ولا مالًا حفظتم! ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الفصل التاسع والتسعون

جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الإنسان بعد موته، ولا أين مكانها الذي تستقر فيه بعد فراق جسدها، ولا ما هي الصلة التي تبقى بين المرء وبين حياته الأولى بعد رحيله عنها، فإن كان صحيحًا ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع أن يجد بين صخورها ورجامها منفذًا يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل، وثناء عاطر، وسيرة صالحة، ومجد باقٍ، فإن نصيب جرجي زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك في حياته الأولى من جليل الآثار، وصالح الأعمال أوفر الأنصبة وأجزلها.

ما أنعم الله على عبده نعمة أثنى قيمة، ولا أغلى جوهراً، ولا أحسن أثرًا من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل الطيب، فهو يعتقد أنه مجزيٌّ على عمله، مكافأ به، مؤمنًا كان أم ملحدًا، معترفًا بنعيم الآخرة أم منكراً له، فإن كان الأول ساقه إلى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحورها وولدانها، ولؤلؤها ومرجانها، وروحها وريحانها، وإن كان الثاني ساقه إليه شغفه بالذكر الجميل، والسيرة الصالحة، والحياة الباقية في ألسنة الأجيال وبطون التواريخ، ولولا هاتان الجنتان، جنة المؤمنين وجنة الملحين، ما جدَّ في هذه الحياة جادٌّ، ولا عمل فيها عامل.

إن ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايته العمل الصالح والجزاء عليه معًا، وكيف يسعهما والمرء لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفئ ذبالة حياته، وتحترق فحمة شبابه، حيث تموت في قلبه لذة العظمة، وتنضب في فؤاده شهوة المجد، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه، ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة، إما حياة الأجر، أو حياة الذكر.

مات جرجي زيدان فنحن نبكيه جميعاً، أما هو فيبتسم لبكائنا ويرى في تفجعنا عليه والتباينا لفراقه منظرًا من أجمل المناظر وأبهائها؛ لأنه يعلم أن هذه الدموع التي نرسلها وراء نعشه أو نمطرها فوق ضريحه إنما هي ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه، والاعتراف بفضلها، والثناء على عمله، وأنها المداد الإلهي النوراني الذي تُكتب به في صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخالد، وعظمته الباقية، وذلك ما كان يريد أن يكون.

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه؛ لأنه كان يحمد وده وإخاءه، وبكاه جاره لأنه كان يجد في جواره لذة الأُنس وجمال العشرة، وبكاه معتفيه لأنه كان ينتفع بماله، وبكاه صنيعته لأنه كان ينتفع بجاهه، وبكاه قارئ كتبه لأنه كان يجد فيها من غزارة المادة، وجمال الأسلوب، وسهولة التناول ما لا يجد في غيرها، وبكاه قارئ رواياته لأنه كان يجد في خيالها وبراعة تصوراتها، عونًا له على هموم الحياة وآلامها، أما أنا فبكيته لأمر فوق ذلك كله.

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات، ناطقها وصامتها، ساكنها ومتحركها، جامدها وسائلها، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التي تقومها، أو صورتها التي تتشكل بها وتأخذ منها الأغراس نماءها، والأزهار ألوانها، والنار حرارتها، والأجسام الحية قوتها، والأجسام الجامدة صورتها، والأجواء طهارتها ونقاءها، والآفاق جمالها وبهاءها، وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذا البلد.

كان بطلًا من أبطال الجد والعمل، والهمة والنشاط، يكتب أحسن المجلات ويؤلف أفضل الكتب، وينشئ أجمل الروايات ويناقش ويناضل، ويبحث وينقب، ويستنتج ويستنبط، ويجيب السائل ويفيد الطالب في آن واحد، لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره، ولا يشكو مللاً ولا ضجرًا، ولا يستشعر خورًا ولا فتورًا، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين، يتعلمون منه أن قليلاً من العلم يتعهدده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس، أنفع له ولأمته من العلم الكثير والعمل القليل.

ولو شئت أن أقول لقلت: إن جرجي زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التي وفدت إلى مصر في أواخر القرن الماضي فغيرت وجه العالم المصري تغييرًا كليًا، وغرست في صحرائه القاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل، والشجاعة والإقدام، والهمة والاستقلال، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون، وينشئون الجرائد والمجلات، وكيف

يتخذون من هذا العمل الشريف صناعة يقومون بها حياتهم المادية، وحياة أمتهم الأدبية، ويتقنون بها مذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباح مساء يتكفّفون رؤساءها، ويسألونهم أن يتخذوهم عبيداً لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التي يجلسون عليها فإما عطفوا عليهم فألقوا إليهم بالنزر الخسيس من فئات تلك الموائد، وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب العاوية.

وكان شريف النفس بعيد الهمة، متجملًا بصفات المؤرخ الحقيقي الذي لا يتشيع ولا يتحيز، ولا يداهن ولا يجامل، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالاً للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه، فكتب وهو المسيحي الأرثوذكسي تاريخ الإسلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذي لا يكتم الحسنة إذا رآها، ولا يشمت بالسيئة إذا عثر بها، فاجتمع بين يديه في مجالس علمه من أبناء الأمة الإسلامية، خاصتها وعامتها، عربها وعجمها، جمع لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجة أمام أولئك المتعصبين من الأوروبيين الذين لا يتقنون في خبر من أخباره، ولا في بحث من أبحاثه، بحديث شيعته وأبنائه، وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ، بلسان التاريخ لا بلسان الدين، والمثل الأعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه، وميول نفسه، وخواطر قلبه أمام الأمانة والعلم، والوفاء بحقه.

وكان مستقيماً في عمله، أميناً في علائقه، لا يكذب، ولا يتلون ولا يخيس بعهده، ولا ينكث وعده، ولا يكسو بضاعته لوناً غير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها في عيونهم، فتعلم منه العاملون أن الكذب في المعاملة ليس شرطاً من شروط الربح، ولا سبباً من أسباب النجاح.

وكان واسع الصدر، فسيح رقعة الحلم، وقف له في طريق حياته كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فريق المقاطعين في هذا البلد الذين لا ينطقون، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه، وكمنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيصموه، وقالوا: إنه شوّه وجه التاريخ الإسلامي، وعبت بحقائقه، ولم يسأله من أين نقل، ولا كيف استند؟ بل سأله لم لم يكتبه كما كتبوا؟ ويستنتج منه مثل ما استنتجوا؟ كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحياً متسامحاً حتى أرادوا منه أن يكون مسلماً متعصباً، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون، وينهج فيه كما ينهجون، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد في عمله، وخبت النية في

مذهبه، ولم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم الجامعة على أن يقولوا: إن الرجل باحث مستنتج، يخطئ مرة ويصيب أخرى، أو يقولوا إن له في تاريخ الإسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك، وما أحسب أن أحداً منهم يعتقد شيئاً مما يقول، ولكنهم كانوا يرون أن الدين سلعة تباع وتشتري، وأن سلعته ملك لهم، ووقف عليهم، لا يجب أن تعرض في حانوت غير حانوتهم، وكانوا يظنون أن الرجل تاجر مثلهم يريد أن يفتح في سوقهم الحانوت التي يخافونها، فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه، واستثقلوا ظله، وقالوا مرة: إنه مسيحي لا يؤمن على الإسلام ولا على تاريخه، كأنما ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى، وقالوا أخرى: إنه سوري دخيل وفد على هذا البلد مسترزقاً أو متجراً، فما هو بمخلص ولا بأمين، وفاتهم — عفا الله عنهم — أنه إن كان ضيقاً فليس من أدب الضيافة، ولا من خلال المروءة والكرم: أن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده، وأن يعد عليه لقيماته التي يطعمها على مائدته، وإن كان تاجرًا فقد باعهم بهذا النذر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله، وينبوع ذكائه ومادة حياته، فما كانوا من الخاسرين، ولا كان من الرابحين.

والله ما أدري كيف تتسع صدورهم للخمار الرومي واللص الإيطالي وللغاجر الأرمني أن يفتح كل منهم في كل موطن قدم من مدنهم وقرارهم حاناً يسلب فيه عقولهم، أو مقمراً يسرق فيه أموالهم، أو ماخوراً يهتك فيه أعراضهم، فلا يطاردون ولا يحاربونه، ولا يسمونه دخیلاً ولا واغلاً؟ ثم يضيقون ذرعاً بالعالم السوري أو العراقي أو المغربي ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة فيعلمهم العلم، ويهذب نفوس أبنائهم، ويثقف عقول ناشئتهم، ويبعث في نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهممة والنشاط، والشجاعة والإقدام.

ذلك هو شقاء الأمم، وهذا هو جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها. لم يضق الرجل ذرعاً بهذا كله، بل كان شأنه معهم أن كان يعتب عليهم ولا يشتمهم، وينبهم إلى أدب المناظرة وواجباتها، ولا يؤنبهم، ويدعوهم إلى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم، ولا يمكر بهم، حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم، وإن كان مخطئاً، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل، وسوء الخلق، وضيق العطن، وإن كانوا مصيبين.

ولقد وضع بخطته هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجر في بناء الأخلاق الفاضلة في هذه الأمة، فتعلم منه كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن

يتناظروا ولا يتشائموا، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا في معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف، فإن تم لهذه الأمة في مستقبل حياتها حظها من شرف الأخلاق وعلو الهمة ونباله المقصد في جميع شؤونها وأغراضها، فلننتذكر دائماً أن جرجي زيدان كان أحد الذين أسسوا في أرضها هذه الدولة الفاضلة، دولة الآداب والأخلاق.

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون، وإنما الذي يعوزنا روح عالية تحف في سماء هذه الأمة، خفوق النجم الزاهر في سمائه، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها، فتبعث العزيمة في قلب العاجز، والشجاعة في فؤاد الجبان، وتقوم من الأخلاق معوجَّها، وتصلح من الآداب فاسدها، وتثبت من العقول مضطربها، وتعلم كل صغير وكبير وقوي وضعيف: أن قيمة المرء في حياته أداء واجبه للإنسانية أولاً ولأتمته ثانياً ولنفسه أخيراً، وأن الحب سعادة الإنسان، والبغض شقاؤه وبلأوه، وأن الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الأول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفه ومحاربه، وأن الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه، وأن الله تعالى أوسع رحمة وأعلى حكمة، من أن يسد في وجوه عباده كل طريق للوصول إليه إلا طريق السيف والنار، وأن هذه الأحقاد الدينية التي تلهب في صدور الناس التهاباً لا توجبها في صدورهم الأديان نفسها، بل رؤساء الأديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل، وأن الذين يقدسون الأحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين، ومقوماً من مقوماته، إنما يقولون من حيث لا يشعرون: إن الإلحاد في العالم، والفوضى الدينية فيه، وعبادة الشمس والقمر، والترب والحجر، أنفع للمجتمع وأحسن عليه عائدة من عبادة الله المعبود.

ولقد كان جرجي زيدان روحاً من تلك الأرواح العالية تمنينها برهة من الزمان حتى وجدناها فلم ننعم بها إلا قليلاً، ثم فقدناها أحوج ما كنا إليها، فذلك ما يبكيها عليه ويحزننا على فراقه.

الكاتب كالمصور، كلاهما ناقل، وكلاهما حاك، إلا أن الأول ينقل مشاعر النفس إلى النفس، والثاني ينقل مشاهد الحس إلى الحس.

وكما أن ميزان الفضل في التصوير أن تكون الصورة والأصل كالشيء الواحد، كذلك ميزان الفضل في الكتابة أن يكون المكتوب في الطرس خيال المكنون في النفس.

بهذه العين التي لا أزال أنظر بها دائماً إلى الكتابة والكتاب، وأوازن بها بين أقدارهم ومنازلهم، كنت أقرأ ذلك الأسلوب العذب البديع الذي كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه ورواياته، فأتخيله امرأة نقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفسه جليلة واضحة لا غموض فيها ولا إبهام.

وقليلاً ما كنت أجد في نفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتب سواه؛ لأن الكاتب إن استطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه، أو براعة معناه، أو سعة خياله، أو قوة حجته، فإنه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم إلا إذا كان من الصادقين المخلصين.

كنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه، وطهارة قلبه في طهارة لسانه، وصفاء ذهنه في وضوح أغراضه ومراميه، وجمال ذوقه في جمال ملاحظاته واستنتاجاته، وكان خير ما يعجبني منه ترفعه عن مجارة المتكبرين من الكتاب في كبريائهم، ونزوله في كثير من مواقفه إلى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمون؛ لأنه كان من كُتّاب المعاني لا من كُتّاب الألفاظ، ولأنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون على أن يرضى عنه المتحذلقون.

وإن كان الرجل هو الأسلوب كما يقولون، فلا أعلم أحداً في هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان، فوارحمته له، ووأسفاً عليه.

الفصل المائة

احترام المرأة

نعم إن الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز، ولكن المرأة عماد الرجل، وملاك أمره، وسر حياته، من صرخة الوضع إلى أنة النزع. لا يستطيع الأب أن يحمل بين جانحيه لطفه الصغير عواطف الأم، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها، وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيل إلى قلب واحد، يخفق خفوقاً واحداً ويشعر بشعور واحد، وهي التي تسهر عليه ليلها، وتكلؤه نهارها، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيله، غير شاكية ولا متبرمة، بل تزداد شغفاً به وإيثاراً له، وضناً بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود في سبيل تربيته، ولو شئت أن أقول لقلت: إن سر الحياة الإنسانية، وينبوع وجودها وكوكبها الأعلى الذي تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر في كلمة واحدة هي «قلب الأم».

لا يستطيع الرجل أن يكون رجلاً حتى يجد إلى جانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشجاعة والهمة، وتغرس في قلبه كبرياء التبعة وعظمتها، وحسب المرء أن يعلم أنه سيد وأن رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه، وتستظل بظل حمايته ورعايته، وتعتمد في شؤون حياتها عليه، حتى يشعر بحاجته إلى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه في نفسه، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذاً حتى يتم له ما يريد، وما نصح الرجل بالجد في عمله والاستقامة في شؤون حياته، وسلوك الجادة في سيره، ولا هداة إلى التدبير ومزاياه، والاقتصاد وفوائده، والسعي وثمراته، ولا دفع به في طريق المغامرة والمخاطرة، والدأب والمثابرة، مثل دموع الزوجة المنهلة، ويدها الضارعة المبسوطة.

ولا يستطيع الشيخ الفاني أن يجد في أخريات أيامه في قلب ولده الفتى من الحنان والعطف، والحب والإيثار، ما يجد في قلب ابنته الفتاة، فهي التي تمنحه يدها عكازاً

لشيخوخته، وقلبها مستودعاً لأسراره، وهو اجس نفسه، وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه، وتصغي إلى أناته، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه، ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه، فإذا نزل قضاء الله كانت هي من دون ورثته جميعاً الوارثة الوحيدة التي تعد موته نكبة عظمت لا يهونها عليها ولا يخفف من لوعتها في نفسها، أنه قد ترك من بعده ميراثاً عظيماً، وكثيراً ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون، ويشجعون في الساعة التي يجتمع فيها بناته ونساؤه في حجراتهن نائحات باكيات.

وجملة القول إن الحياة مسرات وأحزان، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة؛ لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه، وأما أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها إلى مسرات أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل، فكأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها.

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول أن الأطفال الذين استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنيًا بهم وبتربيتهم وتخريجهم على أيدي أمهاتهم بعد موت آبائهم أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدي آبائهم بعد فقد أمهاتهم، وللرحمة الأموية الفضل العظيم في ذلك.

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي أسدتها إلينا، وجازيناها بها خيراً؟ لا، لا، لأننا إن منحناها شيئاً من عواطف قلوبنا وخوارج نفوسنا فإننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والإجلال، وهي إلى نهلة واحدة من نهلات الإجلال والإعظام أحوج منها إلى شؤبوب متدفق من الحب والغرام.

قد نحنو عليها ونرحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد، لا رحمة الصديق بالصديق وقد نصفها بالعفة والطهارة، ومعنى ذلك عندنا أنها عفة الخدر والخباء، لا عفة النفس والضمير، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار أنها إنسان كامل لها الحق في الوصول إلى ذروة الإنسان التي تريدها، والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها، بل لنعهد إليها بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة، أو لنتخذ منها ملهات لأنفسنا، ونديماً لسمرنا ومؤنساً لوحشتنا؛ أي أننا ننظر إليها بالعين التي ننظر بها إلى حيواناتنا المنزلية المستأنسة، لا نسدي إليها من النعم، ولا نخلع عليها من الحل، إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسروراً.

إنها لا تريد شيئاً من ذلك، إنها لا تريد أن تكون سرية الرجل ولا حظيته، ولا أداة لهواه ولعبه، بل صديقه وشريكه حياته.

إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه.

إنها لم تخلق من أجل الرجل، بل من أجل نفسها، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه.

يجب أن ينفس عنها قليلاً من ضائقة سجنها؛ لتفهم أن لها كياناً مستقلاً وحياة ذاتية، وأنها مسؤولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها لا أمام الرجل.

يجب أن تعيش في جو الحرية الفسيح، وتستروح رائحته الأريجة، ليستيقظ ضميرها الذي أخمده السجن والاعتقال من رقدته، ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها، ومراقبة حركاتها وسكناتها، فهو أعظم سلطاناً وأقوى يدًا من جميع الوازعين والمسيطرين.

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها، ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات.

لا يمكن أن تكون العبودية مصدرًا للفضيلة، ولا مدرسة لتربية النفوس على الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة، إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدرًا للنور، والموت علة للحياة، والعدم سلمًا إلى الوجود.

كما لا أريد أن تتخلع المرأة وتستتهر، وتهيم على وجهها في مجتمعات الرجال وأنديتهم، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها، كذلك لا أحب أن تكون جارية مستعبدة للرجل، يملك عليها كل مادة من مواد حياتها، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير.

وبعد، فإمّا أن تكون المرأة مساوية للرجل في عقله وإدراكه أو أقل منه، فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشره الصديق للصديق والنظير للنظير، وإن كانت الأخرى فليكن شأنه شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده؛ أي إنه يعلمها ويدربها، ويأخذ بيدها حتى يرفعها إلى مستواه الذي هو فيه؛ ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفي والعشير الكريم، والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله، والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه.

الفصل الحادي والمائة

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق، صعد المنبر فجلس عليه، ثم سكت، فجعل لونه يحمر مرة ويصفر أخرى، فقال رجل من قریش لآخر بجانبه: ما له لا يتكلم، فوالله إنه للخطيب اللبيب؟! فقال له الرجل: لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه، وهو غير ملوم إن جزع.

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة، فاختنق صوته بالبكاء وارتج عليه، وهو الرجل الجلد الصبور الذي ما جزع في حياته قط، والخطيب المفوه الذي ما ارتج عليه مرة في أصعب المواقف وأخرجها، وأذهبها بالعقول والألباب، فما أشبه هذا البطل الباكي بذلك البطل الجازع.

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه أنفة وإباء، حتى إذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التي لا أمر فيها إلا لله وحده، لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به من قبل.

على أن البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وأنطقهم، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر في النفوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالإعجاب بفصاحة الفصيح، أو نباهة المؤرخ، أو بلاغة الشاعر، أو إبداع المبدع في معانيه، أو إحسان المحسن في إلقائه، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة، فبكى الناس جميعا لبكائه كبارًا وصغارًا، شيوخًا وشبابًا، وكان مشهدًا مؤثرًا لم نر مثله في حفلة تأبين قبل اليوم، فكان لتلك

الخطبة القصيرة الصامته المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال.

ليس الذي يبكي صديقاً كان يأنس بحديثه، أو عالماً كان ينتفع بعلمه، أو كريماً كان يستظل بظلال مروءته وكرمه، كمثل الذي يبكي شظية قد طارت من شظايا قلبه.

الفصل الثاني والمائة

اللفظ والمعنى

لم أرَ فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأي أولئك الذين يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلًّا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر، فيقولون: ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لَوْلَا أن معانيها ساقطة مرذولة! أو ما أبداع معاني هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب! كأنما يخيل إليهم أن اللفظ وعاء، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمرًا، وتارة يكون خلًّا، ويكون حينًا صافيًا وأخرى كدرًا، والوعاء باقٍ على صورته لا يتغير، وما علموا أنهم متحذنان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها، والخمر بنشوتها، فكما لا يجوز أن نقول: ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها، ولا ما أعذب الخمرة وأمرّ نشوتها، كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح، أو نعكس ذلك، فليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كيان مستقل، ولا حيز خاص، فجماله جمال معناه، وقبحه قبحه، وأن القطع الأدبية الشعرية أو النثرية، التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معانٍ شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون.

لا يضطرب اللفظ إلا لأن معناه مضطرب في نفس صاحبه، ولا يغمض إلا لأن معناه غامض في نفسه، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام، ولا المتأثر عن التأثير، ولا المقتنع عن الإقناع، وما البيان إلا المرأة التي ترتسم فيها صورة النفس، فحيث تكون جميلة فهو جميل، أو قبيحة فهو قبيح، أو مضيئة فهو مضيء، أو مظلمة فهو مظلم، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها، استطعنا أن نتصور بيانًا يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه.

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة:

ولما قضينا من منى كل حاجة	ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حذب المهاري رحالنا	ولم يعلم الغادي الذي هو رائج
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	وسالت بأعناق المطي الأباطح

إنها جميلة الأسلوب، ولكنها تافهة المعنى لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه أجمل المعاني وأبدعها، بل هو رأس المعاني وسيدها، والغاية الأخيرة منها، وقد رسم الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج في حلهم ومرتلهم يسمعها السامع بأذنيه وكأنه يراها بعينه، فقد أتى بأجمل المعاني في أجمل الأساليب.

وإن وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف:

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

خير ألف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة، والخواطر المبتكرة لا تمثل الحقيقة، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها، كقصيدة المتنبي التي مطلعها:

أيطمع في الخيمة العذل

ويقولون أيضاً عن هذا البيت:

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى، وهم واهمون فيما يقولون؛ فإن ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هذا البيت، بل المعنى خطر على أذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماعه، فالصقوه به إلصاقاً، وتوهموه له توهماً، أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقاً، وهذا شأن جميع المعاني التي يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق، أو كلمة غامضة فهي بأن تكون معاني السامعين، أولى من أن تكون معاني القائلين.

إذا سمعت بيتاً من الشعر فأطربك، أو أحزنك، أو أقنعك، أو أرضاك، أو هاجك وأنت ثائر، أو ترك أي أثر من الآثار في نفسك، كما تترك النغمة الموسيقية أثرها في

نفس سامعها، فاعلم أنه من بيوت المعاني، وأن هذا الذي تركه في نفسك من الأثر هو روحه ومعناه. وإن مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه، وثقل عليك ظله، وشعرت بجمود نفسك أمامه، وخيل إليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها، فاعلم أنه لا معنى له، ولا حياة فيه، فإن وجدت صاحبه واقفاً بجانبه يحاول أن يوسوس لك أن وراء هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نوراً متوهجاً يكمن في طياتها، فكذبْه، وفرّ بنفسك وأدبك وذوقك منه فراراً لا عودة لك من بعده.

هذا هو الميزان الذي يجب أن تزن به الكلام، ونصيحتي إليك ألا تصدق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التي يضعها واضعوها من الأدباء لأشعارهم خاصة، ويزعمون أنها للشعر عامة، وأجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ما تسمع، فكما أنك لا تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال، ولا تلجأ إلى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن، وكذلك لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام، واستهجان ما تستهجن منه، إلا على شعور نفسك وإلهام حسك.

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء، ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف وحسن التصوير، وتمثيل الحقيقة، واكتناه أسرار الكون، وتحليل مشاعر النفس وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد، على أن تكون تلك النغمة الموسيقية أساسها والروح السارية فيها؛ ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها، وحجبها وبراهينها، والشعر غذاء النفس برنانه ونغماته، وأهازيجه ونبراته.

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الأولى إلى اليوم فمات جميع ما نظموا ولم يبق منه إلا البيت الموسيقي الرنان الذي لو لم يغنّه مغنيه لغنى وحده، وسيموت شعر جميع الشعراء في هذا العصر ولا يبقى منه في المستقبل إلا كما بقي من الماضي في الحاضر.

الفصل الثالث والمائة

الآداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهرُوا في هذه الأيام واتخذُوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقًا غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه، فأصبحوا متبذلين في شهواتهم، مستهترين في ميولهم وأهوائهم، ينتهكون حرَمات الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم، ويعبثون بها في كل مكان عبث الفاتك الجريء الذي لا يخاف مغبةً ولا يخشى عارًا، وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن، أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن، وينصبون لهن صنوف الحبال وأنواع الأشراك لاصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار، وهذا ما أريد أن أتكلّم عنه قليلًا.

أصحيح ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسّون أنكم تتخذون صلة العلم التي هي أشرف الصلات وأكرمها صلة فساد بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات، وأن الحبال التي تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هي حبال القلم الذي هو أفضل أداة للخير، وأعظم وسيلة للفضيلة، وخير واسطة للأدب والكمال؟

أصحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن إليكم، وتهدون إليهن صوركم ليهدين إليكم مثلها، فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تنشرونها في كل مكان، وتعرضونها في كل معرض، وأخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها أو بجماله ورونقه، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال؟

أصحيح أنكم تقفون لهن بكل طريق، وتأخذون عليهن كل سبيل، وتضايقونهن في مغداهن ومراحهن، وحيث ذهبن إلى عمل، أو خرجن لزيارة، أو برزن في مجتمع، فإذا عجزتم عنهن في الطريق، أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاثلنهن،

وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم؟

أصحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام، وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذين ترقبون نوافذها وكواها علها تنفرج لكم عمّا تحبون؟

أصحيح أنكم أصبحتم لا تقنعون في أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبتكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلًا موقعًا عليه بتوقيعاتهن، مستشهدًا عليهن بصورهن وخطوطهن؛ لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك، وتحولوا بينهن وبين التفلت من أيديكم، والحياة بعيدًا عنكم في جو غير جوكم، وجوار غير جواركم، عذارى أو متزوجات؟

أصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمايرهن، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن، فتشركوهن معكم في شرب الخمر، وتناول المخدرات سائلها وجامدها، فلا تلبث أن تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن أنفاسهن الأخيرة في أقبية الحانات أو بين جدران المواخير؟

أصحيح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن، وأصبح الرجل منكم لا هم له في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه، ويتكسر في مشيته، ويرقق من صوته، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته متعهدًا شعره بالترجيل وبشرته بالتنضير، وثناياه بالصقل والجلء، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم، وحتى سرى التأثُّث من أجسامكم إلى نفوسكم فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب؟

إن كان حقًا ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين، وسلام على الفضيلة والشرف، سلام من لا يرجو عودة ولا ينتظر إيابًا.

إن هذه الفتاة التي تحقرونها اليوم وتزدرونها، وتعبثون ما شئتم بنفسها وضميرها إنما هي في الغد أم أولادكم، وعماد منازلكم، ومستودع أعراضكم ومروءاتكم، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غدًا، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها.

أين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم! وفي أي جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوئتم الأجواء جميعها وملأتموها سموًا وأكدارًا.

لا تتكون أخلاق الفتاة في عهد طفولتها أو في عهد شيخوختها، بل في عهد شبابها، فإذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهد بعد ذلك، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة، تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج، وخير أم للولد، وخير سيدة للمنزل.

لا تعجلوا عليها، وانتظروا بها قليلًا لتستطيعوا أن تجدوها غدًا زوجة طاهرة شريفة في منازلكم، بدلًا من أن تجدوها فتاة ساقطة مزدراة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات.

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم أعراضكم، ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم، فتلك جناية أنفسكم عليكم، وثمرة ما غرست أيديكم، ولو أنكم حفظتم لهنَّ ماضيهنَّ لحفظن لكم حاضرکم ومستقبلکم، ولكنكم أفسدتموهن وقتلتم نفوسهن، ففقدتموهن عند حاجتكم إليهن.

إنني لا أفزع في أمرکم إلى القانون؛ فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي، ولا إلى الحكومة؛ فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها، ولا إلى الدين فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم، ولا إلى آبائكم وأولياء أموركم؛ فقد عجزوا عنكم، وأصبحوا ييكون مع الباكين عليكم، بل أفزع في أمرکم إلى ضمائرکم التي هي الأمل الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيکم، فأصغوا إلى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه إليکم، وصوت الضمير أقوى من كل صوت في العالم.

أصغوا إليه تسمعه يقول لکم: إن هؤلاء الفتيات اللواتي لا تستحيون أن تمدوا إليهن أعينکم وأيديکم إنما هن أخواتکم الحميمات يجمعکم وإياهن أبٌ واحد وهو النیل، وأم واحدة وهي البلد، وشرف الأخوة هو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات وشرفهن. يجب أن لا يفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها؛ لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا تنغصها ذكرى الماضي، ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف.

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت إليه حبيبته رسمها موقعا عليه بتوقيعها، فلما تزوجت — وكان لا يحب ذلك منها — أراد الانتقام منها فقطع

رأس الصورة ووضعها على جسم عارٍ بتلك الطريقة الفنية المعروفة، ثم أرسلها مع كتاب وشاية إلى زوجها ليلة عرسها، فما لبثت أن خسرت في لحظة واحدة سمعتها وسعادتها.

وحدثني من أثق به أن كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهداً أمام أخلائهن أن يَكُنَّ لهن بعد الزواج؛ أي بعد أن يصبحن مُطْلَقَاتٍ من قيود العذرة وروابطها، وقلماً تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها أو في صبيحتها كتب الوشاية بها من الأشخاص الذين اتصلت بهم، وأخلصت إليهم، فانتهى أمرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار.

نحن في حاجة إلى أن نعلم بناتنا؛ لأننا لا نريد أن يعشن جاهلات متأخرات، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن إلى مدارسهن آمانات مطمئنات على نفوسهن وأعراضهن، ولا تزعجهن بفضولكم وإسفافكم فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليفسدن شرفهن وعفتهم، بل ليضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العلم والمعرفة.

أفسحوا الطريق لهن، وأفسحوا للعامة الخارجة في طلب رزقها، والأرمل المسترزقة لبنيتها، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها، والذاهبة لصلة رحمها، والسائرة لزيارة قبر فقيدها، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة في نهابها وجيئتها واضطرابها في مذاهب الأرض سعيًا وراء رزقها، وقضاء مصالحها، فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون؛ لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين: إما الجهل الدائم، أو السقوط العظيم.

الفضيلة الفضيلة أيها القوم! فهي العزاء الوحيد لهذه الأمة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها، والأمل الباقي لها إن ضاعت — لا قدر الله — جميع آمالها وأمانيتها، والشرف الشرف فربما جاء يوم ندير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك أيدينا شيئاً سواه.

الفصل الرابع والمائة

المؤتمر الإسلامي

سرني منظر ذلك الرجل^١ العظيم، والداعي الكريم، وهو قادم إلى مصر يجتاز التخوم، ويتخطى البلدان، ويطوي الغبراء طي الكواكب الخضراء يقوده الأمل، ويسوقه الرجاء، وبين جنبه همة عالية، ونفس كبيرة، وقلب مشيع، وفؤاد في الأفئدة، كالنسر في الطيور، يحلق في جو الإسلام تحليق من يحاول أن يظله بجناحيه.

سرني منظره، وإن لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم، ويلم شعثهم ويجمع كلمتهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويدعو إلى الله تعالى دعوة النبوة الأولى، إلا أن تلك عربية تدعو الأعجمية، وهذه أعجمية تدعو العربية الفصحى.

هنا ذكرت الإسلام ومجده، والإسلام وجنده، والإسلام ودولته، والإسلام وصولته، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول: والله لو منعوني عقالَ بعير لقاتلتهم عليه، وذكرت عمر وهو واقف في مرابض المدينة في حمارة القيظ يستقبل شبحاً أسود يرفعه الآل ويخفضه، ويطويه الأديم وينشره، حتى اقترب منه فتبينه، فإذا هو أعرابي قادم من سواد العراق، فجعل يسايره وهو راجل والأعرابي راكب لا يعرفه ويسأل ما فعل الله بسعد وجنده، فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره، وتراث مرازيته ودهاقينه، وعمر لاه عن نفسه سروراً بما سمع، وفرحاً بما تم. وذكرت صلاح الدين، وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمم، إلى حيث يستنقذ الثغور، ويستخلص الأمصار ويخوض جمرة

^١ كتب لمناسبة حضور المصلح الإسلامي الشهير إسماعيل بك غصبرنسكي الروسي إلى مصر سنة ١٩٠٨
للدعوة إلى مؤتمر إسلامي عام.

الحرب المتأججة ليفتدي بنفسه أجساماً إن لم تلتهمها النيران فكأنه قد من صخر، وذكرت محمداً الفاتح وهو يلعب بكرة الأرض لعب الصبي بكرته ويخترق بسفائن البحر رمال القفر، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء، وسجد في معبد أيا صوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه، وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق إلى الغرب فأنشأ وحده دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوروبا، وذكرت مع أبطال الحرب أبطال السلم، فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله، والمأمون وفضله، والغزالي وحكمته، وابن رشد وفلسفته، ومعاوية وسياسته، وعبد الملك وكياسته، وذكرت مدارس بغداد وبخاري والإسكندرية والقاهرة وغرناطة وإشبيلية وقرطبة، وذكرت مترجمي كتب إقليدس وبطليموس وأرسطو، وواضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء، وذكرت مخترعي البندول والبوصلة «بيت الإبرة» والساعة الدقاقة التي أهداها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا ففزع منها سامعوها فرعاً شديداً، وسموها شيطاناً رجيماً أو آلة سحرية أو مكيدة عربية، إلى كثير من أمثال هذه الآثار العربية والمفاخر الإسلامية. ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته، ورماه بنكباته، فأصبح أثراً من الآثار، وخبراً من الأخبار، وعليلاً حار فيه أطباؤه، وملء عؤادُهُ، وظل مترجماً بين داهيتين، ومضطرباً بين غايتين، إما أن يموت موتة أبدية — وبالله العياذ — أو يحيا حياة مادية لا حياة أدبية، وينهض جامعة تجارية لا جامعة دينية، ما دامت قاعدة الحكومات، وما دامت الحكومات عدوة الأديان، وما دامت الأديان لا تستطيع التحليق إلا في فضاء من الحرية لا ينتهي البصر فيه إلى مدى؛ لذلك أحزنني عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأشيب من ذكرى الشباب إذا عثر بين أوراقه على رسائل الحب، وأناشيد الغرام، وأمضني ما يمض العاشق المفارق، إذا مر بالآثار وأطلال الديار، فرأى النوى والأحجار، وموقد النار، ومجال الخيول، ومجر الزيول، فذكر ما كان ناسياً، وهاج من وجدته ما كان كامناً، فبكى واستعبر.

وود بجذع الأنف لو عاد عهدنا وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهلية الأولى بأحوج إلى الإصلاح الديني من الجاهلية الأخرى، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك إليه.

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها إلى الله زلفى، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار، والأحياء والأموات، والأبواب والكوى، والقواعد والأساطين: تبرّكاً، أو تقريباً، لفظان مترادفان، مختلفان لفظاً متفقان معنى، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه.

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوباً، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتاً، بل آحاداً وأفراداً، فلا تراحم ولا تواصل، ولا تعارف ولا تعاطف، حتى بين الأخ وأخيه، والأب وبنيه.

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الأوتار، وجاهليتنا تسفكها في سبيل السرقات وقضاء الشهوات، وكان أفضع ما في جرائمهم وأد البنات، فصار أخف ما في جرائمنا الانتحار، وكان بعضهم يبغي على بعض بسرقة ماله، أو استياق ماشيته، ففعلنا مثل ما فعلوا وفوق ما فعلوا، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الأوراق وتحريف الصكوك، وتقليد الأختام، والبراعة في النصب والاحتيال، يكاد يستوي في ذلك العالم والجاهل، والشريف الهاشمي والفلاح القروي.

وليتنا إذ أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هي رذائل وفضائل فيهبون على المصلحين أمرها، ولكننا أسأنا الاختيار، فلنا خرافاتهم الدينية وأدواؤهم الاجتماعية، وليس لنا كرمهم ووفائهم، وغيرتهم وحميتهم، وعزتهم ومنعتهم، فكيف لا يكون الأمر خطيراً، وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى؟

نبئني عن الإسلام أين مقره ومكانه؟ وأين مسلكه ومضطربه؟ وفي أي موطن من المواطن حل، ومعهد من المعاهد نزل؟

أفي الحانات والمواخير التي يغص بها الفضاء، وتبتُّ منها الأرض والسماء، والتي ينتهك فيها المسلمون حرمة دينهم بلا خجل ولا حياء؟ كأنما هم يشربون الماء الزلال، ويغشون البضع الحلال، ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقية في عمله، أو الاحتشام في أمره سمّوه جباناً جامداً، أو متكلفاً بارداً، كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الإسلامية، والمعاهد الدينية، والقضاءين الشرعي والنظامي؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح، والغبن الفاحش، مزخرفاً بالأقوال الكاذبة، والأيمان الباطلة؟

أم في مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان الأكبر على سلطان العدو وسلطان الذمة وسلطان الشرائع، اللهم إلا ما كان من تلك الألواح المكتوب فيها: «العدل أساس الملك» أو «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»؟

أم في المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام، وكانت تلك الأعوام مملوءة بالآثام والجرائم، والمفاسد والمظالم؛ لكفت تلك الحركات التي يسمونها صلوات ويحسبونها حسنات، لغفران تلك السيئات؟

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسمًا بلا روح، وعلمًا بلا عمل، كأنما يتلهَّونَ بدراسة إحدى الشرائع الدائرة، أو أحد الأديان الغابرة، وحيث يتلقون كشكولًا عجيبًا وخلقًا غريبًا من الأكاذيب والترهات، فلا تكاد تسمع من أفواههم إلا حديثًا موضوعًا، أو قولًا مصنوعًا، أو خرافة تاريخية، أو بدعة دينية، وحيث يقضون حياتهم في المناظرات والمجادلات، والتحاسد والتباغض، والتقاطع والتدابير، وهي بعينها الأخلاق والردائل التي ما جاءت الأديان إلا لمحاربتها، والقضاء عليها، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون، ويسيتون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا؟

أم في مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية، والحركات البهلوانية، والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات؟

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحًا، وللإسلام صلاحًا، فليبدأوا عملهم بتهديب العقائد الدينية، وتربية النشء الحديث تربية إسلامية، لا تربية مادية، أي أنهم يدخلون إلى الإصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم، ودنياهم وآخرتهم، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب، والمعلم والمهذب، والإسلام وإن كان دين العقل والفطرة، والإصلاح، إلا أن الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون في نظرهم تابعًا للعقل، وأن يكون العقل الحكم بينهم وبينه، والخير كل الخير في أن يكون الدين حاكمًا والعقل مفسرًا ومبينًا، فإذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة، والحكمة والسياسة، فقد تم لهم كل شيء، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين: الدينية والسياسية، كما تم لهم ذلك في العهد الأول من هذا الباب نفسه، وفي هذه الجادة المستقيمة، فهل يستطيع دعاة الإصلاح في الجاهلية الحاضرة أن يكونوا كدعائهم في الجاهلية الأولى، وهل يستطيعون أن يخلصوا الله في عملهم جادين مثابرين، لا تأخذهم فيه هوادة ولا عنه سِنَّة، وأن لا يرى أحدهم لنفسه على أخيه فضلًا إلا بالإيمان والتقوى، وأن يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد في سبيل الله، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر ويحتمل الكريهة، ولا يجعل لليأس إلى قلبه سبيلًا، ولا للهوان على نفسه سلطانًا؟

هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما أصلح المصلحون في الأولين؟ «لست أدري، ولا المنجم يدري».

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

الفصل الخامس والمائة

الضمير

أتدري ما هو الخلق عندي؟

هو شعور المرء أنه مسؤول أمام ضميره عما يجب أن يفعل.

لذلك لا أسمى الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة العلانية، ولا العفيف عفيفاً حتى يعف في حالة الأمن كما يعف في حالة الخوف، ولا الصادق صادقاً حتى يصدق في أفعاله صدقه في أقواله، ولا الرحيم رحيماً حتى يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه، ولا المتواضع متواضعاً حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه. التخلق غير الخلق، وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقين بخلق الفضيلة، لا فاضلون؛ لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس، أو خوفاً منهم أو طمعاً فيهم، فإن ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه طمعاً في الجنة التي أعدها الله للمحسنين، أو خوفاً من النار التي أعدها الله للمسيئين.

أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة، أو يتقي السيئة لأنها سيئة فذلك من لا نعرف له وجوداً، أو لا نعرف له مكاناً.

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار؛ لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشي في طريق الرذيلة وهو يحسب أنه يمشي في طريق الفضيلة، أو خوفه من القانون، لأن القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب، أو خوفه من الناس؛ لأن الناس لا ينفرون من الرذائل بل ينفرون مما يضر بهم، رذائل كان أم فضائل، وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته.

وما زالت الأخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلي عنها، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات، والقواعد والأنظمة، ففسد أمرها، واضطرب حبلها، واستحالت إلى صور

ورسوم وأكاذيب والأعيب، فرأينا الحاكم الذي يقف بين يدي الله ليؤدي صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه ومسمع جسم رجل مسكين لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صباة من المال يريد أن يسلبه إياها، والأمير الذي يتقرب إلى الله ببناء مسجد قد هدم في سبيله ألف بيت من بيوت المسلمين، والفقيه الذي يتورع عن تدخين غليونه في مجلس القرآن، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته إلى خاتمته، والغني الذي يسمع أنين جاره في جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به، فإذا أصبح الصباح ذهب إلى ضريح من أضرحة الأولياء، ووضع في صندوق النذور بكرة من الذهب قد ينتفع بها من لا حاجة به إليها، والموسم التي تتصدق بنفسها ليلة في كل عام على روح بعض الأولياء وعندها أنها قد كفّرت بذلك عن سيئاتها طول العام.

إلى كثير من أمثال هذه النقائص التي يزعم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوي الأخلاق الفاضلة والسيرة المستقيمة.

الخلق هو الدمعة التي تترقق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس، أو مشهد من مشاهد الشقاء.

هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاعتماض كلما ذكر أنه رد سائلاً محتاجاً، أو أساء إلى ضعيف مسكين.

هو الحمرة التي تلبس وجه الحي خجلاً من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده، ولا يستطيع مد يد المعونة إليه.

هو اللجلة التي تعترى لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورة من ضرورات الحياة.

هو الشر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يد من الأيدي إلى العبت بعرضه أو بكرامته.

هو الصرخة التي يصرخها الأبى في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه، أو مملأة عدوه.

الخلق هو أداء الواجب لذاته، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحيي ضمائرهم، وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء، ومن أي طريق أراد، فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تحشى بها الأذهان، بل ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب، والأريج عن الزهر.

الفصل السادس والمائة

مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها، وبلوغها في المدنية مبلغًا يؤهلها لجارة الأمم الغربية في عظمتها وسلطانها، فأصبحت أسأله ألا يستجيب دعائي وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها.

أصبحت أعتقد أن مفاصد الأخلاق والمدنية الغربية شيئان متلازمان، وتوأمين متلاصقان، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه إلا إذا افتترقت نشوة الخمر عن مرارتها، فكيف أتمناها لأمة هي أعز عليّ من نفسي التي بين جنبيّ؟

قرأت حوادث الانتحار في الغرب، فقلت: قوم قد ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه، فلم يستطيعوا الوقوف في طريقها وقفة الشجاع المستقل، ففروا من وجهها إلى حيث يجدون الراحة الدائمة في أعماق القبور، وما أكثر الجبناء في مواقف الحرب وميادين الجهاد!

قرأت حوادث المبارزة فقلت: قوم قد عجزت يد المدنية الحاضرة أن تستل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدون في عهد الهمجية الأولى من أن العرض إناء إذا أَلَمَّ به القذى لا يغسله إلا الدم المسفوح، وكثيرًا ما أوردت العقائد النفوسَ موارد الحتوف.

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت جناح الظلام إلى المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات؛ شوقًا إلى لثمة من خد يرشح صديده، أو رشفة من ثغر يتناثر دوده، حتى إنه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرجام فوق ما يروقهم من منظر المقصورات في الخيام. فلما طاردهم الحكومة عن أمنيتهن، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم، ومواقف عشقهم وهيامهم، رأوا أن يحتالوا على الإلام بأولئك الموتى خيالًا لما فاتهم الإلام بهم حقيقة، فأنشأوا لأنفسهم في باطن الأرض قاعة كبرى كسوا جدرانها بالأسفار السوداء، ووضعوا في وسطها صندوقًا من صناديق الموتى تنام فيه

فتاة حية تتصنع الموت باصفرار لونها، وإسبال جفونها، وسكون أنفاسها، فإذا لج بأحدهم الشوق إلى الإلام بفتاة ميتة نزل إلى تلك القاعة السوداء وعالج مخيلته على أن يتصورها قبرًا مظلمًا موحشًا، يضم بين أقطاره فتاة ميتة لا حراك بها، فيلم بها وهو يسمع نغمات الأحزان من قيثارة أعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال.

قرأت هذا، وقرأت أن منهم من تجاوز به جنونه وهوسه إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان، حتى إنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلмон فيها بالدجاج والبط والأوز إلام غيرهم بالنساء البغايا، فقلت: لا عجب في ذلك. وهل هو إلا فن من فنون الجنون التي لا يجد المرء إلى حصرها سبيلًا؟!

إن كنت أغتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها، فإنني لا أغتفر لها ذنبها في مدرسة الغرام التي أنشأها قوم من الأمريكيين في وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون في ذلك بأسًا ولا يجدون فيه متلومًا.

وقد وضعوا لها البرنامج الآتي:

يوم الأحد: دروس استعدادية.

يوم الإثنين: الغزل.

يوم الثلاثاء: المطارحة.

يوم الأربعاء: صناعة التقبيل والتخميش.

يوم الخميس: فلسفة الدلال والتصبي.

يوم الجمعة: اختيار مواعيد اللقاء.

يوم السبت: الامتحان.

هذه هي المدرسة الغرامية، وهذا نظامها، فهل سمعت في حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التي يسمونها الأمم البهيمية إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من حب الشهوات والاستهتار فيها، قد بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التي يقولون عنها إنها زهرة المدنية الحديثة، وتاجها المرصع.

لماذا نسمي الزوج قبائل متوحشة، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل إلى مخالطة النساء،

فيأخذونهم جميعاً إلى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينثرون حولها تراباً معبداً، حتى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نَمَّ أثره عليه، كما نعلم أنهم يخططون فروج العذارى حيلة وحذراً ليحفظوا أعراضهن لأزواجهن سالمات بريئات، ولماذا تسمى الأمة الأمريكية أمة متمدينة، وها هي ذي تفتح المواخير باسم المدارس حتى لا تكون في نفس أحد من الناس غضاضة في دخولها، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها!!

إذا كان توحش الأولين لإغراقهم في صون الأعراض والحيطة لها، فالآخرون أكثر منهم توحشاً لإغراقهم في هتكها وابتذالها، والإغراق في الخير خير من الإغراق في الشر. فيا أيها الزنجي المسكين، لقد ظلمك من سَمَاك متوحشاً، ويا أيها الأمريكي المتوحش لقد كذبك من سماك متمديناً.

أيها الزنجي الأسود: إن كنت أسود اللون، فالفضيلة أعلى قدرًا من أن تتنزل لاعتبار السواد ذنبًا تنفر منه، وجريمة لا تغتفرها! وإن كنت جاهلاً فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها، والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفنناً لا أحسبك تحن إليه، أو تتقطع نفسك حشرات عليه؟ وإن كنت عارياً فربما لبست من الفضيلة ثوباً يحسدك عليه — لو يعقل — ذلك الذي يفخر عليك بخَزّه وديباجه، ودمقسه وحريره:

ولو بَتُّما عند قدريكما لبت وأعلاكما الأسفل^١

^١ أي لو تنزل كل منكما المنزلة التي يستحقها لأخذ الأعلى مكان الأسفل، والأسفل مكان الأعلى.

الفصل السابع والمائة

أمس واليوم

مثلنا ومثل آبائنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين الحديث ومن بعده كمثال رجل ضل به طريقه في ليلة ليلاء غدافية الإهاب، حالكة الجلباب قد تجسد ظلامها حتى كاد يلمس بالراح، فانقلب جوهرًا بعد إذ هو عرض، فأصبح كأنما هو فحل سائل، أو مداد جامد، فأنشأ هذا الضال المسكين يخبط في ذلك الديجور ترفعه النجاد، وتخفضه الوهاد، لا يرى علمًا فيهتدي به، ولا يتنور نجمًا فيعتمد في سراه عليه. وإنه لذلك وقد استوت في نظره الجهات الست؛ فسمائه أرض وأرضه سماء، ووراءه أمام وأمامه وراء، وإذا بقرن الشمس قد نجم في جبهة الأفق، وأفرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطرات ملتهبة من ذائب أشعته المتلاثلة فعشي بعد أن كان بصيرًا، فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئًا، وما زال في ضلاله القديم، إلا أن ذاك ضلال الظلام، وهذا ضلال الضياء، وهو شر الضلالين وأقفل الداءين، فإن ضلال الظلام يتخلله بريق الأمل في الضياء، فأما وقد أصبح الدواء داء فلا أمل في الشفاء:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدي هذه المدنية الجديدة التي همى سيلها على هذا العالم الإنساني، فرأى الغرب تربة طيبة صالحة فسقاها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ورأى الشرق تربة طيبة صامته متحجرة قد نجم فيها كثير من الأعشاب الضعيفة، والجذور الفاسدة، فأما ما تحجر منها فلم تغن عنه السقيا شيئًا، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فاسدًا كأصله، وكان خيرًا له لو ذهب ذلك الفيضان به وبجذوره.

أي إن المدنية الحديثة تمشت في صدر الغرب بقدم متثاقلة فما خفق لها قلبه ولا اضطرب، ثم وضعت يدها في أيدي الغربيين فصعدت بهم إلى سمائها خطوة خطوة كما يُعوّد الطفل الصغير على المشي وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا، فبلغوا ما أرادوا، وهويونا إلى أعظم ممّا كنا، كالحجر الثقيل يرمى به في الجو، فإذا ارتد ارتد إلى حفرة يدفن نفسه فيها.

أي أن الغربيين أحسوا، فنهضوا، فجُدّوا، فأثروا، فتمتعوا بثمرات أعمالهم، ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات، ووثبنا إلى الغابة وثبًا فسقطنا.

فمهما كان نصيب آبائنا من الجهل، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة، فقد كانوا على علاقتهم أسعد منّا حالاً وأروح بالاً وأهنأ عيشاً، وأسدّ خطوات في سبل الحياة، وكانت المعيشة فيهم اجتماعية؛ أكثر منها فردية؛ فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالملكة الدستورية المنتظمة يديرها عقل واحد في جسوم كثيرة متفقة في الرأي والدين والمذهب والأخلاق والعادات؛ تجتمع حول المائدة كما تجتمع في نادي المسامرة، وتتلاقى في قاعة الصلاة كما تتلاقى في ساعة المتنزه، يحبون الله، لا يختلفون إلا في الطريق إلى رضاه، ويحبون الوطن ولا يختلفون إلا في الطريق إلى خدمته، ويحترمون عاداتهم وأخلاقهم ولغتهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية، ويفرون من العادات والمشارب الغربية عنهم فرارهم من الأسد؛ مخالفة أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتتحل جامعتهم، فتهدأ حميتهم، فتجمد نفوسهم، فإذا هم ميتون ثم لا يبعثون.

وكان بين الصغار في الأسرة والكبار فيها معاهدة رحمة واحترام، يحترم الصغير الكبير فيكبر عمله وإرادته ومذهبه، فإذا أنزل نفسه منه هذه المنزلة أصبح بحكم الطبيعة مرآة له تنطبع فيها تلك الأعمال والإرادات والمشارب، حتى إذا أصبح الصغير كبيراً وجد من صغيره ما وجد منه كبيره، فلا تزال سلسلة التوارث في الأسرة متصلة اتصالاً تعيا به الحوادث، وتكبو دونه عاديات الليالي.

ويرحم الصغير الكبير فلا يألوه نصحاً في حاضره ومستقبله، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ فإذا هو هو، حتى إذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الأسرة بفقده شيئاً.

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التي أكلتنا إياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلمومها ومعارفها ومخترعاتها الخالية، وزخارفها اللامعة الباطلة، فانقلبت المعيشة البيئية

اجتماعية فردية محضة، فالأخوان متناكران، والزوجان متنافران، والولد شقي بأبيه، والأب شقي بولده، وكأن ساحة المنزل ساحة الحرب، لا ترى فيها غير وجوه مقطبة، ونفوس منقبضة، وأشلاء فوق أشلاء، ودماء أثر دماء، وشقاء ليس يعدله شقاء. ومن كان في شك من هذه الحقائق فإني أَكَلُّهُ إلى جداول القضايا في المحاكم، فإن لم يَرَ أن أكثر المخاصمات فيها — خصوصاً المدنية منها — واقعة بين الأقارب وذوي الرحم، فله حكمه ما شاء.

إن أُبَيِّتَ إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوها فاسمع قصة رجل مصري كان ذا ثروة متوسطة عاشت آباءه أجيال متعددة، فما كانت تضيق بهم، وما كانوا يضيقون بها، وكان له ثلاثة أولاد و«امرأة جديدة» متعلمة تعرف كل شيء إلا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها، وليتها جهلت كل شيء إلا هذا فتكون قد علمت كل شيء، وتحب مطالعة الروايات الغرامية الفاسدة حباً ملك عليها مشاعرها وحوالجه، فربما عرض لها المهم من الأمر فلا تخفُّ له قبل فراغها من الفصل الذي تطالعه، وتحب التمثيل فتقضي ليلها في مشاهدته، ونهارها في سرد وقائعه ومشاهده على صواحبه وأترابها، وربما كانت تهمس في آذانهم أن ليتها ترى «روميو» فتكون له «جوليت»^١ وتبغض الحجاب بغض الحرائر للسفور، فيومها نصفان: نصف للخروج، ونصف للتهيو له؛ فهي خارج المنزل من مطلع الشمس إلى مغربها، بنى بها زوجها بعد وفاة زوجه الأولى فلم يغتبط بها غير عام واحد، ثم ضرب الدهر ضرباته فإذا بينهما عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالا منها.

أما أولاده فأدخلهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغات مختلفة: الإنكليزية والفرنسية والألمانية، ثم تخرجوا، هذا إنكليزي بفظاظته وخشونته، وهذا فرنسي بخلاعه واستهتاره، وذاك ألماني بخيلائه وكبريائه، وجميعهم متفرنجون مشرباً ومذهباً ومطعماً وملبساً ومسكناً، وما فيهم من تَفَرَّنَجْ همّة وعملاً.

خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن، أمّا الدين فلأن أكثر مدارسنا حتى الأهلية منها مادية محضة لا تعلق للدين بشأن من شؤونها، والدين خلق شأنه كبقية الأخلاق، لا يرسخ في النفس إلا بتكرار الصور الدينية وتداولها عليه، فإن بَعْدَ عهدا به أغفلته وأنكرته، وكذلك كان شأن هؤلاء الأولاد المساكين فقست قلوبهم؛ وجمدت نفوسهم،

^١ روميو وجوليت: اسم رواية لشكسبير.

وفقدوا بفقد دينهم أطيّب عزاء يستروحه الإنسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب، الحافلة بالكوارث والهموم.

والإنسان مهما طال حوله وكثر طَوُّهُ، واتسعت مذاهب قوته، فليس ببالغ من دهره المعاند ما يريد، لولا زهرة الأمل التي يتعهد بها الدين بالسُّقْيَا في قلب المؤمن، فيستروح منها ما يروح عن قلبه، ويسري عن نفسه، ولولا يقينه أن هناك حولاً أكبر من حوله، وطَوُّاً أعظم من طَوُّهِ، وإِلَهًا قادراً يقرب إليه ما يريد مما ضاق به ذرعه، وعيت عنه قوته.

وأما الوطن، فلأن المدارس عندنا تديرها من وراء ستار أيدٍ أجنبية تربّي التلاميذ لها لا لأوطانهم.

فكنت ترى منزل الرجل كأنما هو مجمع من مجامع السفراء: تركي متمسك بتركيتيه، وإنكليزي يهتف ليله ونهاره بأن الدولة الإنكليزية سيدة البحار، وأن الشمس لا تغيب عن أملاكها، وفرنسي يعبد فرنسا ويسبح بحمدها، ويصفها بأنها أمة العدل والرحمة، وأن أسعد المستعمرات مستعمراتها، وألماني يستظهر خطب الإمبراطور، ويتكهن أن المستقبل لألمانيا يوم يمحي اسم إنكلترا وفرنسا من مصورات الجغرافيا، وكثيراً ما يقع بين المتفرنس والمتألن النزاع الطويل في شأن الألزاس واللورين، وبين المتألن والمتكلنز الشقاق العظيم في واقعة واترلوا، وأي القائدين كان له الفضل فيها بلوخن أو والنجتون؟ ولا يتفقون إلا في الساعة التي يذكرون فيها أمتهم، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيل، ويلبسونها ورجالها قديماً وحديثاً أثواب المراقع المضحكة، غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس، ولا مبالين بالأدمع المنهّلة من ناحية والدهم الجالس ناحية يندبهم، ويندب نفسه معهم، فبئس الاختلاف حين يختلفون ولا حبّاً الاتفاق يوم يتفقون.

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل، وتفرق أفراد تلك الأسرة أيّماً تفرق، وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام، فلا يصطحبون في متنزه، ولا يجتمعون لصلاة، ولا يتصافون في سمر، ولا يتفقون في شأن من شؤونهم البيتية، حتى أصبح لكل منهم من المأكّل والمشرب والملبس وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه المباين لخلق أخيه أو أبيه. فأنى لهم التعاضد الذي كان لأبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة، وأنى لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم، والمنزل قوام الأمة تسعد بسعادته وتشقى بشقائه؟

وأى شأن لهذه المعلومات الكثيرة التي حشوا بها أذهانهم، وهل أفادوا^٢ بها إلا هذرًا في المنطق، وثرثرة في اللسان، وشغلًا للأذهان، لا يغني عن سعادة الحياة وهنائها فتيلًا؟

ولو عقلوا أن ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا ونسميه جهلاً وهمجية، هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به، وننعي عليهم تاريخهم من أجله؛ لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيرنا.

أجل، إنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض، وأن مصر في شمال إفريقيا وسوريا في غرب آسيا، ولكنهم كانوا يعلمون أن وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم، وأن أبناء وطنهم إخوة لهم يسعدون معًا ويشقون معًا، وأن سعادتهم في استقلالهم، وشقاءهم في امتداد اليد الأجنبية إليهم، وكانوا يعتقدون كثيرًا من الخرافات والأوهام، وأن هناك أرواحًا خيرية وشرية تنفع وتضر، وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد، ويطاطئون رؤوسهم بين يدي رؤساء الأديان تحننًا وتعبدًا، وعندي أن دينًا خرافيًا خير من لا دين؛ لأن لهذه المعبودات الوهمية في نفوس العابدين لها سلطانًا قاهرًا يقاوم أهواء الشر فيها، ويطهرها من كثير من الرذائل التي تعيا بها القوانين الشرعية والوضعية، كالخيانة والكذب، والحقد والحسد، وسفك الدماء، واغتتيال الأموال، وغير ذلك من الشرور الإنسانية التي لا تزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجر، والتي فشت اليوم بين طبقات المتعلمين الذين أخذوا العلم مجردًا عن روح التربية وصبغة الأخلاق.

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في أكثر عقودهم من بيع وشراء وهبة وقرض ورهن على صدق ألسنتهم، ووفاء قلوبهم، فكان الرجل يأمن أن يقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك، ولا شهادة شاهد، فأصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدائق والسحتوت، والويل كل الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكه، أو أنكر شهوده وكثيرًا ما يفعلون.

^٢ أفادوا: كاستفادوا.

وجملة الحال أنهم كانوا يجهلون أكثر ما نعلم، ولكن لم يكن عليهم جهلهم أكثر ممّا جنى علينا علمنا، وكانوا محرومين أكثر مما ننعم به اليوم من مساكن فاخرة، ومراكب فارهة، وملابس زاهية، وفرش وثيرة، وأنية صقيلة، وأدوات للمأكل والمشرب ثمينة، ولكنهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئاً من هذا كله؛ لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة، فنحن وهم سواء في الرضا بحالتينا، إلّا أن معيشتنا يكرها الفقر والإفلاس الآجل أو العاجل، ومعيشتهم لم يكن يكرها من ذلك شيء، وها هي دفاتر المصارف وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا في غنى عنها لولا المدنية الحاضرة التي قلبت الكماليات في نظرهم إلى حاجيات، فبنوا القصور، وشادوا الدور، وما شادوا لا يعلمون إلا قبوراً دفنوا فيها راحتهم وهناءهم ومستقبل ذريتهم من بعدهم، فإن هؤلاء الأولاد المساكين بعد أن خرجوا من المدارس بلا دين، ولا وطن أرادوا ألاّ يُبقوا في قوس الحرية منزعاً فأطلقوا لأنفسهم العنان في سبيل الشهوات واللذائذ، فكانوا يسهرون الليل بين رنين الكؤوس وضرب الدفوف، ثم ينامون النهار بين التمطي والثوباء، حتى نبت بهم وظائفهم التي هي كل ما حصلوا عليه من علومهم ومعارفهم، فأبعدتهم عنها، فأصبحوا كلّاً على أبيهم وعلى الناس، لم ينفعهم علمهم ولم تُغن عنهم شهادتهم، بعد أن نفخت الكبرياء في صدورهم، فأبوا أن ينزلوا للاحتراف بما يقوّم حياتهم كما يفعل أولئك الذين أنضوا ركائب شبابهم في طريق تقليدهم، وباعوا في سوق التشبّه بهم كل ما تملك إيمانهم وقلوبهم، وبعد أن ملكت الشهوات قيادهم فما وجدوا في أنفسهم متسعاً لسواها، فأغروا بثروة أبيهم يأخذون منها بالحق تارة وبالباطل تارات، وكانوا قد قلصوا ظلالها أولاً بنفقات دراستهم، وثانياً باتّباع ما حسن لفظه وقبح معناه من السلع الأوربية، التي تفني خزائن روكفلر وروتشلد قبل الوصول إلى إشباع بطون تجارها، فنضب معينها ولم يبق منها حتى الذمء^٢ فتبدل ذلك النعيم شقاءً، وتلك السعادة والرفاهية فقراً وعدمًا، أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف، والمخترعات والمستحدثات، وأما الأولاد فاغتالت أحدهم يد الزهري وكانت لأمثاله من المغتالين، واحتوى الآخر فراش السل حيث لا زائر ولا طبيب، وافترش الثالث تراب السجن على أثر جناية دفعه إليها العوز

^٢ الذمء: بقية النفس.

والحاجة، وفرت «المرأة الجديدة» إلى معرض الأعراض حيث يبتاعها الشقاء بثمن بخس، وهو فيها من الزاهدين.

كأن لم يكن بين المجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

هذه قصة منزل من منازلنا، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل إلا ما رحم الله، فلو أن باكياً بكى على ما آلت إليه حالة هذه الأسرة الشقية فهو إنما يبكي أسراً متعددة، وأمة كاملة:

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافق
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كله قبر مالك^٤

وجملة القول إن للحاضر سيئات فوق سيئات الماضي، فلا خير في العصرين، ولكن وياً أخف من ويلين، والأمم لا تسعد بمعرفة الخير والشر، فالخير والشر معروفان حتى لأمة النمل، وإنما سعادتها في معرفة خير الخيرين وشر الشرين، ولئن دام هذا الحال واطّرد المقياس، فالغد شر من اليوم، كما كان اليوم شراً من الأمس.

^٤ الأبيات لمتمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا.

الفصل الثامن والمائة

المرقص

حدث أحد الأصدقاء قال:

ذهبت ذات ليلة إلى مرقص من مراقص الأزبكية ولم أكن زرت ولا زرت غيره من قبل، فرأيت على بابه جندياً يتمشى في عرصته مشية هادئة مطمئنة، فذعرت لمرآه، وتراجعت قليلاً قليلاً، وكدت أعتقد أنني أخطأت الطريق إلى المرقص، وأنني بين يدي دار من دور الحكومة يحرسها حاجبها، لولا أنني لم أرَ في وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب، والذل والانكسار، الذي اعتدت أن أراه في وجوه الشاكين والمتظلمين.

وقفت ساعة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لامس فالتفتُ ورأيت فإذا صديق من أصدقائي يسألني: ما وقوفك ههنا؟ فقلت له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما سأله عن سبب بكوره: أراق تشاركني في الفعل وتفردني بالعجب، قال: أنا أفتش عن ابن عمي، قلت: وأنا أفتش عنك، فابتسم وقال: هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش إلى حيث ما لا نهاية له، وأمسك بيدي حتى جاز بي باب المرقص، فسألته: ما هذا الجندي الواقف أمام الباب؟ قال: كيف ذهب عنك أن حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومة مدنية لا أدبية، فتساوت في نظرها «المصالح» والمراقص، واختلط عليها الأمر بين مواقف القضاء ومعاهد البغاء، فأصبح الجندي يحمي أبواب العاهرات كما يحمي أبواب الوزارات، ويقف أمام البارات موقفه أمام الإدارات.

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سخاً وتذرافاً كلما أبصرت هذا الجندي الظريف واقفاً هذا الموقف الذليل، يسمع قراع الدفوف لا قراع السيوف، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء، ويحمي الفسق والفجور، لا القلاع والثغور،

وما أعجب لشيء عجبي لهذه الحكومة التي تضنُّ بجنديها أن يشتمه شاتم، أو يلمسه لامس؛ فتغضب له غضبة مضرية فتراءى فيها الشامة والحمية والعزة والنخوة، ثم لا تضن به أن تؤجره نائحة في الجنائز، أو قوادًا في المراقص، وهو هو بعينه الذي يمثلها في وقفاته، وينوب عنها في غدواته وروحاته.

هذا ما كان يحدثني به ذلك الصديق وهو سائر بي إلى قاعة المرقص حتى وصلت إليها، فماذا رأيته؟

إن كنت لم تسمع في حياتك أن فدانًا واحدًا من الأرض يبتلع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة فاعلم أنه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات، فكأنه العين التي تسع الفضاء بأرضه وسماؤه، أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان وما يكون.

رأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس، والعقول جامدة في الرؤوس، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب، والسهام مسددة لاصطياد القلوب، ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلًا، وأذكاهم قلبًا، ومن كنت أراه فأغضي بين يديه إجلالًا وإكبارًا، واقفًا في حباله بَغِيٍّ تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها، وهو في غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخارًا، وكسرى فارس أنفة واستكبارًا.

رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلًا يخترق أشعة حجب الغيب، وعلمًا تتساوى أمامه المادة وما وراءها، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر:

وعلمت حتى ما أسائل واحدًا عن حرف واحدة لكي ازدادها

يجهل قضية من القضايا الأولية التي يشترك في فهمها الأذكياء والأغبياء، والعلماء والجهلاء.

رأيته يجلس في المرقص فتمر به البغي فما هي إلا لمحة طرف، أو غمرة كف، حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من نفسها، وملأ فراغ قلبها، فیدعوها إليه فتجلس بجانبه فما هي إلا ابتسامة خالية، أو كلمة كاذبة، حتى يقسم

بكل محرجة من الأيمان، أن نفسه صادقة فيما حدثته، وأن الفتاة قد علقت به علوقًا لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون.

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله، ويرى أن ذلك قليل في جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها بين يديه، وابتسامات تجود بها عليه.

لقد كذبتك نفسك أيها الرجل، فها هي المرأة بجانبك فهل ترى فيها منظرًا رائعًا، أو جمالًا ساطعًا، يأسر أقدس النساء قلبًا، وأعصاهن عنانًا.

إن الفتاة التي أسمعك كلمة الحب قد أسمعته قبلك وستسمعها بعدك كل صاحب جيب مثل جيبك، وعقل مثل عقلك.

وإن كنت في شك مما أقول فأمسك عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة، ثم انظر بعد ذلك أين مكانك من نفسها، وموقعك من قلبها، فإن لم تمطر عليك سحائب اللعنات، وتجعلك غرضًا لسهام التهكمات، فأنت أصدق الصادقين، وأنا أكذب الكاذبين.

رأيت هناك كل حاسة من الحواس قد لبست منظارًا يكبر المنظورات، ويضاعف المسموعات، تغني المغنية بصوت مضطرب النغمات، بارد الترجيعات، ثقل الحركات والسكنات، فتمتلئ أرجاء القاعة بالآهات، وتدوي فيها الصيحات المزعجات، وتطل العجوز الدردبيس على الناس بوجه مغضن وجفن مقرح، وسن بارز، وخد غائر، فتطير حولها القلوب، وتتحلب لها الأفواه، وتترامى تحت أقدامها الوجوه، فقلت في نفسي: أهذا هو المرقص الذي تخرب فيه البيوت العامرة، وتذبل فيه الرياض الزاهرة؟

أهذا هو الذي تتدفق فيه الأموال الغزار، تدفق الأنهار في البحار، وتقبر فيه نفوس الكرام قبل أن تقبر تحت الرجام، والله لا يبلغ العدو منا بحيله ورَّجْله وأساطيله وقنابله، ولا الأرض بزلزلها وبراكينها، ما يبلغ منا المرقص ببغاياه.

قال المحدث: والحق أقول إنني دخلت المرقص وأنا أحسب أنني أنفُس عن نفسي كربة، فرأيت ما زاد نفسي همًّا، وملأ قلبي غيظًا، فقلت لصاحبي: هل لك في القيام؟ فقام وقمت وأنا أقول: والله ما أدري ما ترك هذا المكان للمارستان؟

الفصل التاسع والمائة

الماضي والحاضر

عندي أن الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة، فكما أن الجمال في أمة قد يكون قبحاً في أمة أخرى كذلك الفضيلة في عصر، قد تكون رذيلة في عصر آخر.

ليست الفضائل والرذائل اسماً توفيقية كأسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها، وليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها طريق السعادة في الحياة، ولا الرذيلة رذيلة إلا لأنها طريق الشقاء فيها، فحيث تكون السعادة في صفة فهي الرذيلة، وإن كانت صفة الكرم.

اعتاد علماء الأخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم إلى اليوم أن ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلححان، يكتبون على رأس أحدهما عنوان «الفضائل» وتحت كلمات الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة، وعلى رأس ثانيهما عنوان «الرذائل» وتحت كلمات الجبن والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة، وأرى أنه قد آن لهم أن يعلموا أن الناس اليوم غيرهم بالأمس، وأن أساليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية، وأن كثيراً من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجة رذائل يحتويها الناس ويتبرمون بها، ويستثقلون منها قد أصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري، وأسساً ثابتة تبنى عليها جميع أعماله وشؤونهم، فلا بد للناس منها، ولا غنى لهم عنها، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من أن يتعلموها تعلمًا نظاميًا، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم.

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه، ويعرفون له يده التي أسداها إليهم، فإذا هوى به كرمه في هوة من هوى الفقر لا يعدم أن يجد من بين الذين أحسن إليهم أو عظم في نفوسهم شأن إحسانه - من يمد إليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه، أو يرفه عليه، أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل، واستثقلوا حمله على عواتقهم، بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه، ويصبون على رأسه جميع ما في كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه، فليس الكرم فضيلة، وليس من الرأي الدعاء له، والحض عليه.

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في أحاديثهم عن أنفسهم فلا يعترف بالبؤس إلا البائس، ولا يلبس القديم إلا من عجز عن لبس الجديد، أما اليوم وقد ذلت النفوس، وسفلت المروءات، فلبس ثوب الفقر غير الفقير، وانتحل البؤس غير البؤس، وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الخشب البالي، فالرحمة هي الفقر العاجل، والخسران المبين.

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذي يريد، أما اليوم وقد فترت همم الناس، ووهت عزائمهم، وماتت في نفوسهم الحفاظ والغير، ووكّل كل أمره إلى صاحبه، فإن رأوه قائماً بدعوة وطنية أو اجتماعية أغروه بالمضي فيها، وقفوا عن كتب ينظرون ماذا يفعل فإن ظفر هتفوا له، وانحدروا إليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها، وإن فشل خذلوه، وتنكروا له، فالشجاعة لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء.

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم، ويوم كان الفقر مفخرة للشریف إذا عقدت يده، وعزفت نفسه. والغنى معرة للدنيء إذا سفلت مساعيه وأغراضه، أما اليوم وقد مات كل مجد في العالم إلا المجد المالي، وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم، فالقناعة ذل الحياة وعارها، وبؤسها الدائم، وشقاؤها الطويل.

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها قدرها ويطاطئون رؤوسهم إجلالاً لصاحبها، أما وقد أصبح الناس أشراراً يحملون شرورهم على كواهلهم، ويدورون بها في كل مكان يطلبون لها رأساً يصبونها عليه، ولا يعجبهم

مثل الرأس الضعيف المتهاك الذي لا يحسن الزيادة عن نفسه، فلا خير في الحلم، والخير كل الخير في الغضب.

الحياة معترك أبطاله الأشرار، وأسلحتهم الرذائل، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى.

يجب أن يكون الناس جميعاً إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياء ليتقي بعضهم بأس بعض، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة، والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة وهو أضعف السلاحين وأوھاما فليس لذلك إلا معنى واحد: هو أن يهلك أشرف الناس وفضلاؤهم، في سبيل أدنيائهم وأنذالهم.

إن الدعاء إلى البر والإحسان، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والصدق والإخلاص، في هذا العصر، إنما هو حباله ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها، فيستأثروا بها من دونهم، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينقل ما في جيوب الناس إلى جيبه، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء، ولا إلى القناعة إلا ليقفل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزايها.

كلنا يكذب، فلم يعيب بعضنا بعضاً بالكذب والتلفيق؟ وكلنا يبتسم لعدوه وصديقه ابتسامة واحدة، فلم نستنكر الرياء والمصانعة؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها فلم نستفطع الطمع والجشع، وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عمّا في يده فلم نشكو من الظلم والإرهاق؟

إننا لا نفعل ذلك إلا لأننا نريد أن نستخدم الفضيلة في أغراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين الدين في الأعصر الماضية.

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب، وأن قصص الفضائل التي يقرؤها ونوادير المروءات والكرم والإيثار، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها، إنما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضت عهداً، حتى لا يصبح ناقماً على العالم يوم ينكشف له وجهه، ويرى سوءاته وعوراته، وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات.

وليت الذين يعرفون من شؤون الرذائل ودخلها فوق ما أعلم يضعون للناس كتاباً مدرسياً على نمط كتب التاريخ يوضحون له فيه كيف يكذب التاجر، ويغش الصانع،

ويلفق المحامي، ويدجل الطبيب، ويختلس المرابي، ويرائي الفقيه، ويصانع السياسي، ويتقلب الصحافي، ثم يقولون له: هذه هي الحياة، وهذا هو ما يجري فيها، فإن أردتها على علاقتها فذاك، أو لا، فدونك مغارة موحشة في قمة من قمم الجبال فعش فيها وحيداً بعيداً عن العالم وما فيه، وكل مما تأكل حشرات الأرض، واشرب مما تشرب منه، حتى يوافقك أجلك.

الشر لا يقاوم إلا بالشر، والظلم لا يدفع إلا بالظلم، وحامل السيف لا يغمده في غمده إلا أمام حامل سيف مثله، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سداً يعترض طريقه، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبيّاً، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعاً في ميدان واحد، يتقلدون سلاحاً واحداً، من نوع واحد. من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبة فيه فليسلكه كما يشاء، ومن أرادها على أن تكون وسيلة من وسائل العيش، في عصر مثل هذا العصر، وناس مثل هذا الناس، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق، وأضل السبيل. ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش في ظلالتها، لولا أن شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها، فرحمة الله عليها، ووا أسفا على أيامها وعهودها.

الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب أن أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف إلى أسرة كريمة ليخطب إليها فتاة من فتياتها لابنه، ثم اتفق أن وقع نظره على تلك الفتاة عرضاً فشغف بها حباً وخطبها لنفسه، فلم ير أهلها مانعاً من أن يزوجوها منه على تقدم سنه وإدبار أمره؛ لأنه أكثر من ابنه مالاً، وأوسع جاهاً وسلطاناً، فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرة لا رجعة له من بعدها؛ لأنه كان يحب الفتاة حباً جمّاً، وأصاب الفتاة ذهول شديد لا يزال ملازماً لها حتى اليوم، وأصبح الشيخ حزيناً بائساً لأنه أصبح بلا زوجة ولا ولد.

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيراً، ثم قرأت حادثة أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سأقصها عليك لتوازن بين الحادثتين كما وازنت، وتستنتج منهما ما استنتجت:

فجعت سيدة اسمها «مرجريت بونفيل» بوفاة زوجها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها. وكانت امرأة بارعة الجمال، رائعة الحسن، لا يراها الرائي حتى يخيل إليه أنها الكوكب المشبوب رونقاً وبهاء، وأنها لا تزال في مستهل العقد الثالث من عمرها، فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشاً شديداً وبدأت تختلف إلى بعض الأندية العامة علّها تروّح عن نفسها وحشتها وكأبتها فاتصلت هناك بفتى من نبلاء الفتيان أعجبها منه جمال صورته وعذوبة أخلاقه وحلاوة سمره ورقة آدابه، فأحبته وافتتنت به وأضمرت في نفسها أن تتذرع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه، وإن كان أصغر منها سناً بنحو عشر سنين، فلم تزل تتودد إليه، وتستدني قلبه حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها، وكانت إذا جلست إليه للحديث معه يردد على لسانها كثيراً ذكر ابنتها التي خلفتها من زوجها المتوفى، فكان يخيل إليه أن تلك الابنة طفلة في الخامسة أو

السادسة من عمرها، حتى زارها في منزلها يومًا من الأيام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب التي يحبها الأطفال ويطلبون لها، فلما وقع نظر مرجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت: ما هذا الذي تحمل؟ قال: إنها هدية لماري أريد أن أقدمها إليها وأين هي؟ فأرادت العبث به وقالت له: إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطئ الجدول، فاذهب إليها وقدم لها هديتك بنفسك.

فذهب حيث أشارت، فراعه أنه لم يجد أمامه طفلة في السادسة من عمرها كما كان يظن، بل فتاة كاعبًا رائعة الجمال في السادسة عشرة فوقف أمامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول، حتى رنت من ورائه ضحكة مرجريت، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر فافرض جبينه عرقًا، وتقدمت مرجريت نحو ابنتها وقالت لها: أقدم لك يا ماري صديقي جورج الذي حضر اليوم ليهديك حصانًا خشبيًا جميلًا، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية؟ فابتسمت ماري وفهمت القصة، فأثر في نفسها خجل جورج وارتبأكه فمشت إليه ووضعت يدها في يده وقالت له: أشكر لك هديتك يا سيدي، وأقبلها منك باغتباط وسرور، وأعدك أنني سأحفظها لك عندي تذكيرًا دائمًا لا أنساه، فسرى عنه ما لحقه من الخجل وجلسوا جميعًا يتحدثون ويسمرون، ومر لهم أطيب يوم مر لأحد حتى أظلمهم الليل فاستأذن جورج وعاد إلى منزله.

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مرجريت لا من أجل الأم وحدها، بل من أجل الأم والابنت، حتى حضر صباح أحد الأيام، وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها، فوجد ماري وحدها، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبل، وكأنه كان يتمنى أن يجدها خالية فوجدتها، وكانت جالسة على شاطئ الجدول في المكان الذي رآها فيه أول ما رآها، فجلسا معًا يتحدثان حديثًا طويلًا ذهب فيه مذاهب مختلفة، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من الحب، فوردها، فإذا كل منهما يضم لصاحبه من الوجد فوق ما تضرم الأفتدة والقلوب، وإنهما لمضطجعان وجهًا لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل ضجعة يتمنى المصور أن يراها في رسمها في رسم صورة السعادة الكاملة التي يفتش عنها الناس جميعًا فلا يجدونها، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران فرابها منظرهما، وخيل إليها أنهما يتحدثان في شأن غير الشأن الذي يأخذان فيه عادة أمامها، فأصغت إليهما، فألمت بطرف من حديثهما، فدارت بها الأرض الفضاء دورة كادت تصعق فيها، وتمثل لها أن صرح حياتها الشامخ العظيم قد خر بين يديها دفعة واحدة فنارت من حولها عبرة قاتمة حجبت عن عينها كل شيء فأملست من مكانها

إملاسًا ومشيت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها، فمسحت عبرتها بيدها فإذا المرأة أمامها، وإذا شعرات بيض سانحات في رأسها تهتف بها قد انقضى عصر شبابك أو كاد، وقد خطوت الخطوات الأولى إلى شيخوختك، فأخلي مكانك لابنتك، فهي أولى به منك، وحسبك من السعادة أن تفرحي لفرحها، وتهنئي لهنائها، واعلمي أن للطبيعة حكمًا قاسيًا لا يختلف عليه مختلف، ولا يتمرّد عليه متمرّد إلا هلك، ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراكًا وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة، فتثور ثائرتها، وتأبى إلا أن تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها أمثالها، ونحو ابنتها أخرى، فتلين عريكتها، ويسلس قيادها، وتقول في نفسها: إنها أولى به مني؛ لأنه خلق لها وخلقت له، حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر، فخرجت من غرفتها باسمه متطلقة حتى وصلت مكانهما، فرأتها مستغرقتين في شأنهما الذي كانا فيه لا يشعران بشيء مما حولهما، فصاحت بهما: أأنتما هنا يا ولدي؟ فاضطربا إذ رأياها، فابتسمت لهما ووضعت يدها في أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها، وجلست تتحدث إليهما حديثًا طويلًا انتهى بعقد الخطبة بينهما، وما هي إلا أشهر قلائل حتى رُفَّت إليه، وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبي الذي أهده أبوها لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة في السادسة من عمرها.

وكانت قد بقيت بقية من مرارة الألم في أعماق قلب مرجريت لم تزل تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى رن في أذنها يومًا من الأيام صوت حفيدتها تدعوها «جدتي» فكان هذا آخر عهدها بها.

وكذلك استطاعت مرجريت أن تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة في ظل سعادة ابنتها وهنائها.

ذلك ما فعل الرجل في السبعين من عمره، وهو يخطو إلى القبر خطوات حثيثة، وهذا ما فعلت المرأة وهي نَصَفٌ لا إلى الشيخوخة ولا إلى الشباب فجوزي على تمرده على الطبيعة، وخروجه عن سنتها شر الجزاء وجوزيت هي على تعقلها ورزانتها، وتأدبها بأدب الحياة أحسن الجزاء.

الفصل الحادي عشر والمائة

عجائز بوشنج

القاعدة المطردة في هذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له دهره يومًا من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر، إلى سماء الثروة والغنى، بنى بينه وبين ماضيه سدًّا محكمًا لا تنال منه المعاول، ولا تعصف به العواصف، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضي، زيه وهيئته، ولغته ولهجته، ومناخه ومسكنه، وعاداته وأخلاقه، وأصحابه وعشراءه، وجميع صلاته وعلاقته، ولو استطاع أن يلقي بالآخرين الوحيديين الباقين له: صورته واسمه لفعل.

يريد أنه قد أصبح إنسانًا غير ذلك الإنسان الأول، لا صلة له به، ولا شأن له معه، وأنه قد خلق خلقًا جديدًا.

إنها لحظة رديئة جدًا ما رأيت في الخلال أقبح منها.

إنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الفقر عيب «وعار»، والفقر ليس بعييب ولا عار، فإن كان لا بد له أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه، بل على السواد الأعظم من أمته بل على نفسه أيضًا؛ لأنه قضى عصر شبابه، والشباب هو الحياة من مبدئها إلى منتهاها، في الفقر والخصاصة، والعدم والإقلال.

ولا أدري ماذا يكون شأنه غدًا إذا استرد الدهر هبته منه، وكثيرًا ما يسترد الدهر هباته وعطاياه، بل لا يكاد يهب هبة، أو يمنح منحة حتى يستردها.

عذرتة في ثوبه الذي خلعه، وقلت قد لبس لكل حالة لبوسها، وفي داره التي هجرها، وقلت لا بد أن يكون هناك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق، وفي لهجته التي غيرها؛ لأنه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم، وفي خدّه الذي صغره، وصدره الذي أبرزه، وأنفه الذي شمخ به؛ لأن للثروة طغيانًا كطغيان الشراب، لا سبيل

إلى دفعه والخلاص منه، ولكنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن أعذره في زوجه التي طلقها واستبدل بها سواها.

إنها رفيقة حياته، وعشيرة صباه، وشريكته في سرّائه وضرّائه، ويسره وعسره وشبعه وجوعه وريه وظمئه، وأحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلّا لها وجه السماء بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسراً، وضيقه سعة، وشدته رخاء، فليس من الرأي ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقي نعله وأداته.

إنها شاركته في شدته، فيجب أن تشاركه في رخائه، واحتملته والدهر مدبر عنه فيجب أن يحتملها والدهر مقبل عليه، وأقرضته الصبر على عشرته، فيجب أن يوفيه الصبر على عشرتها، إن كان يرى أنها عبء ثقیل عليه.

أريد أن يتمنى النساء جميعاً لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك؟

إنهن يتمنين ذلك فعلاً، بل يسعين له سعيهن؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر، أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى، فيا للفضاعة والهول، ويا للمعيشة النكد المريبة! ويا للشقاء الذي يهدد الحياة الزوجية وينذرهما بالمحو والفناء!

حدثني من أثق به أنه دعي إلى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثي النعمة فلما قضاوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث إلى بعض الناس وتقول لهم: إنها سيدة هذا البيت بالأمس، وإن زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله، فكفاها مؤونة العيش وحماها عادية الشقاء، بل تركها في قرينتها وحيدة منقطعة، لا يعود عليها بقليل من المال ولا بكثير، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سوى أنه أصبح ذا زوجة جديدة، وولد جديد؛ وقالت إنها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم.

إنه لموقف مؤلم جداً أن تقف امرأة على باب البيت الذي كانت سيدته بالأمس موقف السائل المتكفف فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكفين.

لا يجد المرء لذة الطعام إلا إذا ذكر الجوع، ولا لذة الماء إلا إذا ذكر الظمأ، ولا لذة السعادة إلا إذا تمثل أمام عينيهِ عهد الشقاء، فما أحوجه — إذا انتقل من عذاب الفقر إلى نعيم الغنى — إلى أصدقاء عهده الأول وعشرائه، ليجلس إليهم من حين إلى

حين، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره، فيشعر بلذة الانتقال من حال إلى حال، وما أحوجه إلى زوجه التي قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه في عهد سعادته، ليرى في مرآة وجهها صورته القديمة والحديثة فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيمًا.

وتعجبني كثيرًا قصة خالد بن برمك جد البرامكة وكان رجلًا أعجميًا من قرية من قرى فارس اسمها «بوشنج» وفد إلى بغداد وحظي عند الخليفة فولاه الوزارة فلما ركب في الموكب الذي اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد إليهم بذلك المنصب العظيم، وقف الناس له صفوفًا على جانبي الطريق، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور، وهو مطرق واجم، فقال له أحد أصدقائه وكان يسير بجانبه: ألا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن؟ قال: نعم أراهن ولكنني كنت أفضل أن أرى بدلًا منهن عجائز «بوشنج».

أي إنه كان يتمنى أن العيون التي رآته بالأمس وهو وضع، تراه اليوم وهو رفيع.

الفصل الثاني عشر والمائة

الأجواء

ما زالت منذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر، وسالت لها دموع الفضيلة حزنًا وأسى، وتحدث المتحدثون عن أولئك الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتًا عيش البؤس والفاقة، أعجب لهن ولأمرهن، وأقول في نفسي: ليت شعري لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدة التي لا يجدن فيها علالة من العيش يتعللن بها عمًا فقدن من شرفهن وكرامتهن، ولم يصطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذي يستبد بهن، ويستأثر بجميع شؤونهن ومصالحهن، ويسوقهن بين يديه سوق الراعي ماشيته، ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن في مذاهب الأرض حيث شئن، يطلبن لأنفسهن الحياة في جو حر مطلق، والأجواء الحرة المطلقة كثيرة، وأسباب العيش فيها متنوعة، وما على وجه الأرض جو أسوأ من جوهن الذي يعشن فيه فيخفن أن يصرن إليه، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس في تأويل ذلك من أن ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقًا من بأسه وقوته فلا سبيل لهن إلى اختراقه، ففي البلد حكومة نظامية لا تسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها، أو إنه وضع في أعناقهن أغلالًا من الديون وليس في وسعهن أن يبرحن مكانهن حتى يؤدينها فإن من لا يبالي بحق الله ولا حق عرضه لا يبالي بحقوق الناس، ولم أزل في حيرتي هذه حتى قرأت بالأمس قصة وقفت منها على سر هذا الخلق الغريب في النساء فأنا أروي لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت.

توفيت زوج أحد الدوقات العظام في فرنسا فحزن عليها حزنًا شديدًا لأنها كانت أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، فكان يروِّح عن نفسه بالاختلاف إلى الأندية الخاصة والعامّة حتى ملَّها وسئمها، فمر بخاطره يومًا من الأيام أن يزور حي «مونمارتر» وهو

القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها، فظل سائرًا بمركبته يستطرق من زقاق إلى زقاق ومن معبر إلى معبر حتى وقف بباب حان في زقاق مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانها، فاندحر إليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصناع والعمال والغوغاء والمتطليين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين، ما بين قائم وقاعد وصائح وهاتف وممسك قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين، ولابط بالأرض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبّه على وجهه، وراقص يوقع حركات قدميه على نغمة شبابة ينفخ فيها آخر، وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة في سماء الحان سحبًا متكاثفة يرى الرائي من خلالها بعد لأي ما مائدة مستديرة في وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب إلا قليلًا، وتنتثر على الناس نثارات من الورق الرقيق الملون، والناس من حولها طائرون بها فرحًا، يداورونها، ويعابثونها، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحد أحدًا، وربما مد بعضهم إليها يده فجذبها من ثوبها جذبًا شديدًا حتى يكاد يزلقها من مكانها، أو دفعها في صدرها بعصاه فألمها، وهي تبتسم مرة، وتقطب أخرى، فلم يدر الرجل أهو في مارستان من مارستانات المجانين، أم في حظيرة من حظائر الوحوش الضارية، ولكنه رأى على كل حال منظرًا غريبًا لم ير مثله قط فأعجبه وسكن إليه، وكذلك الملول يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل، ولو كان منظر الجحيم فانتبذ في الحال مكانًا قصيًّا، وجلس إلى مائدة منفردة، وألقى نظرة على تلك الفتاة الراقصة فإذا هي رائعة الجمال، إلا أنه جمال مبعثر مزال، كما يعثر العاثر باللؤلؤة الثمينة بين القمامات المجتمعة فلا يزال ناظرًا إليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها، ونزلت تدور بعينيهما علّها تجد من يدعوها إلى لقمة تسد جوعتها أو كأس تبل بها غلتها، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه فاستطيرت فرحًا وسرورًا؛ لأنها لم تر قبل اليوم زائرًا مثله في فخامة هيئته، وجلال منظره، وأخذ يتحدث إليها ويسألها عن نفسها، فعلم أنها تكاد أشد ما كابد امرؤ قط في حياته من بؤس وشقاء، وقد سمع في صوتها نغمة تختلف بعض الاختلاف عن تلك النغمة الفاجرة الوقحة التي يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات فوقع في نفسه أنه إن أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤسها وشقائها فقد أحسن إليها وإلى الإنسانية إحسانًا عظيمًا، فسألها: ألها بأحد من الناس صلة من زواج أو مخالطة؟ فأطرقت برأسها وأجابت: أن لا، فعرض عليها رأيها الذي رآه لها، فاستطارت به فرحًا وسرورًا، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعات حتى كانت بجانبه في مركبته فسار بها إلى منزله.

وهناك تغير من شأنها كل شيء، فأصبحت تلك الفتاة البائسة المسكينة الضاوية الصفراء ذات الأسمال البالية، والقبعة القذرة والحذاء المرقع سيدهً فخمة يتلأأ وجهها بنور العزة والكرامة، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة والرفاهية حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشأن في الحياة، وأن الدوق يوشك أن يتزوج منها.

وكان الدوق يعيش وحده في قصره لا يعاشر إلا خدمه، ولا يختلف إليه إلا القليل من أصدقائه القدماء من حين إلى حين؛ لأنه كان منقطعاً لا زوج له ولا ولد، ولا قريب ولا نسيب فكانت «مارسيل» ملهاته التي يتلهى بها في وحدته، وأنسه الذي يأنس به في وحشته وكانت هي سيدة المنزل والأمرة الناهية فيه لا ينازعها في ذلك منازع، وظل الأمر بينهما على ذلك شهوياً عدة وكانا يخرجان أصيل كل يوم في مركبتهما إلى ضاحية المدينة يرتاضان في غاباتها وبساتينها ساعة أو ساعتين ثم يعودان، فإنهما لعائدين ليلة من الليالي من منتزههما إذا مرت بهما المركبة على مقربة من حي «مونمارتر» فاقترحت عليه «مارسيل» أن يمرّاً بذلك الحي ليلها بمناظره الغريبة، ومشاهده العجيبة فأذعن لرغبتها، وظلاً يخترقان شوارعه وأزقته حتى بلغا الحان الذي وجدها فيه، فطلبت إليه أن يأذن لها بدخوله لترى ما حل بأصحابه وزائريه من بعدها، فلم يرَ في ذلك بأساً، ودخل معها، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها، واتجها إلى بعض الموائد المنفردة فجلسا إليها، فما وقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجوا هياجاً عظيماً، وهتفوا لها هتافاً شديداً، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتقونها وهي تبتسم لهم، وتعطف عليهم، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة، ثم لم يلبثوا أن جذبوها من مكانها، وأصعدوها إلى المائدة لترقص لهم، فكانما ثارت في نفسها ثائرة الطرب القديم، فرقصت وافتنت في رقصها ما شاءت. حتى أتمت دورها، ثم نزلت وودعتهم وداعاً لطيفاً وانصرفت هي والدوق.

وهنا بدأت تشعر بملل شديد من حياتها الحاضرة التي تحياها في قصر الدوق، حتى أصبح يخيّل إليها أن هذا القصر الذي تعيش فيه إنما هو سجن، وأن هذا الرجل الذي يحبها ويكرمها وينزل على حكمها في جميع ما تحب وتشتهي إنما هو سجانها، وأن هذا السكون الذي يحيط بها إنما هو سكون الموت الذي يخيم في فضاء القبور، فكانت إذا خلت بنفسها تراءى لها في فضاء خيالها منظر الحان ومنظر زائريه، وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الأشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها، ويشدون يدها، ويصبون عليها فضلات كؤوسهم، فتطرب لتلك الحياة الهائجة

الثائرة، وتحن إليها حنين العاشق المفارق، ولم تزل هذه الفكرة تنمو في نفسها شيئاً فشيئاً حتى أخذت مكانها من قلبها، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة إلى عيشتها الأولى، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادئ قد هجع كل من فيه فخلعت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد، وارتدت بدلاً منها أثوابها الأولى التي جاءت بها، وكانت لا تزال ملقاة في بعض الغرف، وتسلفت من باب القصر حيث لا يشعر أحد بمكانها، وأخذت سبيلها إلى حي «مونمارتر».

وهكذا قضى عليها أن تشقى، بل هي التي قضت بنفسها على نفسها. ولقد كان أسف الرجل عظيماً جداً حينما تفقدها في صباح اليوم الثاني فلم يجدها خصوصاً عندما رأى ثيابها وحلاها ملقاة على بعض المقاعد وعلم أنها هي التي أثرت الفرار واختارته لنفسها، فبكاها كثيراً وعادت له وحشته التي كان يعالجها من قبل. ومر على ذلك عام أو بعض عام وبينما هو مقبل على قصره في ليلة من الليالي إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسكينة تئن وتتوجع، وتحاول أن تمد يدها إلى حلقة الباب لتطرقة فلا تستطيع، فدنا منها ليتبينها فإذا هي مارسيل، أو هي شبح متهافت باقٍ منها، فلما أحست به حدت ذراعيها إليه وقالت له بصوت خافت ضعيف: اغفر لي ذنبي يا مولاي، فدهش لمنظرها دهشة شديدة، ورق لحالتها فأمر الخدم بحملها إلى القصر فحملوها إلى غرفتها التي كانت تنام فيها، وهي في حالة من البؤس والشقاء تذيب الأكباد، وتستذرف الدموع، ثم جلس إليها يسألها عن شأنها. فقالت إنها مريضة مدنفّة منذ شهور عدة، وإنها قد عجزت عن أن تجد سبيلاً إلى علاجها من دائها لفقرها وفاقتها، فما زال المرض يأخذ منها مأخذه حتى مزق صدرها تمزيقاً، فلم تجد بداً من أن تأتي إليه لتستغفره من ذنبها، وتسأله أن يعينها على أمرها؛ لأنها لا تعرف في الدنيا لها راحماً سواه، فسألها لِمَ فرّرت من قصره؟ وما الذي كانت تنقمه منه؟ فقالت: لا أعلم، وإنما هو قدر قدره الله ولا حيلة لأمرّي فيما قدره وقضاه، فسألها أين كانت تعيش بعد فرارها؟ قالت في المكان الذي أنقذتني منه فأبيت لشقوتي وبلائي إلا أن أعود إليه لتنفيذ في إرادة الله. فرثي لحالها، وأمر باستدعاء الطبيب لينظر في أمرها، فلم يستطع الطبيب أن يصنع شيئاً؛ لأنه جاء بعد الأوان، وما أصبح الصباح حتى صعدت روحها إلى خالقها، وخلفت للدوق حسرة فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته، فلم ينتفع بحياته طويلاً بعد ذلك.

الأجواء

لكل جوٍّ من الأجواء رائحة خاصة به يألّفها أصحابه ويستنيمون إليها، فحولوا أيها الرجال بين نسائكم وبين تلك الأجواء الخبيثة، ولا تقولوا إنهن سيجزعن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها إلا البعيد عنها.

الفصل الثالث عشر والمائة

الرسائل

كتاب في التقاضي

أنا إن سألتك حاجتي، أعزك الله، وبسطة إليك يد رجائي، فقد طرقتُ باب المكارم، واستمطرت غيث المراحم، ورجوت واحد الدهر همة وحزمًا، ونادرة الوجود كرمًا وفضلًا، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم، ولا واحدة النعم، فلکم سبقت إليَّ منكم أيادٍ تخرس دونها ألسنة الشكر، وتضيق بها جرائد الحصر، ولقد مثلت، أيدك الله، بين أن أستشفع إليك بذوي الجاه عندك، والزلفى لديك، وبين أن أكل ذلك إلى كرمك وفضلك، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير، وسجايا البر، فرأيت أن الثانية بك أحرى، وبفضلك أجدر، والسلام.

كتاب مقاطعة

أتلقي كتابك وقد أبللت من مرض حبك، وصحوت من رقدة طال عليَّ الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت، فلم ترعني روائعك^١ ولا أجدى عندي اعتذارك، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل، ولم أرَ بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة^٢ وقلبي هيبة، فالحمد لله الذي أدالني منك وأعتقني من رقك، وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري، فجفت الدموع التي طالما أذلتها^٣ بين

^١ أي لم تعجبني محاسنك.

^٢ الروعة: المسحة من الجمال.

^٣ أذلتها: هنتها.

يديك، وقرت العين التي كنت أساهر بها الكواكب شوقاً إليك، ولم يبق في خاطري من ذكرك إلا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء، والحب شجرة يغرسها الأمل في القلب، ثم يغذوها بمائه وهوائه، فلا تزال تشتجر أغصانها، وترف^٤ ظلّالها، وترن أطيّارها، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت، ولقد عالجت هذا القلب الشموس^٥ في الرجوع إلى سالف عهدك، وسابق ودك، فجمع جموح المهر الأرنب^٦ وركب رأسه إلى حيث لا مطمع في أوبته، وله العتبي فيما فعل، فقد ملكني قياده برهة من الزمان فأسأت عشرته، وخفرت ذمته، وأرغمت معطسه، وركبت به في سبلك أخشن مركب، وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهل، فما هو إلا أن أمكنته العزة فانطلق انطلاق السجين من سجنه، والطائر من قفصه، فلا أوبة حتى يؤوب القارطان، ويبلى الجديدان.

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تـ كد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

كتاب تهكم

علمت أن ساسانيّاً^٧ طرق بابك بالأمس، وما زال يكيّد لك ويماحلك، ويتغلغل في مواضع الضعف من قلبك، حتى خدعك عن نفسك، واقتطف زهرة من روضه، وراح يفتّر عن ثغر باسم، ورحت تفرع سن نادم، فما هذا الخلق الغريب الذي تخلّفته، وما هذا المذهب الجديد الذي اعتنقته؛ ومتى أقامك آدم وصيّاً على أولاده من بعده، تكسو عاريهم، وتشبع جائعهم، على أن الفقراء في الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الأرض والسما فكيف تسعهم خزائنك، وهل بين الدرهم؟ الذي أعطيت، والدرهم التي أبقيت، إلا حرف واحد^٨ فليت شعري من أين ذهبت، ومن أي باب نفذ هذا الشيطان إلى قلبك،

^٤ رف النبات: اهتز واضطرب.

^٥ شمس: امتنع وأبى.

^٦ المهر الأرنب: النشيط.

^٧ النسبة إلى ساسان: وهو رجل كان معروفاً بالفقر والبطر والاحتيال على الصدقات.

^٨ يشير إلى أن الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد هو الألف اللينة في الجمع، ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وأنه لا يستهان به؛ لأن الدراهم وإن كثرت فهي ليست إلا درهماً على درهم.

وإن أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة، فإن كانت هي فالخطب عظيم، والبلاء جسيم؛ فإنك حيثما ذهبت، وأنى حلت، لا تقع عينك إلا على يد شلاء، ورجل بترء، وعين عمياء، وصورة شوهاء، وثوب مخرق، وشلو ممزق، وطريح على التراب سقيم، وجسم أعرى من أديم، فإن لم تفارق الرحمة قلبك، فارق المال جيبك، فطفت مع الطائفين، وتسولت مع المتسولين، ثم لا تجد لك راحماً ولا معيئاً، فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك، ولا تنس أن تردد في صباحك ومساءك، وفي مستأنف خطواتك، وفي أعقاب صلواتك، كلمة ابن الزيات: «الرحمة خور في الطبيعة».

وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان فتحلب لك فوك، ورقصت لها أشداقك، فطرت إليها، ثم وقعت على خبزها وشوائها، وفاكهتها وحلوائها، مثلج الصدر، ثابت القدم، ساكن القلب، طيب النفس، كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة ومرارة العمر، وشبع اليوم وجوع الأبد، وأنت إنما طعمت ما في الحباله من الحب، تأكله اليوم ليأكلك غداً، فمن لك بالنجاة من مضيفك إذا جاءك يوماً يتقاضاك دينه، وقد حفت به كوكبة من خلانه وصحبه، فطار لمراه لبك، وتمشى له قلبك في صدرك، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك، فالفقر إن منحت، والعار إن منعت، وأعجب من ذلك أنك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغني مجلسه فسمعت وطربت، ومن طرب شرب، ومن شرب وهب، ومن وهب جرب، ولقد كان لك في انزوائك واعتزالك، واكتفائك بقرصك وزيتك، وخلوتك بصندوقك في كسر بيتك، حيث لا تزور ولا تزار، منادح عن هذه اللقمة التي أسهرت ليلك، وأقضت مضجعك، وأقعدتكم مثل روق الظبي خيفة وحذاراً، فإياك والعود إلى مثلها يطل غمك، ويسود عيشك، والسلام.

كتاب يأس

كتابي إلى سيدي ومولاي، والنفس بين جنة من الأمل تغن أشجارها، وترن أطيارها، وتشجر أغصانها، وتعتق غدرانها، وهاجرة من اليأس تتلظى نارها، ويعتلج أوارها، وتحول بين الجفون واغتماضها، والجنوب ومضاجعها، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع مشية الطائر الحذر، ثم يدركه الأمن فيقر في مستقره قرار الماء في نهاية منحدره، وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم، وسرور وحزن، وقبض وبسط، ومد وجزر، أذكر الله ورحمته وإحسانه، ورأفته وحنانه، فيشرق لي من خلال

ذكراه وجه الحياة الناضر، وثغرها البارق، وجمالها الساطع، وبشرها الضاحك، ثم أذكر الدهر وصروفه، والعيش وحتوفه، والأيام وما أعدت في طياتها لبنيتها من عثرات في الخطوات، ونكبات في الغدوات والروحيات، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها، والقلوب وأمانيتها، فألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضرالي، ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدَّعًا، فليت الله يصنع لي فيمطر عليّ قطرة واحدة من غيوث رحمته وإحسانه أبل بها غلتي، وأطفي بها لوعتي، أو ليت القدر ينشب أظافره بين سَحْري^٩ ونحري نشوبًا لا يستقي بعده عرقًا نابضًا، ولا نفسًا مبردًا، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف، لا هو حي فيرجى، ولا ميت فيبيكى.

يقولون: «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل»، وأقول: ما عذب الله عباده بنازلة القضاء، وصاعقة العذاب، وطاغية الطوفان، والزلازل الأكبر، والموت الأحمر، والخوف من الجوع، والنقص في الأموال والأنفس والثمرات، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل، وما ليلة نابغية ضرير نجمها، حالك ظلامها، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي خيفة وحذرًا، فوق أرض تعزف جناتها^{١٠} وتحوم عقبانها، وتزأر سباعها، وتعوي ذئابها، وتحت سماء تتهاوى نجومها، وتتوالى رجومها، وتتراكم غيومها، بأسوأ في نفسه أثرًا من رجاء كاذب يتردد بين جنبه، تردد الغصة بين لحبيه، لا هي نازلة فيقطعها، ولا صاعدة فيقذفها.

قد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوها في بطون الأودية، وقنن الجبال، أن أراها سارية في مساربها، سارحة في مسارحها، تتناول رزقها رغدًا من بوارق المصادفات، ومفاجآت المقادير، لا يعניה الأسف على فائت من العيش، ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق، قد قنعت من الماء بالكدر، ومن العيش بالجش^{١١} فتساوى لديها شحمها ولحمها، وشيحتها وقيصومها، وسعدها ونحسها، ونعيمها وبؤسها، فما تحفل بنوازل القضاء، ولا رجوم السماء، ولا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها؟

^٩ السحر: الرئة.

^{١٠} جمع جان.

^{١١} الجش: الخشن من الطعام.

فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي فيه كمثل رجل زلت به قدمه، فسقط في جوف بئر بعيد غورها، ناءً مكانها، فما زال يتخبط ويضطرب، ويهب ويثب حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها. ثم تلمس أخرى غيرها فما وجدها، حتى بلغ منه الجهد أو كاد، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى، فسقط، فخاف الغرق فعاد إلى نفسه، فعاد إلى سقوطه، فلا هو بالغ رأس البئر فينجو من الموت، ولا هو بالغ قرارة الماء فينجو من الشقاء.

ارم بطرفك حيث شئت من الناس، هل تبصر إلا صريعاً صرعه أمله؟ أو قتيلاً قتله رجاؤه؟ أو صديقاً يشكو غدر صديق كان يعدّه لنوائب الدهر فأصبح عون النوائب عليه، أو باكيًا يبكي وليداً كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعت الأيام فيه، أو ساعياً دائباً وراء غاية يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها، ولا يمسك بها حتى تفلت من يده، أو ساهراً متململاً لولا أمله أن تنيله الأيام ما يشتهي من هواه ما بات ليله شاكيًا باكيًا، داعياً مناجيًا، لا تراه إلا عين السماء، ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء.

هذه حالتي، وذلك همي، وهذا ما وسوس لي أن أعتزل الناس جميعاً، وأفارق عشيرتي وصحبتني، ويراعي ومحبرتي، علني أجد في البعد عن مآثرات الأماني، ومباعد الآمال راحة اليأس، فاليأس خير دواء، للأمراض الرجاء.

فها أنا ذا قابع في كسر بيتي ولا مؤنس لي إلا وحشتي، ولا أنيس إلا وحدتي، أتخيل البيت قبراً، والثوب كفناً، والوحشة وحشة المقبورين في مقابرهم لأعالج نفسي على نسيان الحياة، وأمانيتها الباطلة، ومطامعها الكاذبة، حتى يبلغ الكتاب أجله، وهذا آخر عهدي بك وبغيرك، والسلام.

الفصل الرابع عشر والمائة

الكلمات

الجرائد

لا أرى الصحف في مصر إلا نادياً من أندية القمار، ولا هؤلاء الكُتّاب إلا جماعة من اللاعبين، قد وضعوا رؤوس المصريين على مائدة اللعب كما توضع الأكر على طاولة «البليار»، ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها، فيكسبها في الصباح «زيد»، ويخسرها في المساء «عمرو»، وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعاً، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي.

عبد الحميد

حضرت منذ أشهر قلائل تمثيل رواية في مسرح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والرفق والإحسان، ويدعو له بسلامة عرشه وطول بقائه، فما سمع الناس باسمه حتى هتفوا له هتافاً يصم المسامع، وصفقوا له تصفيقاً كاد يضم أضلاع المسرح بعضها إلى بعض، وحضرت ليلة أمس منظرًا من مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلاً ظالماً سفاحاً، ضعيف الهمة، ساقط النفس، زَمِن المروءة، جبناً مستطاراً، ورأيتهم عمدوا إلى صورته فجعلوها مواطئ أقدامهم، ومضارب سيوفهم، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في أعينهم، وابتهجوا لمرآه ابتهاجاً ملأ فضاء صدورهم، فتمشى في أعصاب أدمغتهم، حتى وصل إلى أعصاب أيديهم، فصفقوا له تصفيقاً شديداً بتلك الأكف التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل.

أنا لا أعلم إن كان عبد الحميد ظالمًا أو عادلاً، كريماً أو لئيمًا، شريفاً أو وضيعاً، وإنما أعلم أنني سأموت قبل أن أقف على حقيقة تاريخية في أمره ما دام الناس عاينهم وخاصتهم، كُتِّبُهم وشعراؤهم، علماؤهم وجهلاؤهم، هم الناس الذين يقول فيهم القائل:

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي، ولأم المخطئ الهبل

الشهرة

لا يمكن أن تكون الشهرة بحال من الأحوال ميزاناً للفضل في مصر، خصوصاً في عالم الأدب، ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد إلا إذا سلم السابق من كيد العايب، وخدعة الأريب، وأنى لنا ذلك وفي شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصاباً، ويلصقها بنفسه إلصاقاً. وينزع إليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته، وألبسوه حلته، بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه، وإمتاع وجدانه، فلا يترنم بقصائده في المنتديات والجامع، ولا يبتاع من الصحف الأسماء والألقاب، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه والإشادة بذكره، ولا يتم ما يجده من النقص في أدبه بالغض من أدب غيره، فترى للأول في هذا البلد الساذج دويًا كدوي الرعد، وترى الآخر مطرًا مجفواً لا يُؤبُّه له، والدرُّ في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدرًا من جميع ما على وجه الأرض من ألواح البلور، وإن كان ملء العيون حسناً وبهاءً، ورونقاً وماءً.

فكاهة

حدثني بعض الأصدقاء أنه دخل في أيام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته ليحلق له رأسه، وكان عنده جماعة من زائريه، فأجلسه على كرسي أمام المرأة وأمسك بالموسى وأنشأ يحلق له رأسه حلقاً غريباً لا عهد له بمثله من قبل، فكان يحلق بقعة ويترك إلى جانبها أخرى مستطيلة أو مستديرة وأخرى مثلثة أو مربعة حتى ريع الرجل وظن أن الحلاق قد أصابه مَسٌّ من الجنون، فارتعد بين يديه وخاف أن يمتد به جنونه إلى ما لا تُحْمَدُ عقباه، واعتقل لسانه فما يستطيع أن يسأله عن سر عمله.

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية، ورسومه الجغرافية حتى التفت إلى جلسائه وقال لهم كأنه يتم حديثاً سابقاً بينه وبينهم: لأجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس «الزبون» هنا طوكيو، وهنا بور آرثر، وهنا انكسرت كروباتكين، وهنا انتصر أوياما، وفي هذا الخط مر الأسطول الروسي، وفي هذه البقعة تلاقى الأسطولان، وهنا أخذ يتكلم بحدة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم، ثم أردف كلامه بقوله: «وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية» وضرب بجمع يده أم رأس الزبون، فقام صارخاً يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين والروس واليابانيين، والناس أجمعين. لا أعلم إن كان المحدث هازلاً أو مجداً، وإنما أعلم أنه قد أجاد التمثيل!

الأقسام

لا أعرف فرقاً بين حنث الحانث في يمينه، وكذب الكاذب في حديثه، كلاهما ضعيف المنه، وكلاهما ساقط الهمة، وكما لا يستطيع الكاذب أن يكون صادقاً كذلك لا يستطيع الحانث أن يكون باراً، وناقض العهد أن يكون وفياً، فخداع من المتكلم أن يزعم أن لأحاديثه من الشأن في مواقف الأقسام ما ليس لها في غير تلك المواقف، وأنه يتحرّج في الحنث، ما لا يتحرّج في الكذب، فإن من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرماً.

الدين

أيها الناشئ: إن من الناس قوماً قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين، وسلطان أمره ونهيه، فخرجوا عليه ونبذوا طاعته، ثم علموا أن الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم، فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها إليهم غير دعوى إنكار الدين وجحوده استئثقالاً وتبرماً، لا تقلداً ومذهباً، وما هم بمنكريه. فاعلم أن الله سيبتليك بهم، وأنهم سيزينون لك إنكار ما يزعمون أنهم ينكرونه، وسيخيلون إليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة، وأن تنال الحظوة الباسقة في نفوس أصحابها إلا إذا تنكرت لدينك وتسلبت منه، وخفرت ذمته، فاحرص الحرص كله على أن لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة، واعلم أنك إلى نفسك أحوج منك إلى الناس،

وأن الناس لا يغنون عنك من الله شيئاً إن أنت أثرت مرضاتهم على مرضاته، وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء، وأنواع الآلام، والتي لا يفوق المرء فيها من غمرة إلا إلى غمرة، ولا يئل من عثرة إلا إلى عثرة، لا يعين عليها إلا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته، وتداركت عثراته، ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب.

الحقيقة

قال لي بعض الناس: إن قومًا يغرقون في مدحك فهلأ زجرتهم، فقلت له: إن آخرين قد أغرقوا في ذمّي فلم أصنع شيئاً، فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضاً، فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهره الحقيقة المذالة تحت الأقدام فيلتقطنوها.

الانتقاد

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان: أحدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق بأثر النقد في الأذهان، أما الأول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته، فلو لم يكن للكتاب صاحب معروف لا ينتقده، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه، أي إنه لا ينتقد الكتاب، بل صاحب الكتاب في كتابه، وأما الثاني وهو أثر طبيعي للأول، فهو أن للانتقاد هناك أثراً ظاهراً في الكتاب من رواجه وكساده، وشهرته وخموله، فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله، وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مرّاً فلا يبقى من آثاره فيها إلا أثر واحد، وهو أن الكتاب جليل القدر، سني القيمة، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل، لذلك رأيت كثيراً من عقلاء الأدباء لا يرضون عن أنفسهم إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم، بل رأيت من يتوسل إلى بعض الناقدین أن ينتقد مؤلفه، بل رأيت من يبلغ به الأمر أن ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول، أولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا وأثر انتقاداتهم في نفوسنا، أما الذين يغضبهم الانتقاد ويجرح صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئاً.

الحزم

إن الدرهم الذي تمنحه لمن لا يستحقه قد خرج من يدك فلا سبيل بك إلى وجدانه في اليوم الذي ترى فيه أمامك من يستحقه، وإن الدينار الذي تعطيه الشارب ليشتري به كأسًا يقتل بها نفسه قد استحال عليك أن تعطيه الفقير العائل ليشتري به رغيفًا يسد به جوعة أولاده.

الآلم

إن في كثير من الآلام التي نعالجها لذائد ومسرات يدركها من عرف أن الإنسان غافل بطبيعته عما يهدده من مصائب هذه الحياة وأرزائها، وأن الآلام الضعيفة التي تناله من العثرات الصغيرة هي نُذُر تأتيه من عالم الغيب؛ لتحذره من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة.

الغفران

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز اللازمة للإنسان، فإن الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لأنهم لا يملكون الخيار لأنفسهم، ويذكر لأصحاب السيئات من الموتى حسناتهم لأن الزمن الذي ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم، فلم لا نغفر ذنوب أولئك الذين ما أذنبوا إلا بعد معركة مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ثم سقطوا على أثرها صرعى لا يملكون لأنفسهم ضميرًا ولا نفعًا؟

الدعوى

إن أردت أن تكون في الأمة الجاهلة كل شيء فادع لنفسك كل شيء، تنل بقولك في الزمن القصير، ما لا ينال غيرك بفعله في الزمن الطويل، فإن الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدقه الناس، ثم لا يزال يكذب حتى يصدق نفسه.

الدين والوطن

من لا خير له في دينه لا خير له في وطنه؛ لأنه إن كان بنقضه عهد الوطنية غادرًا فاجرًا، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر، وإن الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان، فمن لم يحرص عليها فأحرى به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران.

الحلم

إذا تورّدك متورد بكلمة سوء فلا تبتئس بها، فإنك في موقفك هذا بين اثنتين، إما أن يكون الرجل صادقًا فيما يقول أو كاذبًا، فإن كانت الأولى فاحمد الله تعالى على أن قَيَّصَ لك من أرشدك إلى عيبك، وكشف لك عن خبيثة نفسك، وإن كانت الأخرى فاربأ بنفسك أن تكون من الجاهلين الذين يتوهمون أن في استطاعة الأكاذيب أن تبقى زمناً طويلاً على ظهر الأرض.

الأدب

لا تكافئ السفه على سفهه بمثله؛ فإنك إن فعلت قضيت له على نفسك، وأصبحت شريكه في الخلة التي تزعم أنك تنقمها منه، فإن كنت لا بد منتقمًا فليكن مثلك مثل الأحنف بن قيس إذ جاءه رجل قد جعل له بعض الناس جعلًا على أن يغضبه، فما زال يسبه ويشتمه ويلح في ذلك إلحاحًا محرّجًا والأحنف ساكت لا يقول شيئًا حتى ضاق بالرجل أمره فانقلب إلى قومه باكيًا نادبًا يأكل أصبعه أكلًا ويقول: والله ما سكّت عني إلا لهواني عليه.

الأخلاق

مثل المتعلم غير المتأدب كمثّل شجرة عارية لا تورق ولا تثمر قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق تعترض الرائح، وتصد سبيل الغادي، فلا الناس بظلمها يستظلون، ولا هم من شرها ناجون.

الاعتدال

بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والإقدام، وبين البخل والإسراف منزلة هي الكرم، وبين العفو والانتقام منزلة هي العقوبة، وبين العجز والجهل منزلة هي الحكمة، فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر في الفرق بين مشتبه الفضائل والردائل، واعلم أنك لا تزال كريماً حتى تنفق مالك في غير موضعه فإذا أنت مسرف، وأنك لا تزال حليماً حتى تغضب للباطل فإذا أنت جهول، وأنك لا تزال جباناً حتى تقاتل عن عرضك وشرفك فإذا أنت شجاع، وأن كل الناس يعرفون الفضائل والردائل ويفهمون معانيها، أما إدراك الفرق بين غوامضها ومتشابهاتها فتلك مرتبة العقلاء الأذكياء.

البر

ربما كان لك من أبويك أو من ذوي رحمك ممن تَوَلَّوْا شأنك في مفتتح عمرك من لم تساعده شؤون دهره أو عصور نشأته على أن ينال حظاً من العلم والمعرفة مثل ما نلت، فأياك أن يدعوك ذلك إلى تسفيهه أو تجبيبه أو السخرية به أو الإدلال بنفسك عليه؛ فإنك إن فعلت خسرت من الأدب أضعاف ما كسبت من العلم، على أنه ربما كان لكبيرك هذا الذي عققته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك من العلم بتجارب الحياة ومقاتلتها، وموارد الأمور ومصادرها، ما يبهر علمك الذي تعتدُّ به، وتدل بمكانك منه عليه، وهناك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقاً بك أن تتلقاه بين يديه من علوم التجارب التي ليست علوم الدراسة بالإضافة إليها إلا كالنقطة من البحر والذرة من الفقر.

الشقاء

السبب في شقاء الإنسان أنه دائماً يزهو في سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده، فإذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه، فهو لا ينفك شقيئاً في حاضره وماضيه.

الفتاة والبيت

«الكلمة التي قرَّط بها المرحوم كتاب الفتاة والبيت»

حضرة صديقي الكاتب الفاضل أنطون أفندي الجميل.

أهديت إليّ كتابك: الفتاة والبيت فأهديته إلى ابنتي؛ لأنه مكتوب لها ولأترابها من الفتيات الناشئات، وربما كانت وكُنَّ أقدر مني ومن الرجال جميعاً على فهم مزيته، وتقدير منزلته، فلما قرأته عادت إليّ تقول إنني لم أُهدِ إليها في حياتها خيراً من هذا الكتاب.

سامحها الله، فقد كان فيما أهديت إليها كتاب «النظرات»، فقد فضلتها على كتاب أبيها، ولكن ما لها وللنظرات، وأمثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة، فهي فتاة على باب المستقبل يهملها أن تعرف أسباب الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاة في هذا العصر أن تعيش بدونها والتي عجز أبواها عن أن يرشداها إليها؛ لأنهما بقية من بقايا العصر الماضي عصر المصادفات والاتفاقات، ولا يزال عصرهما لاصقاً بهما حتى اليوم، ويعنيها أن تعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوباً يغنيها جماله عن الجمال، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به، إن قدر لها أن تعيش عيش المقلين، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقي عليه إن قدر لها حظ المكثرين، وكيف تكون شمساً مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه، من زوجها إلى خادماتها، فتسعد بهم ويسعدون بها، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها، حتى لا يخذعها الخدم عن مالها، إن كانت ذات خدم، أو تستغني عن معونتهم، إن عجزت

عن اتخاذهم، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة في اليوم الذي تفقد فيه عائلتها ومعينها، قطرات من الرزق تقيم بها أودها، وتصون بها ماء وجهها؟
وكتابك — يا سيدي — هو الجواب عن جميع ما تطلبه، وتساءل نفسها عنه، فلا غرو إن أعجبها وأطربها، ولا عجب إن فضلتها على كل كتاب حتى كتاب أبيها.

أشكر لك، يا أنطون، تلك اليد البيضاء التي أسديتها إليّ وإلى أمتك، وأنصح لجميع الآباء والأمهات أن يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها إلى فتياتهم، وأن يأخذوهنّ بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغربها، فما أحرزت الفتاة في بيتها خيراً من كتاب «الفتاة والبيت».

البعث

«هي قصة خيالية، الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعري في أخلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة، وقد نشر في الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية».

اليوم الأول

نبا بي مضجعي ليلة لهم نزل بي، والهم رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون، فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها، فظلت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته وضاق كل منّا بصاحبه ذرعاً، فلما تَقَضَّى الليل إلا أقله ولم يبق إلا أن تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح سمعت طارقاً يدق الباب دقاً ضعيفاً ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل وسكونه، فقلت: من الطارق؟ قال: غريب حائر ضلَّ به سبيله في هذه الرقعة السوداء، وأعوزه المأوى يطلب كريماً يعتمد عليه، ومضجعاً يأوي إليه، وقد أعد لمن يسدي إليه تلك النعمة ذخيرة صالحة من شكر لا يبلى ودعاء لا يخيب، فأعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعيى على جهد المتكلفين، وتزويق المزورين،^١ وقلت في نفسي: ما لهذا الرجل بد من شأن وفتحت الباب فإذا شيخ كنتي^٢ من حملة أعباء الدهر، قصير القامة، ناحل الجسم، زري الهيئة، قد نيف على

^١ زور الشيء: حسَّنه وقومه.

^٢ الرجل الكنتي: الكبير العمر، نسبة إلى قوله: كنت في شبابي كيت كيت.

الثمانين من عمره، فخليل إليَّ أن ظهره المحدودب قوس، وأن عصاه التي يعتمد عليها وترُّ قد شدَّ إلى تلك القوس، وأنه قد أعدَّ من هذه وتلك سلاحًا يزود به عن نفسه عادية المنون^٢ فلما شعر بمكاني رفع رأسه إليَّ ورماني بنظرة خلَّتْ أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي وأحاطت بما بين قمة رأسي وأخمص قدمي، فرأيت وجهًا أسمر اللون قد انتشرت في أكنافه حقائق الجدري^٣ وأسارير تنطوي تارة على عبر القرون، وحوادث الدهور، وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى، ولحية بيضاء إلا أنها شعثناء، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خَفَّاق لا يراه الرائي حتى يطرق له إجلالًا وإعظامًا، وسحنة غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم وسودائها، وأحسب أن لو كان بين يدي مثال من صور الناس في القرون الغابرة لنسبتها^٤ فمشيت إليه مشية الهائب الوجل وقلت: على الرحب والسعة يا سيدي، لقد حلت بمنزل أنت صاحبه وولي الأمر فيه، ثم قدمت إليه يدي فمشى معي يتوكأ، ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة:

ما أوسع الموت يستريح به الجسم المُعْنَى ويخفت اللجب

حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف، فأعاد النظر إليَّ وقال: اذهب لشأنك فأنا في حاجة إلى الانفراد بنفسي، فتركته وذهبت إلى غرفة منامي وقد أخذ منظر الرجل مكانًا من قلبي وشغلني من أمره ما كاد ينسيني هموم نفسي، فلم أزل أقلب النظر في حاله وأذهب المذاهب في استبطان سرِّه حتى أخذ عيني نوم ثقیل لم أستيقظ منه إلا في صفرة الأصيل.

^٢ وصف أبو العلاء نفسه في شيخوخته في إحدى رسائله بقوله: «وإني لأعجز إذا اضطجعت عن القعود فربما استعنت بإنسان فإذا هم بإعانتني وبسط يديه لنهضتي ضربت عظامي لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن» وقوله في لزومياته:

يا نفس جسمك سربال له خطر وما يبدل في حال بسربال
قد أخلقته اللبالي فاتركه لقي فما يزينك لبس المخلق البالي

^٤ اعتل أبو العلاء في الرابعة من عمره بعلة الجدري فذهبت ببصره، وبقيت آثارها في وجهه بعد ذلك.
^٥ نسبتها أي: ذكرت نسبتها إلى نوع من أنواع تلك الصور.

سألت الخادم عن الضيف، فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب والمضجع والمستحم وأنه لا يزال في مصلاه، فهبطت إليه في خلوته أهيب ما أكون له، فرأيتها جالسة إلى قبلته يقلب وجهه في السماء، ويكرر هذا الدعاء:

«اللهم لا رادَّ لقضائك، ولا سخط على بلائك، أمرت فأطعنا، وابتليت فرضينا، فأمطرنا غيث إحسانك، وأذقنا برد رحمتك، وألهمنا جميل صبرك، وثبت قلوبنا على طاعتك، فلا عون إلا بك، ولا ملجأ إلا إليك، إنك أرحم الراحمين وأعدل الحاكمين»^٦.

ثم أطرقت بعد ذلك إطرارقاً طويلاً خلْتُ أنه وصل فيه إلى مقام التجريد، وأن الذي أراه بين يدي جسد هامد قد أسرى بروحه إلى الملاء الأعلى، فجعلت أختلس الخُطأ إليه حتى صاقتبه، فرفع رأسه إليّ ذاهلاً، وقال: أنت هنا؟ قلت: نعم، قال: في أي سنة نحن من تاريخ الهجرة؟ فجعلت لسؤاله وقلت: في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلاثمائة والألف، قال: ما اسم هذا المصر الذي تعمرونه؟ قلت: القاهرة المعزية، قال: أفي هذه الأمة كثير مثلك؟ قلت: لم أفهم ما تريد يا سيدي، قال: لقد استفتحت هذه الأبواب التي تليك فلم أجد من ورائها إلا ضعيفاً لا يلبث أن يراني حتى يرعد مني فرَقاً فيوصد بابه في وجهي، أو ضنيماً يرى بؤسي وشكاتي فيزوي ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني، أو أعجمياً لا يفهم ما أقول، ولا أفهم ما يقول. قلت: ما في هذه الحالة أعجمي. قال: إنهم خاطبوني بلحن لا أعرفه وإن شئت أعدته عليك كما سمعته، ثم أخذ يسرد عليّ الكلمات العامية التي سمعها من الناس في طريقه إليّ سرداً متواصلًا كما تسرد الببغاء كلماتها، فقلت: إنك قد أعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد أبي العلاء المعري، فإنهم يتحدثون عنه أنه كان إذا سمع أعجمياً يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه^٧ فما

^٦ حدث القاضي أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء في خلوته فسمعه يقول وهو لا يعلم بمكانه:

كم بودرت غادة كعوب وعمرت أمها العجوز
يجوز أن تبطئ المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ الآية، ثم صاح وبكى بكاءً شديداً وطرح نفسه على الأرض وهو يقول: سبحان من هذا كلامه. قال: فعلمت صحة دينه ويقينه.
^٧ ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصاً متعددة تتضمن أنه كان يحفظ ما يسمعه من الأعاجم بلغتهم فيبقى في ذهنه زمناً طويلاً حتى يلقيه كما سمعه.

سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه^٨ ورأراً بمقلتيه^٩ وزحف إليّ حتى اصطكت ركبتيه، فعجبت لأمره وما رأيته من استحالة حاله، ثم قال لي: من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه؟ قلت: رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها، عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة، نقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب، ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب، قال: وما ظنكم به؟ قلت: إن الناس في أمره مختلفون، ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له، قال: ومن أيهم أنت؟ قلت: ممن يتشيع له، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبته مستبصرة فما شككت في مذهبه ودينه، قال: أكننت تؤثر أن تكون في عصره أو أن يكون في عصرك حتى تراه؟ قلت: ما أعدل بهذه الأمنية غيرها، قال: قد بلغك الله طلبتك، قلت: لم أفهم يا سيدي شيئاً مما تقول، قال: أكاثم أنت عليّ سري؟ قلت: نعم، قال: أتقسم؟ قلت: إن للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متهماً نفسي لأقسمت، قال: الآن عرفتك، أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري، فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتى أسقط في يدي وعلمت أنني قد هلكت، وكان أول ما كان مني أن التفت ناحية الباب لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب إن عرض لي من هذا المجنون عارض سوء، وكأنه أَلَمَّ بما في نفسي فقال: لا ألومك على ما ظننت فقد قدرت قبل أن ألقى إليك كلمتي هذه أنها بالغة منك ما بلغت فهل تؤمن بالله؟ قلت: نعم، قال: وتؤمن بالبعث؟ قلت: نعم، قال: وما يريك من رجل أماته الله ثم بعثه بعد موته؟ قلت: ذلك يوم يبعثون، قال: هبها قصة إبراهيم إذ قال له ربه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وبعد، فوالله يا بني ما كفرت منذ آمننت، ولا كذبت منذ عرفت أن الصدق منجاة من النار، ولا استرد الله مني نعمة العقل بعدما منحني إياها ولو كذبت الناس جميعاً ما كذبتك، فقد أسلفت إليّ من أياديك ما لا أحتاج بعده إلى كذبة أتتفق بها عليك، أو أزدلف بها إليك، وإنني قاص عليك قصتي فأصغ لها ولك بعد ذلك حكمك، فسرى عني قليلاً ما كان ألم نفسي من القلق، فأقبلت عليه بوجهي فأنشأ يقول:

لا أزال يا بني حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في فمي، فقد حوسبت حساباً غير يسير على الكبير والصغير والدقيق والجليل والقومة والقعدة والخطرة واللحمة وكل

^٨ انكفأ لونه: تغير.

^٩ رأراً بمقلتيه: حركهما، وأدارهما.

ما وجدته حاضرًا بين يدي في صحائفي، فكادت حسناتي تكافئ في الميزان سيئاتي
لولا تلك الكلمات التي كنت أرددها في حياتي الأولى في تزهيد الناس في النسل والزواج^{١٠}
فقد دخلت بها في زمرة المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع

١٠ لأبي العلاء أقوال كثيرة في النهي عن الزواج والتزهيد في النسل جاء بها على صور مختلفة تارة كان
يفرح بموت الطفل في مهده كقوله:

قدم الفتى ومضى بغير تئبة كهلال أول ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة معجل لو عاش كابد شدة في دهره

وتارة كان يفضل بقاءه في عالم الغيب كقوله:

وإذا أردتم للبنين كرامة فالحزم أجمع تركهم في الأطهر

وتارة كان يظهر سروره بأنه لم يتزوج ولم ينسل كقوله:

تواصل حبلى النسل ما بين آدم وبينني ولم يوصل بلامي ياء
تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد بعدوى فما أعدتني الثوباء

وقوله:

بنت عن الدنيا ولا بنت لي فيها ولا عرس ولا أخت

وقوله:

لقد صرت في الدنيا غيبياً مرزءاً فأعفيت نسلي من أذاة ومن غبن
فإن تحكمي بالجور فيّ وفي أبي فلن تحكمي في بناتي وفي إبني

وتارة كان يعد ولادة الوالد لولد جنابة منه عليه كقوله:

ليذمم والدًا ولد ويعتب عليه فيئس عمري ما سعى له

وقوله:

البشري، وطال حسابي عليها وحجاجي فيها، وكان لا بد من العقاب ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية مستشفعاً بها لا أريد القضاء، ولكن أريد اللطف فيه، فتعلق محمد ﷺ بقوائم العرش الإلهي وقال:

«اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش في تلك الدار كارهاً لها متبرماً بها، متسخطاً عليها حابساً نفسه في كسر بيته فراراً من أهلها، يترقب فراقها في جميع أنائه وفيناته حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألا يرى مغربها ولو رأى غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها، وقد قضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه أن تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل، فأسألك بقلبك النوراني الذي تمحو به في لوحك ما تشاء وتثبت، أن تقى جسمه الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد في شهواتها ولذائذها والصبر على آلامها وأهوالها من عذاب النار^{١١} وأن تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه، فعاقبه

هذا جناه أبي عليٍّ وما جنيت على أحد

وظاهر أن الذي أثار هذه الخواطر في نفسه ما كان يتصوره من أن الشقاء في هذا العالم لازم ضروري من لوازم النوع الإنساني ولا خلاص له منه إلا من طريق العدم المحض، وإن إسناده الجناية إلى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل أراد به الإمعان في تصوير هذا الشقاء وتبين ضرورة اتصاله بالإنسان وأنه لو لم يولد لما كان شقياً وقد أوضح غرضه هذا توضيحاً بيئاً في قوله:

ألا تفكرت قبل النسل في زمن	به حللت فتدري أين تلقيه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعاً	وما علمت بأن العيش يشقيه
شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت	به الفتاة إلى شمطاء ترقيه
وأمة تسأل العراف قاضية	عند النذور لعل الله يبقيه
وأنت أرشد منها حين تحمله	إلى الطبيب يداويه ويسقيه
ولو رقى الطفل عيسى أو أعيد له	بقراط ما كان من موت يوقيه

^{١١} كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقده جميع الموحدين أن ما لقيه في هذه الحياة من عناء وشقاء، وما أخذ به نفسه من الزهد في العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وأنعمها مدخرٌ له أجره في دار الجزاء، كما يظهر من مثل قوله:

بإرجاعه إلى تلك الدار التي كانت جحيمة ومستقر عذابه، وحسبه من العقاب أن يلقى فيها آخر ما لقي فيها أولاً، إنك بعبادك لطيف خبير».

فقبل الله شفاعته نبيه، وقضى أن أعود إلى الدار الأولى لأقضي فيها من الأيام بعدما قضيت فيها من السنين، وقد علم سبحانه وتعالى أنني كنت في العهد الأول أحمدته على العمى كما يحمد غيري على البصر، فرد إليّ بصري لتنفيذ مشيئته في عقابي وتعذيبي، فله الحمد على سرائه وضرائه.

هذه قصتي قصصتها عليك، وهذا أول يوم من الأيام التي سأقضيها في داركم هذه، فاكمث عليّ أمري حتى ينقضي أجلي، وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها، فقد اغتبطت بك مذ رأيته وعلمت أن الله ما قيضك لي إلا وهو يريد أن يخفف عني العذاب مرة أخرى.

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثماً وتقبيلاً، وعلمت أنني أحرزت في بيتي كنزاً لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها، وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرور ما كان يكدره عليّ إلا خوف انقضائه.

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل، فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره، ثم ودعته وتركته في خلوته على أن نلتقي غداً.

اليوم الثاني

ما كنت أجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره، ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأي غير رأيه فقدمت إليه في طعام العشاء دجاجات ربلات^{١٢} كنت أعددتها للضيفان من قبل، فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر إليها مرة

أأخشى عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب

وقوله:

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى

^{١٢} الربل: الكثير اللحم.

وإليّ أخرى ثم قال: ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه إليّ؟ قلت: إنهن دجاجات لم يكن للخدام الصغرى عندي شأن غير رعايتهن والقيام عليهن والحدب بهن، فكانت تؤثرهن بأفضل ما نؤثرها به من طعام وشراب، وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتنزن^{١٢} واستدرن للذبح، وقد كنت أ بقي عليهن كلما طرقي طارق إبقاء على الفتاة أن ينفجر صدرها حزناً على أترابها الصغيرات، أما اليوم فلم أرَ من ذلك بدءاً فذبحتهن إكراماً لك، فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائها.

فوجم الشيخ، ثم أطرق إطراقاً طويلاً سمعته يهينم^{١٤} فيه بهذه الكلمات: وارحمته، ألا تزال هذه المدي موكلة بهذه الأعناق، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الإنسان الصامت حتى حسه ووجدانه، ويأبى إلا أن ينظمه في سلك الجمادات الصم لأنه صامت لا ينطق، وأخرس لا يبين،^{١٥} وبما كان زقاء الديك، وقوقأة الدجاجة وصرصرة البازي، وهديل الحمام، وزقزقة العصفور، وثغاء الشاة، ومواء الهرة، وخوار الثور، وحنين النيب^{١٦} بكاء بغير دموع، وشكوى بغير لسان، وربما كان يكتم ذلك الذبيح في نفسه من الوجد والرجاء والبرحاء ما لو استطاع أن يبين عنه لأبكى العيون دماء، وفجر الصخور عيوناً.

ثم رفع إليّ وقال: أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئاً عندما أردت ذبحهن؟ قلت: لا يا مولاي ومتى قلن للناس شيئاً فيقلن لي؟ فنظر إليّ نظرة شذراء لا أنسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت ثم قال: أما لو أن الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له: مهلاً رويداً أيها القاتل السفاك، لا تدن مني ولا تمدد يدك إليّ، فلا شأن لك معي ولا ترة^{١٧} لك عندي.

^{١٢} اكتنزن اللحم: اجتمع وصلب.

^{١٤} الهينمة: الصوت الخفي.

^{١٥} من كلام أبي العلاء في إحساس الحيوان بالألم قوله في إحدى رسائله: «وقد علم أن الحيوان كله حساس يقع به الألم» وقوله: «ولم يزل من ينتسب إلى الدين يرغب في هجران اللحم؛ لا يتوصل إليها إلا بإيلام حيوان يفر منه في كل أوان».

^{١٦} النيب: جمع ناب، وهي الناقة المسنة.

^{١٧} الترة: الثأر.

أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي وأنا لا أريد أن أموت ولا رغبة لي في فراق الحياة؛ لأن ورائي أفراحاً صغاراً هن إلى حياتي أحوج منك إلى مماتي، وليس من الرأي أن أكل أمرهن إليك من بعدي؛ لأنك شره طماع، لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك.

أنت لا تملك أن تعطيني الحياة فلا تملك أن تسلبني إياها.

كل ما تستطيع أن تمن به عليّ أنك كنت تطعمني وتسقيني فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني إلا فتات مائدتك ولا تسقيني إلا غسالة يديك، وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمة بي ولا إحساناً إليّ، بل لتهيئ لنفسك ما يسد شهوتك ويطفئ لوعتها، وهل تعلم أنك أنت الذي سجننتني في أقفاصك، وحلت بيني وبين رزق الله أطعمه أنى ذهبت وأين حلت من حيث لا يساومني فيه مساوم، ولا يحاسبني عليه محاسب؟!

أمن أجل الخشارة^{١٨} القذرة والجريمة الكدرة تسلبني حياتي، وتفجع بي أفرaxي ولا ذنب لي ولا لهن عندك إلا أنا كنا زينة بيتك، ولعبة أطفالك، وحماة آلك من بنات الأرض^{١٩} وهوامها، ورسل الفجر المنير إليك.

لا تظلم السبع اليوم ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه فكلكما وحش وكلكما مفترس لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن، فهو يبقر البطون بأظافره وأنت تقري الأوداج بمُداك، لا بل إن جريمتك أكبر من جريمته وعذرك أضعف من عذره لأنه يفترس ليشبع بطنه وأنت على ذلك من القادرين.^{٢٠}

^{١٨} الخشارة: فضالة المائدة.

^{١٩} المراد بنات الأرض: الحشرات التي تخرج من بطنها

^{٢٠} فضّل أبو العلاء الحيوان على الإنسان في كثير من كلامه كقوله:

سببت بالكلب فأنكرته والكلب خير منك إذ ينبج

وقوله:

أقل منهم شرّاً ومرزبة ما ركبوا في السرى وما ذبحوا

وقوله:

استضعفتني فبرزت إليَّ فهلا برزت لشبل الأسد، أو ديسم الدب، أو فرعل الضب،
أو حرش الحية، أو هيثم النسر، أو ناهض العقاب؟ العقاب^{٢١}
ما أخبثك أيها الإنسان عاجزًا، وما أظلمك قادرًا، وما أشقاك بنفسك وأشقى
العالمين بشقائقك!

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذنًا كالآذان وبصيرة
كالبصائر، ولكن الناس لا يعلمون.

هيه يا صاحب الدجاجات! حدثني عنك ألم يكن لك في جميع ما تنبت الأرض من
بقلها، وقثائها، وفومها، وعدسها، وبصلها منادح لإكرامي والقيام بحقي، وأنت تعلم
أنني رجل سلخت في دنياكم هذه من حياتي الأولى نيفًا وأربعين سنة لم أدق فيها لحم
الحيوان ولا ثماره ولا نتاجه، فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان
ذوات الأثداء وأقنعتها بالبلسن طعامًا والبلس حلوى^{٢٢} لأنني كنت أعلم أن طعامي
الذي لا يلاءمني غيره ولا يشبعني سواه، وأن لحم الحيوان إنما خلق للشفاه الغليظة،
والأنياب العريضة والأظافر الحادة والجلود المزأبرة^{٢٣} والأعضاء المتوثبة، والهوام
الضخمة، وكنت أرى أن أكلة اللحوم إنما يخادعون أنفسهم فيها ويجترؤونها إلى طباعهم
اجترارًا لا يأكلونها إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف^{٢٤} والتقديد والشّي والقلي، ومزجوها
بالخضر والتوابل والأبازير و الأقزاح^{٢٥} مزجًا يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر
النبات، حتى إذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا إلى الله منها وفزعوا إلى

خير من الظالم الجبار شيمته ظلم وحيف ظليم يرتعي الذبحا

^{٢١} هذه فروق نتاج تلك الأنواع من الحيوان.

^{٢٢} البلسن: العدس. والبلس: التين، ومن كلام أبي العلاء:

يقنعني بلسن يمارس لي فإن أتتني حلوة فبلس

^{٢٣} الثوب المزأبر: الذي له زئبر وهو ما يظهر من درزه.

^{٢٤} الصف: تشريح اللحم عراضًا.

^{٢٥} التوابل وما يليها: ما يطيب المطبوخ من الأشياء اليابسة.

النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم، كأنما يطلبون شفاءهم في الرجوع إلى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له.

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون عليّ رأيي في ترك ذلك الطعام ويمعنون في مسألتني عنه وحجائي فيه وحملي عليه ويلحون في ذلك إلحاحاً شديداً حتى ظننت أنهم قاتليّ من دونه^{٢٦} كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه أنهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم^{٢٧} أو أن الله تعالى أنزل عليهم قرآناً ألا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً إلا إذا قدموا عليه ببطن بجر^{٢٨} مكتظة بلحوم الحيوان تتقدم بين أيديهم في منصرفهم من الحساب لتفتح لهم أبواب الجنان، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه وترك ما أمرهم أن يتركوه، فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورع عن أكل اللحم مخافة أن ينقلب المباح بإعراضهم عنه حراماً، كما ترك النبي ﷺ صلاة التراويح بعد أدائها مخافة أن تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة.^{٢٩}

وأحسب أن لو كنت فيهم من أكلة السحت أو الميتة والدم ولحم الخنزير أو أموال الناس بالباطل، لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة أو تبرماً بها أو تمرداً عليها، ولكنني كنت امرءاً جزوعاً يزعجني

^{٢٦} كتب ابن أبي عمران إلى أبي العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويبكته فيها تبكيئاً مؤلماً، ويعرض عليه أن يحمل بعض الأمراء على أن يرسل إليه ما يكفيه مؤونة ذلك إحراراً له وإغنائاً، وأبو العلاء يومئذٍ في أواخر حياته ومنتهى شيخوخته، فقد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في بعض أجوبته عن تلك الرسائل: «ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب وقد عجز عن القيام في الصلاة، فإنما يصلي قاعداً والله المستعان».

^{٢٧} القرم والجعم: شهوة اللحم.

^{٢٨} بجر: جمع أبجر، وهو الممتلئ.

^{٢٩} من كلام أبي العلاء في الذين يحفلون بصغائر الذنوب ويفعلون كبارها:

يعيب أناس أن قومًا تجرّدوا لحمامهم نصب العيون الشوازر
لقد سعدوا إن كان لم يجز عندهم من الوزر إلا تركهم للمآزر

منظر الشرائح الحيوانية على مائدتني؛ لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياحها وولهاها بين حبل الذابح وسكينه، وكنت فقيراً لا أملك في كل عام من الرزق إلا نيفاً وعشرين ديناراً لا يتسع مثلهما لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين^{٢٠} وما كنت أجد السبيل إلى غيرها إلا من طريق الكدية والتكفف أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين، وقد علم الله من شأني أنني رجل لو علمت أنني إن أذلت ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير أو قدم وزير أمطرت السماء عليّ ذهباً، واستحالت الحصباء تحت قدمي درّاً ما فعلت ضناً بنفسي على هذا الموقف المستوبل، وإيثاراً للرضاء بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده.^{٢١}

فلم أر خيراً من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل.

^{٢٠} من كلام أبي العلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله في بعض رسائله: «ومما حثني على ترك اللحم أن الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب، بقي ما لا يعجب، فاقترضت على فول وبلسن، وبعض ما لا يعذب في الأحسن» ومن كلامه الدال على أنه كان فقيراً معوزاً قوله:

واتهامي بالمال أوجب أن يط	لب مني ما يقتضي التمويل
ويقول الغواة خولك الله	كذبتهم لغيري التحويل

^{٢١} كان أبو العلاء غابة في قناعاته وأنفة نفسه وقد ظهر ذلك في حالة معيشته واعتقاله ببيته وانزوائه عن الناس مع رغبة الأمراء فيه وإلحاح الكبراء عليه في البروز إليهم والسكون معهم فضلاً عما كان لا يزال يهتف به من ذكر القناعة في شعره كقوله:

الحمد لله قد أصبحت في دعة	أرضى القليل ولا أهتم بالقوت
---------------------------	-----------------------------

وقوله:

من مذهبي أن لا أشد بفضة	قدحي ولا أصغي لشرب معوج
لكن أقضي مدتي بتقنع	يغني وأخرج بالقليل الأروج

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات، وانتهاك الحرمات، فقد كان النبي ﷺ يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعاً وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك، فيقول: «يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم»، وكان يقول: «شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة^{٢٢}» وعلا عمر رضي الله عنه ولده عبد الله بن عمر بالدرة^{٢٣} إذ دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء، وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ثم يأكله قائلًا: كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء، ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجوزاب^{٢٤} والكباب ولا بالخل والزيت.

فهل كان واحد من هؤلاء بطراً بنعمة الله أو محرماً ما حلل الله؟ لا، فما كل من أبغض حلالاً حرمه، ولا كل من أحب حراماً حلله، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحل

هذا ولسنت أود أني قائم بالملك في ثوبي أغر متوج

ولما اضطر أن يخرج إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة ليطلب منه إطلاق جماعة من الأسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم. ولكنه جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعاً ظهر في قوله:

تغيبت في منزلي برهة	ستير العيون فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلا الأقل	وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً إلى صالح	وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام	وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق	فكم نفقت محنة ما كسد

^{٢٢} مخ الحنطة: خالصها.

^{٢٣} الدرة: السوط يضرب به، كان في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه درة تكاد لا تفارق يده.

^{٢٤} الجوزاب: طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم.

النبيذ، فلما أريد عليه قال: لو قطعت إرباً ما حرمته، ولو قطعت إرباً ما شربته، وعلم النبي ﷺ بحل الطلاق ثم قال: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، بل لو تبينت لعلمت أن قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها والنفوس لا تنفر إلا مما حل لها، ولا تشتهي إلا ما حرم عليها. فويل لي من هؤلاء الناس، شركتهم في دنياهم فقالوا: شره طماع، وصدفت لهم عنها فقالوا: زنديق ملحد، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.^{٣٥}

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد، فتفصد جبينه عرقاً واستسر حديثه يمين، فرثيت له مما به وأمرت برفع المائدة من بين يديه، وقدمت له مقترحه من الطعام، فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا فأردت أن أرفه عليه ما أَلَمَّ به من الهم فقلت له: يا مولاي إن للحيوان اليوم شأنًا غير ذلك الشأن الذي تعرفه له من قبل، فقد ذهب كثير من الناس مذهب الرفق به والإحسان إليه، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين يأخذون أنفسهم بمناظرة المدايح والسبل والأسواق العامة فإذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتل أو يسوطها سوطاً عنيفاً^{٣٦} رفعوا إلى الحاكم أمره، أو رأوا حيواناً هزلياً أو مهيباً^{٣٧} حملوه إلى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان، فعالجوه إن وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلاً وإلا قتلوه رحمة به وإشفاقاً عليه.

قال: لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار في تحديد الآجال، وما نحن نرى في كل يوم مريضاً يبيل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله، وصحياً يخترم في اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناضر فهلا وكلوه إلى منيته تأتيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر إليه.^{٣٨}

^{٣٥} من كلام أبي العلاء في عدم رضا الناس عنه، حتى في زهده عمًا في أيديهم:

حوربت في كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت والزهدا

^{٣٦} ساط دابته — سوطاً: أي ضربها بالسوط.

^{٣٧} المهيب: الكسير.

^{٣٨} من كلام أبي العلاء في عجز العالم عن إدراك الغيب:

ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم إلا مرأئين مصانعين، ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم إلا حباله من الحبال نصبوها لاصطياد العقول واختتال النفوس، ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلا أن يقول الناس عنهم أنهم رحموا الحيوان فأحرى أن يرحموا الإنسان، فمثلهم كمثل المرأئين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالاً تذرغاً إلى البذرة حراماً.

يا بني آدم، دعوا النوق في مراحتها، والشاء في دروبها، والوحش في كناسه، والضب في جحره، والذئب في وجاره، والقطا في أفاحيصه، ولا تزعجوا العصافير في أعشاشها، ولا الحمام عن محاضنها، ولا اليعاسيب عن خلاياها، ولا الأسماك عن مسارحها،^{٣٩} وجنبوها فخاخكم وشباككم، وقتركم وزباككم،^{٤٠} ومداكم وشفاركم، فإن لها نفوساً كنفوسكم، ووجداناً كوجدانكم، ورجاء في الحياة كرجائكم، واعلموا أن الله تعالى ما أغوى بعضكم ببعض، ولا سلط قويكم على ضعيفكم، ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين أحيائكم إلا بعد أن ضررتم^{٤١} بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها، وقطعتم إلى المتعة بها ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر،^{٤٢} فارحموها ترحموا أنفسكم، واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم، إنكم إلى الرحمة محتاجون، وإلى الله راغبون.^{٤٣}

وجدت الغيب تجهله البرايا فما شق هديت وما سطيح

^{٣٩} هذه فروق أماكن تلك الحيوانات.

^{٤٠} القتر: جمع قُترَة بضم القاف، وهو الناموس الذي يبينه الصائد ليستتر عن الصيد. والزبي: جمع زُبِيَّة بضم الزاي وهي حفرة تحتفر في قمة الجبل لصيد الأسد.

^{٤١} ضري الوحش باللحم: اعتاده وألفه.

^{٤٢} الغلاصم: جمع غلصمة وهي اللحم بين الرأس والعنق، والأباهر جمع أبهر وهو عرق يخرج من القلب إلى سائر الشرايين، إذا انقطع مات صاحبه.

^{٤٣} للمعري كلام كثير في الرفق بالحيوان والنهي عن إيذائه ومطاردته وذبحه وأكل لحمه والانتفاع بألبانه وثماره، كقوله في النهي عن ضرب الدواب:

لقد ساءني مغد الفقير بجهله على العير ضرباً ساء ما يتقلد
يحمله ما لا يطيق فإن وني أحال على ذي قتره يتجلد

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله:

لك النصح مني لا أغاديك خاتلاً بمكر ولكني أغاديك مكرماً
إذا ما حذرت الصقر يوماً فحاذري أذا الإنس أياماً وإن كان محرماً
يصوغ لك الغادي قلادة هالك من الدم تخبي وجدك المتضمرما

وقوله في النهي عن صيد الوحش:

لا تطرد الوحش فما يلبث المطرود في الدنيا ولا الطارد
وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقتة الحياة:

روحٌ ذبيحك لا تعجله ميتته فتأخذ النحض منه وهو يختلج

وقوله في الاعتراض على صيد الأسماك:

جاروا على حيوان البر ثم غدوا على البحار فقالوا الصيد ما فيها
لم يقنع الحي منها ما تقنصه حتى أجاز أناس أكل طافيتها

وقوله يبكي على الطائر المقتول:

وأبك على طائر رماه فتى لاه فأوهى بفهره الكتفا
أو صادفته حباله نصبت فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغي المعاش مجتهداً فقص عقد الشروق أو هتفا
كأنه في الحياة ما فرع الغص من فغنى عليه أو هتفا

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب، وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه، فشعرت أن سنة من النوم قد رنقت^{٤٤} في عيني، فانسلت من بين يديه، وتركته في مضجعه على أن ألقاه غداً.

اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث فإذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فافتش ترابها، وتوسّد أعشابها، وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها، ويبسم للعصافير تتنقل بين أنجمها^{٤٥} وأشجارها، ويصغي إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها فعرفت المدخل إلى قلبه والوسيلة إلى سروره وغيبطته، فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ليرفه عن نفسه ما ألمّ بها من الحزن والألم، فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا إلى وادٍ أفيح يهتز بصنوف الأشجار، وأفانين الأزهار، ويتراءى في ألوان من النبات، مشتهات وغير مشتهات، من هائج وعميم، وبارض وجميم،^{٤٦} وكروم وأعنان، وسنابل وأعشاب، وتفيض أرجاؤه بالجدال والغدران، والقني والخلجان، مطردات ومنعطفات، ومجتمعات ومفترقات، يفضي أولاهها إلى أخراها، ويتصل أقصاها بأدناها، ويعطف كبيرها على صغيرها، وقويها على ضعيفها، فكأنها صلال رقصاء قد فرت من حر الظهيرة إلى هذا الروض الأريض تبتد بين روابيه وأكمامته، ومصاعده ومنحدراته، فهي تنقبض وتنسبط، وتنساب وتتمعج^{٤٧} وتقبل وتدبر، وتقوم وتقع، وتتواش وتتراجع، وتتواصل ثم تتقاطع، وكأن حفيف أوراقه، وخرير مائه، وتغريد أطيّاره، وضجيج نواعيره، وعجيج سائمه أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن

^{٤٤} يقال: رنق النوم في عينيه إذا خالطهما كأنه مأخوذ من ترنيق الطائر أي: تحليقه ورفرفته بجناحيه.

^{٤٥} الأنجم: جمع نجم بفتح النون، وهو ما نجم من النبات على غير ساق.

^{٤٦} الهائج من النبات الذي اصفرّ ويبس، والعميم منه ما عم الأرض، والبارض أول ما يبدو من النبات، فإذا تحرك قليلاً فهو الجميم.

^{٤٧} تمعجت الحية: تلوت في سيرها، وتثنت.

بديع يسمعه السامع، فيخيل إليه أنه هابط من أبواب السماء، أو أن سكان الألب^{٤٨} فوق عروشهم يغنون، وسكان الأرض بين أيديهم يستمعون.
هناك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدود، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه، فجمد في مكانه كأنه نصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه، فلم أرجع إلى نفسي حتى سمعته يقول:

للمليك المذكرات عبيد	وكذاك المؤنثات إماء
فالهلل المنيف والبدر والفر	قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنث	رة والأرض والضى والسماء
هذه كلها لربك ما عا	بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت إليّ وقال: كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ، والمؤرخون يصانعون ويدهنون، أو من أفواه الفقهاء، والفقهاء تجار يرتزقون لا هداة يرشدون، أو من خطرات عقولهم، وقد أفسدها، عليهم القائلون والكاتبون^{٤٩} والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق إليها، قلت: وأين نجدها؟ قال: في هذه الأودية الفيحاء، تحت تلك القبة الزرقاء، بين الظل والماء.

^{٤٨} الألب: خرافات اليونان، مجمع آلهتهم، ويقولون إن لتلك الآلهة ساعات يشربون فيها في مجتمعهم هذا ويطربون.

^{٤٩} كثيرًا ما نقم أبو العلاء على الرواة والقصاص أخبارهم التي يضعونها من عند أنفسهم ويدونونها في كتبهم مصنعة للعامة واستهواء لقلوبهم وطلبًا للربح منهم كقوله:

ويقال الكرام قولًا وما في العـ	صر إلا الشخوص والأسماء
وأحاديث حبّرتها غواة	وأفترتها للمكسب القدمات
غلب المين منذ كان على الخلق	وماتت بغيظها الحكماء

وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من أخبار المعمرين في التاريخ القديم:

وادعوا للمعمرين أمورًا لست أدري ما هن والمشهور

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقي بها غارسها في التربة، فإذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع، ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة التي لا تلبث أن تأخذ مكانها مغرسها حتى تصير نخلة سحوقاً تملأ الأرض خيراً بجذوعها وسعفها وجريدها وقنواتها وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرهما، ويراه في الكواكب الماثلة في السماء، والأسماك السابحة في الماء، والأجواء المملوءة بالهواء، والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، فيمتلئ قلبه يقيناً صافياً رائعاً لا تعبت به المناظرات، ولا تشوه جماله المجادلات، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر، ولا فقيه يلقنه الجدل، فلا دليل على الله غيره، ولا هادي إليه سواه.^{٥٠}

هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب، والعشب يأكل التراب، والتراب يأكل السائمة، فيستحيل الجماد نباتاً، والنبات حيواناً، والحيوان جماداً، فيعلم أن المواليد

أتراهم فيما تقضى من الأيام عدوا سنيهم بالشهور

وقوله في تكذيب القصاص الذين يزعمون أن أول من شاب من الرجال هو سيدنا إبراهيم عليه السلام:

ما أقبح المين قلت لم يشب أحد حتى أتى الشيب إبراهيم عن أمم
كذبتهم ونجوم الليل شاهدة أن المشيب قديماً حل في اللحم

وقوله:

لعمرى لقد فضح الأولين ما كتبوا وما سطوروا

^{٥٠} كان أبو العلاء من أشد الناس بغضاً للمناظرات الدينية لاعتقاده أنها تورث الأحقاد والأضغان، فضلاً عما تلقىه أحياناً من الشكوك في نفوس الضعفاء، وكان يكره من المتناظرين أن المنافسة وحب الغلب كثيراً ما يحملهم على الخروج عن الحق وإنكار البديهيات كما يظهر ذلك من مثل قوله:

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت كتب التناظر لا المغني ولا العمد
قد بالغوا في كلام بأن زخرفه يوهي العيون ولم تثبت له عمد
وما يزالون في شأم وفي يمن يستنبطون قياساً ما له أمد

الثلاثة مادة واحدة تتلون ذراتها وتتشكل جواهرها، ويعلم أن هذا الإنسان الفاخر بنفسه، والذل بعظمته واقتداره، وربما كان بالأمس صفيحة^{٥١} ملقاة على جانب قبر، وربما يكون في الغد جلدة بالية في ذؤابة^{٥٢} نعل.^{٥٣}

فذرهم ودنياهم فقد شغلوا بها ويكفيك منها الواحد الصمد

وقوله:

ملل غدت فرقًا وكل شريعة تهدي لمضمر غيرها إكفارها

وقوله:

علم الفتى النظار أن بصائرًا عميت فكم يخفي اليقين وكم يعم
لو قال سيد غصًا بعثت بملة من عند ربي قال بعضهم نعم

وقوله:

هذا الفتى أوقح من صخرة يبهت من ناظره حيث كان
ويدعي الإخلاص في دينه وهو عن الإلحاد في القول كان
يزعم أن العشر ما نصفه خمس وأن الجسم لا في مكان

^{٥١} الصفيحة: الحجر العريض.

^{٥٢} الذؤابة من النعل: ما أصاب الأرض من المرسل منها على القدم.

^{٥٣} يردّد أبو العلاء هذا المعنى الخاص بتغير المادة وتشكلها كثيرًا في كلامه، فمن ذلك قوله:

مضى الأنام فلولا علم حالهم لقلت قول زهير أية سلخوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه فكيف اعتقادي أنهم هلخوا

وقوله:

وما يدريك والإنسان غمر وقد يدري خليك وهو دار

هنا يرى الإنسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور، فلا تلبث الشمس أن تجف ماءها والريح أن تعصف بذورها، فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها وأن الناس ما اختلفوا إلا لأنهم جاحدون، ولا اقتتلوا إلا لأنهم ملحدون.

هنا يرى الإنسان الشمس طالعة من مشرقها، مصفرة اللون متقاربة الخطوات مخافة أن تطير إليها رشاشة سوداء من مآثم هذا العالم ومخازيه، ثم لا تلبث أن تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة، فتتغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما أَلَمَّ به من تلك الأدران والأوحال، ويرى الليل مقبلاً يقطب وجهه ويزوي ما بين حاجبيه ويربد شيئاً فشيئاً، حتى يسود غضباً على هذا المجتمع البشري فيما يقترفه تحت ستاره من المفاصد والشرور، ولا يزال ماداً يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن يعجل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداوله بينه وبين النهار، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام، ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمة لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد، فلا تلبث أجبانها أن تطرف انغلاقاً وانفتاحاً مخافة أن يصيبها سهم نافذ من سهام الأشرار، التي تتطاير يمناً ويسرة وصعوداً وهبوطاً، فلا يقوم لها شيء إلا أتت عليه.

لعل مفاصل البناء تضحى طلاء للسقيفة والجدار

وقوله:

فلا يمس فخاراً من الفخر عائد
لعل إناء منه يصنع مرة
ويحمل من أرض لأخرى وما درى
إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
فيأكل فيه من أراد ويشرب
فواهاً له بعد البلى يتغرب

وقوله في داليته المعروفة:

رب لحد صار لحداً مراوياً
ودفين على بقايا دفين
ضاحك من تزامم الأضداد
في طويل الأزمان والآباد

هنا يرى الإنسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم، ويسمع صوتها واضح
النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين، ولا خداع الخادعين، ولا يصد سمعه
قرع النواقيس ولا صياح المؤذنين.

فقلت حسبك يا مولاي، فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء، وإني أرى في رأس هذا
الوادي رجلاً أحسبه فلاح هذه الأرض فامض بنا إليه علّه ييسر لنا ظلة نفىء إليها
وجرة باردة نقتأ بها هذه الصارة،^{٥٤} فمشينا إليه حتى بلغناه فرأيناه مكباً على تربته
يفلحها ويقلب عاليها سافلها، وقد شرست يده وشثنت قدماه وزأبر صدره،^{٥٥} وأفرغ
قرص الشمس في رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقاً، حتى سالت منه على قدميه قطرات
كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم، فحيّيناهُ بتحية حيّانا بأحسن منها،
وأفضينا إليه بطلبتنا، فأشار بيده إلى كوخه، وكان منه على بعد كثر، فإذا عريش
من عيدان القصب مسجج،^{٥٦} قد ارتفع فوقه سقف من جذوع الأشجار، واعتمد على
أسيطينة^{٥٧} من اللبن الأسود، وامتدت أمامه صُفّة مستطيلة، واستدار به نؤي يمنة
عنه مسيل الماء؛ فدخلناه فلم نر فيه إلا رثة^{٥٨} من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق
للخبز اليبس، وخلقان من القمص والأبراد، وقدر وأنفية، وجرة مملوءة ماء، وحشية^{٥٩}
مفككة تضطرب في جوفها خشوة من الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل، فشربنا
حتى ارتوينا وأخذنا من تلك الحشية مضجعا، وما زلنا على حالنا تلك سكوتاً لا نتكلم
حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقلزل^{٦٠} في مشيته، ويحمل فأسه على عاتقه،
ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة، فجلس وجلس ولداه بين يديه،
وأنشأ يلقي إلينا معاذيره، ويتوجع لعجزه عن إكرامنا وإسعافنا بما نحب، فعذرناه.

^{٥٤} يقال: فتأ القدر إذا سكن غليانها، الصارة: العطش.

^{٥٥} شرست اليد إذا غلظ ظهرها من برد فتشقق، وشثنت القدم إذا خشنت وغلظت، وزأبر الثوب إذا
خرج له زئبر، وهو ما يظهر من درزه.

^{٥٦} يقال: سجع الحائط، إذا طلائها بطبقة رقيقة من الطين.

^{٥٧} أسيطينة: تصغير أسطوانة.

^{٥٨} رثة المتاع بكسر الراء: ساقطة.

^{٥٩} الحشية: الفراش المحشو.

^{٦٠} قزل — به قزل، وهو أقبح العرج.

ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي — وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان:

الشيخ: من يملك هذه الأرض؟

الفلاح: هي لسيدي ومولاي — أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته — صاحب هذا القصر الذي تراه — وأشار إلى قصر فخم يرفرف بأجنحته في هذه البقعة الخضراء رفرقة الحمامة البيضاء في القبة الزرقاء —.

الشيخ: أراك تدعو له وتتمنى له الخير والسعادة، فَعَلَّكَ سعيد بجواره، مغتبط بمكانك منه ولعله يمدك ببره وإحسانه، ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه.

الفلاح: حسبي من سيدي أن أرى وجهه مرة في كل يوم أو يومين، ممتطيًا فرسه الدهماء، في ركب من أصحابه وحاشيته، مارًا بهذه الاجمالات الملتفة، يتنزه ويتروح، ويطارد الثعالب والذئاب، مطاردة الشجاع المستقتل، ثم يعود إلى قصره مسرورًا مغتبطًا بمصباحه وممساه.

الشيخ: إنما أسألك عن أياديه عندك وصنائعه لديك، لا عن منازلهم وطرائده وملذاته وشهوته.

الفلاح: وهل يوجد في باب النعم جليلها ودقيقها، نعمة أجل قدرًا وأسنى قيمةً من أن أكون عبدًا مملوكًا لسيد كهذا السيد، رفيع الجاه، جليل القدر، واسع النعمة، تطأطئ بين يديه رؤوس العظماء، ويختلف بين حضرته كبار الأمراء؟

الشيخ: أيها الرجل: ما عن هذا أسألك، إنما أسألك هل يسلم عليك سيدك هذا إذا مرَّ ببابك أو يخلو بك أحيانًا ليتعرف همك وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك؟

الفلاح: الحق أقول، يا سيدي إني ما سمعت في حياتي بأعجب من سؤالك هذا، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلا بالأمر والنهي، أو يرفع إليه طرفه إلا بالنظر الشزر، أو يلامس بيده جسمه إلا للتأديب والتهذيب، ولقد تمر بي وبعيالي الليالي نوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوش ما يملأ بطوننا فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة أيام أو إغفاله أمري ونهبي وزجري وتأديبي، وقد أعد لي — حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته — عصيًا غلاظًا يتعهدني بها من حين إلى حين كلما نسيته أمرًا من أوامره، أو قصرت في رعاية غرض من أغراضه

فأغتبط بذلك الاغتباط كله لأنني أعلم أنني منه على ذكر^{٦١} وأني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه إغفاله واطراحه وإلقاء حبله على غاربه.

الشيخ: وأين أم هذين الولدين؟

الفلاح: ماتت رحمها الله في سبيل خدمة سيدها، فقد كنا يوماً نمتح^{٦٢} على حافة بئر فلزقت أقدامنا وانبت بنا الحبل فسقطنا، أما هي فاستأثر الله بها وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحياة، فما أسفت على أن لم أكن قد لحقتُ بها فأكون قد هلكت في سبيل خدمة سيدي كما هلكت ليرحم عليَّ كما ترحم عليها، ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها.

الشيخ: ربما كنتَ قانعاً من إحسان سيدك إليك وعطفه عليك بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها؟

الفلاح: لا والله يا سيدي، ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعادته في قفيز بُرٍّ، أو حفنة تمر، إلا أن تسقط بين يدي ثمرة أعلم أنه لا يأبه لها فتكون قسمة بيني وبين ولدي، أو أحتطب من أطراف الوادي بضعة أعواد من الحطب أشعلها تحت قدري، وأستغفر الله مما سهوت عنه أو أخطأت فيه.

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول أن يكاتمني دمة تترجح في مقلتيه فأشرت إليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل، وقد ستر الظلام فقلت: أرجو يا مولاي أن أكون قد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة، قال: ما نغص عليَّ يومي إلا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر سنه وسقوط همته وذلة جانبه. وما أحسب إلا أن الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها وسلبها حسها ووجدانها، فأصبح لا يعرف لنفسه حياة ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده^{٦٣} فهو لا يفرح إلا لفرحه ولا يغتبط إلا باغتباطه، ويرضيه منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه إليه وتعبده له، بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه، وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعفين.

^{٦١} الذكر: التذكر.

^{٦٢} متح الماء متحاً: نزعه.

^{٦٣} ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلاً إلا بالفضائل النفسية، وقد ردّد هذا المعنى كثيراً في كلامه كقوله:

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات:

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

أسر إن كنت محمودًا على خلق ولا أسر بأني الملك محمود

وقوله:

وإقصائي عن الرؤساء كوني وكونهم لخالقنا عبيدًا

وقوله:

وإن أفضل من تعظيمهم رجلًا صفرًا من الحكم التعظيم للحجر

الفصل السابع عشر والمائة

الأربعون^١

الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام، أو أعثر في طريقي عبرة تهوي بي إلى المصرع الأخير هويًا.

سلام عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنت ميدانًا فسيحًا للأمال والأحلام وكنا نظير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمام البيضاء في آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل نعتقد أن في العالم همومًا وآلامًا، وكان كل شيء في نظرنا جميلًا حتى الحاجة والفاقة، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها، كان كل منظر من مناظرك قد لبس ثوبًا قشيبًا من نسيج الزهر الأبيض، فأصبح فتنة الأنظار، وشرك الألباب!

وكان يخيّل إلينا أن هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في طريقه مطردًا مندفعًا لا يعترضه معترض، ولا يلوي به عن طريقه لاوٍ إلى ما لا نهاية لاطّرادِهِ وتدفعه.

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم، أن يكون لنا مأربان من مأرب الحياة، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر أو غرضان من أغراضها، فنصل إلى القريب، ونبيت دون البعيد.

^١ كتب المرحوم المؤلف هذه الرسالة بعد بلوغه الأربعين من حياته وكأنما كان يتنبأ بدنو أجله رحمه الله وبرّد ثراه.

وكان كل ما يستدرف الدمع من أعيننا هجر حبيب أو طلعة رقيب أو أرق ليلة أو
ضجر ساعة، أو نظرة شزر يلقيها بغیض، أو نفثة شر يرمينا بها حقود، ثم لا تلبث
مسرأتنا ومباهجنا أن تطرد تلك الآلام أمامها كما يطرد النهر المتدفق الأقدار والأكدار
بين يده وتسلم لنا الحياة سائغة لا كدر فيها ولا تنغيص.

سلام عليك أيها الشباب الذاهب، سلام على دوحتك الفينانة الغناء، التي كنا نمرح
في ظلّاتها، مرح الظباء العفر في رملتها الوعاء ننظر إلى السماء فيخيل إلينا أنها مغدى
ومراح لنا، وإلى الآفاق البعيدة فيخيل إلينا أنها مجرى سوابقنا ومجرّ رماحنا، فكأن
العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ونتصرف في أي أقطارها شئنا.
أبكيك يا عهد الشباب، لا لأنني تمتعت فيك براح أو غزل، ولا لأنني ركبت مطيتك
إلى لهو أو لعب، ولا لأنني نقتُ فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون بل
لأنك كنت الشباب وكفى.

أبكيك لأنني كنت أرى في سماءك نجم الأمل لامعاً متلألئاً يؤنسني منظره ويطرمني
لألاؤه وينفذ إلى أعماق قلبي شعاعه المتوهج الملتهب فلما ذهبته ذهب بذهابك فأصبح
منظر تلك السماء منظر فلاة موحشة مظلمة لا يضيئها كوكب، ولا يلمع فيها شعاع.
أجل، لم أمتع فيك بمتعة من المتع، ولا بلذة من الملاذ، ولا نلتُ في عهدك مآرباً من
مآرب المجد أو الجاه، ولكني كنت أوّل وأرجو، وبذلك الأمل كنت أعيش وتحت ظلال
ذلك الرجاء كنت أهناً وأنعم.

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر فقد احتجب عني كل
شيء ولم يبق بين يدي مما أفكر فيه إلا أن أعدّ عِدَّتِي لتلك الساعة الرهيبة التي أنحدر
فيها إلى قبري.

مضى عهد الشباب وبدأت اختلف إلى الأطباء الثلاثة: طبيب العيون، وطبيب
المعدة، وطبيب الأسنان، وتقاربت خطواتي فأصبح فرسخي ميلاً، وباعي ذراعاً، ونعى
الناعون إليّ كثيراً من أصحابي وأترابي أي أنهم نعوإ إليّ نفسي ورأيت أصدقائي الذين
نشأت معهم في طريقي فأنكرت استحالة حالهم واغبرار وجوههم، واحمرار خدودهم،
وابيضاض شعورهم، فعلمت أنني أولهم وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم ودعا لي
الداعون بالقوة والنشاط وطول البقاء، وحسن الختام، أي إن قوتي في هبوط، ونشاطي
في اضمحلال، وسلامتي في خطر، وحياتي على وشك الانحدار إلى مغربها، ومررت
بمجامع الشبان الحافلة بالقوة والنشاط والمرح والسرور، فخيّل إليّ أنني غريب عنهم

لا صلة لي بهم ولا شأن لي معهم، وأنني أعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه وانتقلت من النظر في شأن نفسي، وشأن مستقبلي إلى النظر في شأن أولادي وشأن مستقبلهم، لأن مستقبلي أصبح ماضيًا، وغدًا أصبح أمس لا رجعة له إلى الأبد، وسمعت كلمة «الجد» يهتف بها أحفادي الصغار، فلم أنكرها ولم أبتئس كأنني معترف أنها الكلمة التي يجب أن أسمعها، ونصحتني الناصحون بالاقتصاد والتدبير إبقاءً على مصلحة أولادي الفقراء، كأنهم يقولون لي إنك موشك أن ترحل فأعد لمن وراءك من أهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك، وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماعها، فأصبحت سمحًا كريماً، عفواً غفوراً، لا أبغض أحداً، ولا أحقد على أحد، ولا أقابل ذنباً بعقوبة، ولا إساءة بمثلها، كأنني أقول في نفسي: ما لي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكاً، إن لم يكن اليوم فغدًا، وأخذت أحدث عن الماضي أكثر مما أتحدث عن الحاضر، لا لأن الأول أجمل من الثاني بل لأن الشيبية أجمل من الشيوخة، وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها أيام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء فبكيتها ورثيتها ولم تنسني إياها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدباً وفضلاً ومجداً وشرفاً، لأن الأولى كانت في سماء الأحلام الحلوة اللذيذة، أما الثانية ففي أرض الحقيقة المرة المؤلمة، وكنت أنعم في صباي بكثير من الملاذ الوهمية الكاذبة، فكنت، أجد في نفسي غبطة عظمت حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة، أو سيرة سيف بن ذي يزن، أو حروب عنتره، أو وقائع أبي زيد أو أساطير الجن والشياطين، وحين آوي إلى مضجعي فأرى في منامي رؤى بديعة يجتمع لي فيها جميع ما أحب وأشتهي من مطامع الحياة ومآربها وملاذ العيش ومباهجه، وحين اختلف إلى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة أمام حلقات أبوابهم فأشعر بسكينة في قلبي يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء، والآن وقد حرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها أن أساطير الأولين أكاذيب وأباطيل وأن الرؤى والأحلام هوس وجنون، وأن الأولياء والصالحين أحياء كانوا أو أمواتاً في شاغل بأنفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضرراً؟ أي أنني شقيت حين علمت، وكنت سعيداً قبل أن أعلم، وكان كل ما أفكر فيه أن أشيد لي بيتاً جميلاً أعيش فيه عيش السعداء الأمنين في مدينة الأحياء، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن أبني لي قبراً بسيطاً يضم رفاتي في مدينة الأموات، وكنت أدهش لבלاغة البليغ، وذلاقة الخطيب، وبراعة الشاعر وقدرة الكاتب الصائغ ونبوغ المبتكر، وأطرب لكل عظيم وجليل مما أرى وأسمع، فأصبحت لا

أدهش لشيء ولا أعجب من شيء لأن مرآة نفسي قد صدئت فلا ينطبع فيها غير الكوكب
الفخم العظيم، وأين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها.
ما أنا بأسف على الموت يوم يأتيني، فالموت غاية كل حي، ولكني أرى أمامي عالمًا
مجهولًا، لا أعلم ما يكون حظي منه، وأترك ورثتي أطفالًا صغارًا لا أعلم كيف يعيشون
من بعدي، ولولا ما أمامي ومن ورثتي ما باليت أسقطت على الموت أم سقط الموت
عليّ؟!

لكن ما أراد الله، أما ما أمامي فالله يعلم أنني ما ألمت في حياتي بمعصية إلا
وترددت فيها قبل الإلزام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها، ولا شككت يومًا من الأيام
في آيات الله وكتبه، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه وقدره، ولا أذعنت لسلطان
غير سلطانه، ولا لعظمة غير عظمته، وما أحسب أنه يحاسبني حسابًا عسيرًا على ما
فرطت في جنبه بعد ذلك، وأما من ورثتي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها، والقطاة
في أفحوصها، والعصفور في عشه، والفرخ في وكره، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين
وسيبسط عليهم رحمته وإحسانه.

وداعًا يا عهد الشباب، فقد ودعت بوداعك الحياة، وما الحياة إلا تلك الخفقات
التي يخفقها القلب في مطلع العمر، فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء وانقضى كل شيء!

أيا عهد الشباب وكنت تندي على أفياء سرحتك السلام

القسم الرابع

العبرات (وهي مجموعة روايات قصيرة)

إهداء

الأشقياء في الدنيا كثير، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئاً من
بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات، عليهم
يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى.

مصطفى لطفي المنفلوطي

الفصل الثامن عشر والمائة

اليتيم

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فتى في التاسعة عشر أو العشرين من عمره، وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر، فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي، وكانت على كُتُب من بعض نوافذ غرفته فأرى أمامي فتى شاحباً نحيلًا منقبضاً جالساً إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درساً فلم أكن أحفل بشيء من أمره، حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرة من ليالي الشتاء فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشؤون فأشرفت عليه فإذا هو جالس جلسته تلك أمام مصباحه، وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنيه سِنَّةً من النوم فأعجلته من الذهاب إلى فراشه وسقطت به مكانه، فما رمت مكاني^١ حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان من البكاء، وإذا صفحة دفتره التي كان مكباً عليها قد جرى دمه فوقها فمحا من كلماتها ما محا، ومشى ببعض مدادها إلى بعض، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه ورجع إلى شأنه الذي كان فيه.

فأحزنني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه في غرفة عارية باردة لا يتقي فيها عادية البرد بدثار ولا نار، يشكو همًّا من هموم الحياة أو رزء من أرزائها قبل أن يبلغ سنَّ الهموم والأحزان من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً، وقلت لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع^٢ الشاحب نفس

^١ رام مكانه: زال عنه وفارقه.

^٢ الضارع: الضعيف النحيل.

قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوبًا فيتهافت لها جسمه تهافت الخباء المقوض، فلم أزل واقفًا مكاني لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى إلى فراشه فانصرفت إلى مخدعي، وقد مضى الليل إلا أقله، ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتدَّ إليها لسان الصباح فيأتي عليها.

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إما باكياً، أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره، أو منظوياً على نفسه في فراشه يئن أنين الوالهة الثكلي، أو هائماً في غرفته يذرع أرضها، ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً، فأتوجع له وأبكي لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخلة الصديق لصديقه وأستبثه^٣ ذات نفسه وأشركه في همّه، لولا أنني كرهت أن أفجأه بما لا يحب، وأن أهجم منه على سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره، وأن يكاتمه الناس جميعاً، حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت أنه خرج لبعض شأنه، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعها وخيل إليّ، وهي صادرة من أعماق نفسه، كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي، وقلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه، وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلا بد لي من المصير إليه، فتقدمت إلى خادمي^٤ أن يتقدمني بمصباح حتى بلغت منزله وصعدت إلى باب غرفته فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر يحاول أن يهبطه ليودع ساكنه الوداع الأخير، ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بي وكأنما كان زاهلاً أو مستغرقاً، فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً إليّ هنيهة لا ينطق ولا يطرّف^٥ فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه، وقلت أنا جارك القاطن هذا المنزل، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة فعناني أمرك فجئتُك عليّ أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك، فهل أنت مريض؟ فرفع يده ببطء ووضعها على جبهته فوضعت يدي حيث وضعها فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم، ثم أمررت نظري على جسمه فإذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه، وإذا قميص فضفاض^٦ من الجلد

^٣ استبثه السر: طلب إليه أن يبثه إياه.

^٤ تقدم إلى فلان بكذا: أمره به.

^٥ طرّف فلان ببصره: أطبق أحد جفنيه على الآخر.

^٦ الفضفاض: الواسع.

يموج فيه بدنه موجًا، فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى فجرعته منه بضع قطرات فاستفاق قليلاً ونظر إليّ نظرة عذبة صافية وقال: شكرًا لك، فقلت ما شكاتك أيها الأخ؟ قال: لا أشكو شيئاً؛ فقلت: فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه؟ قال: لا أعلم؛ قلت: أنت في حاجة إلى الطبيب فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك؟ فتنهد طويلاً ونظر إليّ نظرة دامعة وقال: إنما يبغي الطبيب من يؤثر الحياة على الموت، ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغرقه، فلم أجد بداً من دعاء الطبيب رضي أم أبى، فدعوته فجاء متأففاً متدمراً يشكو — من حيث يعلم أنني أسمع شكواه — إزعاجه من مرقده وتجشيمه خوض الأرزقة المظلمة في الليالي الباردة؛ فلم أحفل بتعريضه لأنني أعلم طريق الاعتذار إليه؛ فجس نبض المريض وهمس في أذني قائلاً: إن عليك يا سيدي مشرف على الخطر، ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم، وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة، ثم انصرف لشأنه بعدما اعتذرت إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه، فأحضرت الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلة زاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر، فاستفاق ودار بعينه حول فراشه حتى رأي فقال: أنت هنا؟ قلت: نعم، وأرجو أن تكون أحسن حالاً من ذي قبل، قال: أرجو أن أكون كذلك، قلت: هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه، وهل تشكو داء ظاهراً أو همّاً باطناً؟ قال: أشكوهما معاً، قلت: فهل لك أن تحدثني بشأنك وتفضي إليّ بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه، فقد أصبحت معنياً بأمرك عنايتك بنفسك؟ قال: هل تعدني بكتمان أمري إن قسم الله لي الحياة، وبإمضاء وصيتي إن كانت الأخرى؟ قلت: نعم، قال: قد وثقت بوعدك، فإن من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك، لا يكون كاذباً ولا غادراً.

أنا فلان بن فلان، مات أبي منذ عهد بعيد وتركني في السادسة من عمري فقيراً معدماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً، فكفلني عمي فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسعهم برّاً وإحساناً وأكثرهم عطفاً وحناناً فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحداً من قبلي غير ابنته الصغيرة، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلاً، وكأنما سره أن يرى لها بجانبها أحاً بعدما تمنى على الله ذلك زمناً طويلاً فلم يدرك أمنيتها فعني بي عنايته بها وأدخلنا المدرسة في يوم واحد فأنست بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حبّاً

شديدًا ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبويَّ من حين إلى حين، فكان لا يرانا الرائي إلا زاهبين إلى المدرسة أو عائدين منها، أو لاعبين في فناء المنزل أو مرتاضين في حديقته، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمرت في دراستي.

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقدًا لا يحله إلا ريب المنون، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها، ولا أرى نور السعادة إلا في فجر ابتسامتها، ولا أؤثر على ساعة أفضيتها بجانبها جميع لذات العيش ومسررات الحياة، وما كنت أشاء أن أرى خصلة من خصال الخير في فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف أو وفاء إلا ووجدتها فيها.

وإني أستطيع، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا معًا أيام طفولتنا فتشرق لها نفسانا إشراق الراح في كأسها، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا، كأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء مائها ولمعان حصائها، وأفانين أشجارها، وألوان أزهارها، وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار، فنجتمع على حديث نتجاذبه أو طاقة نؤلف بين أزهارها أو كتاب نقلب صفحاته، أو رسم نتبارى في إتقانه، وتلك الخمائل الخضراء التي كنا نلجأ إلى ظلالتها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها، وتلك الحفائر الصغيرة التي نحترفها ببعض الأعواد على شاطئ الجداول والغدران فنملؤها ماءً، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها بأيدينا فنضطرب إن ظفرنا بشيء منها كأننا قد ظفرنا بغنم عظيم، وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها عصافيرنا وطيورنا، ثم نقضي الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء، وهي تحسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى، ونناديها بأسمائها التي سميناها بها، فإذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننَّا أنها تلبى نداءنا، ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمي ودًا وإخاء، أو حبًّا وغرامًا، ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل، ولا رجاء، فما قلت لها يوما إنني أحبها لأنني كنت أضن بها — وهي ابنة عمي ورفيقة صباي — أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها، ولا قدرت في نفسي يومًا من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها؛ لأنني

كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على فتى بائس فقير مثلي، ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط^٧ منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقطون، لأنني كنت أُجِلُّها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك، ولا فكرت يوماً أن أستشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها، أُنزلة الأخ فأقنع منها بذلك، أم منزلة الحبيب، فأستعين بإرادتها على إرادة أبويها؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء المائلة بين يديه في صومعته يعبدها ولا يتطلع إليها.

ولم يزل هذا شأني وشأنها حتى نزلت بعمي نازلة من المرض لم تنشب^٨ أن ذهبت به إلى جوار ربه، وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته، وكان يحسن بها ظناً: «لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام فكوني له أمًّا كما كنت له أبًا وأوصيك أن لا يفقد مني بعد موتي إلا شخصي» فما مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوهاً غير الوجوه ونظرات غير النظرات؛ وحالاً غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل فتدخلني الهم واليأس ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصبحت في هذا المنزل غريباً، وفي هذا العالم طريداً.

فإني لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلت عليَّ الخادم، وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمت نحوي خجلة متعثرة، وقالت: قد أمرتني سيدتي أن أقول لك يا سيدي إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن التي بلغتكماها ربما يريبها عند خطيبها، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكناً هذا الجناح الذي تسكنه من القصر فهي تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك، وكأنك لم تفارقها.

فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصمت به كبدي، إلا أنني تماسكت قليلاً ريثما قلت لها: سأفعل إن شاء الله ولا أحب إليَّ من ذلك، فانصرفت لشأنها فخلوت بنفسي ساعة أطلقت فيها السبيل لعبراتي ما شاء الله أن أطلقها حتى جاء الليل فعمدت إلى حقيبتني فأودعتها ثيابي وكتبي، وقلت في نفسي:

^٧ تسقط فلان الخير: أخذه شيئاً بعد شيء.

^٨ لم تنشب: لم تلبث.

«قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله، وقد حيل بيني وبينه فلا آسف على شيء بعده».

ثم انسلت من المنزل انسللاً من حيث لا يشعر أحد بما كان، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كلتها^٩ وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها.

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلبي لو أنا وجدنا من فراق لها بدءاً
كفي حزناً أن رحت لم أستطع لها وداعاً ولم أحدث بساكنها عهداً

وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته وخرجت منه شريداً طريداً حائراً ملتاعاً قد اصطلحت على الهموم والأحزان، فراق لا لقاء بعده، وفقر لا ساداً لخلته، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسياً ولا معيناً.

وكانت معي صبا^{١٠} من مال قد بقيت في يدي من آثار تلك النعمة الزاهية فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكناً، فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط بلدة حتى تتنازعني نفسي إلى أخرى، ولا تطلع عليّ الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره. حتى شعرت في آخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين لا يفيض، ولا يغيض.

فكنعت بذلك، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم منفرداً كمجتمع وغائباً كحاضر وبعيداً كقريب، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه. وأن أستعين على نسيان الماضي باجتنا^٩ب موطنه ومظاهره فلزمت غرفتي ومدرستي أدا^{١٠}ول بينهما لا أفارقهما، ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي فأجد برد الراحة في صدري.

^٩ الكلة: الستر الرقيق.

^{١٠} الصبا: البقية من الشيء.

لبثت على ذلك برهة من الزمان حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فإذا هي ناضبة أو موشكة، وكنت مأخوذاً بأن أهياً لنفسي عيشاً مستقلاً، وأن أؤدي للمدرسة قسطاً من أقساطها، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة، والعلم في هذه الأمة مرتزق يرتزق منه المرتزقون لا منحة يمنحها المحسنون، فأهممتني نفسي، وعلمت أنني مشرف على الخطر، ولا أعرف سبيلاً إلى القوت بوجه ولا حيلة، فعمدت إلى كتبي فاستبقيت منها ما لا غنى لي عنه، وحملت سائرهما^{١١} إلى سوق الوراقين فعرضته هناك يوماً كاملاً فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى.

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فنائه امرأة تسائل أهل البيت عني، فتبينتها فإذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي، فقلت: فلانة؟ قالت: نعم؟ قلت: ماذا تريدان؟ قالت: لي إليك كلمة فائذن لي. فصعدت معها إلى غرفتي فلما خلونا قلت: هات، قالت: مرت بي ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك في كل مكان فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدت اليوم بعد اليأس منك، ثم انفجرت باكياً بصوت عال؛ فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس، فقلت: ما بكاؤك؟ قالت: أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك؟ قلت: لا، فما أخباره؟ فمدت يدها إلى رداؤها وأخرجت من أضعافه^{١٢} كتاباً مغلقاً فتناولته منها ففضضت غلافه، فإذا هو بخط ابنة عمي فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة: «إنك فارقتني ولم تودعني فاعتفرت لك ذلك، فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر فلا أغتفر لك ألا تأتي إليّ لتودعني الوداع الأخير».

فألقيت الكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعاً فتعلقت الخادم بثوبي وقالت: أين تريد يا سيدي؟ قلت: إنها مريضة ولا بد لي من المصير إليها. فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش: لا تفعل يا سيدي فقد سبقك القضاء إليها.

هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكاناً؛ ثم دارت بي الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم أفق إلا بعد حين؛ ففتحت عيني فإذا الليل قد أظللني، وإذا الخادم لا تزال بجانبني تبكي

^{١١} سائر الشيء: باقيه.

^{١٢} أضعاف الثوب: أثناؤه.

وتنتحب فدنوت منها وقلت: أيتها المرأة أحق ما تقولين؟ قالت: نعم. قلت: قصي عليّ كل شيء فأنشأت تقول:

إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي حملتها إليك من زوجة عمك فلم تزد علي أن قالت: «وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين! إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئاً» ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر كأنما كانت تعالج في نفسها ألماً ممضاً، وما هي إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها، ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبل^{١٢} يوماً حتى تنتكس أياماً فراع أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلا فرزت إليه أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً. فبينما أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليالٍ إذ شعرت بها تتحرك في مضجعتها فدنوت منها فأشارت إليّ أن آخذ بيدها ففعلت فاستوت جالسة وقالت: في أي ساعة نحن من الليل؟ قلت: في الهزيع الأخير منه، قالت: أنت وحدك هنا؟ قلت: نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً، قالت: ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن؟ فعجبت للكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم، وقلت: بلى يا سيدتي أعلم مكانه، وما كنت أعلم شيئاً، ولكني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها، فقالت: ألا تستطيعين أن تحملي إليه رسالة مني من حيث لا يعلم أحد بشأني؟ قلت: لا أحب إليّ من ذلك يا سيدتي. فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها فكتبت إليك هذا الكتاب الذي تراه فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين علّني أراك وأرى من يهديني إليك فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس إلى مغربها فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعية فلعلت أن السهم قد بلغ المقتل، وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاءً قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها؛ فحزنت عليها حزن الناكث على وحيدها، وما رئي مثل يومها يوم كان أكثر باكيةً وباكياً.

^{١٢} أبل من مرضه: برئ منه.

وكان أكبر ما أهمني من أمرها أن كل ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك، وفاتها ذلك وسقطت دون أمنيته، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ولم أزل أطلب السبيل إليك حتى وجدتك.

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت. فما انفردت بنفسي حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عيني شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظري كل شيء، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيته.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفضت^{١٤} وأن هذه أفلانها. فدنوت منه وقلت: ما بك يا سيدي؟ قال بي أني أطلب دمة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها.

ثم صمت ساعة طويلة، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه فإذا هو يقول:

«اللهم إنك تعلم أني غريب في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد، وأنني فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي وأنني عاجز مستضعف لا أعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقاً فلم يبق فيه حتى الذماء،^{١٥} وإنني أستحيك أن أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنزعها من مكانها وألقي بها في وجهك ساخطاً ناقماً، فتول أنت أمرها بيدك واستردّ وديعتك إليك وانقلها إلى دار كرامتك، فنعم الدار دارك، ونعم الجوار جوارك».

ثم أمسك رأسه بيده كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار وقال بصوت ضعيف خافت: أشعر برأسي يحترق احتراقاً وقلبي يذوب ذوباً، لا أحسبني باقياً على هذا، فهل تعدني أن تدفني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه؟ قلت: نعم، وأسأل الله لك السلامة، قال: الآن أموت طيب النفس عن كل شيء. ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها.

^{١٤} ارفض الشيء: تفرق وترش.

^{١٥} الذماء: بقية النفس.

لقد هون وجدي على هذا البائس المسكين أنني استطعت إمضاء وصيته كما أراد، فسعيت في دفنه مع ابنة عمه، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعت فيه أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءها حياً فلباها ميتاً.

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذاك الصديقان الوفيَّان اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر.

الفصل التاسع عشر والمائة

الحجاب

ذهب فلان إلى أوروبا وما ننكر من أمره شيئاً، فلبث فيها بضع سنين. ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء.

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة؛ وذهب بقلب نقي طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها، والنقمة على السماء وخالقها؛ وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها، وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئاً فوقها، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها؛ وذهب برأس مملوءة حكماً ورأياً، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد، وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما.

وكننت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتیان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغاً لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء، وأن مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرأة؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها، فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبسته على علاته وفاءً بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر محتملاً في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب، فكانت آخر عهدي به.

دخلت عليه فرأيته واجماً مكتئباً فحييته فأوماً إليّ بالتحية إيماء، فسألته ما باله فقال: ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه، ولا أدري مصير أمري فيه، قلت: وأي امرأة تريد؟ قال: تلك التي يسميها الناس زوجتي،

وأسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبني وآمالي. قلت: إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أي آمالك تحدث؟ قال: ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقاً على وجه امرأة في هذا البلد، قلت: ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه، قال: إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب رأيي، ويتمنون في أمره ما أتمنى، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسونه كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي^١ القديم الذي وقف سداً دون سعادة الأمة وارتقاؤها دهرًا طويلاً، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها، فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك. حياءً منهن وخجلاً، ولا خجل هناك ولا حياء، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة، فلا بد لي أن أبلغ أمنيته، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسنين إما بكسره أو بشفائه.

فورد عليّ من حديثه ما ملأ نفسي همًّا وحرزاً، ونظرت إليه نظرة الراحم الراثي وقلت: أعالم أنت أيها الصديق ما تقول؟ قال: نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت، قلت: هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكة؟ قال: ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد؟ قلت: أريد أن أقول لك إنني أخاف على عرضك أن يلتمس به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك، قال: إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع، فتدخلني ما لم أملك معه وقلت له: تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء، والثلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومدارككم فيفسدها

^١ العادي القديم: نسبة إلى قبيلة عاد.

عليكم فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلماً نجدها، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر، والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة، قال: أتُنكر وجود العفة بين الناس؟ قلت: لا أنكرها لأنني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين، ولكنني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلِب والمرأة الحاذقة المترفة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه.

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم؟
أفي جو المتعلمين وفيهم من سئل مرة: لِمَ لَمْ يتزوج؟ فأجاب: نساء البلد جميعاً نسائي.

أم في جو الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه وخجلاً إن خلت محفظته يوماً من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو أقفرت من رسائل الحب والغرام؟

أم في جو الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادماً ذليلاً، ويخرج منه صهراً كريماً؟.

وبعد: فما هذا الولع بقصة المرأة والتمطق^٢ بحديثها، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها، وحريتها وأسرها، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم.
هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز.

أبواب الفخر أمامكم كثيرة، فاطرقوا أيها شئتم ودعوا هذا الباب موصداً؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيماً وشقاءً طويلاً.
أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه.

^٢ تمطق: صوت بلسانه عند استطابة الطعام.

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها، وما أحسبكم إلا خاسرين.

ما شكت المرأة إليكم ظلمًا، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها، فما دخولكم بينها وبين نفسها؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها؟.

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم، ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها وحيثما سارت وأينما حلت، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلًا إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها فأوصدت من دونها بابها، وأسبلت أستارها تبرمًا وفرارًا من فضولكم، فواعجبًا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها!.

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجًا وسفورًا، ويتدفق خلاعة واستهتارًا، وتودون بجذع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذي خلفتموه هناك.

لقد كنا وكانت العفة في سقاء^٢ من الحجاب موكوء^٣ فما زلتم به تثقبن في جوانبه كل يوم ثقبًا والعفة تتسلل منه قطرة قطرة حتى تقبض^٤ وتكرش، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقي فيه قطرة واحدة.

عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها، راضية عن نفسها وعن عيشها، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها، أو وقفة تقفها بين يدي ربها، أو عطفة تعطفها على ولدها، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجها، ونزولها عند رضاها، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام، فتحب زوجها لأنه زوجها، كما تحب ولدها لأنه ولدها، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب، فقلتم لها إن هؤلاء الذين

^٢ السقاء: وعاء الماء من جلد السخلة.

^٤ أوكى القرية: شد رأسها بالوكاء، والوكاء: الرباط.

^٥ تقبض: يبيس.

يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك، فازدرت أباهاً؛ وتمردت على زوجها، وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها، ولا يخبو أوارها.

وقلتم لها لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك فاخترت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم.

وقلتم لها: إن الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعنيت به عنه.

وقلتم لها: إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق، فأصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يحيي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت.^٦

وقلتم لها: لا بد أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك، والقيام على شؤون بيتك، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها، والقيام على شؤون بيتها.

وقلتم لها: نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبا ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا، وشعورها شعورنا، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات،^٧ والضحكات اللاعبات، والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم، وتنزل عند محبتكم، ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً، كما تعرض الأمة نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبوتم بها، وقلتم لها: إننا لا نتزوج النساء العاهرات، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أباهها الخلع، وترفع عنها المحتشم، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت.

^٦ أفاد: بمعنى استفاد.

^٧ استهتر فلان: اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل.

وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعاً، وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات.

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون، وهذا رثاءكم لها وعطفكم عليها! نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم، فليهدبها أبوها أو أخوها، فالتهديب أنفع لها من العلم؛ وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم، فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم. وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة، فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئب فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها.

أعجب ما أعجب له في شؤونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئاً واحداً هو أدنى إلى مداراكم أن تعلموه قبل كل شيء وهو أن لكل تربة نباتاً ينبت فيها ولكل نبات زمناً ينمو فيه!

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء.

ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانها فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء إن كان هناك ما يغني عنه.

ورأيتم الرجل الأوروبي حراً مطلقاً يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها.

ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيئة غيرته وأزالت خشونة نفسه وحرشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من يشاء، وتصاحب من تشاء، وتخلو بمن تشاء، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد، فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهي أن يقف موقفه، ويستمسك استمسكه.

ورأيت المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها مع الرجال أن تحتفظ بنفسها وكرامتها فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها، وتحتفظ بنفسها احتفاظها!

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه، أو في ساعة غير ساعته، إما أن تأباه الأرض فتلفظه، وإما أن ينشب فيها فيفسدها.

إننا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهن، ولا تزعجهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين.

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية، وقال: تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها فلنصطر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها، فقلت له: لك أمر في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء، واذن لي أن أقول لك إنني لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي، لأنني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلكت تقتلني حياءً وخجلاً. ثم انصرفت. وكان هذا فراق ما بيني وبينه.

وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله، وأن بيته أصبح مغشياً لا تزال النعال خافقة ببابه، فذرفت عيني دموعاً لا أعلم هل هي دموع الغيرة على العرض المذال، أو الحزن على الصديق المفقود؟ مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ولا يزورني، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلاً فأحبيه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكر ثم أنطلق في سبيلي.

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس، وقد مضى الشطر الأول من الليل، إذ رأيته خارجاً من منزله يمشي مشية الذاهل الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمني أمره ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال: لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سبباً، وما أنا بالرجل المذنب؛ ولا المريب، فهل أستطيع

أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا عَلَيَّيَّ أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون؟ قلت: لا أحب إليَّ من ذلك، ومشيت معه صامتاً لا أحدثه، ولا يقول لي شيئاً، ثم شعرت كأنه يزور^٨ في نفسه كلاماً يريد أن يفضي به إليَّ فيمنعه الخجل والحياء ففاتحته الحديث وقلت له: ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سبباً؟ فنظر إليَّ نظرة حائرة وقال: إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة، وما كان ذلك شأنها من قبل. قلت: أما كان يصحبها أحد؟ قال: لا. قلت: ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه؟ قال: لا. قلت: ومم تخاف عليها؟ قال: لا أخاف شيئاً سوى أنني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء فلعلَّ بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهت أمرها إلى مخفر الشرطة وكنا قد وصلنا إلى المخفر فاقترانا الجندي إلى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه. فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها، ثم استدني الفتى إليه وقال له: يسوءني أن أقول لك سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة، في حال غير صالحة، فاقترادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة أن لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها، فإن كانت صادقة أدنَّا لها بالانصراف معك إكراماً لك وإبقاء على شرفك، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات، وها هما وراءك فانظرهما، وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيوناً وأذاناً، ثم سقط في مكانه مغشياً عليه، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها، ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا له الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة، ولبت ساهراً بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح فانصرف على أن يعود متى دعونه، وعهد إليَّ بأمره فلبثت بجانبه أرثي لحاله وأنتظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك في مضجعه، ثم فتح عينيه فرآني فلبث شاخصاً إليَّ هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئاً فلا يستطيعه، فدنوت منه وقلت له: هل من حاجة يا سيدي؟ فأجاب بصوت ضعيف خافت: حاجتي أن لا يدخل عليَّ

^٨ زور الكلام في نفسه: هياؤه.

من الناس أحد، قلت: لن يدخل عليك إلا من تريد، فأطرق هنيهة، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان بالدموع، فقلت: ما بكأك يا سيدي؟ قال: أتعلم أين زوجتي الآن؟ قلت: وماذا تريد منها؟ قال: لا شيء سوى أن أقول لها إني قد عفوت عنها، قلت: إنها في بيت أبيها، قال: وارحمته لها ولأبيها ولجميع قومها فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجاداً فألبستهم مذ عرفوني ثوباً من العار لا تبلوه الأيام.

من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أنني مريض مشرف، وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغفروا زلتي، قبل أن يسبق إليّ أجلي؟

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها^٩ أن أصون عرضها صيانتني لحياتي، وأن أمنعها مما أ منع منه نفسي، فحنثت في يمني فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه؟ نعم إنها قتلتني! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي.

البيت بيتي، والزوجة زوجتي، والصديق صديقي، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي، فلم يذنب إليّ أحد سواي.

ثم أمسك عن الكلام هنيهة، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً، حتى لبست وجهه فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه، ثم أنشأ يقول:

آه ما أشد الظلام أمام عيني! وما أضيق الدنيا في وجهي! في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهما جالسين يتحدثان فتملاً نفسي غبطة وسروراً وأحمد الله على أن رزقني بصديق وقيّ يونس زوجتي في وحدتها، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيابتي، فقولوا للناس جميعاً: إن ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفنطته، ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم، قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها.

والهفا على أمّ لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين.^{١٠}

^٩ اهتدى الرجل امرأته: جمعها إليه وضمها.

^{١٠} يريد: ليتني لم أولد.

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل، ولعلمهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض، أو يحدقون إليّ ويطيلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجهه البله، والغباوة في وجهه الأغبياء!...
ولعل الذين كانوا يتوددون إليّ ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي؟ ولعلمهم كانوا يسمونني فيما بينهم قوادًا ويسمون زوجتي مومسًا وبيتي ماخورًا^{١١} وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم!
فوارحمته لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة، ووالهفًا على زاوية منفردة في قبر موحش يطويني ويطوي عاري معي.
ثم أغمض عينيهِ وعاد إلى ذهوله واستغراقه.

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى وضعت به بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه فأحس به ففتح عينيه فرآه فابتسم لمراه وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح: أبعدوه عني لا أعرفه، ليس لي أولاد ولا نساء، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه؟ لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثرًا خالداً ورائي بعد مماتي، وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر باكياً وصاح: أرجعوه إليّ، فعادت به المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول:

في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتيم، وما خلفت لك أمك من العار، فاغفر لهما ذنبهما إليك، فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت، وكان أبوك حسن في جريمته التي اجترمها، فأساء من حيث أراد الإحسان.

سواء أكنت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فإنني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً! ثم احتضنه إليه، وقبّله في جبينه قبله لا أعلم هل هي قبله الأب الرحيم أو المحسن الكريم؟

^{١١} الماخور: بيت الريبة.

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه، وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خفت عليه التلف، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأساً وحزناً.

ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئن أنيناً مؤلماً فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها.

فإننا لجلوس حوله وفد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريريه وإذا امرأة مؤتزرة بإزار أسود قد دخلت الحجرة وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم أكبّت على يده الموضوعة فوق صدره فقَبَّلَتْها وأخذت تقول له:

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها، فاعف عني يا والد ولدي واسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك. ثم انفجرت باكية. ففتح عينيه، وألقى على وجهها نظرة باسمّة، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى.

الآن عدت من المقبرة بعدما دفنت صديقي بيدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر، والروض الزاهر، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي، فلا يهون وجدي عليه، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده، فاقتحمه فمات شهيداً فنجت بهلاكه.

الفصل

الهاوية

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها!؟

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عامًا واحدًا مر بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك. قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته، والزارع إلى ماشيته، فأعوزني ذلك حتي عرفت «فلانًا» منذ ثماني عشرة عامًا فعرفت امرءًا ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاعت لي في وجهه، فجَلْتُ مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكر حتى عرض إليّ من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي غير أسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت، فحزنت لذلك حزنًا شديدًا وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب؛ إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله قعد بي عن ذلك هم كان يقعدني عن كل شأن حتى شأن نفسي، فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوام فكان أول همي يوم هبطت أرضها أن أراه فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم.

تركت هذا المنزل فردوسًا صغيرًا من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة، وتترقرق وجوه ساكنيه بشرًا وسرورًا، ثم زرته اليوم فخيل إليّ أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة لا يهتف فيها صوت ولا يترأى في جوانبها شبح ولا يلمع في أرجائها مصباح؛ فظننت أنني أخطأت المنزل الذي أريده أو أنني بين يدي منزل مهجور

حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافذ نورًا ضعیفًا فمشيت إلى الباب فطرقتة فلم يجبني أحد فطرقتة أخرى فلمحت من خصاصه^١ نورًا مقبلًا ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحًا ضئيلاً فتأملته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه، فسألته عن أبيه فأشار إليّ بالدخول ومشى أمامي بمصباحه حتى وصل بي إلى قاعة شعثاء مغبرة بالية المقاعد والأستار، ولولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشم في ظاهر اليد — ما عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثني عشر هلالاً، ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل، ثم تركني ومضى وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لي: إن والدته تريد أن تحدثني حديثاً يتعلق بأبيه، فخفق قلبي خفقة الرعب والخوف وأحسست بشر لا أعرف مأتاه،^٢ ثم التفتُ فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب فحيثني فحيثها ثم قالت لي: هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك؟ قلت: لا، فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعدما فارقت سبعة أعوام. قالت: ليتك لم تفارقه، فقد كنت عصمته التي يعتصم بها وحماه من غوائل الدهر وشروره، فما هو إلا أن فارقت حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان، وكان فتى كما تعلمه غريباً ساذجاً فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان حتى سقط فيها فسقطنا جميعاً في هذا الشقاء الذي تراه، قلت: وأي شر تريدين يا سيدتي؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه؟ قالت: سأقص عليك كل شيء فاستمع لما أقول:

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلقت حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان ولا تزال نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته فاستحال من ذلك اليوم أمره وتنكرت صورة أخلاقه وأصبح منقطعاً عن أهله وأولاده لا يراهم إلا الفينة بعد الفينة^٣ وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي؛ ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر بتلك الخطوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة

^١ خصاص الباب: خرقة.

^٢ المأتى: الوجه الذي يأتي منه الشيء.

^٣ الفينة: الساعة والحين.

التي نالها من نفسه ورجوت له من ورائها خيرًا كثيرًا مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري وأمر أولاده حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً فدنوت منه فشمت من فمه رائحة الخمر، فعلمت كل شيء.

علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مروّوسيه في الخير إن سلك طريق الخير، والشر إن سلك طريق الشر، قاد زوجي الفتى المسكين إلى شر الطريقين، وسلك به أسوأ السبيلين، وأنه ما كان يتخذ صديقاً كما زعم، بل نديماً على الشراب، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين، رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحيها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجدت عليه شيئاً، ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب، فلم أعجب لذلك، لأنني أعلم أن طريق الشر واحدة، فمن وقف على رأسها لا بد له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها، فأصبح ذلك الفني النبيل الشريف، الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتّم فيه رائحة النبيذ، ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون — سكيراً مقامراً مستهتراً لا يحتشم ولا يتلوم، ولا يتقي عاراً ولا مأثماً، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذي كان يضمن بأولاده أن يعلق بهم الذر، وبزوجه أن يتجهّم^٤ لها وجه السماء، أباً قاسياً وزوجاً سليطاً، يضرب أولاده كلما دنوا منه، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عشرائه الأشرار فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها، ولا يزالون يشربون ويقصفون^٥ حتى يذهب بعقولهم الشراب فيحتاجوا ويرقصوا ويملأوا الجو صراخاً وهتافاً ثم يتعادوا^٦ بعضهم وراء بعض في الأبهاء^٧ والحجرات حتى يلجوا عليّ باب غرفتي وربما حدق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأى من زوجي ومسمع فلا يقول شيئاً، ولا يستنكر أمراً فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان

^٤ تجهّم له: استقبله بوجه كرية.

^٥ قصف الرجل: أقام في أكل وشراب ولهو.

^٦ من العدو: وهو الجري.

^٧ الأبهاء: جمع بهو، وهو البيت المقدم أمام البيوت.

وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ولا خمار، غير إزار الظلام وخماره، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي فأقضي عندهم بقية الليل. وهنا تغيرت نغمة صوتها فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها، فعلمت أنها تبكي فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها، ثم رفعت رأسها، وعادت إلى حديثها تقول: وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال فكان لا بد له أن يستدين ففعل، فأثقله الدين فرهن فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه، ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه، لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين، أو غنيمة للمقامرين.

هذا ما صنعت يد الدهر به، أما ما صنعت بي وبأولادي، فقد مرَّ على آخر حلية بعتها من حلالي عام كامل، وما هي حوانيت المرابين والمسترهنين ملأى بملابسي، وأدوات بيتي وأثاثه، ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال^٨ يعود عليَّ من حين إلى حين بالنزر القليل مما يستلُّه من أشداق عياله لهلكت وهلك أولادي جوعاً. فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح وأحسب أنك تقدر منه — للمنزلة التي تنزلها من نفسه — على ما عجز عنه الناس جميعاً، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت.

ثم حيتني ومضت لسبيلها، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل، فقال: إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان. فانصرفت لشأني، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل، وما كاد ينقضي.

ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به، ولا أعلم ما مصير أمري معه بعد ذلك، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذهاب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يملك؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم؟.

^٨ رقة الحال: كناية عن الفقر.

الآن عرفت أن الوجوه مرايا^٩ النفوس تضيء بضياؤها وتظلم بظلامها فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنستني الأيام صورته، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع، ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلالؤ نور الشمس في صفحاتها، فلما رأيته الآن ولم أر أمام عيني تلك الغلالة البيضاء التي كنت أعرفها، خيل إليّ أنني أرى صورة غير الصورة الماضية، ورجلاً غير الذي كنت أعرفه من قبل.

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الواضح الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فماً ضاحكاً تموج فيه ابتسامة لامعة؛ بل رأيت مكانه رجلاً شقيئاً منكوباً قد لبس الهرم قبل أوانه وأوفى على الستين قبل أن يسليخ الثلاثين، فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه، وجمدت نظراته وتهدل عارضاه، وتجعد جبينه، استشرف^{١٠} عاتقه وهوى رأسه بينهما هوية بين عاتقي الأحذب، فكان أول ما قلت له: لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك! وكأنما ألمّ بما في نفسي وعرف أنني قد علمت من أمره كل شيء، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها، ولم يقل شيئاً، فدنوت منه وضعت يدي على عاتقه وقلت له:

والله ما أدري ماذا أقول لك، أعظك، وقد كنت واعظي بالأمس، ونجم هداي الذي أستشير به في ظلمات حياتي؟ أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك، وفي أهلك؟ ولا أعرف شيئاً أنت تجهله، ولا تصل يدي إلى عبرة تقصر يدك عن نيلها، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لها في الحياة، ولا معين سواك؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق بالبعداء، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء!.

إن هذه الحياة التي تحياها يا سيدي إنما يلجأ إليها الهمل العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً حتى يأتهم الموت فينقذهم من عارهم وشقائهم، وما أنت بواحد منهم!.

إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمتمبرم^{١١} بها، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس المنتحر! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك

^٩ المرايا: جمع مرآة.

^{١٠} استشرف الشيء: ارتفع.

^{١١} تبرم الأمر: سئمه وضجر منه.

الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى، ولكنك تعلم أنك كنت غنيًا فأصبحت فقيرًا، وصحيحًا فأصبحت سقيمًا، وشريفًا فأصبحت وضيعًا؛ فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد فقد خلت رقعة الأرض من الأشقياء.

إن كل ما يعينك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت؛ فاطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة؛ فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك، وتعظم فيه آثامك وجرائمك، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى. حسبنا يا صديق من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر فلا نضم إليه شقاءً جديدًا نجلبه بأنفسنا لأنفسنا، فهات يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق، ثم افترقنا فشقينا، وما نحن أولاء قد التقينا، فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا.

ثم مددت يدي إليه فراعني أنه لم يحرك يده فقلت له: ما لك لا تمد يدك إليّ؟ فاستعبر باكيًا وقال: لأنني لا أحب أن أكون كاذبًا ولا حائنًا، قلت: وما يمنعك من الوفاء؟ قال: يمنعي منه أنني رجل شقي، لا حظ لي في سعادة السعداء، قلت: قد استطعت أن تكون شقيًا، فلم لا تستطيع أن تكون سعيدًا؟ قال: لأن السعادة سماء والشقاء أرض، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمسك حتى أبلغ قرارتها، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة، فلا بد لي أن أشربها حتى ثمالتها ولا شيء من الأشياء يستطيع أن يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم، وما دمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله، قلت: ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين، قال: إن العزيمة أثر من آثار الإرادة، وقد أصبحت رجلًا مغلوبًا على أمري، لا إرادة لي ولا اختيار، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء، وإبك صديقك القديم منذ اليوم إن كنت لا ترى بأسًا في البكاء على الساقطين المذنبين.

ثم انفجر باكيًا بصوت عالٍ وتركني مكاني دون أن يحييني بكلمة، وخرج هائمًا على وجهه لا أعلم أين ذهب، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم.

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمنًا طويلًا فأقصاه عن مجلسه استئقالاتًا له، ثم عزله عن وظيفته استنكارًا لعمله، ولم تذرف عينه دمعة واحدة على

منظر صريعه الساقط بين يديه، ولم يستطيع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه، فلجأ هو وزوجته وولاده إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور، فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها، فإن رأيته ذاهباً زويت وجهي عنه، أو عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ثم قدته إلى بيته.

وهكذا. ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة، أو حلماً من الأحلام السارية، يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوه لا يكاد يشعر بشيء مما حوله، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع، أو يقلب نظره في أثوابه وما في أثوابه غير الرقاق والخروق، وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق، وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهذأت سَورتها في رأسه انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه. ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية: عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت، وأبكاه أن ترى ولدها وابنتها باكين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما، فلم تر لها بُدّاً من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يفتتان فيها ويقيتانها، فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة، وقلماً تغفل عنه، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف إليها من حين إلى حين، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج كريم وأولاد كالكوكب الزهر حسناً وبهاءً، ثم تذكر كيف أصبح السيد مسوداً، والمخدوم خادماً، والعزيز الكريم ذليلاً مهيناً، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤي المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر، ثم استحال بعد انتشاره إلى حصيات منبوزات على سطح الغبراء تطوُّها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام، فتبكي بكاء الواله في إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد، على أنها ما أضمرت قَطُّ في قلبها حقداً لذلك الإنسان الذي كان سبباً في شقائها وشقاء ولديها، ولا حدثتها نفسها يوماً من الأيام

بمغاضبته أو هجرانه، لأنها امرأة شريفة، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب، بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير فترحمه وتعطف عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضاً، وتأسو جراحه إن عاد جريحاً، وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانه حينما لا يجد معه ثمن الشراب فيعود إلي بيته ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب طلباً شديداً فلا تجد بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله.

وكأن الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال حتى أضاف إليها ثقلاً جديداً، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد، فهتفت صارخة: رحمتك اللهم فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة، وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز فأعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها، لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق، فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى أدركتها رحمة الله فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها.

في هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد فدار بعينه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممددة على حصيها ورأى ابنتها تبكي بجانبها فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة، فراه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى أصابت قلبه فبدأ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً، فأكبَّ عليها يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ويزحف نحوها رويداً رويداً حتى رأى شبح الموت يحدق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين، فتراجع خوفاً وذعرًا فوطئ في تراجع صدر ابنته فأنت أنه مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة، فصرخ صرخة شديدة وقال: واشقاءه واشقاءه! وخرج هائماً على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح: ابنتي! زوجتي، هلموا إلي، أدركوني! حتي أعيا فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح والناس من حوله آسفون عليه، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه.

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من زهوله الطويل سبباً في ضياع ما بقي من عقله.
وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً في قاعة من قاعات
البيمارستان، فوارحمته له ولزوجته الشهيدة ولطفلة الصريعة ولأولاده المشردين
البؤساء.

الفصل

العقاب^١

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأني هبطت مدينة كبرى لا علم لي باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه، فمشيت في طرقها بضع ساعات فرأيت أجناساً من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها، فخيل إليّ أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه، فلم أزل أتنقل من مكان إلى مكان، وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة لم أر بين البنى أعظم منها شأنًا ولا أهول منظرًا، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس، ومشى في أفنيتها وأبهاؤها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئةً وزهوياً، فسألت بعض الواقفين: ما هذه البنية وما هذا الجمع المحتشد على بابها؟ فعلمت أنها قصر الأمير وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم، وما هي إلا ساعة حتى نادى منادٍ في الناس: أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه، فدخل الناس ودخلت على أثرهم، وجلست حيث انتهى بي المجلس، فرأيت جالساً على كرسي من الذهب يتلأل في وسط الفناء تلالؤ الشمس في دارتها وقد جلس على يمينه رجل يلبس مسوحاً^٢ وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً، فسألت عنهما، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير، وأن الذي على يساره قاضي المدينة، ورأيت ينظر في ورقة بيضاء بين يديه فأكبَّ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال: ليؤت بالمجرمين، ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء

^١ وضعت هذه القصة على نسق قصة أمريكية اسمها: صراخ القبور.

^٢ المسوح: جمع مسح بالكسر: وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان.

فتكشف عن مثل خلق الليث منظرًا وزئيرًا، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخًا هرمًا تكاد تسلمه قوائمه ضعفًا ووهنًا، فسأل الأمير: ما جريمته؟ فقال الكاهن: إنه لص دخل الدير، فسرق منه غرارة^٢ من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء والمساكين. فضج الناس ضجيجًا عاليًا وصاحوا: ويل للمجرم الأثيم، أيسرق مال الله في بيت الله؟ ثم نودي بالشهود. فشهد عليه رهبان الدين، فتسار الأمير مع الكاهن هنيهة ثم صاح: يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع يميناه ثم يسراه ثم بقية أطرافه، ثم يقطع رأسه، ويقطع طعامًا للطير الغادي والوحش الساغب، فجثا الشيخ بين يدي الأمير ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه. فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه، ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفًا وفرقًا حتى وقفوا به بين يدي الأمير. فسأل: ما جريمته؟ فقال: إنه قاتل، ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب، فطالبه بأداء ما عليه من المال فأبى وتوقح في إباءه، فانتهره القائد فاحتدم غيظًا وجرد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته. فصاح الناس: يا للفضاعة والهول، إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه؛ ثم جيء بأعوان القائد المقتول فأدوا شهادتهم، فأطرق الأمير لحظة ثم رفع رأسه وقال: يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعواد شجرة، ثم تفصد عروقه كلها، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم، فصرخ الغلام صرخة، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن؛ وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسنًا وبهاءً لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجى فوق جبينها، فقال الأمير: ما جريمته؟ فقال القاضي: إنها امرأة زانية، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم، فهاج الناس واحتدموا وهتفوا: القتل القتل! الرجم الرجم!! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى. فقال الأمير: أين شاهدها؟ فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها. فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة، ثم قال الأمير: تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم، فهلل الناس وكبروا إعجابًا بعدل الأمير وحزمه، وإكبارًا لسطوته وقوته، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء، ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين، وخرجت على أثرهم

^٢ الغرارة: الجوالق.

حزيناً مكتئباً أفكر في هذه المحاكمة الغريبة التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم! وأعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة وغلوهم في تقديسها وإعظامها وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلماً، رحمةً أو قسوةً، وأردد في نفسي هذه الكلمات:

ليت شعري: ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي ينظر بها إلى جريمته، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم، أمام قضاة مثل قضاتهم؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية، والقاتل إنما قتل دفاعاً عن عرضه أو ماله، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة أهل بيته؟
ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم القاتلين عند النظر في جرائمهم؟

ألم يسقط إلى يد الكاهن يوماً من الأيام دينار من غير حِلِّه، فتخف لوعة أسفه على الغرارة المسروقة من ديرهِ ويغتفر هذه لتلك؟
ألم تزلَّ قدم القاضي مرة واحدة فيما مرَّ به من أيام حياته فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات؟

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح العباد وأموالهم كما يشاؤون؟ ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون؟
إنهم ليسوا بأنبياء معصومين، ولا بأملاك مطهرين، ولا يحملون في أيديهم عهداً من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم، فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة؟ ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعاً؟

من هو الأمير؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة أو سلالته المستبد الأعظم فيها الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلماً يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه؟

من هو الكاهن؟ أليس هو أبرع الناس وأمرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة؟

من هو القاضي؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق؟.

ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخيارًا صالحين وأبرارًا طاهرين؟ عجيب جدًا أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرمًا، فإذا قتل الأمير القاتل سميَّ عادلاً، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصًا، فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به سميَّ حازمًا، وأن تسقط المرأة سقطت ربما ساققتها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزعة من نزعات الشيطان فيستنكر الناس أمرها، ويستبشعون منظرها، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب أنسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومصيرها.

كما أن النار لا تطفئ النار، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى؛ كذلك لا يعالج الشر بالشر، ولا يمحي الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء.

ولم أزل أحدث نفسي بمثل هذا الحديث حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في جوها أسراب من الطير غادية رائحة، فاخرقتها حتى بلغت أبعد بقاعها؛ فرأيت منظرًا هائلًا لا يزال أثره عالقًا بنفسي حتى الساعة.

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ولا أطراف، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حوالیه كأنها نوادب يندبهن حاسرات. ورأيت الفتى مشدودًا إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها، وقد سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبحًا ماثلاً، أو خيالًا ساريًا. ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس، ولا قدم، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلًا قليلًا حتى غاب عن نظري كل شيء، فسقطت في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي، فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو مني رويدًا رويدًا، فارتعت لمنظره، وفزعت إلى ساق الشجرة فاخبتأت وراءه؛ فما زال يتقدم حتى صار بجانبني فأشعل مصباحًا صغيرًا كان في يده فتبينته على نوره فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين وسحتنهم، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه، ثم مشت إلى

رأسه وأطرافه فجمعتها وضممتها إلى جثته، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة دفنته فيها وقامت على قبره تودعه وتقول: «في سبيل الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك، وجسد ضمه قبرك، فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً وأطهرهم لساناً ويداً وأشرفهم قلباً ونفساً؛ فاذهب إلى ربك لتلقى جزاءك عنده واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك، واسأله أن يلحقني بك وشيكا؛ فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقاءك» فأبكاني بكاءً وأحزنني منظرها، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء، وأحببت أن أقف على قصتها وقصته فبرزت من مخبئي ومشيت إليها فارتاعت لمرآي عند النظرة الأولى، ثم سكنت كأنما ذكرت أن لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها، فابتدرتها بقولي: لا تراعي يا سيدتي فإنني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه، ولا من شأن أهله شيئاً، وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكاك وتمنيت لو أفضيت إليّ بذات نفسك علني أستطيع أن أكون لك عوناً على همك. فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثني وتقول:

إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصاً ولا سارقاً، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتّر ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده، وكان واحده، فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعدما كان يستقل بحمله من الهم، وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره، وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة، فاجتمع عليه هم الكبر وهم الثكل فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة،^٤ وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من أَلَمَّ به في حياته طرف منها حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام، وليس في يدنا ما نقوم به أصلا صغارنا، ولا ما نعللهم به تعليلاً، فأسقط في يدنا وعلمنا أننا هالكون جميعاً إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده فلم أر بداً من أن ألجأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل

^٤ الفينة: الساعة والحين.

مضطر عديم، فبرزت إلى الناس أتعرض لمعرفهم وأستندي ماء أكفهم فلم أجد بينهم من يحسن إليّ بجرعة أو مضغة، ولا من يدلني على سبيل ذلك، وكان أكبر ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أني لا ألبس مرقعة الشحاذين، ولا أحمل ركوتهم^٥ فعدت إلى منزلي وبين جنبي من الهم ما الله به عليم، فرأيت الأطفال سهذاً يتضاغون^٦ جوعاً، ورأيت الشيخ جالساً بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع، ولا كيف يحتال، ولو أن شخص الموت برز إليّ في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ويدورون حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم؟ وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل والكمد الشامل؟ فتقدمت نحو الشيخ، وقلت له: إن في دير المدينة كما يزعمون مآلاً للصدقات يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبت إليه وكشفت له خلتيك وسألته أن يمنحك علالة تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفئ لوعة هؤلاء الأطفال المساكين، فاستنار وجهه بنور الأمل وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه، فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت الأيام في جفنيه القريحين من دموع، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلاً، وقال له: إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه، فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك، فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها، فخرج من حضرته كئيهاً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل^٧ أو أفحوص^٨ القطاة حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة^٩ دقيق فحدثته نفسه بها، وما كانت تحدثه لولا العوز والفاقة، ثم أدركه الحياء فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة أخرى فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول: إن الطعام طعام الفقراء

^٥ الركوة: وعاء الماء على صورة الزورق يحمله الشحاذون.

^٦ يتضاغون من الجوع: يتضورون منه.

^٧ الحابل: الصائد لأنه يرمي الحبال للصيد، وكفته: حبالته.

^٨ أفحوص القطاة: مجثمها. لأنها فحصت عنه التراب لتبيض فيه.

^٩ الغرارة: الجوالق.

والمساكين، وأنا فقير مسكين، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج، ولا أفقر مني، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش، ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره، ومشى بها جاهداً مترجحاً، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره، ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار وهم ألقاء^{١٠} تحت جدران البيت يتضورون جوعاً، فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة، وعلى الجدار مرة أخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط، ولا تعلو، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله، وإذا نفثة من دم قد دفقت من صدره فانحدرت على رداءه فسقط في مكانه مغشياً عليه، ولم يزل على حاله تلك حتى مر به العسس^{١١} فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم: الغرارة! الغرارة! وينشدونها في أنحاء الدير حتى يؤسوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغرارة في الدير وكان الشيخ في السجن، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره، فوأسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً، ووارحمتاه لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده!

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف رداءها ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت: «الوداع يا رفيق صباي، وعماد شيخوختي! الوداع يا خير الأزواج وأبر العشراء! الوداع حتى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه» ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها.

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في أعماق الظلام حتى رأيت شبحاً آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاساً فاخترت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعته ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى فرأيت الشبح على نوره فإذا فتاة جميلة باكية لم أرَ في حياتي دمعة على خد أجمل من دمعتها على خدها، فدارت بعينيها لحظة حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة فمشت

^{١٠} الألقاء: جمع لقي. كفتي، واللقى: الشيء الملقى المطروح.

^{١١} العسس: الطائفون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريبة.

إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالجت عقدته حتى انحلت ثم احتملته على يدها وأضجعتة على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ثم هتفت صارخة: واشقيقاه! وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيرًا متداركًا كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثًا، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلًا ثم هوت بجانبه هوي الجذع الساقط لا حراك بها، فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه فمشيت إليها حتى صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها؛ فعلمت أنها حية فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة فرأتني بجانبها فنظرت إليَّ نظرة حائرة، ثم تقدمت نحوي وقالت: على من تبكي أيها الرجل الغريب؟ قلت: أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين، قالت: نعم إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدي كثيرًا فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس وامتعة الأفتدة والقلوب، ولقد ظلموه إذ قتلوه فما كان قاتلاً ولا مجرمًا، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة إليه وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه، فما أجرم من زاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله. قلت: هل لك أن تقصي عليَّ قصته يا سيدتي؟ قالت: نعم.

نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتًا بيتًا حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر إليَّ نظرة مريبة طار لها قلبي رعبًا وفَرَقًا ثم سألني عن أخي فأرشدته إلى مكانه فسأله عن المال فاستنساأه^{١٢} إياه أيامًا قلائل حتى يبيع غلته فأبى إلا أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء. وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات، ففزعت إلى أخي ولصقت به فوقف بيني وبين الرجل، وقال له: لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعًا، فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك، فقال له: لا بد من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد، فإن أبيت فحياتك فداء عنها، فغضب أخي غضبة انتفض لها جبينه عرق ولم أره في ساعة من ساعات

^{١٢} استنساأ غريمه الدَّين: طلب منه أن ينسئه إياه أي: يؤجله له.

غضبه قبل اليوم وقال له: «فلتكن حياتي فداء لشرفي» ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دمًا حتى غله^{١٢} الأعوان واحتملوه إلى السجن، فترك حياته يا سيدي وذاك مماته، فلئن بكيته أنا أبكي فتى الفتان همة ونجدة، ونادرة الرجال عزة وإباء، وأفضل الإخوة رحمة وحنانًا.

ثم قالت: هل لك أن تعينني يا سيدي على مواراته قبل أن يحول النهار ببني وبينه فقد أصبحت واهية متضعضة لا أقوى على شيء؛ فقممت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى فارقت مكانها. فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ثم مدت يدها إليّ وقالت: شكرًا لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلّمًا يجد فيه مستعين معيّنًا. ومضت لسبيلها.

فأتبعتها نظري حتى اختفت آخر طية من طيات رداثها، فعدت إلى نفسي، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها، فهاجني منظرها وقلت في نفسي: إنني لا أدخر لنفسي عملًا أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب، فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم ألقيت عليها رداثي واحتملتها على يديّ حتى أضجعتها في حفرتها، فإني لأجثو عليها التراب إذ شعرت بحركة ورائي، فالتفتُ فإذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه، فابتدرني بقوله: من صاحب هذا القبر الذي تجثو ترابه يا سيدي؟ قلت: فتاة مرجومة رأيت جثتها الساعة منبودة في هذا العراء فرحمت مصرعها واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه، فقال: إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأنًا، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب ببني وبينها؟ قلت: نعم شأنك وما تريد، وتنحيت قليلًا فدنا من القبر وجثا فوق تربته وظل ينجي الدفينة نجاء خلت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح ترجعه في أجوائها، حتى اشتفت نفسه، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى واراها، ثم التفت إليّ وقال: لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها، فجزاك الله خيرًا بما فعلت، وأحسن إليك كما أحسنت إليها. وأراد الرجوع فاستوقفته وقلت له: وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول؟ فانفجرت شفتاه عن ابتسامة مرة ونظر إليّ

^{١٢} غلّه: وضع في عنقه الغل.

نظرة هادئة مطمئنة وقال: نعم يا سيدي، ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها.

أنا الرجل الذي اتهموها به، وأستطيع أن أقول لك كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه ظلامتها: إنها بريئة مما رموها به، وإنها أظهر من الزهرة المطولة، وأنقى من القطرة الصافية.

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة، وأحببني كذلك، ثم شببنا وشب الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني^{١٤} راضياً مسروراً حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء بها إلا أيام معدودات، إذ نزلت بأبيها نازلة الموت، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً، ففعلنا، حتى إذا انقضى العام أو كاد، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها، فرأها القاضي فتبعها نفسه فأرسل وراء عمها، وكان ولي أمرها بعد أبيها، وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحرًا من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لاعم، فعرض عليه رغبته في الزواج مع ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً، ولم يتردد في إجابة طلبه، وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشري فاستقبلته بوجه باسر وقالت له: إنني لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد، فلم يبيل بقولها وقال لها: ستتزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة فلا خيار لك في نفسك إنما الخيار لي في أمرك وحدي، وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسموا يوماً لزفافها، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب، ولا أي طريق تسلك، وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمراه وتركت حقيبتها مكانها وفرت بين يديه تعدو عدواً سريعاً، وكنت عائداً في تلك الساعة إلى منزلي، فرأيتني فألقت نفسها عليّ وقالت: إنهم يتبعونني، وإنهم إن ظفروا بي قتلوني، فارحمني يرحمك الله؛ فأهمني أمرها وذهبت بها إلى منزلي وأخفيتني في بعض حجراته. وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلباً

^{١٤} أخطبه: قبل خطبته.

شديدًا، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقني، وأخذ يضرب أبواب الحجرات بابًا بابًا حتى ظفر بها فصاح: ها هي الفتاة الزانية، وهذا صاحبها، فأقسمت له بكل محرجة من الأيمان أنها بريئة مما يرميها به فلم يصغ إليّ، وأمر الأعوان فاحتملوها، وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربني أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشيًا عليّ، فلم أستفق إلا بعد ساعة، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمي، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل لي ذلك المنظر الذي رأيته فأشعر بالردة تتمشى في أعضائي فأعود إلى ذهولي واستغراقي حتى أدركتني رحمة الله فأبليت منذ الأمس بعض الإبلال واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة، فجنّت كما تراني أودعها الوداع الأخير وأواري جثتها التراب، وما أنا بالسالي عنها، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها.

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات البائسات من حزن وبأس ولوعة وشقاء، ومضى لسبيله.

فما أبعد إلا قليلًا حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه، ثم ما لبث أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون، وإذا الساحة وحشة وانقباض، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة، ثم تلفعت بردائي وألقيت رأسي على بعض الصخور وأنشأت أحدث نفسي وأقول:

ليت شعري! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل، ولا راحم، فإن خلت منهما رقعة الأرض فهل خلت منهما ساحة السماء؟

أجزم الزعيم الديني لأنه ضمن على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته، فاضطر الرجل إلى ارتكاب جريمة السرقة، فعوقب السارق على سرقته، ولم يعاقب القاضي على قسوته، ولولا قسوة القاضي ما كانت سرقة السارق. وأجزم الأمير لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها فاضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل، فعوقب الفتى على جريمته وسلم من العقوبة مَنْ دَفَعَهُ إلى الإِجرام.

وأجزم القاضي لأنه أراد أن يُكره فتاة لا تحبه على الزواج منه، ففرت من وجهه فعاقبوا على فرارها، ولم يعاقبوا القاضي على ظلمه واستبداده.

وهكذا أصبح المجرم بريئًا، والبريء مجرمًا، بل أصبح المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته.

فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم، أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها، وتمطرها غيثها ومزنها.

ثم التفتُ إلى مصرع المقبورين فوق نظري على بركة الدم التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء. فرأيت خيال نجم في السماء يتلأأ فوق صفحتها، فرفعت نظري إلى النجم فإذا هو المريخ^{١٥} يتلهب ويضطرم كأنه جمرة الغيظ في أفئدة الموتورين، فعلق نظري به ساعة، ثم رأيت كأنه يهبط من عليائه رويدًا رويدًا، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل؛ إذا به ينتفض انتفاضًا شديدًا، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه، ويتطاير من أجنحته وأطرافه، فلم يزل هابطًا حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور الشهداء، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ويقول: «ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه، وها هي الأرض قد ملئت شرورًا وفسادًا حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوي إليها ملك من أملاك السماء.

ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة، والضعفاء قد ازدادوا ضعفًا، وها هي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الأغنياء انحدارًا، فلا الأولون بمستمسكين، ولا الآخرون بقانعين. ها هم الفقراء يموتون جوعًا فلا يجدون من يحسن إليهم، والمنكوبون يموتون كمدًا؛ فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم.

ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه؛ فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق، وتقلدوا سيوفًا غيرها، لا هي إلى الشريعة ولا إلى الطبيعة، ومشوا بها يفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون.

ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا، ووضعوا القانون ترسًا أمام أعينهم يصيبون من ورائه، ولا يصابون، وينالون من يشاؤون تحت حمايته، ولا يُنالون. ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا، فحولوا معابدهم إلى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد، ثم يضيئون بالقليل منه على الفقراء والمساكين.

^{١٥} يسمى قدماء اليونان في أساطيرهم المريخ: إله الحرب.

ها هم الناس جميعاً قد أصبحوا أعواناً للأمراء على شهواتهم، والقضاة على ظلمهم، وزعماء الأديان على لصوصيتهم، فلتسقط عليهم جميعاً نقمة الله ملوكاً ومملوكين ورؤساء ومرؤسين.

لتسقط العروش، ولتهدم المعابد، ولتتقوض المحاكم، وليعم الخراب المدن والأمصار، والسهول والأوعار، والنجاد والأغوار، ولتغرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء، والشيوخ والأطفال، والأخيار والأشرار، والمجرمون والأبرياء، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.»

وما انتهى من دعوته تلك، حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح، ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعج ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع، وقصور وأكواخ، وحيوان وإنسان، وناطق وصامت، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها، فصرخت صرخة عظمية فاستيقظت من نومي، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتي: إعلان الحرب!